



فرع الأدب

1.400.000

وَأَثَرَهَا فِي

« رَأَيْتُمْ مَقْدَمَ الْبَيْتِ وَرَجَبَ الْبُرْجَانَةِ فِي الْوَجْهِ الْعُزْبِي »

اعداد الطالب

ثابت محمد صغیر مقبل

ایشراف

الأستاذ الدكتور / حسن محمد باجودة

عام ۱۴۱۵ - ۱۹۹۵

”الحزب، الدولة“

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يَهْدِي

لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»

جزء الآية « ٩ » من
سورة الإسراء

كلمة

شكر وتقدير

والحمد لله ... والشكر لله على ما أفاضل وألهم ... فهو ولي الحمد ...
نعم أقدركم بالشكر الجزيل ماودة لكم تافداً لكم
« الحمد بأجملة »

الذي هو استطيع وفاءه حصاً كما أوتيت من بلاغته وبيان
والله على بزره عن الإطراء والتمتع لأطلقت لعلمي العنان .
ولكني - كما خبرت ما وعاشتني - ممن يتبغى بعلمي
وحسب الله ، فأهل الله تعالى أن أعزب عني
خير الجزاء ، وأن أيضاً عفت مثبته لقاء ما عاني في نفسي
وإبرأوى والصبر على .

كما أوقعتني بالشكر لكل من أسرى إلي تيراً أعانتي في محي .
والحمد لله آخراً ...

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ،
 واصطفى هذه الأمة بنور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل
 السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير ، ورحمة الله
 للعالمين محمد بن عبدالله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه ، ومن
 اتبع هداهم واقتفى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

فقد أنعم الله عليّ وأكرم بنور كتابه تلاوةً وتدبراً وتعاهداً طيلة إعداد
 موضوع بحثي هذا الذي يستشرف نظرة القرآن الكريم إلى الدنيا وأثرها في
 الشعر العربي إلى نهاية عصر الراشدين .

وحقيقة يعرفها كل من عايش القرآن الكريم أو قدر له أن يبحث في أي
 موضوع يتصل به ، ألا وهي تلك الرهبة والخشية والضالة التي تعتريه ، كيف
 لا وهو يدرس القرآن الكريم خائفاً وجللاً حذراً كيلا يزلّ قلمه أو يضلّ فهمه .

وأيضاً تلك الصعوبة التي تتميز بها - عادة - البحوث المتصلة بالقرآن
 الكريم ، من حيث العقيدة أو المنهج أو الشمول ، وأتى لبحث أو باحث أن
 يدعي شمول بحثه واستغراقه لما محض له في أي جزئية أو بعضها من
 القرآن الكريم ؟ !

ومن هنا أبدأ الحديث عن الصعوبات والعراقيل التي صادفتني أثناء
 إعدادي لهذا البحث ، وأوجزها في التالي :

أولاً : عوداً على بدء ، فقد واجهتني مشكلة عظيمة استغرقت جهدي ،

ب

واستنزفت طاقتي ، إذ كنت بعد البحث والتنقيب والدراسة يتركبني الشعور
بأنني لم أفعل شيئاً أو آتي بجديد ، فأحسست فعلاً أنني سباحٌ غير ماهرٍ
قذف به في بحر متلاطم الأمواج متدافع الأتجاج ، فأخذ يضرب بيديه ورجليه
يطلب النجاة ، ويرقب الساحل ولا ساحل .

أو كأنني مسافر ابتلعتة المفاوز والقفار فأشرف على صحراء ضاعت
معالمها ولا خبرة له بالنجوم ومواقعها ، فأصابه اليأس وانقطع الرجاء . ولأنني
أوقن أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، فقد استمددت من الله
العون ، وابتلعتُ إليه تعالى أن يوفقني ويهديني ، ويفتح مغاليق فكري ومن يهد
الله فما له من مضل . فكان أن مضيت في هذا البحث معتمداً على الله ،
زادي إيماني ، وثقتي بربي ، ودافعي خدمتي لكتابه والعيش في رحابه .

ثانياً : كانت الخطة قبل التعديل تقتضي دراسة الشعر والنثر إلى
نهاية عصر بني أمية فاتجهتُ إلى دراسة أدب هذا العصر ، وجمعتُ كمّاً
كبيراً من المعلومات ممّا له صلة بالنظرة إلى الحياة الدنيا ، ووجدتني أنهمك في
تفحيصه وتمحيصه ، فأدركتُ أنه لا طاقة لي بدراسة هذا العصر وحده ، فما
بالك بالعصور التي تسبقه ! . فتقدمت بالتماس أطلب فيه تعديل الخطة لتقف
عند عصر الراشدين ، وهكذا مضيتُ في بحث أدب هذا العصر أيضاً ، فهالني
زخم المعلومات وكثرتها ، وأنه لا قدرة لي على دراسة النثر والشعر معاً في هذا
العصر ، فهرعت ملتمساً أن يكون البحث في مجال الشعر فقط . وقبِلَ
التماسي في الحاليتين والحمد لله والشكر له ثم لسعادة الأستاذ المشرف الذي
ساندني في ذلك وقدر صعوبة البحث وتشعبه . وما كل ذلك مني - يعلم الله -
إلا حرصاً أن يكون البحث شاملاً مستوعباً مفيداً مكتملاً قدر الإمكان . وأيضاً
وقوفاً مني عند قدرتي ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

من خلال هذا الركاب المتراكب من المشاق والمصاعب مشيت في طريق البحث بعد أن حدثتني نفسي أحياناً كثيرة بالتوقف عن المضي فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى تداركني بلطفه ، فاستجمعت كل ما تبقى لدي من صبر وجلد على البحث والمطالعة ، ولملت شعث أفكاري ، وجاهدت نفسي وشيطاني ، واستعنت بالله وواصلت البحث .

وكانت طريقتي في إعداد البحث وتجهيزه وكتابته كالتالي :

١ - قرأت القرآن الكريم محاولاً استخراج الآيات التي تتعلق بنظرته إلى الدنيا ، فكنت أستوعب ما بين دفتيه ، ثم اكتفيت بالآيات التي وردت فيها كلمتا « الدنيا » و « الحياة الدنيا » أو ما أحوجني البحث إلى الاستشهاد به من الآيات الكريمة .

٢ - تصفحت كتب التفسير المشهورة ، وخاصة تفسير القرطبي لتمييزه بالشمول والاستيعاب - أو هكذا أظن - فقرأته كلمة كلمة وسطراً سطراً وصفحة صفحة ، ولم أغفل غيره من التفاسير فقد كنت أعود إليها بين الفينة والفينة . وطالعت معظمها في مبحث « القبر وعذابه » لأثبت أن عذاب القبر من الحياة الدنيا .

٣ - راجعت كتب علوم القرآن فلم أجد فيها كثير فائدة مما له علاقة بالبحث ، اللهم إلا ما تطرق منها إلى مفردات القرآن الكريم ، وقد اعتمدت في هذا على كتاب « المفردات » للراغب الأصفهاني ، و « قاموس القرآن » للدامغاني .

٤ - طالعت كتب الحديث الشريف ، ولعدم درايتي وخبرتي في التمييز بين الصحيح والضعيف والموضوع منها ، ولأن كذباً على النبي صلى

الله عليه وسلم ليس ككذب على أحد فقد استعنت بأصح كتابين بعد كتاب الله تعالى ؛ صحيح البخاري ومسلم وشروجهما ، وما تطمئن إلى صحته النفس من غيرهما ، وأشارت إلى الأحاديث التي حكم عليها أهل الحديث بالضعف .

٥ - نَقَّبْتُ في المعاجم والموسوعات عن معنى مفردة أو تعريف كلمة أو شرحٍ لمعنى غامض ، وقد كان لـ « الدنيا » و « الخلافة » و « الجاهلية » و « الخضرمة » نصيب الأسد منها .

٦ - بحثتُ فيما وقع تحت يدي من دواوين « الشعراء الجاهليين » و « شعراء صدر الاسلام » متوخياً إبراز النظرة إلى الدنيا واستنباطها من هذا الشعر ، لتتضح الصورة وتتميز النظرة الإسلامية التابعة من هدى القرآن الكريم ونوره ، عن النظرة الجاهلية المتخبطة في ظلام الشرك والوثنية على غير هدى من الله ولا نور ولا كتاب مبين .

٧ - تمعنتُ في كتب الأدب والشعر ، ملتقطاً فائدةً من هنا ، وإشارة من هناك علّها تساعدني في البحث أو تعضدني في الرأي .

٨ - استقدتُ من كتب السيرة والتاريخ عند حديثي عن الفتنة بالذات ، وحاولتُ تمييز سقيم الأخبار من صحيحها قدر الإمكان ، لأصل إلى فهم محددٍ لأسباب الفتنة ودواعيها ونتائجها .

٩ - اجتهدتُ في الاطلاع على كل ما له صلة بالبحث ، في كتابات القدماء والمحدثين والدوريات والصحف السيارة وغيرها .

وبعد هذا كله تجمعت لدي كمية مهولة من المعلومات ، أنفقتُ في ترتيبها وتصنيفها وتبويبها وقتاً كبيراً وجهداً مضاعفاً .

وقد قسمت البحث - حسب الخطة - إلى بابين وستة فصول ، وتمهيد وإطالة نقدية وخاتمة .

وبما أن البحث يدور حول الشعر فقد تطرقت في التمهيد إلى الحديث عنه من زاوية العقيدة مستنداً إلى نصوص الكتاب العزيز والحديث الشريف ، مستشهداً بأقوال الصحابة والسلف الصالح من فقهاء ومحدثين ؛ على غير ما جرت عليه عادة الباحثين من الرجوع إلى كتب الأدب التي لا يُعتدُّ بها في استنباط وتأصيل أحكام الشريعة والعقيدة .

وجاء الباب الأول : نظرة القرآن الكريم إلى الدنيا ، في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المعنى والمفهوم .

وفيه بحثت عن معنى كلمة « الدنيا » فوجدتُ أن أصح معانيها هو الدنو بمعنى : القرب ، أما دلالاتها وما تطلقُ عليه ، فهي من أغنى المفردات - إن لم تكن أغناها - في الدلالة على معانٍ كثيرة متنوعة ، فمن معانيها مثلاً : قريبة ، الأرض ، المال ، مقابل الآخرة ، الزمان بأقسامه : الدهر ، والأبد ، والأمد ، والأجل ، ونحوه .

ثم تطرقت إلى الحديث عن مفهومها لدى الجاهليين توطئةً للحديث عن مفهومها في القرآن الكريم ، والضدُّ يبرز حسنة الضد .

وفي هذا المبحث تحدّثت عن مفهوم الدنيا في القرآن الكريم من خلال :

أ - مفهوم الحياة الدنيا الخاص .

ب - مفهوم الحياة الدنيا من خلال السياق ، وهنا توقفت ملياً عند مبحث « القبر وعذابه » وهل هو داخل في نطاق « الحياة الدنيا » وبعد جولة

متأنية في كتب التفسير والحديث ، أوردت أقوال العلماء والمفسرين ، وناقشتها ، وتوصلت إلى القناعة الأكيدة أن القبر وعذابه من الحياة الدنيا ثم واصلت الحديث عن :

ج - مفهوم الدنيا الخاص .

د - مفهوم الدنيا من خلال السياق ،

هـ - مفهوم الدنيا والحياة الدنيا من خلال السياق المشترك .

وبذلك أستطيع أن أزعم - ولا أجزم - أنني قد كوَّنت صورة واضحة .
- ولا أقول مكتملة ، استغفر الله ! - عن نظرة القرآن الكريم إلى الدنيا ، في ذهني القاصر بالقدر الذي ظننت أنه يسمح لي ويعينني على الاستمرار في البحث .

وحتى تكتمل جوانب الصورة ويتضح المفهوم فقد تحدثت عن مفاهيم عامة للدنيا مثل :

المرحلة الحياتية الصغرى ، والمرحلة الحياتية الكبرى ، والعالم الأصغر ، والسلطان والجاه ، والثراء ، والبذخ ، والعالم المحسوس المشاهد ، والمعاش وطريق مسافر ورحلة انتقال ... الخ .

ثم تحدثت عن مفاهيم خاصة للدنيا ، عند العلماء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والعوام .

الفصل الثاني : المقومات .

وقسمتها إلى قسمين : مقومات كبرى ، ومقومات صغرى (أو مرحلية) . أما المقومات الكبرى : فهي التي تحتوي الحياة والأحياء ، ولا

تستقيم الحياة بدونها ، مثل : الكون ، الأرض ، الإنسان ، الشيطان ،
الملائكة ، الاختلاف .

وقسمت المقومات الصغرى (المرحلية) إلى قسمين : مقومات حياتية
ومقومات دينية .

ورُتبت مقومات كل منهما بحسب أهميته ، فذكرت أن المقومات
الحياتية هي : الحياة ، وطول الأمل ، والموت ، والآخرة ، والتكاثر والتناسل
والرزق ، وتقلب الأحوال وتصرفها .

والمقومات الدينية هي : العهد والميثاق ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب ،
والعقل ، والعلم ، والإيمان ، والعمل ، والتفكر ، والتقوى .

الفصل الثالث : الغاية والهدف .

وبعد طول بحث ودراسة لآيات الذكر الحكيم تبين لي أن القرآن الكريم
يركز في جانب الهدف والغاية على قضيتين رئيسيتين هما : الخلافة والابتلاء
وتحتهما تنضوي جميع فروع الغايات والأهداف .

ولأن قضية الخلافة في الأرض بمفهومها (الشائع) في كتابات
المحدثين تمسّ جانب العقيدة ، فقد أفضت في الحديث عن معناها اللغوي ،
وناقشت مفهومها لديهم ، لأصل إلى حقيقتها ومفهومها وهدفها وغايتها من
خلال القرآن الكريم ، مفصلاً معانيها وأقسامها وأنواعها .

ثم تحدثت عن الابتلاء ومعانيه اللغوية ، لأتوصل إلى حقيقة حديث
القرآن الكريم عن الابتلاء من حيث : أصنافه ، ومجاليه ، ومواطنه ، والحكمة
منه وعدة المؤمن في مواجهة البلاء والابتلاء .

ومن خلال نظرة القرآن الكريم إلى الدنيا ومفهومها فيه استنبطتُ معالم منهاج المؤمن في الدنيا وقدرها عنده . وختمت هذا الفصل بالحديث عن حال الكافرين في الدنيا ، لتستبين سبيل المجرمين ، وتظهر نعمة الإيمان بالسعادة في الدارين .

وأيضاً توطئة وتمهيداً للحديث عن نظرة الجاهليين للدنيا .

الباب الثاني : أثر النظرة القرآنية في الشعر .

وفيه أيضاً ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المخضرمون .

ولا يستقيم الحديث عنهم بالذات ولا عن النظرة الإسلامية عموماً إلى الدنيا من خلال القرآن الكريم دون التطرق إلى الجاهلية التي عايشوها . لهذا درست معنى الجاهلية ، وهل هو من الجهل نقيض العلم أم نقيض العلم ، وتطرقت إلى مصطلح الجاهلية ، وعقدت مناقشة توصلت بها إلى المفهوم الصحيح لها .

ولأن الحالة الدينية للعرب قبل الإسلام تعبر عن نظرة معينة للدنيا ، فقد درستهما من خلال كتب الأدب ، والتاريخ ، ثم من خلال القرآن الكريم لأكون صورة عن نظرة الجاهليين إلى الدنيا ومفهومهم لهذه الكلمة ، ومن ثم أتبين الملامح الرئيسة لنظرتهم لها .

وبعد دراسة معنى الخضرمية في اللغة ، ناقشت هذا المصطلح عند أهل اللغة ، والأدباء ، والمحدثين . ثم قسمت المخضرمين ، من حيث الدخول في الإسلام أو البقاء على الشرك والوثنية ، ومن حيث التأثير به في الشعر من عدمه .

ي

ونظراً لكثرة الشعراء المخضرمين ولأنهم عامة شعراء العهد النبوي ، فقد اكتفيت بالحديث عن تأثر شعرهم بالدين الجديد ، وهو ما يعبر بصورة أو بآخرى عن نظرة جديدة للعالم ، توارت فيها معالم النظرة الجاهلية للعالم .

الفصل الثاني : عصر النبوة .

إن النبي صلى الله عليه وسلم هو الأسوة والقُدوة في فهم كتاب الله تعالى ، وقد أوتي القرآن ومثله معه ، صلى الله عليه وسلم ، لذلك كان لازماً عليّ أن أتطرق إلى هديه عليه الصلاة والسلام في الدنيا من خلال :

أقواله وأفعاله وتقريره ودعائه ، وحاله ، وحال أهله صلى الله عليه وسلم وتتبع معالم الهدى القرآني والنبوي في النظرة إلى الدنيا ، في حياة ذلك الجيل الفريد ، ذلك الجيل الذي تعلّم وعاش في رحاب الوحي والنبوة .

ثم فصلت الحديث عن الشعر في عهد النبوة من خلال محورين رئيسين :

الأول : عوامل التأثير والتأثير ، وذكرت من هذه العوامل : الفكرة السابقة ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والخروج من الظلمات إلى النور ، والحياة الجديدة .

الثاني : مظان التأثير ، وذكرت منها : الهجرة ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وشعر المناقضات ، وشعر الدعوة ، وشعر الوفود ، والشعر الذي قيل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد توخيت إبراز السمات الأساسية في النظرة إلى الدنيا من خلال الشعر ، مستشهداً - قدر الإمكان - بالآيات الكريمة ، وقد لاحظت أنه لو اطلقتُ لقلمي العنان في اتباع مواطن تأثر الشعر بالقرآن الكريم في نظريته إلى الدنيا لأنقلت البحث بما لا مزيد عليه ، ذلك أن معاني الآيات تتوزع في

تأيا أفاظ الشعر ومفرداته ومعانيه ، بقدر اتساع مفهوم الدنيا في الذكر الحكيم .

الفصل الثالث : عصر الخلفاء الراشدين .

وفيه تلمستُ النظرة إلى الدنيا من تأيا سيرة وشعر وهدي الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن ثم سائر الناس ، لأدلف إلى نظرة الشعر إلى الدنيا في هذا العصر من خلال :

أثر الإسلام في حياة العرب وفي نظرتهم إلى الدنيا في الشعر ، وتأثره بالقرآن الكريم ومجالي هذا التأثير .

وتوقفت طويلاً أمام الأحداث الكبرى في صدر الإسلام وهي : الردة والفتوح ، والفتنة ، أستم من تضاعيفها ، ومن حنايا الشعر الغزير الذي خلفته معالم صورة واضحة للنظرة إلى الدنيا من خلال الموقف أو الحدث أو ما يستتبطه ذلك الرأي أو الحدث من أهداف وروى وغايات ، ويتضح هذا أكثر ما يتضح في شعر الفتوح والفتنة ، فناقشت الفرية التي تقول : إن الفتوح كانت من أجل الدنيا ليس إلا ، وأثبت بالأدلة اليقينية القاطعة من الكتاب والسنة وسير الأحداث والشعر أيضاً أن الفتوح لم تكن غايتها الدنيا ، وإنما كانت لنقل الشعوب إلى الإسلام وإنقاذهم من ظلمات الشرك والوثنية .

أما الفتنة فقد تحدثت عن مقدماتها وأسبابها وأهلها ورعوسها وحجج وذرائع المثيرين لها ، لأصل إلى أن الدنيا لم تكن غائبة أبداً عن الفتنة ، فهماً ونظرةً وغايةً .

وكان مبحث النقد عبارة عن إطلالة عاجلة وملاحظ نقدية سريعة ، وقراءة لقصيدتين تعبران عن النظرة إلى الدنيا ، من شاعر مخضرم وآخر

نشأ في الإسلام ولم يدرك الجاهلية ، وفيهما تتبعت مواطن التأثير بالقرآن الكريم حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، لأدلّ بهما على غيرهما ممّا تركت الاستشهاد له ، هروباً من إقبال البحث بكثرة الاستشهادات . ثم أنهيت البحث بالنتائج والتوصيات والخاتمة .

وإني لأرجو أن أكون بهذا الاختصار المخلّ قد وفّقت في ذكر بعض النقاط الرئيسة التي احتوى عليها هذا البحث . ويعلم الله ، كم كتبتُ وكم شطبتُ وكم أثبتُ وكم محوتُ ، وكم سهرتُ وتعبتُ وفكرتُ من أجل الدفاع عن فكرة ، أو دحض أخرى .

وأملّي في الله كبير أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي إن أصبتُ ، وأن يعفو عني إن أخطأتُ وزلتُ ، واحتسبُ عند الله تعبتي ومعاناتي وجهدي وعمرّي الذي أنفقته في هذا البحث إنّه الكريم المنّان .

ولا يفوتني هنا أن أقدم الشكر لمن مدّ لي يد العون والمساعدة والمساندة بقولٍ أو فعلٍ أو تشجيعٍ فإنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله .

فأبدأ بتقديم الشكر لهذه الجامعة المباركة والقائمين عليها لما لقيته من عناية ورعاية واحتضانٍ منذ أولى سنواتي الجامعية إلى الآن ، ومهما بالغت وأبلغت في الثناء فلن أوفيها والمسئولين فيها بعض الحق ، وما عند الله خير وأبقى .

وأثنّي بالدعوات الخالصة النابعة من القلب لذلك الرجل الشهم الكريم الذي منحني من عطفه وحنانه ووقته الشيء الكثير ، وكان لي أباً قبل أن يكون مشرفاً وموجهاً ، ولم يبخل عليّ بالنصح والإرشاد ، بالرغم من مشاغله الكثيرة التي ينوء بها العصابة من الرجال أولي القوة والعزم ، فجزى الله عني

سعادة الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة ، خير ما يجزي معلماً عن
متعلّم .

كما أشكر أساتذتي المناقشين الذين تعطفوا وتكرّموا بقبول
مناقشتي ، وإفادتي بملحوظاتهم ومرئياتهم ، راجياً من الله أن ينفعني بهم
ويعلمهم ويجزيهم عني خيراً .

والحمد لله أولاً وآخراً ، على ما منح ، وعلى ما منع ، له الحمد في
الأولى والآخرة .

والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين .

الْمَهْيَدُ

و المَدْخَلُ

« السُّعْرُ فِي مِيزَانِ الْعِلْمِ »

الشعر في ميزان الإسلام

عندما يتطرق الأدباء والباحثون إلى هذا الجانب الشرعي من الأدب نجدهم - غالباً - يلجأون إلى كتب الأدب مثل : عيون الأخبار ، والبيان والتبيين ، والكامل في الأدب ، وطبقات فحول الشعراء ، والأغاني وغيرها ، ليستخلصوا الحكم الشرعي الديني في الشعر .

ثم إن كثيراً منهم - إلا من رحم الله - لا يفقه في أصول استنباط الأحكام الفقهية من المصادر الشرعية شيئاً .

وغاية ما يستدلون به آخر آية من سورة الشعراء ، أو استنشاد النبي ﷺ لشيء من الشعر ، أو رواية شعر عن الصحابة والتابعين . . . أو ماشابه .

وحقيقة فإن الدارس المبتديء لأصول استنباط الأحكام الفقهية - والحديث هنا إلى الفقه أقرب منه إلى الأدب - يعلم أن هذه الأصول مردّها إلى : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وعمل الصحابة رضوان الله عليهم ، والإجماع ، والاستحسان ، والقياس ؛ أما كتب الأدب فلا تغني عن ذلك فتيلاً .

وهنا تقفز أسئلة إلى الذهن ؛ هل كتب الأدب مرجع ديني يحتج بها في الأحكام الفقهية الدينية ؟ ! ولماذا العزوف عن المصادر الأصلية لاستنباط هذه الأحكام في الدراسات الأدبية ؟ وهل ذلك يعني قلة بضاعة الأدباء في أمور الدين ؟ أم هل يعني زهداً في المصادر الدينية ؟ أم هو فصل غير منظور للدين عن الأدب ؟ .

إنني هنا لا أنصب من نفسي مفتياً عالماً ، ولا فقيهاً بارعاً ؛ ولكنها مجرد تساؤلات ؛ إذ لم أعثر في كتب الأدب - على كثرتها - على ما يشفي الفؤاد ويروي الغليل ، عن حكم الإسلام الجازم القاطع في الشعر .

وحيث إن هذا البحث يدرس الشعر من خلال تأثيره بالقرآن الكريم ، فهذا يعني أن للبحث جانباً دينياً ولا تطيب النفس إلا بالبحث عن حكم الدين في الشعر ، ولا يستقيم البحث أيضاً إلا بهذا .

وقد حاولت - ويكفيني شرف المحاولة - أن أستخرج هذا الحكم من القرآن الكريم، وكتب التفسير، والسنة النبوية، وخاصة صحيحى البخارى ومسلم، وما كان عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين. وحقيقة فإنني أجد نفسي أدخل ميداناً لست من فرسانه، وأطرق باباً لست من أهله، وأخوض غماراً لا أحسن الخوض فيها، لكنّها الحاجة والاضطرار، وسأحاول الاختصار قدر الإمكان، والله المستعان.

أولاً: القرآن الكريم:

وردت كلمة « الشعر » بهذا اللفظ مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وما علّمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ (١).

ووردت بلفظ « شاعر » أربع مرات (٢)، في معرض ذكر قول الكفار إنّما جاء به النبي ﷺ هو الشعر، قال تعالى: ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ (٣). أو في معرض الردّ عليهم، قال تعالى: ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ (٤).

ووردت كلمة « الشعراء » جمع شاعر مرة واحدة في القرآن الكريم في بيان أصناف الشعراء ومذاهبهم والمحمود من قولهم والمذموم، قال تعالى: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعدما ظلموا ﴾ (٥).

(١) الآية ٦٩ من سورة يس .

(٢) في الآيات والسور التالية : ٥ الأنبياء ، ٣٦ الصافات ، ٣٠ الطور ، ٤١ الحاقة .

(٣) الآية ٥ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٤١ من سورة الحاقة .

(٥) الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ من سورة الشعراء .

ثانياً : مكتب التفسير :

تصفحت كتب التفسير؛ فوجدت أن تفسير القرطبي قد جمع ماتفرق فيها في هذا الموضوع بالذات . يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ (١) : (أخبر تعالى عن حال نبيه ﷺ ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر ، وإن القرآن شعر) (٢) ، ثم ذكر أربع مسائل (٣) ملخصها : الأولى : أن النبي ﷺ كان لا يقول الشعر ولا يزنه ، وإن أنشد البيت المستقيم في النادر .

الثانية : إصابته ﷺ الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر ، فقد يأتي مثل ذلك في القرآن الكريم وفي كل كلام وليس ذلك شعراً ولا في معناه ، ولا يسمى شاعراً باتفاق العلماء ، فإن الذي نفاه الله تعالى عن نبيه ﷺ هو العلم بالشعر وأصنافه وأعاريضه وقوافيه ، والاتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق .

الثالثة : في حكم إنشاد الشعر ، وذكر كراهة الإمام مالك رحمه الله الإكثار منه ، وذكر قول ابن العربي في هذه الآية وأنها ليست من عيب الشعر ، كما لم يكن قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ﴾ (٤) من عيب الكتابة .

الرابعة : قوله تعالى في الآية « وما ينبغي له » جعل الله عز وجل ذلك علماً من أعلام نبوته ﷺ لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه ، فيظن أنه قوى على القرآن على ما في طبعه من القوة على الشعر .

(١) الآية ٦٩ من سورة يس .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥١/١٥ للقرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٦٥ م ، د. ط .

(٣) ذاته ٥١/١٥ وما بعدها .

(٤) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

أما قول الله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » الآيات ؛ فذكر فيه ست مسائل ، ملخصها :

الأولى : قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون » دلّ بهذا على أن الشعراء أيضاً غاوون لأنهم لو لم يكونوا غاوين ماكان أتباعهم كذلك .

ثم ذكر أن من الشعر مايجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم .

ثم ذكر الشعر الذي يجوز إنشاده ، واستشهد له باستنشاد النبي ﷺ للشعر وتمثله به ، ومثّل له بما تضمّن ذكر الله وحمده والثناء عليه ، أو ذكر الرسول ﷺ أو مدحه ، أو الذب عنه ، وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم ، أمّا الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحدّ وتجاوزت المعتاد ، واستدلّ بقصيدة « بانت سعاد » التي أنشدها كعب بن زهير النبي ﷺ وعدم إنكاره لتشبيهه الريق بالراح .

ثم ذكر أبياتا رثى فيها أبوبكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ ، وقال : « فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه ، وأبوبكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا ؟ !! » .

ثم ذكر أنه ليس أحد من كبار الصحابة والتابعين وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثّل به ، أو سمعه فرضيه ، ماكان حكمه مباحاً ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى .

الثانية : في الشعر المذموم ، الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم ؛ وهو المتكلم بالباطل ، والمفرط في القول بما لم يفعله المرء ، الطاعن في الأعراض ، المجاهر بالفسق والفجور والمعاصي .

الثالثة : في قوله ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعراً » وقال : « وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غلب عليه الشعر ، وامتلاً صدره منه دون علمٍ سواه ولا شيء من الذكر ، ممن يخوض به

في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تحمد له ، كالمكثر من اللّغط والهذر والغيبة وقبيح القول .

ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية ، لحكم العادة الأدبية .

الرابعة : في الشعر وأنه نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام ، وليس الشعر مكروها لذاته وإنما يكره لمضمّناته ، وقد كان عند العرب عظيم الموقع ، وقال النبي ﷺ في الشعر الذي يرد به « حسان » على المشركين : « إنه لأسرع فيهم من رشق النبل » .

الخامسة : في قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون » فالغاوون هم : سفهاء القوم ، وقال ابن عباس : هم الرواة للشعر ، وروى عنه أنهم هم الكفار يتبعهم ضلّال الجنّ والإنس ، وأن إبليس جمع إليه ذريته بعد فتح مكة يائساً من إرادة أمة محمد ﷺ على الشرك ، وأمرهم بإفشاء الشعر في مكة والمدينة .

السادسة : في قوله تعالى « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » أي في كل لغو يخوضون ، ولا يتبعون سنن الحق .

وقوله تعالى « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » أي يكذبون .

ثم استثنى الله تعالى شعر المؤمنين : حسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ، ومن كان على طريقهم من القول الحق .

ثم ذكر إعجاب النبي ﷺ ببعض من شعرهم .

ثالثاً : الحديث الشريف :

إذا ما أردت الكلام بالتفصيل عن الحديث الشريف واستخلاص الحكم الشرعي في الشعر من خلاله فإن ذلك يتطلب منّي حيزاً كبيراً من البحث لا يتسع له

مجال هذه الرسالة، وسأحاول إيجازه في نقاط محدّدة، وأرجو أن لا يكون الاختصار مخلًا.

١ - قوله ﷺ الشعر ، وتمثله به :

في غزوة « حنين » أو غيرها ارتجز النبي ﷺ قائلاً :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب (١)

وقوله ﷺ : (أحب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما) (٢) .

يمكن تشطيرها كالتالي :

(أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما

وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما) (٣)

وتمثل النبي ﷺ في سعيه بين الصفا والمروة بشعر أبي خراش :

لا هم هذا خامس إن تما أتمه الله وقد أتما (٤)

وبعد انتهاء معركة بدر جعل ﷺ (يمشى هو وأبو بكر الصديق بين القتلى ،

ورسول الله ﷺ يقول : « نفلق هاماً » فيقول الصديق :

(١) انظر سمط النجوم العوالي ٢ / ١٩٩ ، المطبعة السلفية ومكبتها ، د . ط ، د . ت .

(٢) الأمثال في الحديث النبوي ١٥١ ، الدار السلفية ، الهند/بومباي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، وانظر صحيح الأدب المفرد ٥٠١ ، دار الصديق ، الجليل ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، وقول العلامة الألباني : حسن لغيره موقوفا ، وقد صح مرفوعاً .

(٣) الأمثال في الحديث النبوي ١٥١ .

(٤) انظر بقية هذا الشعر والاختلاف في روايته ، في شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٣٤٦ للسكري ، مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدني ، د . ط ، د . ت .

..... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلمات (١)

وتمثل ﷺ بقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود (٢)

(والمشهور في كتب الأدب أنه ﷺ كان يتمثل بقول طرفة :

* ويأتيك من لم تزود بالأخبار *

لأن الشعر لم يجر قط على لسانه ! هكذا زعموا والحديث مما يرد

عليهم (٣).

٢ - استشاده ﷺ للشعر :

كان النبي ﷺ يستنشد الشعر ، فقد استنشد « العلاء الحضرمي » شيئاً من

شعره (٤) واستنشد « الشريد » من شعر « أمية بن أبي الصلت » فأنشده مئة بيت

(فقال : إن كاد ليسلم) (٥).

(١) البداية ٣ / ٢٩٢ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م ، والبيت من مفضلية

الحصين بن الحمام المري ، انظر المفضليات ٦٥ ، الطبعة السادسة ، د. ن. د. ط ، د. ت ،
والرواية فيها : يفلتن .

(٢) انظر الأمثال في الحديث النبوي ٤٦ - ٤٨ ، وصحيح الأدب المفرد ٣٢٢ ، والسلسلة

الصحيحة برقم ٢٠٥٧ .

(٣) هذا من قول الألباني حفظه الله ، انظر صحيح الأدب المفرد ، هامش ص ٢٩٥ .

(٤) التذكرة السعدية ٣١٧ ، مطابع النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٧٢ م / ١٣٩١ هـ ، د. ط ،

وانظر سنن ابن ماجه ٢ / ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، المكتبة العلمية ، بيروت / لبنان ، د. ط ،

د. ت .

(٥) صحيح الأدب المفرد ٢٩٦ .

٣ - إذنه ﷺ بقول الشعر ، وأمره به :

(استأذن حسان الرسول ﷺ في هجاء المشركين) (١) فأذن له وقال :
(أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس) (٢) .

وقال يحث بقية الشعراء أمثال «كعب بن مالك» و«عبدالله بن رواحة» وغيرهم من شعراء المسلمين : (اهجوا بالشعر ، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذي نفس محمد بيده كأنما تنضحوهم بالنبل) (٣) .

ويعلق الجاحظ على هجاء «حسان» المشركين بإذن الرسول الكريم ﷺ وأمره ، فيقول :

(فلا ينبغي أن يقول «حسان» إلا حقاً ، وكيف يقول باطلاً ؛ والنبي ﷺ يأمره وجبريل يسدده ، والصدّيق يعلمه ، والله يوفّقه ؟ !!) (٤) .

٤ - تناشد الشعر بحضرته ﷺ :

(كان أصحابه ﷺ يتناشدون الشعر ويتذكرون أشياء من أمر الجاهلية ، وهو ساكت ، فربما تبسم معهم) (٥) .

٥ - إعجاب النبي ﷺ ببعض الشعر ، ونقده له :

قال ﷺ : (أصدق كلمة قالها الشاعر ؛ كلمة «ليد» :

* ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل *) (٦)

(١) صحيح الأدب المفرد ٣٢٠ .

(٢) السلسلة الصحيحة برقم ٩٣٣ « المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، الطبعة الثانية ،

١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

(٣) ذاته برقم ٨٠٢ .

(٤) خاص الخاص ١٠٣ .

(٥) السلسلة الصحيحة برقم ٤٣٥ .

(٦) ابن ماجه ٢ / ١٢٣٦ برقم ٣٧٥٧ .

وقال معلقاً على شعر « أمية » : (وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم) (١) .
ولما قال « كعب بن مالك » رضى الله عنه يوم « أحد » يردّ على « هبيرة بن
أبي وهب » :

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة مذرّبة فيها القوانس تلمعُ

قال له رسول الله ﷺ : أيا صلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب :
نعم . فقال رسول الله ﷺ : فهو أحسن ، فقال كعب :
* مجالدنا عن ديننا (٢) .

وكان « الأسود بن سريع » شاعراً فقال (يارسول الله إني مدحت ربي عز
وجل بمحامد ، قال : « أما إن ربك يحبّ الحمد » ، ولم يزد على ذلك .) (٣) .

٦ - ذمّه ﷺ لبعض الشعر وتحذيره منه :

أتى رجل النبي ﷺ (فتكلم بكلام بين ، فقال النبي ﷺ : إن من البيان
سحراً ، وإن من الشعر حكمة .) (٤) .

يقول محقق سنن ابن ماجه ، محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله :

(١) ذاته برقم ٣٧٥٧ .

(٢) انظر ديوان كعب بن مالك ٢٢٣ ، مكتبة النهضة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٦ هـ ،
وانظر أيضاً ص ٢٣٠ ، وانظر كذلك نقده ﷺ لما يقال في الزفاف ؛ معجم النساء
الشاعرات ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) صحيح الأدب المفرد ٣٢٠ .

(٤) ذاته ٣٢٤ وقد ورد قوله ﷺ : « إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكمة » بتقارب في
اللفظ « لسحراً » و « في الشعر » و « الحكمة » و « حكماً » انظر مثلاً : السلسلة الصحيحة برقم
٢٨٥١ ، وسنن ابن ماجه ٢ / ١٢٣٥ - ١٢٣٦ برقم ٣٧٥٥ و ٣٧٥٦ ، والأمثال في
الحديث النبوي ٤٠ - ٤١ .

(من تبعية ؛ يريد أن الشعر لا يدخل له في الحسن والقبح ولا يعتبر به حال المعاني في الحسن والقبح ؛ والمدار إنما هو على المعاني لا على كون الكلام نثراً أو نظماً ، فإنهما كيفيتان لأداء المعنى وطريقان إليه .

ولكن المعنى إن كان حسناً وحكمة فذلك الشعر حكمة ، وإذا كان قبيحاً فذلك الشعر كذلك (١) .

وقال ﷺ : (إن أعظم الناس جرماً إنسان شاعر يهجو القبيلة بأسرها ورجل انتفى من أبيه) (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (لأن يمتلى جوف رجل قبحاً حتى يريه خير من أن يمتلى شعراً) (٣) .

٧ - حكمه ﷺ في الشعر :

قال ﷺ : (الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبح الكلام) (٤) .

(١) سنن ابن ماجه ، هامش ١٢٣٥ / ٢ .

(٢) صحيح الأدب المفرد ٣٢٤ وانظر نحوه في سنن ابن ماجه ١٢٣٧ / ٢ برقم ٣٧٦١٤ بزيادة « وزنى أمه » ، وانظر السلسلة الصحيحة برقم ٧٦٣ .

(٣) صحيح الأدب المفرد ٣٢٠ وهو في الصحيحة برقم ٣٣٦ وفي باب « ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » في صحيح البخاري ، انظر شرحه فتح الباري برقم ٦١٥٤ ، ٦١٥٥ ، وانظر سنن ابن ماجه ١٢٣٦ / ٢ - ١٢٣٧ برقم ٣٧٥٩ ، ٣٧٦٠ .

واعترض النبي ﷺ شاعر بالعرج ينشد ، فقال عليه الصلاة والسلام : (احذروا الشيطان أو امسكوا الشيطان ، لأن يمتلى جوف رجل قبحاً خير له من أن يمتلى شعراً) . انظر عمدة القاري ١٨٨ / ٢٢ ، دار إحياء التراث العربي ، (مصورة بالأوفست عن طبعة شعبان ١٣٤٨ هـ) .

(٤) السلسلة الصحيحة برقم ٤٤٨ ، وصحيح الأدب المفرد ٣٢١ ، وانظر قولاً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بنحوه .

وفي جزء من حديث إسناده ضعيف قوله عليه الصلاة والسلام : (والشعر
مزامير الشيطان) (١) وكان عليه الصلاة والسلام إذا افتتح الصلاة يستعيز بالله (من
الشيطان ، من همزه ، ونفخه ، ونفثه) (٢) فسره «عمر بن مرة» وقال : (نفثه :
الشعر) (٣) .

وفي حديث ضعيف (الشعر قرآن الشيطان) (٤) .

رابعاً : الصحابة رضوان الله عليهم :

(عن أبي سلمة عبدالرحمن قال : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ
متحزقين ولا متماوتين ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أمر
جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر الله دارت حماليق عينيه كأنه
مجنون) (٥) .

ومن الصحابة الشعراء الذين رووا الحديث عن النبي ﷺ : حسان بن
ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، وعدى بن حاتم الطائي ، وعباس بن
مرداس السلمى ، وأبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وحميد بن ثور الهلالي ،
وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وأيمن بن خريم الأسدي ، وأعشى بني مازن ، والأسود



(١) الأمثال في الحديث النبوي ٢٩٥ .

(٢) عمدة القاري ١٨٢ / ٢٢ .

(٣) ذاته ١٨٢ / ٢٢ .

(٤) ذاته ١٨٢ / ٢٢ .

(٥) صحيح الأدب المفرد ٢٠٩ ، والسلسلة الصحيحة برقم ٤٣٥ ، ومتحزقين : منقبضين ،

ومتماوتين : أي ظهر منهم التخافت والضعف من العبادة والزهد والصوم ، وحماليق
العين : هو ما يسوده الكحل من باطن أجفانها ، وهو كناية عن فتح العينين والنظر بنظر
شديد .

ابن سريع، والحارث بن هشام، وعمرو بن شاس، وضرار بن الأزور، وخفاف بن ندبة، رضي الله عنهم أجمعين (١).

ومن كبار الصحابة وأتقيائهم وأجلّائهم الذين قالوا الشعر؛ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، فقد لاموه في حبه ابنه «سالمًا» حباً شديداً فقال:

(يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم) (٢)

ويروى عن الصحابي الزاهد «عمران بن حصين» رضي الله عنه أنه كان مسافراً من الكوفة إلى البصرة فقلّ منزل ينزله إلا وهو ينشد شعراً، وقال: «إن في المعاريض لمدوحة عن الكذب» (٣).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول عن بيت طرفة:

* ويأتيك بالأخبار من لم تزود *

(إنها كلمة نبي) (٤).

وأنشد «سحيم عبد بني الحسحاس» «عبدالله بن مسعود» رضي الله عنه،

قوله:

(ودع سليمي إن تجهزت غازيا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا) (٥).

وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه كان يقول (الشعر مزامير

الشیطان) (٦).

(١) انظر الاستيعاب ٥٩٢/٣، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٨ هـ.

(٢) صفة الصفوة ٩٠/٢.

(٣) صحيح الأدب المفرد ٣١٩، وانظر السلسلة الضعيفة برقم ١٠٩٤.

(٤) صحيح الأدب المفرد ٢٩٥.

(٥) ذاته ٤٧٩، والرواية في ديوانه «عميرة ودع».

(٦) عمدة القاري ١٨٢/٢٢ وسبق القول إنه حديث ضعيف، ويروى هذا أيضاً عن عمر

رضي الله عنه انظر الفائق ٨٨/٢.

وتقول « أم المؤمنين عائشة » رضي الله عنها إنها روت من شعر « كعب بن مالك » رضي الله عنه أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً (١).

ويروى عنها رضي الله عنها أنها روت « للبيد » اثني عشر ألف بيت (٢).
وأشهر الصحابة رضوان الله عليهم - ممن لم يشتهر بالشعر - معرفة بالشعر، ودراية به « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه (٣). وقد دعا إلى تعلم الشعر، وحفظ محاسنه وروايتها (٤)، وكان يستنشد الأشعار ويردها ويعجب بها، وينقدها.

خامساً : التابعون بإحسان رضي الله عنهم :

كان فقهاء التابعين يتناشدون الأشعار، بل ويرون أن من يتخرج من ذلك قد انحرف عن الطريق القويم؛ (قل لسعيد بن المسيب : هاهنا قوم نساك يعيرون إنشاد الشعر. قال : نسكوا نسكاً أعجمياً) (٥).

ومن الفقهاء الزهاد الذين نظموا الشعر؛ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة المسعودي (٦)، وعروة بن أذينة، فقيه المدينة، وللآخر قصيدة رقيقة شهيرة يتغزل فيها بزوجه ومطلعها :

(١) انظر صحيح الأدب المفرد ٣٢٢.

(٢) انظر الاستيعاب ٣/٣٢٨.

(٣) انظر مثلاً : جمهرة أشعار العرب ١/١٨٧-١٨٩، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، وانظر ما يأتي من البحث في الحديث عن إعجاب الرسول ﷺ وعمر رضي الله عنه بنوع من الشعر.

(٤) انظر جمهرة أشعار العرب ١/١٥٨، وسيرة عمر ٢/٥٠٢، وانظر القرطبي ١١٠/١١١.

(٥) البيان والتبيين ١/٢٠٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٦) نسبة إلى عبد الله بن سعود رضي الله عنه وانظر شيئاً من شعره في البيان والتبيين ١/٣٥٧. وفيه أنه سئل عن قوله الشعر مع النسك والفقه فقال : إن المصدور لا يملك أن ينفث.

إن التي زعمت فؤادك ملّها خلقت هواك كما خلقت هوى لها (١)
ومنهم من كان يستشهد بالشعر في وعظه لعظيم أثره وشدة وقعته في
النفوس ؛ من ذلك أن عسّس بن سلامة التميمي قال (لأصحابه سأحدثكم بيت
من شعر ، فتعجبوا ، فقال :

إن تنج منها تنج من ذى عزيمة وإلا فإنى لا أخالك ناجيا
أى إن تنج من مسألة القبر . (٢) .

يقول الراوي : (فأخذوا القوم يبكون بكاءً ما رأيتهم بكوا من شيء مابكوا
يومئذ) (٣) .

سادساً : هكتب الفقه :

تطرقت كتب الفقه إلى ذكر حكم الشعر ونظمه من خلال الأدلة الشرعية
والنقلية والعقلية ، فقالت ماملخصه :

(الشعر كالكلام ، حسنه كحسنة ، وقبيحه كقبيحة ، وليس في إباحة الشعر
خلاف . فأما الشاعر فمتى كان يهجو المسلمين أو يمدح بالكذب أو يقذف مسلماً أو
مسلمة فإن شهادته ترد سواء قذف المسلمة بنفسه أو بغيره) (٤) .

(١) انظرها في الحماسة بتحقيق عبدالرحيم عسيلان ١٣/٢ ، مطابع جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٢) الإصابة ٤٠٨/٢ ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ .

(٣) ذاته ٤٨٠/٢ .

(٤) فهارس المغني والشرح الكبير أ - س صفحة ٤٨٦ ، وانظر المغني والشرح الكبير
٤٣/١٢ - ٤٦ للإمام العلامة موفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمود بن
قدامة (ت ٦٣٠هـ) ، دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م (طبعة
بالأوفست) عن الطبعة الأولى .

سابعاً : محاولة للفهم :

لن أنصب من نفسي فقيهاً مفتياً، ولن أطيل الحديث في هذا الموضوع الذي تجمع لدي من مادته ما لو سوّدت به كتاباً لاستغرقه، ولكنها تساؤلات أو ما في حكمها، إنها فقط محاولة للفهم وفتح لموضوع أرجو أن يتناوله من هم خير مني علماً وعملاً واستنباطاً وتدقيقاً ودقة.

يبلغ مني العجب مبلغه حين تقع عيني على تلك العبارات التي اعتاد إيرادها المفسرون والفقهاء والأدباء في سياق ذكرهم لحكم الإسلام في الشعر، ومفادها: أن الشعر المكروه هو الذي يأخذ في كل فن من لغو وكذب فيمدح بباطل ويذم بباطل، ويهيم عن طريق الخير والرشد والحق جائراً مبالغاً (١).

أفلا يصح هذا الحكم وينطبق أيضاً على الكلام غير المنظوم؟ أليس الشعر ضرباً من ضروب القول؟ إذاً ماميزة الشعر عن النثر؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (٢). ؟ ! ألم يقل عليه الصلاة والسلام: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) (٣). ؟ !

إن العذاب الشديد والعاقبة الوخيمة التي توعد بها الإسلام كل جائر في القول تصح على الشعر كما تصح على غيره. فهل جاء في الإسلام ما يميز قول الشعر عن كل قول؟ !

إذاً فهذا الحكم ليس خاصاً بالشعر إطلاقاً. فما حكم الشعر إذاً؟ !

إن تشبيه النبي ﷺ الشعر والبيان بالسحر، ليس مدحاً لهما أبداً (٤)، كما

(١) انظر عمدة القاري ١٨١/٢٢ .

(٢) الآية ١٨ من سورة ق .

(٣) السلسلة الصحيحة برقم ٥٤٠ ، وانظر رقم ٨٨٨ .

(٤) انظر موطأ مالك بشرحه تنوير الحوالك ٢/٢٥٢، دار الفكر، د. ط، د. ت. وقد جاء

هذا الحديث وغيره تحت عنوان: (باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله).

فهذه البعض ، بل إنه تبغيض له ودم ، فالسحر من الكبائر ، بل من الأمور التي يكفر صاحبها ويخلع ربة الإسلام من عنقه .

إن الرسول ﷺ يقول : (إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها) (١) .

فهل قيدت البلاغة هنا بما يكره من القول ؟ وهل هناك مظنة للبلاغة أقرب من الشعر ؟ وإن كتب الحديث الشريف حين تبوب للأحاديث التي جاء فيها ذكر الشعر ، تعنون لها بعناوين مثل : (باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه) (٢) . أو (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدده عن ذكر الله والعلم والقرآن) (٣) . فهل نفهم من ذلك أن الشعر الجائز هو ما كان فيه (ذكر الله تعالى وتعظيمه ووحدانيته وإيثار طاعته والاستسلام له فهو حسن يرغب فيه وهو المراد في) (٤) تلك الأحاديث كما يقول ابن بطال ؟ ! فأين موقع الهجاء المؤلم الذي هجا به حسان بن ثابت رضي الله عنه المشركين ؟ ! مثلاً .

تساؤلات وأسئلة تتوالى على الذهن ، يحار المرء في العثور على جواب شافٍ لها ؟ !

وسأحاول - بعون الله - أن أتفهم حكم الإسلام في الشعر من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف ، موجزاً ذلك غاية الإيجاز في نقاط محددة .

من خلال قراءتي للآيات الكريمة التي جاء فيها ذكر الشعر والشعراء ، وكذلك الأحاديث الشريفة ، ومن خلال اطلاعي على حوادث وأجواء وظروف

(١) السلسلة الصحيحة ٨٨٠ .

(٢) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٠ / ٥٣٦ ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، د . ط ،

د . ت ، وانظر عمدة القاري ٢٢ / ١٨٥ .

(٣) صحيح البخاري بشرحه عمدة القاري ٢٢ / ١٨٨ .

(٤) عمدة القاري ٢٢ / ١٨٢ .

العصر النبوي وطبيعة ذلك العصر الفريدة أحداثاً وناساً؛ توصلت بفهمي القاصر إلى أن الشعر يتفاوت حكمه نظماً وتمثلاً؛ وبيانه كالتالي :

أولاً : واجب مفروض :

وهو الذي أمر به النبي ﷺ بقوله : اهجمهم ، وعد ذلك جهاداً بالنفس ، والجهاد ذروة سنام الإسلام .

إنه ذلك الشعر الذي ينافع عن الإسلام وعن أعراض المسلمين وحرمااتهم ، ويعلى راية الدين ويجاهر بكلمة الحق دفعا للباطل وأهله ونصراً للإسلام وأهله ، ويتسامح فيه مالا يتسامح في غيره .

ثانياً : مندوب مباح :

وهو ما فصلته آية الشعراء في قول الله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ (١) .

ومجيء هذه الآية الكريمة بعد ذم الشعراء وأتباعهم كأنها تضع شروطاً للشاعر المدوح والشعر المباح بالآتي :

١ - الذين آمنوا .

٢ - عملوا الصالحات .

٣ - ذكروا الله كثيراً .

٤ - انتصروا من بعد ما ظلموا .

فالشروط الثلاثة الأولى تصلح لكل عصر ومصر وحال ، والشرط الرابع خاص بأصحاب النبي ﷺ ، ومن أجاتهم الأحداث إلى ذلك من غيرهم في كل زمان ، وهو ما سبق بيانه بأنه الشعر الواجب المفروض .

(١) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

ثالثاً : مذموم مكروه :

وهو الشعر المندوب المباح إذا تجاوز الحد وألهى عن ذكر الله . (عن الأسود ابن سريع قال : كنت شاعراً فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إني مدحت ربي عز وجل بمحامد ، قال : «أما إن ربك يحب الحمد» ولم يزد على ذلك)(١) .

لاحظ : ولم يزد على ذلك !!

ويدخل في هذا الشعر الذي يتكسب به ، قال ﷺ : (سيكون قوم يأكلون بالسُّتْم كما تأكل البقرة من الأرض .)(٢) .

ولعل هذا النمط وأمثاله من الشعر هو المقصود بقوله ﷺ : (لأن يمتلئ جوف رجل قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً)(٣) .

ومن الشعر المكروه الشعر الذي يشتمل على المبالغة والتشويق ، وإن كان حقاً ، وتلك هي شقشقة الشيطان(٤) .

رابعاً : حرام منهى عنه :

وهو ما كان فيه كفر ، أو فجور ، أما الكفر : فما ناقض عقيدة الإسلام الصحيحة الصافية ولو بشطر كلمة ، وأما الفجور : فما فيه تعد على الأعراض ، أو كذب ، أو بهتان ، أو زور ، أو مدح للرجل بما ليس فيه ، أو ذمه بمثل ذلك ، أو استمالة الغرائز ، أو المجاهرة بالمنكر ، وما أشبه ذلك من القول .

أما إنشاد الشعر والتمثل به فحكمه كالتالي :

(١) صحيح الأدب المفرد ٣٢٠ .

(٢) السلسلة الصحيحة ٤٢٠ ، وانظر الأمثال في الحديث النبوي ٣٤٢ .

(٣) صحيح البخاري بشرحه عمدة القاري ١٨٦/٢٢ .

(٤) انظر مثلاً : صحيح الأدب المفرد ٣٢٥ .

١ - مباح :

وذلك في الشعر الذي يخلو من المحظورات، أو لا يؤدي إلى منكر أو ارتكاب معصية، فلا ينشد الشعر الذي يثير العصبية مثلاً.

ويستحب في مثل هذا الشعر أن يكون هادفاً أو واعظاً، أو معبراً عن موقف، أو مفسراً له، أو شارحاً لغريب يستأنس به في فهم القرآن الكريم، ونحوه، وهذا ما أثر عن النبي ﷺ ودرج عليه أصحابه الكرام والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

٢ - مكروه :

وذلك في الشعر الذي لا يخلو من المحظورات، ويكره إضاعة الوقت الكثير في التناشد ومذاكرة الشعر مما يلهى عن عبادة الله تعالى حتى وإن كان في الشعر الجائز .

٣ - حرام :

وهو الشعر الذي فيه دعوة إلى الكفر أو مذهب باطل، والتدليل له بما قد يلبس على ضعاف الإيمان والعقول كشعر ابن عربى والحلاج مثلاً. إلا إذا كان المقصود نقده والرد عليه ممن يؤمن عليه الزيف ويوثق في دينه .

ويدخل في ذلك أيضاً الشعر الفاجر العاهر، والشعر الذي فيه ذم الصالحين كشعر الشيعة مثلاً. وما شابه ذلك .

ثامناً : وقفات مهمة :

الوقفة الأولى :

هناك أحاديث كريمة وأقوال للصحابه رضوان الله عليهم تصف الشعر بأنه :

«قرآن الشيطان أو شقشقة الشيطان، أو مزامير الشيطان» فماذا يعنى ذلك؟!!

إن الشعر ضرب من الكلام لا يتأتى لسائر الناس ، وهو في ذاته لا يتأتى لقائله إلا بإعمال الفكر وإجهاد النفس والعقل ، وهو بحد ذاته خارج عن طبيعة البشر وما جبلوا عليه ، فلا يخلو من التكلف الذي ربما - أو غالباً - يقود إلى الميل عن الصدق والصواب .

والنفس البشرية ضعيفة قد تخضع لعوامل الهوى والرغبة والشهوة ، وحب الظهور مما يضطر الشاعر - إن كان مؤمناً - إلى الانسياق وراء هازلة منه أو خلصة من الشيطان فيستغفر الله ويتوب إليه ، ولكن قوله يبقى شاهداً عليه يردده الناس جيلاً بعد جيل .

ثم إن اشتغال الشعر على ما يشبه الموسيقى ، وأخذ بلب سامعيه ، وإغراقه في المدح ، والذم ، والوصف ، وكذلك عكوف الشاعر عليه وتبديد جهده وفكره وعقله فيه ، مدخل من مداخل الشيطان ولا يسلم شاعر - بحكم بشريته - من زلل أو خطأ . ومن هنا نفهم لماذا توقف بعض الشعراء عن قول الشعر بعد إسلامهم ، ولماذا طلب بعضهم من النبي ﷺ الدعاء لهم بتركه وذهابه عنهم ؟ !!

الوقف الثانية :

إن كان الأمر كذلك فلم تمثل النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ببعض من مزامير الشيطان ؟ !

إن الكلام هنا عن الشاعر والقائل لا على المتمثل والمنشد ، ثم إنهم ما كانوا يتمثلون إلا بالصادق الحسن من الشعر (١) ، انظر إلى قوله ﷺ : أصدق كلمة قالها الشاعر !!

الوقف الثالثة :

لماذا نفى الله عن نبيه ﷺ قول الشعر ونزعه عنه ؟ ! ولماذا رماه الكفار به ؟ !! وهل قصدوا حقاً أن القرآن الكريم شعر ؟ !

(١) انظر ما يأتي من البحث قريباً .

كثير من المفسرين حملوه على أنهم رموه بكونه آتيا بشعر منظوم مقفى .
وأنا أميل إلى قول القائلين بأنهم (لم يقصدوا لهذا المقصد فيما رموه به ،
وذلك أنه ظاهر من الكلام أنه ليس على أساليب الشعر ، ولا يخفى ذلك على
الأغنام من العجم فضلاً عن بلغاء العرب ، وإنما رموه بالكذب ، فإن الشعر يعبر به
عن الكذب ، والشاعر : الكاذب ، حتى سمى قوم الأدلة الكاذبة : الشعرية ، ولهذا
قال تعالى في وصف عامة الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » إلى آخر السورة ،
ولكون الشعر مقرّ الكذب ، قيل : أحسن الشعر أكذبه .

وقال بعض الحكماء : لم ير متدين صادق اللهجة مغلقاً في شعره (١) .

ففهم الآن سر التنزيه ، وسر الاتهام . وانظر أيضاً ما ذكرته في الوقفة
الأولى .

ثم . . . إذا كان الله سبحانه وتعالى نزه نبيه ﷺ عن قول الشعر ، فكيف
بتلك الأحاديث الصحيحة التي قال فيها شعراً أو شبه شعر ؟!! أو تمثل به ؟!
الجواب سهل ميسور ، وهو : هل كل من قال البيت أو البيتين ، أو الثلاثة ،
أو أكثر أو أقل يصبح شاعراً ، ويطلق عليه لقب شاعر ؟! إذاً فمعظم الناس شعراء !!
وهذا ما لا يكون . وأما التمثيل فلأنه (لم يكن قصداً منه ﷺ إلى الشعر ونظماً منه
له ، وإنما كان تمثلاً به ، وهذا ما يجوز في حقه ﷺ على الصحيح) (٢) .

الوقفة الرابعة :

علاقة الشعر بالكذب ، وهل صحيح أن « أعذب الشعر أكذبه » ؟!

(١) المفردات ٢٦٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ط ، د . ت ، ونقل بعض هذا الكلام ابن حجر
في فتح الباري ٥٣٨ / ١٠ وزاد للتدليل على كذب الشاعر قوله : « وقيل في الشعر :
أحسنه أكذبه ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ .

(٢) صحيح الأدب المفرد هامش ص ٣٢٢ ، تعليق العلامة محمد ناصر الدين الألباني حفظه
الله .

أما عن علاقته بالكذب فانظر الوقفة السابقة . أما هل أعذب الشعر أكذبه ، فإنه على حسب حالة المتلقى ، وعامة فإن النفس تميل إلى ما لا تصدقه من خيالات وأوهام وخرافات لأنها تتوق إلى عالم المعجزات ، والشعر يحقق لها بعض أخيلتها .

والكذب في الشعر كالكذب في غيره محرم ، وأشدّه حرمة ما كان في الدين أو تعلق به (١) ، لأنه ينفر ضعاف النفوس من الدين .

ويحضرني مما يناسب هذا المقام وهو الصدق ، ويناسب أيضا البحث ، قول «شريح القاضي» :

(أبر على الدنيا الملامة إنه حريص على استخلاصها من يلومها) (٢)

يشير إلى الزهد الكاذب ، الذي عناه أيضا ذلك الأعرابي بقوله :

(إن امرأ يعطى الأسنة نحره وراء قريش لا أعد له عقلا

يذمون لى الدنيا وقد ذهبوا بها فما تركوا فيها الملتمس ثعلا) (٣)

وربما كان لغلبة الكذب على الشعر وشهرته بأنه مطية له ، أثر في كراهة بعض الصحابة والتابعين روايته وإنشاده ، مثل : (مسروق ، وإبراهيم النخعي ، وسالم بن عبدالله ، والحسن البصري ، وعمرو بن شعيب .

وروى عن عمر بن الخطاب ، وابنه عبدالله ، وسعد بن أبي وقاص ،

وعبدالله بن مسعود ، رضي الله عنهم أجمعين) (٤) .

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥/٣ في تفسير قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في

الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ الآية ٢٠٥ من سورة البقرة .

(٢) أخبار القضاة ٢/٢١٠ لو كيع .

(٣) حماسة عسيلان ١٨٤/٢ و ثعلا : خلف زائد صغير في أخلاف الناقة وضرع الشاة .

(٤) عمدة القاري ١٨٩/٢٢ ، وانظر فيه من جوزه وقال لا بأس به ما لم يكن فيه هجاء

ولا فحش .

أخلص من هذا إلى أن الشعر في الإسلام مباح على وجه العموم، ويتعلق الحكم عليه بألفاظه ومعانيه لا بشكله أو صورته .

وقد يكون الشعر في بعض الحالات واجبا، وقد يكون محرما، لكن التعبير عن خلجات النفس وما يعتمل فيها مشروط بأن يكون حقا لا فحش فيه ولا هجاء ولا مس بالعقيدة أو العرض وما شاكل ذلك .

وعليه فالمسلم الملتزم لا يذيع ولا يقول إلا ما يحب أن يراه في صحيفته يوم تنشر الصحف .

الشعر والنظرة إلى الحياة

(الشعر : هو فن من فنون الكلام ، يوحى عن طريق الإيقاع الصوتي واستعمال المجاز بإدراك الحياة ، والأشياء إدراكاً لا يوحى به النثر الإخباري ، ولقد اختلفت الآراء في تعريف الشعر إلا أنه اتفق أغلبها على خواص أساسية لا بد من وجودها في الكلام حتى يستحق أن يسمى شعراً ، وهي :

١ - التعبير عن إحساس قوي ، وتأثر عميق ، والنظرة إلى الحياة نظرة لا يمكن إدراكها ولا التعبير عنها بمجرد المنطق وإقامة الحجة والبرهان .

٢ - انتقاء الألفاظ المستخدمة فيه . . . الخ (١) .

هكذا عرفوا الشعر . فهل الشعر العربي الحديث يعبر عن النظرة إلى الحياة من منظور إسلامي ؟؟

وهل هذا الشعر المنطوق والمكتوب بحروف عربية ، ينتمى إلى جوهر هدى الإسلام في الشعر ؟!

إن الصلة بين العقيدة والأدب لانفصم بحال ، فالعقيدة ترسم معالم النظرة إلى الدنيا ، والأدب يفصح عنها .

وما أتى المسلمون إلا من قبل النظرة إلى الدنيا ، فبعد أن فهموها على حقيقتها في القرون الأولى ، تغير بهم الحال بعد ذلك فمن مقبل على الدنيا لاهث خلفها قد تراخت عرى صلته بالدين ، إلى منزوٍ عن الدنيا رافضٍ لها منقطعٍ عنها .

وزاد الطين بلة فهم أعداء الدين لهذا التباين وأثره في خلخلة كيان الأمة الإسلامية ، وهدم بنيانها ، فاستغلوه (أحسن) أسوأ استغلال . فما إن بدأت تباشير نهضة إصلاحية دينية - في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين - تحاول

(١) معجم المصطلحات في اللغة والأدب ٢١٠ ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م .

إعادة الأمة إلى رشدها؛ حتى تكالب عليها الفرنجة من الشمال في حروب صليبية متتابعة، وكان في طلائع تلك الجيوش نفر وضعوا لبن التحول الخطير في مسار الأمة الإسلامية وفي تفكيرها، أطلق عليهم فيما بعد : «المستشرقون» .

فبعد أن فشلت تلك الحملات الصليبية فشلا ذريعا في مواجهة ماتبقى من حماسة دينية لدى المسلمين ، انطلقت هذه الفئة (المسعورة) من المستشرقين تتدسس وتتجسس على المسلمين في أوطانهم ، وتحسس مواطن الضعف لديهم ، تارة في زي التجار ، وأخرى في لباس طلاب العلم ، وثالثة على شكل زوار وسياح ، وأخذت تنهب وتسرق ملايين المخطوطات في كل علم وفن ، لتطمئن - كما ظنت - إلى أنها قد اجتثت أصول نهضة المسلمين من كبوتهم من أساسها .

ولم تكتف بهذا بل استخدمت سلطانها عند ملوك الفرنجة لاحتلال بلدان المسلمين ، واستيقاق (استقدام) بعض شباب المسلمين المنبهرين بالحضارة (!!) الغربية لتهيئتهم للقيام بدورهم - وأكثر - فيما بعد ، وقد تم لهم ما أرادوا ، فعاد هؤلاء ليبثوا السموم في أفكار وعقيدة المسلمين ، ولا يقطع الشجرة إلا أحد أغصانها .

وأضفى على هؤلاء (المساكين) ألقاب علمية طنانة رنانة (جوفاء) !! لينخدع الناس بهم ، وحتى يضمن المستشرقون وأسيادهم استمرار هؤلاء في مهمتهم ، فقد عاد الفرنجة بخيلهم ورجلهم وجثموا على صدر المسلمين في حقبة سموها (استعماراً) وخلفوا بعدهم من يسيطر على كل شيء إلا ذيول المستشرقين فقد أشرعوا لهم النوافذ وفتحوا الأبواب على مصاريعها ، لينفثوا في روع الناس أفكار التقدم والتحضر ، والتحرر ، و... و... إلخ ووصموا كل من يواجههم بالرجعية والظلامية والتخلف والسلفية ... الخ .

وأغرقت المكتبات ، ودور التعليم ، بمؤلفاتهم ، وارتفعت أصواتهم ، في شتى وسائل الإعلام ، ودور السينما ، والمسرح ، وغيرها ، حتى طغى صوتهم تماما - أويكاد - على صوت الحق والإصلاح .

وكادوا يمشون في مخططهم حتى النهاية . (١) .

وفسدت كثير من المظاهر الإسلامية في حياة المسلمين ، وخاصة نظرتهم إلى الدنيا وبفسادها فسدت الثقافة العربية والإسلامية .

وهبت الأمة من يقظتها في صحوة إسلامية مباركة قوضت دعائم «العلمانية» (٢) . وأوشكت أن تطيح بها ، وفي الجانب الأدبي نشأت «رابطة الأدب الإسلامي» .

وبدأ مصطلح «الأدب الإسلامي» يظهر على الساحة الأدبية ، وهو في الحقيقة ردة فعل لتيار التغريب والعلمنة ، لكنه يفتقد عند بعض المنتسبين إليه أسس العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وإلا كيف نفسر دراستهم (لخزعبلات وشطحات) «جلال الدين الرومي» الخرافي (٣) ، على أنه مثال للأدب الإسلامي !!! .

ولم يستطع المستغربون الوقوف أمام موجة المد الإسلامي ، فلجأوا إلى التخفى في ثياب الإسلام بدعوى الغيرة عليه ، والدعوة إلى مسابرة للحدثة والمعاصرة والاستنارة . . . إلخ . ولا يرعوى أحدهم ولا يستحي أن يسبق اسمه لقب «مفكر» أو «المفكر» أو «المفكر الإسلامي» أو «المفكر الإسلامي الكبير» .

(١) ما أروع مأسطره العلامة أبو فهر «محمود محمد شاكر» أمد الله في عمره ، في كتابه الفريد «المتنبى» رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، دار المدني بجدة ، ومكتبة الخانجي بمصر ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، د . ط ، انظر الصفحات ٤٤ - ١٤٨ ومنه اقتبست هذه الجزئية .

وعن المستشرقين أيضاً انظر كتاب «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة السادسة ، ١٣٧٣ م ، انظر الصفحة ٥٣٧ وما بعدها لترى العجب العجيب .

(٢) خير ما قرأت عنها كتاب «العلمانية» للدكتور سفر الحوالي .

(٣) انظر مثلاً : الأعلام ٣٠ / ٧ في الهامش ؛ نقلاً عن «تاريخ العراق بين احتلالين» ١٣٠ / ٤ ، طبعة بغداد ، ١٣٥٣ هـ وفيه مانصه : «يدل شعره على أنه من الغلاة أرباب نحلة الاتحاد والحلول من الباطنية» .

وعادت حلبة الصراع تشتعل من جديد، وانبرى لهم هذه المرة رجال تشبعوا بالعقيدة الإسلامية الصادقة، ففضحوا عوارهم وهتكوا أستارهم (١). ونازلوا أصحاب «ثقافة الضرار» (٢) في «جهاد ثقافي» مرير.

وما يزال ولن يزال الصراع بين الحق والباطل مستمراً منذ فجر البشرية إلى قيام الساعة، وصراعنا الثقافي في العصر الحديث ليس صراعاً بين أشكال وأنماط أدبية، إنما هو صراع عقيدة قبل كل شيء، صراع بين العقيدة الإسلامية التي تربط كل جزئية من جزئيات الحياة - صغرت أم كبرت - بالله... ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾. وبين المذاهب والمبادئ الهادمة لهذه العقيدة، بألوان وأشكال غاية في الخبث والدهاء.

صراع بين النظرة الإسلامية الشاملة للعالم، النابعة من عقيدة صافية صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين النظرة «العلمانية» القاصرة الخاطئة. وحول النظرة إلى الدنيا في كتاب الله الكريم يدندن هذا البحث (٣).

(١) كتب الشيخ محمد قطب جميعها مفيدة في هذا، وأخص بالذكر كتابه القيم «لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة» دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
(٢) «جهادنا الثقافي» و«ثقافة الضرار» للأستاذ جمال سلطان، صادران عن دار الوطن، الرياض.

(٣) للاستزادة والاستفادة حول هذه العجالة، انظر مثلاً:

- أضواء البيان ٣/ ٣٩٦ وما بعدها للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، د. ط.

- الغارة على التراث الإسلامي، جمال سلطان، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

- التصفية والتربية وأثرهما في استئناف الحياة الإسلامية، علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد ==

- == الحلبي الأثري، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، دار المسلم، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- نحن والحضارة الغربية، لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، د.ط.
- الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- أزمة العصر، للدكتور محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
- نحو أدب إسلامي معاصر، أسامة يوسف شهاب، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- الأدب الإسلامي وصلته بالحياة، محمد الرابع الحسني الندوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- نظرات في الأدب لأبي الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الحداثة بين التعمير والتدمير، للدكتور حسن بن فهد الهويمل، دار المسلم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- تقويم نظرية الحداثة، للدكتور علي رضا النحوي، دار النحوي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الباب الأول

نظرية الفردانية اللغوية النفسية

وفيه ثلاثة فصول :

الأول : المعنى والمفهوم

الثاني : المقومات

الثالث : الغاية والهدف

الباب الأول نظرة القراء الكريم إلى الدنيا

ويشتمل على :

الفصل الأول : المعنى والمفهوم .

الفصل الثاني :

الفصل الأول

المعنى والمفهوم

أولاً - المعنى :

١ - الدنيا ، لغةً واشتقاقاً :

الدنيا [بضم الدال على وزن فُعلَى مقصورة غير منونة ، والضم فيه أشهر، وحكى « ابن قتيبة » وغيره كسر الدال]^(١) .

وهي [وصف على صيغة فُعلَى]^(٢) .

[وقد تُنَوَّن]^(٣) وتُجمع على [دُنَى مثل الكُبر والصُّغرى والصُّغَر]^(٤) قالت « صفية بنت ثعلبة » - الحبيجة -^(٥) :

(١) عمدة القاري ، شرح صحيح البخاري ٢٤/٨ لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني ت ٨٥٥ ، دار إحياء التراث العربي (مصورة عن طبعة ١٣٤٨ هـ إدارة الطباعة المنيرية ، دمشق) .

(٢) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم ٣٤٨ عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٣) ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ٢٠٦/٢ ، مادة (د ن و) للأستاذ الطاهر أحمد الزواوي ، الطبعة الثالثة ، د.ت ، دار الفكر .

وهناك نقاش طويل عريض في تنوين (دنيا) انظر مثلاً : عمدة القاري ، ٢٤/٨ .

(٤) الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ٢٣٤١/٦ مادة (د ن و) تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، دار القلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م . وانظر : المفردات في غريب القرآن ص ١٧٢ مادة (دنا) تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت ٥٠٢ هـ تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

(٥) شاعرة جاهلية ، من بني شيبان ، من وائل . استجارت بها « الحرقه » « هند بنت النعمان » ضد كسرى ، فأجارتها ، فأمضى قومها جوارها ، =

[يا آل شيبان ظفرت في الدنا بالفخر والمعروف والإحسان^(١).
وأصل اشتقاق « الدنيا » دنو^(٢)] [يقال في اللغة : دنا يدنو دنواً :
قرباً وأدناه ودناه - بتشديد النون - أي قريبه ، وتدني أي دنا قليلاً قليلاً]^(٣)
ويقال [دنا الشيء من الشيء دنواً أو دناوةً بمعنى قرب]^(٤) .
[ومن ثم اشتق اسم الدنيا]^(٥) وهي [من الواو]^(٦) وإنما [حذفت
الواو لاجتماع الساكنين]^(٧) وهي [فعلى من الدنو]^(٨) .
والنسبة إليها : دنياوى ودينوى ، ودني^(٩) .

أما « دنيا » - بكسر الدال - الواردة في قول النابغة الذبياني :

-
- = وحاربوا جنود « كسرى » وهزموهم في يوم « ذي قار » .
انظر موسوعة الشعر العربي ٤٩٣/٤ ومعجم الشعراء الجاهليين
والمخضرمين ١٧١ .
- (١) موسوعة الشعر العربي - العصر الجاهلي - ٤٩٥/٤ مطاع صفدي وآخرون
شركة خياط للكتب والنشر بيروت ، لبنان ، ١٩٧٤م د . ط .
- (٢) انظر مادة (د ن و) في جميع معاجم اللغة .
- (٣) القاموس الإسلامي ٣٩٤/٢ وضع أحمد عطية الله مكتبة النهضة المصرية
القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .
- (٤) التطور الدلالي ٣٤٨ .
- (٥) القاموس الإسلامي ٣٩٤/٢ .
- (٦) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ١٤٣/٢ للقاضي نشوان بن
سعيد الحميري اليمني ، عالم الكتب بيروت د . ط ، د . ت .
- (٧) عمدة القاري ٢٤/١ والصاحح ٣٤١/٦ . وقال العيني : « قلت : والصواب
أن يقال قلبت الواو ألفاً ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين » .
- (٨) شمس العلوم ١٤٣/٢ .
- (٩) انظر شمس العلوم ١٤٣/٢ والصاحح ٣٤١/٦ .

[بنو عمّه دنيا وعمر بن عامر أولئك قومٌ بأسهم غير كاذبٍ^(١)].

فيقول «الأعلم الشنتمري» شارحاً لها :

[أراد الأدنين في النسب ، وإذا كُسِرَ أوْلُه جازَ فيه التنوين وغير التنوين فإن ضُمَّ أوْلُه لم يَجْزِ تنوينه ، وأصله من دنا يدنو فقلبت الواو ياءً لكسرة الدال ولم يعتدّ بالساكن]^(٢).

٢ - سبب تسميتها :

تكاد تجمع سائر المعاجم العربية على أن الدنيا سميت بذلك لأنها نقيض الآخرة ولدنوها منها^(٣).

يقول القاضي الرامهرمزي : [وإنما سمّيت الدنيا لأنها دانية تتقدم الآخرة]^(٤)

ويقول سفيان الثوري - رحمه الله - في تعليل هذه التسمية :

[كان يقال : إنما سمّيت الدنيا لأنها دنيّة]^(٥).

(١) ديوانه ص ٤٢ . تحقيق أبي الفضل محمد إبراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية د . ت .

(٢) نفسه ص ٤٢ .

(٣) انظر مثلاً : الصحاح للجوهري ٣٤١/٦ وشمس العلوم ١٤٣/٢ .

(٤) أمثال الحديث ٤٠ تصنيف القاضي أبي محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خلاد الرامهرمزي ت ٣٦٠ هـ ، تحقيق أمة الكريم القرشية ، المكتبة الإسلامية استامبول ، تركيا د . ط . د . ت .

(٥) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١٠/٧ للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م مطبعة السعادة مصر . وضم الدنيا ٢٩ للحافظ بن أبي الدنيا ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم مكتبة الساعي ، الرياض د . ط . د . ت .

وسفيان الثوري هو ابن سعيد بن مسروق ، يعود نسبه إلى ثور بن طابخة . شيخ الإسلام الإمام الحافظ الحجة الزاهد الورع ، أمير المؤمنين في الحديث ، وحيد زمانه وفريد عصره وأوانه في العلم والفتيا ، انظر ترجمته ومراجعها في سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧ والأعلام ١٠٤/٣ .

وهذا التعليل فيه نظر ، لأن الدنيا مرحلة وزمن ولا يمكن أن تلصق بها صفات لا تقوم بها أصلاً ، ولعل دافع هذا التعليل هو ما كان يتميز به سفيان الثوري - رحمه الله - من ورع وزهد .

وعندي أن سبب التسمية يعود إلى اشتقاقها اللغوي فهي [مؤنث الأدنى]^(١) أي القريب ، وليست نقيض العليا كما يزعم مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية ^(٢) . ودليلي على ذلك أن القرآن الكريم غالباً ما يقابل الدنيا بالآخرة مقابلة النقيض للنقيض ، مما يوحي بأنها دانية منهازماً مقابلة لها مرحلة . ولا أدلّ على ذلك من أن الله سبحانه وتعالى قد سماها : العاجلة^(٣) . وفيما يأتي من البحث زيادة تفصيل وبيان .

٣ - بعض معانيها :

أ - قريبة :

سبق القول إن [الدنيا مؤنث « الأدنى » بمعنى الأقرب]^(٤) جاءت على صيغة [فعلى أي : دانية قريبة]^(٥) .

(١) الموسوعة القرآنية ٨٤٥/٣ لإبراهيم الأبياري وعبد الصبور مرزوق ، سجل العرب د . ط ، د . ت .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٠١/٥ لجموعة مستشرقين ط ٢ ، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م ، د . ن .

(٣) في قوله تعالى (كلا بل تحبون العاجلة) سورة القيامة الآية ٢٠ .

(٤) الموسوعة القرآنية ٨٤٥/٣ وعلى هذا المعنى الآيات ٤٢ من سورة الأنفال و ٦ من سورة الصافات و ١٢ من سورة فصلت و ٥ من سورة الملك .

(٥) سفر السعادة وسفير الإفادة ٢٧٥ تأليف علم الدين أبي الحسن علي بن محمد السخاوي (٥٥٨هـ - ٦٤٣هـ) تحقيق محمد أحمد الدالي ، د . ن . د . ط . دمشق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

وبهذا المعنى اللغوي جاء الشعر الجاهلي ، يقول « حُجْرُ بْنُ حَيَّةَ العبسي » (١) :

[لا أحرَمُ الجارة الدنيا إذا افتقرت ولا أقوم بها في الحيّ أخزبها (٢)]

وكذلك قول « سنان بن أبي حارثة المري » :

[هُمُ إِخْوَتِي دُنْيَا فَلَا تَقْرِبْنَهُمْ

أَبَا حَشْرَجٍ وَأَفْصَحَ لِحْنِكَ مَضْجَعًا (٣)]

(١) ويقال له : ابن جيداء ، وجيداء أمه ، لم أقف له على ترجمة سوى ما ذكره الآمدي في المؤلف ١٠٤ .

(٢) المؤلف والمختلف ص ١٠٤ لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي سنة ٣٧٠هـ بتعليق المستشرق ف . كرنكو ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م . والحماسة لأبي تمام ٣١٣/٢ تحقيق الدكتور عبدالرحيم عسيلان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م د . ط . و « افتقرت » وردت في المؤلف « اقتربت » وما في الحماسة هو الصحيح يدلّ عليه سياق البيت .

(٣) معجم الشعراء ص ٣٨٧ لأبي عبيدالله محمد بن عمران المرزباني ت ٣٨٤هـ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م بتعليق المستشرق كرنكو ، دار الكتب العلمية ، بيروت . وعن كلمة « دنيا » في مثل هذا البيت بهذا المعنى انظر ص ٥ بيتاً آخر للنايفة وشرح « الأعلام الشنتمري » له .

وسنان بن أبي حارثة المري الغطفاني ، شاعر ، فارس ، جاهلي . له مواقف مشهورة في أيام العرب ، وابنه هرم - ممدوح زهير - من أجواد العرب ، قيل : إن سنانا عمر مائة وخمسين سنة فهام على وجهه خرفاً ففقد ثم وجدوه ميتاً فرثاه زهير .

انظر ترجمته في : معجم الشعراء ٣٨٦ والأصمعيات ٧١ ، ٧٢ ، والمفضليات ١٠٠ ، والأغاني (كتب) ١٤٤/٩ - ١٤٥ ، والأعلام ١٤١/٣ ، ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ١٥٧ .

وهذا هو المعنى الأصيل لكلمة « الدنيا » ولم ترد بهذا اللفظ في الشعر الجاهليّ فقط ، بل استمرّت لفظاً ومعنى ودلالةً في سائر الشعر العربيّ رغم تباين مفاهيمها التي طرأت على هذه الكلمة في سياق تطورها الدلاليّ ؛ يقول « الكميت بن زيد » في ملحمة :

[لنا الرّحم الدنيا وللناس عندكم سجالُ رغيبات اللهى وذنوبها^(١)].

ب - الأرض :

من معاني الدنيا أنها [عالم الأرض]^(٢) .

وهي بهذا المعنى في القرآن الكريم ، يقول تعالى :

(ولكنه أُخْلِدَ إلى الأرض واتبع هواه)^(٣) .

(١) جمهرة أشعار العرب ٩٨٦/٣ لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي ، مطابع جامعة الإمام بن محمد سعود الإسلامية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، الطبعة الأولى والسجل : الدلو . والرغيب : السمن الذي يقطر رسماً . ورغيبات : واسعات . واللهى : جمع لهوة ، وهو ما أخذه الانسان بكفه من الحبّ ونحوه . والذنوب : النصيب . والعجيب أن شارح الهاشميات ص ٨٧ يقول : الدنيا : القريبة وهي فعلى من الدنو . ثم يقول : والدنيا : اسم لهذه الحياة لبُعْد الآخرة عنها . والكميت بن زيد بن الأخنس ينتهي نسبه إلى إلياس بن مضر ، شاعر مشهور من شعراء العصر الأموي ، معروف بالتشيع ، وله القصائد المشهورة بالهاشميات . توفي عام ١٢٦ هـ .

انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ٥٨١ ، والمؤتلف والمختلف ٩ ، ١٧٠ ، ومعجم الشعراء ٢٨١ ، ٣٤٧ ، ٣٨١ والأعلام ٢٣٣/٥ .

(٢) انظر مثلاً : دائرة المعارف ٦٠/١٠ لفؤاد إفرايم البستاني ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٧٣م د . ط .

(٣) سورة الأعراف ١٧٣ .

وقد ذكر المفسرون أن المعنى [لزم لذات الأرض ، فعبر عنها بالأرض ، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض]^(١) .

ويجزم ابن القيم رحمه الله أن الأرض في هذه الآية هي الدنيا فيقول: [عبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يُستخرج منها من الزينة والمتاع]^(٢) .

وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقنتم إلى الأرض)^(٣) [هونحو من أخلد إلى الأرض]^(٤) .

ويستشف هذا المعنى من مقابلة الأرض بالآخرة في قوله تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجرا الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)^(٥) .

وفي سياق تفسير قوله تعالى : (أو ينفوا من الأرض)^(٦) يذكر القرطبي أقوالاً للمفسرين منها قول الكوفيين :

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٢/٧ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أعاد طبعه بالأوفست دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ١٩٦٥م عن الطبعة الثانية ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢م . وفي بحث بعنوان « إشارات قرآنية لعلوم الأرض » يذكر الدكتور زغلول راغب النجار أن في القرآن الكريم ٤٦١ آية كونية تتعرض للأرض . انظر جريدة الشرق الأوسط ع ٥٧٨٣ وتاريخ ١٤١٥/٤/٢٣ هـ .

(٢) الفوائد ١٠٢ للامام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) دار الريان للتراث القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

(٣) سورة التوبة ٣٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤٠/٨ للقرطبي .

(٥) سورة يوسف ٥٦ ، ٥٧ ، وقريباً منها الآية ١٠٩ في السورة ذاتها ، والمراد بالأرض في الأولى : أرض مصر .

(٦) سورة المائدة ٣٣ .

[نفيهم سجنهم فيُنْفَى من سعة الدنيا إلى ضيقها ، فصار كأنه إذا سُجِنَ فقد نُفِيَ من الأرض لا من موضع استقراره واحتجوا بقول أهل السُّجون في ذلك :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السُّجَان يوماً لحاجةٍ عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا^(١).

وأما قوله تعالى : (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين)^(٢) ف : [هو سؤال لهم عن مدّة حياتهم في الدنيا ، وهذا السؤال للمشرّكين في عرصات القيامة أو في النار]^(٣).

وفي الأرض معاشنا واستقرارنا ومتاعنا إلى حين وفيها حياتنا وفيها مماتنا ومنها نُخْرَجُ إلى البعث والنشور ، ولناخذ أدلّة ذلك كلّها من سورة واحدة هي سورة الأعراف ، يقول تعالى :

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش)^(٤) وقال جل شأنه : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)^(٥) وقال تعالى : (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون)^(٦) .

وحذّر النبي صلى الله عليه وسلّم أمّته من التنافس في الدنيا فقال :
[إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، قيل : وما بركات الأرض ؟ قال : زهرة الحياة الدنيا]^(٧) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥٢/٦ - ١٥٣ .

(٢) المؤمنون ١١٢ . (٣) القرطبي ١٥٥/١٢ .

(٤) سورة الأعراف ١٠ . (٥) سورة الأعراف ٢٤ .

(٦) سورة الأعراف ٢٥ .

(٧) صحيح البخاري ١٦٣/٨ للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل =

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام - بعد أن صلى على أهل
«أحد» صلاته على الميت :

[إني فرطكم على الحوض ، وأنا شهيد عليكم ، وإني لأنظر إلى
حوضي الآن ، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض - وإني
والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف أن تنافسوا فيها]^(١).

فإذا ما عرفنا أن الحديث عنون هكذا : « التحذير من التنافس في
الدنيا » فإن الضمير في آخر كلمة في الحديث يعود إلى « خزائن الأرض أو
مفاتيح الأرض ، التي هي الدنيا .

ولعل قول أبي الدرداء رضي الله عنه : [لأن أستيقن أن الله قد تقبل
لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها ، إن الله يقول (إنما يتقبل الله
من المتقين)^(٢)]^(٣) لعله يقصد بالدنيا وما فيها : الأرض .

وسمع الشاعر « محمد بن أبي المغيرة »^(٤) [قول النبي صلى الله عليه

= البخاري الجعفي (ت ٢٥٦ هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م . وعمدة القاري . وفتح الباري ٢٤٤/١١ بشرح صحيح

البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)

تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، دار المعرفة بيروت لبنان د . ط ، د . ت .

(١) صحيح البخاري ١٦٢/٨ ، ١٦٣ ، ٢١٨ ، وانظر شرح الحديث في فتح

الباري ٢٤٤/١١ . وعمدة القاري ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ١٤٣ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦/٢ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير

بن ضوء بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي (٧٠٠ - ٧٧٤ هـ) مكتبة

النهضة الحديثة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، مطبعة الفجالة الجديدة . القاهرة .

(٤) هو أحد شعراء العسكر في العصر العباسي ، وهذه القصيدة ذكر فيها

« المتوكل » بعد وفاته ، ولم أجد ما أترجم له به ، انظر معجم الشعراء ٤٥٧ .

وسلم « لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوض ما سقى الكافر منها شربة ماء » . فقال :

جاء الحديث بأن الأرض أجمعها وما حوت لا تساوي عند باريها
بعوضة أو جناحاً من مطائرهما لم يسق منها ولو فاضت مآقيها
من يكفر الواحد الجبار نعمته مجاجة من أحاح ربه فيها
لكنه هانت الدنيا عليه فلم يمنعك إن ملكت كفاك مافيها^(١)

ومن طريف وصف الأرض قول « صفوان بن صفوان الأنصاري »^(٢) :

وفي جوفها للعبد أستر منزل وفي ظهرها يقضي فرائضه العبد
تمجُّ لفاظ الملح مجاً وتصطفي سبائك لا تصدا وإن قدم العهد
وليس بمحص كنه ما في بطونها حساب ولا خط وإن بلغ الجهد^(٣)

هذه هي الأرض بمعنى « الدنيا » ولم أتطرق إلى تعريفها من قبل علماء الجيولوجيا والطبوغرافيين والجغرافيين ، فذلك باب آخر ليس هاهنا مجاله^(٤) .

(١) معجم الشعراء ٤٥٧ للمرزباني وفي البيت الأول « لاتساوى » هكذا وردت ، ولعل الصواب « لو تساوى » ليستقيم الكلام . والمجاجة : المطر ، وأحاح : عطش .

(٢) شاعر معاصر له « بشار بن برد » وهذا الشعر من أشعار كثيرة ردّها على « بشار » لما قام بعذر « إبليس » في فضل النار على الطين ، وقد ورد ذكر « صفوان » في مواضع كثيرة من « البيان والتبيين » ومن عجب أن لم يترجم له المحقق العلامة عبد السلام هارون رحمه الله . ولم أجد ما أترجم له به .

(٣) البيان والتبيين ٣٢/١ لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

(٤) للتعريف العلمي المائي للأرض انظر :

ج - الزمان :

وهناك ألفاظ كثيرة في اللغة العربية تدلّ على الزمان قليله وكثيره منها : الدهر ، والأمد ، والأبد ، والأجل ، وغيرها .

وكل لفظ من هذه الألفاظ يحمل في ذاته معنى الدنيا ، وبيان ذلك كمايلي :

١ - الدهر :

[الدهر في الأصل : اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه وعلى ذلك قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر)^(١) ثم يُعبّر به عن كل مدة كثيرة]^(٢) .

وأيضاً فـ [الدهر : مدة الحياة الدنيا كلّها]^(٣) . وعلى هذا فالدهر [خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة]^(٤) . كما يقول الراغب الأصفهاني .

= دائرة المعارف الحديثة ص ١٥ وضع أحمد عطية الله الطبعة الأولى ١٩٥١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، وموسوعة المورد ، تأليف منير البعلبكي ١٦/٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠ م ، والموسوعة الثقافية ص ٦٥ بإشراف الدكتور حسين سعيد ، مؤسسة فرانكلين ، القاهرة نيويوك ١٩٧٢ ، د . ط . وغيرها من المراجع العلمية الحديثة .

(١) الآية ١ من سورة الدهر .

(٢) المفردات في غريب القرآن ١٧٣ .

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ١٩٣ تأليف محمد إسماعيل إبراهيم ، دار الفكر العربي ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، د . ط .

(٤) المفردات ١٧٣ .

وعندي أن بين الدهر والزمان عموماً وخصوصاً مطلقين ذلك أن كل
 دهر زمان وليس كل زمانٍ دهرًا ، غير أن الدهر إذا أضيف إلى الإنسان دلَّ
 على [مدة حياته] ^(١) وهي مدة قليلة على كل حال ، بل إن الدهر قد يعني مدة
 قليلة من الزمان ، يقول « حاتم الطائي » :

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غدٌ كذاك الزمان بيننا يتردد ^(٢).

وإذاً فليس هناك ثمة فاصل معنوي بين الزمان والدهر ^(٣).

وقد استعير الدهر للمدة أو [العادة الباقية مدة الحياة] ^(٤) يقول
 « رقيقة الجرمي الطائي » :

أحقاً عباد الله أن لست رائياً رفاعة طول الدهر إلا توهُماً ^(٥)

وإذا كان الدهر هو [مدة الحياة الدنيا كلها] ^(٦) فإنه قد يطلق على
 الدنيا كما في قول « أمية بن أبي الصلت » :

فلم تسلم الدنيا وإن ظنَّ أهلها بصحتها والدهر قد يتجرّد ^(٧).

(١) المفردات ١٧٣ .

(٢) ديوانه ٢٦٢ ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي رواية هشام بن محمد
 الكلبى تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة ،
 د . ط ، د . ت .

(٣) للاستفادة والاستزادة انظر فصل (الزمن من خلال الوقت) ص ٥٩
 وما بعدها من كتاب (الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام) تأليف
 عبدالاله الصائغ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ م ، د . ط .

(٤) المفردات ١٧٣ .

(٥) الحماسة (عسيلان) ٤٨٨/١ . ولم أقف لرقبية على ترجمة .

(٦) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ١٩٣ .

(٧) ديوانه ٢١٣ صنعة عبد الحفيظ السطلي . المطبعة التعاونية دمشق ،
 الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

وقد أُغريَ الجاهليون بدمٍ الدهر ونسبة كل حادث إليه ، فهو المتصرف في شئونهم القاهر عليهم كما يزعمون ، يقول النابغة الذبياني :

تكلّفني أن يغفل الدهر همها وهل وجدت قبلي على الدهر قادراً^(١)

ويذكر القرآن الكريم قولهم (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)^(٢) .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب الدهر ونسبة الحوادث إليه لأن الله هو الدهر أي مصرفه بيده الليل والنهار يجدها ويبيدها ويأتي بملوك بعد ملوك^(٣) . وقد فسر «ابن حجر العسقلاني» الدهر هنا بأنه [مدة زمان الدنيا]^(٤) . وبالرغم من نهى النبي صلى الله عليه وسلم من نسبة الحوادث للدهر ، فهذا « متمم بن نويرة »^(٥) يقول في المسجد النبوي بحضرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة بألوث زوار القرائب أخضعا^(٦)

-
- (١) ديوانه ٦٧ تكلّفني : يخاطب نفسه ، وهمّها : أي مراده .
- (٢) سورة الجاثية ٢٤ .
- (٣) انظر مثلاً : فتح الباري ١٠/٥٦٤ والسلسلة الصحيحة للألباني ٥٧/٢ ، ٥٨ ، المكتب الاسلامي بيروت ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- (٤) فتح الباري ١٠/٥٦٦ .
- (٥) هو أبونھشل ، وأبو تميم ، وأبو إبراهيم ، متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي ، شاعر مخضرم أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه ، قُتل أخوه « مالك » في حروب الردة فبكاه حتى دمعت عينه العوراء ورثاه بروائع من شعر الرثاء . انظر ترجمته في حماسة (عسيلان) ٣٩٠/١ والمؤتلف ١٩٤ ومعجم الشعراء ٤٦٦ .
- (٦) جمهرة أشعار العرب ٢/٧٥٤ .

واستمرت بقايا الجاهلية في هذا النمط من القول في الشعر العربي حتى عصرنا الحاضر، وهذا الشاعر الإسلامي- الأموي « الأبيرد اليربوعي »^(١) يقول :

فليتك كنت الحي في الناس باقيا وكنت أنا الميت الذي أدرك الدهر^(٢)

٢ - الأبد :

وتأتي الدنيا بمعنى الأبد ، أو يأتي الأبد بمعنى الدنيا ، إذا كان الأبد هو الدهر : كما في قول النابغة الذبياني :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد^(٣)

وكما يقول العرب في أمثالهم : [أتى أبد على لبد]^(٤) وأبد هنا هو الدهر كما شرحه العسكري ، ولبد هو النسر السابع من نسور لقمان كما زعموا ، أي لا شيء يقف أمام الدهر ، وعليه فإن الأبد بمعنى الدهر يحتمل معنى الحياة ، أو مدة الحياة الدنيا ، كما تقول لمن خاصمته أو هجرته : والله لا أكلّمك أبداً ، أي : ما حييت .

(١) هو الأبيرد بن المعذر بن عبد قيس الرياحي اليربوعي ، ويقال له أيضاً :

الأبيرد الرياحي ، شاعر بدوي فصيح ، أدرك دولة بني أمية ، انظر

ترجمته في المؤلف ٢٤ والبيان والتبيين ٨٥/٤ والأعلام ٨٢/١ .

(٢) المؤلف للأمدى ٢٥ .

(٣) ديوانه ص ١٤ وقد فسر الأعلام الشنتمري الأبد هنا بالدهر . والعلياء : ما

ارتفع من الأرض ، والسند : ارتفاع الجبل ، وأقوت : خلت من الناس وأقفرت .

(٤) جمهرة الأمثال ١٢٦/١ للشيخ الأديب أبي هلال العسكري تحقيق محمد

أبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، المؤسس العربية الحديثة ،

القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

أما الأبد في القرآن الكريم فهو كما يقول الراغب الأصفهاني :

[عبارة عن مدّة الزمان الممتدّ الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان]^(١).
وهو بهذا المعنى بعيد عن معنى الدنيا .

٣ - الأمد :

[الأمد والأبد يتقاربان ، لكن الأبد عبارة عن مدّة من الزمان التي ليس لها حد محدود ، ولا يتقيّد ، لا يُقال أبدٌ كذا .

والأمد : مدّة لها حدّ مجهول إذا أُطلق وقد ينحصر نحو أن يقال أمد كذا كما يُقال زمن كذا .

والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عامّ في المبدأ والغاية ، ولذلك قال بعضهم : المدى والأمد يتقاربان]^(٢) .

٤ - الأجل :

والأجل هو [المدّة المضروبة لحياة الإنسان]^(٣) [وأصله استيفاء الأجل أي مدّة الحياة]^(٤) .

وقوله تعالى : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده)^(٥) ذكر فيها أجلاً وقد اختلف في تفسيرهما فقليل [الأول هو : البقاء في الدنيا ، والثاني : البقاء في الآخرة]^(٦) .

وقال الحسن البصري [الأول هو : البقاء في الدنيا ، والثاني : مدّة ما بين الموت إلى النشور]^(٧) .

(٢) ذاته ٢٤ .

(٥) سورة الأنعام الآية ٢ .

(١) المفردات ٨ .

(٣)(٤) نفسه ١١ .

(٦)(٧) المفردات ١١

وهناك أقوال أخرى ، والمقصود أن الأكثر على أن الأول هو مدة البقاء في الدنيا .

وهكذا نجد ارتباط معنى الدنيا بالزمان بشتى صورته وتعاييره ارتباطاً وثيقاً ، ولذلك نجد السؤال المهيّب يوم القيامة في المحشر للعباد (كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟)^(١) فيأتي الجواب العجيب (قالوا لبثتنا يوماً أو بعض يوم)^(٢) وزيادة في التأكيد يقولون (فاسأل العادين)^(٣) وإذا بهم (يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا)^(٤) ويستكثر هذه الأيام العشر بعضهم فيقول (إن لبثتم إلا يوماً)^(٥) و (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها)^(٦) أما المجرمون فلهلعهم من العذاب وفزعهم يقسمون أنهم (ما لبثوا غير ساعة)^(٧).

وهكذا نجد التلازم المعنوي واللفظي بين كلمتي الدنيا والزمن .

د - المَال :

عقد البخاري - أمير المؤمنين في الحديث - باباً في صحيحه تحت عنوان : [قول النبي صلى الله عليه وسلم « هذا المال خضرة حلوة »]^(٨) .

وهناك حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه : [احذروا

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٢ .

(٢) (٣) سورة المؤمنون الآية ١١٣ . (٤) سورة طه الآية ١٠٣ .

(٥) سورة طه الآية ١٠٤ . (٦) سورة النازعات الآية ٤٦ .

(٧) سورة الروم ٥٥ وسورة يونس [ساعة من النهار] ٤٥ وسورة الأحقاف

[ساعة من نهار] ٣٥ ، يقول القرطبي في جامع أحكام القرآن ٢٢٢/١٦

« تسأهم هول ما عانوا من العذاب طول لبثهم في الدنيا » .

(٨) صحيح البخاري ١٦٧/٨ وانظر الحديث بشرحه الضافي في عمدة القاري

٤٧/٢٣ ومابعدها وفتح الباري ٢٥٨/١١ ومابعدها ، وانظر ضبط « خضرة »

وشرحها ص من هذا البحث .

الدنيا فإنها خضرة حلوة [^(١)] فالمال والدنيا في هذين الحديثين شيء واحد بدليل زيادة الترمذي في الحديث الثاني [من أصابه بحقه بورك له فيه ... الخ] ^(٢) .

وفي « صحيح الأدب المفرد » الوصايا التسع التي أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بها أبا الدرداء رضي الله عنه ومنها :
[وأطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما] ^(٣) .
فالدنيا هنا لا تحتل إلا المال .

ولما طاف عمر رضي الله عنه بكور الشام وجد أمير حمص « سعيد بن عامر » - رضي الله عنه - من الفقراء فأمر له بألف دينار فجعل عامر يسترجع ويقول [أنتني الفتنة دخلت عليّ ثم جهّز بها جيشاً من جيوش المسلمين] ^(٤) .

وحتى يرسخ في ذهن أن الدنيا هي المال ، نذكر قوله تعالى ، معاتباً الرماة في غزوة « أحد » الذين خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتركوا أماكنهم ونزلوا لجمع الغنائم :

-
- (١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٦١٣/٢ .
(٢) الجامع الصحيح ٤٣/٧ وهو سنن الترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٩٧ هـ) تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، شركة البابي الحلبي وأولاده ، مصر الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
(٣) صحيح الأدب المفرد ١٤ .
(٤) الزهد ٢٣١ للإمام أحمد بن حنبل ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ، دار البيان للتراث ، مصر ، وأمثال هذه القصة والنظرة إلى المال بأنه الدنيا كثير يستعصى على الحصر وانظر مثلاً صفة الصفوة ١/١٩٦ ، ٥٦٦ و ٢٢٧ ، ٢٧/٣ .

(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)^(١) . فالدنيا هنا أيضاً لا تحتل أي معنى سوى المال .

وإنما كان المال هو الدنيا لأنه عمادها ولأنه غالباً ما يزيغ النفوس ويرغبها في الحياة ويصرفها عن تدبر عواقب الأمور ذلك أنه [مادة الشهوات]^(٢) وعليه مدار الحساب في الآخرة وفي الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه]^(٣) .

فهذا هو المال يعلق الأرواح بين السماء والأرض حتى يؤدي على وجهه .

هـ - مقابل الآخرة^(٤) :

في القرآن الكريم [معانٍ لا تكاد تفترق ، مثل : الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرغبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجنّ والانس]^(٥) والدنيا والآخرة ، والسماء والأرض ، والإيمان والعمل ، والإيمان والكفر ... الخ .

وقد وردت كلمة الدنيا متقدمة على الآخرة إلا في آيتين فقط^(٦) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٢ .

(٢) مجمع الأمثال ٥٥/٤ لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني تحقيق أبي الفضل محمد إبراهيم عيسى البابي الحلبي د . ط . . د . ت .

(٣) سنن ابن ماجه ٨٠٦/٢ حديث رقم ٢٤١٣ .

(٤) انظر مثلاً : ترتيب القاموس المحيط ٢٠٦/٢ وشمس العلوم ١٤٣/٢ ومجمع الأعلام والألفاظ القرآنية ١٩٢ .

(٥) البيان والتبيين ٢١/١ .

(٦) في سورة المؤمنون الآية ٣٣ وسورة القصص الآية ٧٧ .

وجاءت الدنيا مقابل الآخرة في ٣١ موضعاً في القرآن الكريم (١).
والآيتان اللتان ذُكرتَ فيها كلمة « الدنيا مرتين » هما الآية ١٣٤ من سورة
النساء و آية الاستغفار في سورة التوبة (٢).

وجاءت الدنيا مقابل (دار الآخرة) (٣) مرة واحدة وكذلك مقابل
(الدار الآخرة) (٤).

وجاءت مقابل يوم القيامة في ثلاثة مواضع (٥).

وإذا كانت الدنيا مشتقة من الدنو وهو القرب فما وجه مقابلتها
بالآخرة . يجيب على ذلك الراغب الأصفهاني فيقسم الدنو إلى عدة أقسام هي:
الدنو [بالذات أو بالحكم ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة] (٦)
وضرب لكل أمثلة وذكر أن الأدنى يُعبرُ به [عن الأول فيقابل بالآخر نحو
(خسر الدنيا والآخرة) (٧) وقوله (وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن
الصالحين) (٨)] (٩) . ووصف القرآن الكريم للدنيا بأنها الأولى توكيد لما ذهب
إليه الراغب الأصفهاني ذلك أنه تمييز لها عن الحياة الأخرى .

(١) في سورة البقرة الآيات ١١٤ ، ١٣٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ وسورة آل
عمران الآيات ٢٢ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ وسورة النساء الآية ١٣٤
وسورة المائدة الآيتان ٣٣ ، ٤١ وسورة الأعراف الآية ١٥٦ وسورة التوبة
الآيتان ٦٩ ، ٧٤ ، وسورة يوسف الآية ١٠١ ، وسورة النحل الآيتان ٤١ ،
١٢٢ ، وسورة الحج الآيتان ١١ ، ١٥ ، وسورة النور الآيات ١٤ ، ١٩ ، ٢٣ ،
وسورة العنكبوت الآية ٢٧ ، وسورة الأحزاب الآية ٥٧ ، وسورة غافر
الآية ٤٣ ، وسورة الشورى الآية ٢٠ ، وسورة الحشر الآية ٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٨ . (٣) سورة النحل الآية ٣٠ .

(٤) سورة القصص الآية ٧٧ .

(٥) سورة هود الآية ٦٠ وسورة الحج الآية ٩ وسورة القصص الآية ٤٢ .

(٦) المفردات ١٧٢ .

(٧) سورة الحج الآية ١١ .

(٨) سورة النحل الآية ١٢٢ . (٩) المفردات ١٧٢ .

والأولى : على وزن فعلى من أول ، والمذكر منها : أول مثل : أدنى ، دنيا ، ومن معاني الأول [المتقدم بالزمان]^(١) .

وكذلك فإن [آخر يقابل به الأول]^(٢) وأيضاً [يُعبرُّ بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبرُّ بالدار الدنيا عن النشأة الأولى]^(٣) .

وقوله تعالى^(٤) : (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) : [متناول للأحوال التي في النشأة الأولى وما يكون في النشأة الآخرة]^(٥) .

وتُعرَّفُ الدنيا بأنها [الحياة الحسّية التي يعيشها البشر والمقصود بها الحياة القريبة أو الحياة الأولى تمييزاً لها عن الحياة الأخرى]^(٦) .

وقد وردت كلمة الأولى وصفاً للدنيا مقابل الآخرة في خمسة مواضع^(٧) في القرآن الكريم على حين ذكرت في اثني عشر موضعاً^(٨) آخر صفة لكلمات أخرى^(٩) .

-
- (١) المفردات ٣١ . (٢)(٣) نفسه ١٣ .
- (٤) جزء الآيتين ٢١٩ ، ٢٢٠ من سورة البقرة . (٥) المفردات ١٧٢ .
- (٦) معجم الأعلام والألفاظ القرآنية ٣٩٤/٢ .
- (٧) في سورة القصص الآية ٧٠ وسورة النجم الآية ٢٥ وسورة النازعات الآية ٢٥ وسورة الليل الآية ٣ وسورة الضحى الآية ٤ .
- (٨) في سورة طه الايات ٢١ ، ٥١ ، ١٣٣ وسورة القصص الآية ٤٣ وسورة الأحزاب الآية ٣٣ وسورة الصافات الآية ٥٩ وسورة الدخان الآيتان ٣٥ ، ٥٦ وسورة النجم الآيتان ٥٠ ، ٥٦ وسورة الواقعة الآية ٦٢ وسورة الأعلى الآية ١٨ .
- (٩) وانظر التطوّر الدلالي ٣٥٠ .

ثانياً - المفهوم :

١ - مفهومها عند الجاهليين :

عمّ الشرك وطمّ بين العرب في جزيرتهم واتخذت كل قبيلة صنماً تعبدّه من دون الله بل كان لكل شخص معبود ، وكادت معالم الدّين تنطمس لولا بقايا حنيفية إبراهيمية وحنفاء قليلون لا يكادون يبينون خلال هذه الأمواج المتلاطمة من مظاهر الشرك والعبودية لغير الله سبحانه وتعالى :

* إذ أصبح الدّين ديناً غير موثوق * (١)

ومن خلال الجهل بالمصير والهدف من هذه الحياة كان شعار المشركين (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) (٢) . وتفسير هذه الآية الكريمة أن [« هي » كناية عن الدنيا ، أي ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها بعد البعث] (٣) .

وهكذا أضحت حياتهم بلا هدف ولا معنى ولا غاية ، سوى أنهم (يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) (٤) لا يهتمهم من أين جاء المال ولا فيم يُصرف ما دام يُشبع رغباتهم ونهمهم في الشهوات الجسدية والمعنوية التي لا ضابط لها ولا حد .

(١) الفضليات ص ٢٧٥ ، اختيار المفضل محمد بن يعلى الضبي ، تحقيق محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، الطبعة السادسة ، بيروت . لبنان . د.ت . وهذا الشطر الثاني من بيت في قصيدة لبشر بن عمرو بن مرثد يتوعّد بها عمرو بن كلثوم وصاحبيه ، والشطر الأول من البيت هو :
* حاربين معدّاً واعتصمن بها * .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣٧ .

(٣) القرطبي ١٢/١٢٤ .

(٤) سورة محمد الآية ١٢ .

ولم يَكُنْ يَنْقُصُ عليهم هُنا هُم وَيَقْلُقُ خُوطَرَهُم سِوَى المَوتِ الَّذِي
يُفْسِدُ عَلَيْهِم الحَيَاةَ وَيُروِنَهُ [الفَناءُ وَالتُّرابُ فِي آخِرِ المَطافِ] (١) .
وَيُروِنَ أَنَّ المَوتَ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ وَنِهَايَةُ الحَيَاةِ وَلَا حَيَاةَ بَعْدَهُ وَلَا حِسابَ
وَلَا بَعثَ (٢) .

وَلأنَّهُم كانوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعثِ كانوا لَا يَهَابُونَ المَوتَ وَلَا يَبِيعُونَ الحَيَاةَ
بِسَبِّةٍ . يَقُولُ الحَصِينُ بْنُ الحَمَامِ المَرِّيِّ - فِي جَاهِلِيَّتِهِ - :
فَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الحَيَاةِ بِسَبِّةٍ وَلَا مَبْتَغٍ مِنْ رَهْبَةِ المَوتِ سَلَمًا (٣)

(١) الإنسان في الأدب الإسلامي ٤٤٧ لمحمد عادل الهاشمي ، مكتبة الطالب
الجامعي ، مكة المكرمة . د . ط . د . ت . ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م (مقدمة) .

(٢) انظر مثلاً في فلسفة الحياة والموت عند الجاهليين
- قصيدة لسلمي بن ربيعة الضبي في الحماسة (عسيلان) ٥٦٨/١
والبيان والتبيين ١٩٠/١ - ١٩١ .
- وقصيدة للممزق العبدى في المفضليات ٣٠٠ ومثلها للمرقش الأكبر
في المفضليات أيضا ١٢٤٩ .

- وقصيدة لبشر بن عمرو بن مرثد في المفضليات أيضا ٢٧٦ - ٢٧٧ .
- وأخرى للأسود بن يعفر النهشلي في ديوانه ٢٨ ، صنعة توري حمودي
القيسي ، وزارة الثقافة والاعلام ، العراق . د . ط . د . ت . والمفضليات ٢١٦ -
٢٢٠ .

(٣) المفضليات ٦٩ وفي ص ٢٨٢ - ٢٨٣ قصيدة لشعبة بن عمرو العبدى
توحي بهذا المعنى .

والحصين بن الحمام المري شاعر مخضرم ، كان سيداً في الجاهلية وأحد
أوفياء العرب عدّه أبو عبيدة أحد الذين اتفق على أنهم أشعر المقلين في
الجاهلية والإسلام . أدرك الإسلام وكانت له صحبة ، توفي أول خلافة
عمر رضي الله عنه . انظر ترجمته ومصادرها في : طبقات الشعراء ١٥٣ =

ولا يفهمون من عقابيل الموت إلا أنه :

يهلك والدٌ ويخلف مو لودٌ وكل ذي أبٍ ييتم^(١)

لا أقل ولا أكثر ، بل يرون أن الدنيا هي التي تُميت وتحيي وتمنع وتمنع ، يقول « الملبب بن عوف بن سلمة الجعفي » معزياً « سلامة ذي فائش » : [أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب^(٢) وتعطي لتأخذ ، وتجمع لتشتت ... الخ]^(٣).

وبالرغم من تهافتهم وتكالبهم على المال وغارات السلب والنهب التي كانوا يشنونها على الأمنين في دياجير الظلام إلا أنهم كانوا يهونون من شأنه لأنه سيؤول حتماً للوارث^(٤).

وكان هناك تعليل به شيء من الإقناع لزوال الحياة خاصةً عند أهل الكتاب من يهودٍ ونصارى ، في مثل قول « أسقف نجران » :

منع البقاء تقلب الشمسِ وطلوعها من حيث لا تُمسي
وطلوعها بيبضاء صافية وغروبها صفراء كالورس
اليومُ نعلمُ ما يجيءُ به ومضى بفصلِ قضائه أمس^(٥).

= والشعر والشعراء ٦٤٨ ، والمفضليات ٦٤ والمؤتلف والمختلف ٨٧ ، ٩١ ، ومعجم الشعراء ٤٧٢ ، ومعجم شعراء الحماسة ٣٢ ، ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٩٣ ، والأعلام ٢٦٢/٢ .

(١) المفضليات ٢٣٩ .

(٢) هذا تأكيد وتأييد بأن الدنيا معناها الدهر ، فقد لهج الجاهليون بنسبة الحوادث إليه وها هم ينسبوننها إلى الدنيا فهما شيء واحد .

(٣) الأمالي ٩٩/٢ لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي دارالكتاب العربي ، بيروت ، لبنان . د.ط . د.ت .

(٤) انظر في هذا المعنى أبياتا للمزق العبيدي في المفضليات ص ٣٠٠ .

(٥) البيان والتبيين ٣٤٣/٣ ، ورواها الجاحظ أيضاً في الحيوان ٨٨/٣ =

وقول « أزيرق اليمامة » (١) :

وما للملك في الدنيا بقاءً وكيف بقاء ملك فيه موتٌ ؟ (٢) .

أما مفهومهم للدنيا فإنها أيام السرور والحبور ، يقول « علي بن عميرة الجرمي » (٣) :

ألا قاتل الله اللوى من محلة وقاتل دنيانا به كيف ولّت ! (٤) .

أو هي الأرض كما في قول « عمرو بن كلثوم » :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا (٥) .

== لقس بن ساعدة ، وهي له في الحماسة البصرية ٤٠٦/٢ ، فهل « قس بن ساعدة » هو « أسقف نجران » ذاته ؟؟

انظر ترجمة موسعة لقس في « أدب الحنيفية في العصر الجاهلي » ص ٩٢ وما بعدها ، للباحث « حبيب حنش الزهراني » - رسالة ماجستير مقدمة لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .

وانظر تفاوت نسبتها إلى أكثر من شاعر : المعارف ٦٣٠ لابن قتيبة ، والصناعتين ٢٢٢ لأبي هلال العسكري ، وسمط اللآلي ٤٨٦/١ للبكري .

(١) هو موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عبيد الحنفي اليمامي ، شاعر نصراني جاهلي ، لُقِبَ بأزيرق اليمامة ، ويعرف بابن ليلى وابن الفريعة وهي أمه . كان من شعراء بني حنيفة الكثيرين .

انظر ترجمته ومصادرها في : معجم الشعراء ٣٧٦ ، والمؤتلف ١٦٥ ، ومعجم شعراء الحماسة ١٢٨ ، وسزكين ١٧٠/٢/٢ .

(٢) معجم الشعراء ٣٧٧ .

(٣) شاعر جاهلي (!!) لم أجد ما أترجم له به ، انظر معجم الشعراء ٢٨١ وحماسة ابن الشجري ١٥٩ .

(٤) معجم الشعراء ٢٨١ .

(٥) جمهرة أشعار العرب ٤١٥/١ .

أو أنها تقيض الآخرة وسبيل التزود لما بعد الموت من البعث والنشور ،
يقول « المتلم بن رياح المري »^(١) :

إني مقسم ما ملكت فجاعلُ أجراً لآخرةٍ ودنيا تنفع^(٢)
فهذا المعنى والمفهوم - الإسلامي - للدنيا في هذا البيت لشاعر جاهلي
- ولا شك في جاهليته - يجعلنا نتساءل : ما مدى صحة نسبة البيت إليه ؟ !
وإن صحت فهل هو من الحنفاء ؟ ! أم أن هناك معنى آخر للدنيا والآخرة
هنا ؟ لا جواب !! الا اجتهد مني بأن معنى الدنيا هنا تقيض الآخرة هو
المعنى اللغوي بالمفهوم اللغوي الصّرف وهو أن الدنيا مقابل الآخرة^(٣) .
وأما قصيدة « ذي الأصبع العدواني »^(٤) التي يعاتب فيها ابن عمّه
والتي يقول فيها :

فإن تُردِ عَرَضَ الدنيا بمنقصتي فإن ذلك مما ليس يشجيني
ولا يُرى في غير الصبر منقصه وما سواه فإن الله يكفيني^(٥) .
وقوله :

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عني سوف يغنيني
الله يعلمني والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني^(٦) .

(١) شاعر جاهلي أحد أجواد العرب وقضاتهم الحكمين ، ذكر المرزباني خبراً
له مع « ستان بن أبي حارثة المري » انظر معجم الشعراء ٣٨٦ والحماسة
(عسيلان) ٢٢٠/١ والأعلام ١٤١/٣ .

(٢) الحماسة (عسيلان) ٣٠٩/٢ ، ومعجم الشعراء ٣٨٧ .

(٣) انظر ص من هذا البحث .

(٤) شاعر جاهلي حكيم قديم عمّر حتى خرف واهترّ وفرّق ماله ، انظر
ترجمته وسبب تسميته بـ « ذي الأصبع » ، والخلاف في اسم أبيه :
الأصمعيات ٧٢ والمفضليات ١٥٣ وسمط اللالي ٢٨٩ والمؤتلف ١١٨
والبيان والتبيين ١٢٠/٣ ، والأعلام ١٧٣/٢ ، وموسوعة الشعر العربي
٣٠١/٣ .

(٥)(٦) المفضليات ١٦٢ وعرض الدنيا : متاعها ، يقبض الدنيا : يمسك الرزق ،
والدنيا هنا هي المال ويؤازر هذا المعنى الشطر الثاني من البيت .

فالشك لديّ كبير أنها منحوّلة ، وإن لم يكن فإن « ذا الإصبع » إذاً
من الحنفاء . وإنما يصوّر مفهوم الدنيا والحياة لدى الجاهليين أحسن تصوير
وأصدقّه .

قول ليبيد بن ربيعة - رضي الله عنه - في جاهليته :

وأخلف قساً ليتنى ولو انني وأعيا على لقمان حكم التدبّر
فإن تسألينا كيف نحن فإننا عصفير من هذا الأنام المسحر^(١) .
وقريب منه قول « امرئ القيس » - وإن بدا منه بعض التطلّع لما بعد
الحياة - :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب
عصفير ونزوان ودود وأجراً من مجلحة الذئاب^(٢) .
ويبقى السؤال : ما معنى (الدنيا) لدى الجاهليين بهذا اللفظ ؟ !
وهل كانت علماً على الحياة باللفظ نفسه ؟ ! أم أنها بقايا مفاهيم شكلية
للحنيفية بقي اللفظ وذهب المضمون ؟ !!

(١) شرح ديوانه ٥٦ بتحقيق إحسان عباس ، سلسلة التراث العربي ،
الكويت ، ١٩٦٢ م ، د . ط .

وهناك فائدة لطيفة أوردها المرزباني في معجمه ٣٣٨ إذ يقول : [وإنما
قال ذلك « ليبيد » لقول « قس » :

هل الغيب معطى الأمن عند نزوله بحال مسيء في الأمور ومحسن
وما قد تولّى فهو لا شك فائت فهل ينفعني ليتني ولعلّني
وهذا من أندر الشعر في المحاورات بين حنفاء العصر الجاهلي .

(٢) ديوانه ٩٧ بتحقيق أبي الفضل محمد إبراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار
المعارف ، د . ت .

٢ - مفهومها في القرآن الكريم :

وردت كلمة « الدنيا » في القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة^(١) ، ثمانياً وستين ، منها وصفاً للحياة ، وأربعاً وستين مرة بلفظ « الحياة الدنيا » وثلاثاً بلفظ « حياتنا »^(٢) ومرة واحدة بلفظ « حياتكم »^(٣) .

ووردت ثلاثاً وأربعين مرة علماً مفرداً ، ومرة صفة للعدوة^(٤) وثلاثاً صفة للسماء^(٥) .

ومن خلال تتبعي لورود كلمة « الدنيا » في القرآن الكريم وجدت أن المفهوم لهذه الكلمة يتمايز بحسب ما قرّن إليها من ألفاظ ويختلف المدلول باختلاف موقعها من السياق ، وقد قسّمت المفهوم إلى خمسة أقسام :

- ١ - مفهوم « الحياة الدنيا » الخاص .
- ٢ - مفهوم « الحياة الدنيا » من خلال السياق .
- ٣ - مفهوم « الدنيا » الخاص .
- ٤ - مفهوم « الدنيا » من خلال السياق .
- ٥ - مفهوم « الدنيا » و « الحياة الدنيا » من خلال السياق المشترك بينهما .

(١) ذكر صاحب « القاموس الاسلامي » أنها ١١٣ موضعاً فقط .
 (٢) سورة الأنعام الآية ٢ ، سورة المؤمنون الآية ٣٧ وسورة الجاثية الآية ٢٤ .
 (٣) سورة الأحقاف الآية ٢٠ .
 (٤) سورة الأنفال الآية ٤٢ .
 (٥) سورة الصافات الآية ٦ وسورة فصلت الآية ١٢ وسورة الملك ٥ .

أ - مفهوم الحياة الدنيا الخاص :

إذا ذكر القرآن الكريم « الآخرة » فإنما يعنى بها « الحياة الآخرة » بتقدير إضافة الحياة^(١) ، وهي الحياة المقابلة لـ « الحياة الدنيا » . للتدليل على أن الحياة الدنيا فانية وأن من صار إلى الآخرة لم يمت أبداً فهي [دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها]^(٢) قال تعالى : (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان)^(٣) . وكذلك فالحياة الدنيا أكبر دليل على الحياة الآخرة^(٤) وهي المعبر إليها^(٥) .

وقد عرفوا الحياة الدنيا بأنها : [الحياة الحسيّة التي يعيشها البشر والمقصود بها ، الحياة القريبة]^(٦) وهي [حياة قصيرة بين موتين^(٧) ثم تليها الحياة الدائمة التي لا انقضاء لها]^(٨) والحياة مطلقاً من حيث هي خلق من خلق الله ، قال تعالى : (الذي خلق الموت والحياة)^(٩) .

والحياة الدنيا في القرآن الكريم مرحلة واحدة من مراحل الحياة

-
- (١) انظر مثلاً مفردات الراغب الأصفهاني ١٣ .
 - (٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢/١٣ .
 - (٣) سورة العنكبوت الآية ٦٤ وانظر معنى الحيوان في المصدر السابق ذاته .
 - (٤) انظر مثلاً سورة الأنبياء الآية ١٠٤ ، وسورة يس ٧٨ ، وسورة الحج الآية ٥٥ ، وسورة البقرة الآيات ٢٤٣ و ٢٥٨ - ٢٦٠ .
 - (٥) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم ٦٨ .
 - (٦) القاموس الإسلامي ٣٩٤/٢ .
 - (٧) كذا ولعل الصواب « موتتين » أو لعلّه نظر إلى تذكير الموت .
 - (٨) منهج الحضارة ٦٩ .
 - (٩) سورة الملك الآية ٢ ، وانظر معنى الحياة والموت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠٦/١٨ - ٢٠٧ .

والموت ، قال تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)^(١) . ويذكر الله سبحانه وتعالى قول الكافرين إذ رأوا مصيرهم : (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل)^(٢) . واختلف المفسرون في هذا التقسيم على أقوال^(٣) :

أحدها : أنهم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم ثم أحياهم للبعث^(٤) .

الثاني : أنهم أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمساءلة ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة^(٥) .

الثالث : خلقهم في ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عنهم الميثاق^(٦) ثم أماتهم ثم أحياهم في الدنيا^(٧) .

ولديّ قول رابع - وبالأحرى فهم رابع - فهمته من قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)^(٨) وهو :

أن الموتة الأولى في ظهر آدم عليه السلام ، والموتة الثانية بعد

(١) سورة البقرة الآية ٢٨ وانظر سورة الحج الآية ٦٦ بالترتيب نفسه .

(٢) سورة غافر الآية ١١ .

(٣) انظرها بالتفصيل في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩٨-٢٩٧/١١٥ .

(٤) وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك .

(٥) وهذا قول السدي .

(٦) يشير للآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٧) هذا قول « ابن زيد » .

(٨) سورة الدخان الآية ٥٦ وانظر كذلك الآيات ١٢ - ١٥ من سورة المؤمنون

التي اختتمت بقوله تعالى « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » .

الحياة الدنيا ، أما قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت)^(١) فهل يعني أنها لم تذوقه بعد؟! هذا رأي الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق^(٢) وهذا القول مرجوح إذ أن الموت خاتمة حياة وبدء حياة وبمعنى آخر لا حياة إلا بموت ولا موت إلا بحياة^(٣) ، وقد فهم هذا الشاعر اليهودي الجاهلي السموعل في قوله :

نطفة ما مُنيت يوم مُنيتُ	أمرت أمرها وفيها وبيتُ
كنّاها الله في مكان خفيّ	وخفيّ مكانها لو خفيتُ
أنا ميتٌ إذ ذاك ثمتُ حيّ	ثم بعد الحياة للبعث ميتُ ^(٤)

وفي القصيدة ذاتها يقول :

ميتٌ دهرٍ قد كنتُ ثم حييتُ	وحياتي رهنٌ بأن سأموتُ
----------------------------	------------------------

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ ، وسورة الأنبياء الآية ٣٥ ، وسورة العنكبوت الآية ٥٧ .

(٢) انظر أقوالهم وأقوالاً أخرى في الجامع لأحكام القرآن ٢٩٧/٤ .

(٣) انظر هذا المعنى لبعض النساك في البيان والتبيين ١٢٦/٢ وهو منسوب لابن مسعود رضي الله عنه في ١٨٢/٣ .

(٤) الأسمعيات ٨٥ ، إختيار الأسمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (١٢٢-٢١٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر ، د . ت .

والبيت الأول والثاني في ديوانه ٨١ باختلاف يسير في اللفظ والبيت الثالث ممّا لم يحوه ديوانه . ولعلّ الرواة حوّروه فكان البيتين التاليين في ديوانه ٨٣ :

ميتاً خلّقتُ ولم أكن من قبلها	شيئاً يموت ، فمت ثم حييتُ
وأموت أخرى بعدها ولأعلمنّ	إن كان ينفع أُنْتي سأموتُ

وشعره عامة ، وعلى قافية التاء المرفوعة خاصة من هذا القبيل .

وَأَتْتَنِي الْأَنْبَاءَ أَنِّي إِذَا مَا مِتُّ أَوْ رَمَّ أَعْظَمِي مَبْعُوتٌ^(١).

وما أقرب الموت من الحياة^(٢) ، فالحياة الدنيا في المفهوم القرآني بعامة معبر إلى الآخرة لا يركن إليها إلا من جحد الحياة الآخرة أو من أغوته الشهوات والملذات عن العمل للدار الآخرة ولهذا أضيف لفظ الحياة إلى الكفار في قوله تعالى : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)^(٣) وقوله تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)^(٤) و (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)^(٥) فكأن الحياة لهم هم فقط يتمتعون بملذاتها وشهواتها لا يرجون لقاء الله سبحانه وتعالى ، أما المؤمن حقاً فإن حياته وأعماله وسائر تصرفاته في الحياة مرتبطة بملك الأرض والسماء يقول تعالى (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ)^(٦) .

وانظر النسق القرآني العجيب حول هذا المعنى في سورة الأنعام مثلاً^(٧).

وقد وردت كلمة « الحياة » بجميع تصريفاتها واشتقاقاتها في القرآن الكريم مائة وأربعاً وثمانين مرة .

(١) الأصمعيات ٨٦ باختلاف كبير في اللفظ والترتيب عن ديوانه ٨١-٨٢، ورواية الأصمعيات أصح .

(٢) انظر أبياتاً لأبي النجم العجلي بهذا المعنى في البيان والتبيين ٢٠٢/٣ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٠ .

(٤) سورة الأنعام الآية ٢٩ وسورة المؤمنون الآية ٣٧ .

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

(٦) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢، ١٦٣ .

(٧) سورة الأنعام الآيات ٢٩ و ٣٢ و ٣٨ و ٧٠ و ١٣٠ .

ب - مفهوم الحياة الدنيا من خلال السياق :

ارتبط بورود « الحياة الدنيا » ألفاظ كثيرة مثل : اشتروا^(١) ، والقول فيها^(٢) ، والتزين^(٣) ، ولعب ولهو^(٤) ، ولهو ولعب^(٥) ، والذلة^(٦) ، والرضا بها^(٧) ، واستحبابها^(٨) ، وإيثارها^(٩) . والفرح بها^(١٠) وزهرتها^(١١) ، وغورها^(١٢) والتبئيت^(١٣) والبشرى^(١٤) والحياة الطيبة^(١٥) . وهذه محاولة لاستبيان المفهوم القرآني من خلال ارتباط « الحياة الدنيا » ببعض هذه الألفاظ .

١ - الحياة الطيبة : في قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)^(١٦) ، فالعمل الصالح المقترن بالإيمان سبيل الوصول إلى السعادة في هذه الحياة^(١٧) .

-
- (١) سورة البقرة الآية ٨٦ . (٢) سورة البقرة الآية ٢٠٤ .
 (٣) سورة البقرة الآية ٢١٢ ، وسورة آل عمران الآية ٢٤ ، وسورة يونس الآيتان ٢٤ ، ٨٨ ، وسورة هود الآية ١٥ ، وسورة الكهف الآيات ٧ ، ٢٨ ، ٤٦ ، وسورة القصص الآية ٦ ، وسورة الأحزاب الآية ٢٨ ، وسورة الحديد الآية ٢٠ .
 (٤) سورة الأنعام الآية ٣٢ ، وسورة محمد الآية ٣٦ ، وسورة الحديد الآية ٢٠ .
 (٥) سورة العنكبوت الآية ٦٤ . (٦) سورة الأعراف الآية ٥٢ .
 (٧) سورة التوبة الآية ٣٨ ، وسورة يونس الآية ٧ .
 (٨) سورة إبراهيم الآية ٣ ، وسورة النحل الآية ١٠٧ .
 (٩) سورة النازعات الآية ٣٨ ، وسورة الأعلى الآية ١٦ .
 (١٠) سورة الرعد الآية ٢٦ . (١١) سورة طه الآية ١٣١ .
 (١٢) سورة الأنعام الآيتان ٧٠ ، ١٣٠ ، وسورة الأعراف الآية ٥١ ، وسورة لقمان الآية ٣٣ ، وسورة فاطر الآية ٥ ، وسورة الجاثية الآية ٣٥ .
 (١٣) سورة إبراهيم الآية ٢٧ . (١٤) سورة يونس الآية ٦٤ .
 (١٥) سورة النحل الآية ٩٧ . (١٦) سورة النحل الآية ٩٧ .
 (١٧) انظر الجامع الصحيح لأحكام القرآن للقرطبي ١٧٤/١٠ والأقوال العشرة التي أوردها في معنى الحياة الطيبة هنا .

٢ - البشرى : في قوله تعالى : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) (١) . ومن معاني البشرى الرؤيا الصالحة ، أو التبشير بالجنة كما قال تعالى (وابتشروا بالجنة) (٢) .

٣ - زهرتها وزينتها : وهما بمعنى [الزينة الدنيوية من المال والأثاث والجاه] (٣) .

وتزين الدنيا من الله للكافرين لقبولهم التزين جملة وإقبالهم على الدنيا وتزين الشيطان لها بوسوسته وإغوائه ، قال تعالى : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) (٤) . وقال عن إبليس (لأزين لهم في الأرض) (٥) فالحياة الدنيا مجال للصراع بين الرغبات والشهوات والابتلاء بزینتها وزهرتها (٦) .

٤ - الاطمئنان : وهو السكون إليها (٧) ، قال تعالى : (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) (٨) .

(١) سورة يونس الآية ٦٤ وانظر معاني البشرى والأقوال فيها في الجامع الصحيح للقرطبي ٣٥٨/٨ - ٣٥٩ ، والمفردات ٤٨ .

(٢) سورة فصلت الآية ٣٠ .

(٣) المفردات ٢١٨ وانظر الزينة في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٥٤/١٠ ومعنى الزهرة ٢٦٢/١١ - ٢٦٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١٢ .

(٥) سورة الحجر الآية ٣٩ وهي هنا بمعنى الإغواء انظر ١٧٤/٧ و ١٩٥ ، الجامع لأحكام القرآن .

(٦) سيأتي في الفصل الثاني إن شاء الله بحث مفصل في هذا المعنى .

(٧) المفردات ٣٠٧ .

(٨) سورة يونس الآيتان ٧ ، ٨ .

٥ - غرور : والغرور : [صفة غالبة]^(١) للحياة الدنيا وهي : [أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول : (يا ليتني قدمت لحياتي)]^(٢) [(٣) .

٦ - لعب ولهو : والحياة بهذا المعنى هي [حياة الكافر لأنه يزجها في غرور ويأطل فأما حياة المؤمن فتنتطوي على أعمال صالحة فلا تكون لهواً ولعباً]^(٤) قاله ابن عباس رضي الله عنهما ووضح فيه مفهوم المخالفة . ويقال : [لعب فلان ، إذا كان فعله غير قاصد ، مقصداً صحيحاً]^(٥) . و[اللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه]^(٦) وقوله تعالى : (إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر ...)^(٧) . قيل : [المعنى : أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء]^(٨) .

٧ - التثبيت : قال الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(٩) . وقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم على أنها نزلت في عذاب القبر ، عند سؤال الملكين :

(١) هذا قول الفراء . انظر لسان العرب (غ ر ر) ١٢/٥ لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م د . ط .

(٢) سورة الفجر الآية ٢٤ وسيأتي حديث مفصل عن الغرور في الفصل الثاني بحول الله .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٣٢٢-٣٢٣ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٦/٤١٥ .

(٥) المفردات ٤٥٠ . (٦) نفسه ٤٥٥ .

(٧) سورة الحديد الآية ٢٠ .

(٨) الجامع للقرطبي ١٧/٢٥٥ وفيما يأتي من البحث زيادة تفصيل .

(٩) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم .

والتثبيت هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله^(١)، وتقويتهم
[بالحجج القوية]^(٢) وها هنا مبحث هام :

(١) انظر مثلاً: صحيح البخاري ٢/٢٠٤ وشرح الآية والحديث في عون
الباري لحل أدلة صحيح البخاري ٢/٢٥٧ - ٢٥٩ للعلامة صديق بن حسن
القنوجي ، إدارة إحياء التراث الاسلامي ، قطر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م د . ط .
وانظر صحيح مسلم ١٧/٢٠٤ بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي ،
بيروت . لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م وشرحه السراج
الوهاج ٣/٣٩٤ للعلامة صديق بن حسن القنوجي ، تحقيق عبدالله بن
إبراهيم الأنصاري ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، قطر ، د . ط . د . ت .
ومصنف ابن أبي شيبة ٣/٣٧٧ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار
للإمام الحافظ عبدالله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن أبي
بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي ت ٢٣٥ ، تحقيق الأستاذ عامر العمري
الأعظمي (سلسلة مطبوعات الدار السلفية - ٢٣ -) بومباي ، الهند .
وقد ذكر القرطبي في كتابه التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة
١/١٥٧ بتحقيق الدكتور السيد الجمل ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
مكتبة مدبولي ، القاهرة ؛ كثيراً من الأحاديث والآثار الواردة في
الوقوف عند القبر قليلاً بعد الدفن ، والدعاء للميت بالتثبيت .
وفي كتاب الدر المنثور في التفسير بالماثور ٤/١٤٦ وهو مختصر
تفسير ترجمان القرآن للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
السيوطي ت ٩١١هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م أن هذه الأحاديث رواها كل من : الطيالسي ، والبخاري
ومسلم وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن
المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . وقد خرج محقق تفسير النسائي
١/٦١٩-٦٢١ بعض هذه الأحاديث .

(٢) المفردات ٧٨ .

فهل المراد بـ « الحياة الدنيا » في الآية « القبر وعذابه » ؟!

وهل تدخل مرحلة ما بعد الموت ضمن نطاق الحياة الدنيا ؟ ! .
 للمفسرين في الإجابة عن هذا التساؤل والإشكال مذاهب أربعة :
 فذهبت طائفة منهم إلى ترجيح وتأكيد أن المراد بالحياة الدنيا هو القبر
 والمساواة فيه .
 وذهب آخرون إلى أن المراد بالحياة الدنيا : القبر عند السؤال ،
 والآخرة : يوم القيامة .
 وقال قوم إن المراد بالحياة الدنيا ما قبل الموت ، والآخرة : حين
 السؤال في القبر .
 واكتفت طائفة منهم بذكر هذه الأقوال ولم ترجح .
 وسأبسط رأيي وما توصلت إليه - بحول الله - بعد سرد أقوال بعض
 المفسرين وحججهم .

أولاً - القائلون بأن المراد بـ « الحياة الدنيا » حين السؤال

في القبر :

ذكر الحافظ ابن كثير أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر ، ثم سرد
 أحاديث عذاب القبر ومساقلته ، واستدل بالآية عليه (١) .

وقال الإمام مجاهد بن جبر: [هذا في القبر، وفي الآخرة مثل ذلك] (٢)

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٧٣/٤ لابن كثير ، مكتبة النهضة الحديثة ،
 مطبعة الفجالة الجديد / القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

(٢) تفسير الإمام مجاهد بن جبر ١٠٢هـ ، ص ٤١١ تحقيق الدكتور محمد
 عبد السلام أبو النبيل ، دار الفكر الإسلامي الحديثة الطبعة الأولى
 ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

ثم استدلل بحديث سؤال الملكين وهو قول الإمام « سفيان الثوري » أيضا^(١).

وكذلك القرطبي في تذكرته ، وتفسيره^(٢) .

وانتقى ابن القيم في بدائعه من تعاليق القاضي قوله : [عذاب القبر حق ، وقد قيل ولا بد من انقطاعه لأنه من عذاب الدنيا ، والدنيا وما فيها منقطع : فلا بد أن يلحقهم الفناء والبلاء ولا يُعرف مقدار مدة ذلك]^(٣) . واختار هذا القول في تفسيره^(٤) ، وأعلام الموقعين^(٥) .

وإلى ذلك ذهب « الفخر الرازي » وقال : [وهو القول المشهور]^(٦) .

وبه قال صاحب التفسيرات الأحمدية^(٧) . وعُلِّل ذلك بقوله : [لأن

(١) انظر تفسير سفيان الثوري ١٥٦ ، للإمام أبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ت ١٦١ هـ - ٧٧٧ م ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) انظر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٢٠٥/١ وما بعدها . وتفسيره ٣٦٣/٩ .

(٣) بدائع الفوائد ١٠٥/٣ للإمام شيخ الإسلام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر بابن قيم الجوزية ت ٧٥١ ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر ، القاهرة د . ط . د . ت .

(٤) انظر التفسير القيم ٣٣٤ للإمام ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١) جمعه محمد أويس الندوي ، حققه محمد حامد الفقي ، لجنة التراث العربي ، بيروت ، لبنان د . ط . د . ط .

(٥) انظر أعلام الموقعين ٢١١/١ - ٢١٢ .

(٦) التفسير الكبير ١٢٢/١٩ للإمام الفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، طهران ، الطبعة الثانية ، د . ت .

(٧) انظر التفسيرات الأحمدية - ٤٩ لأحمد ملاجيون الجوفوري ، بمبئي ، الهند ، مطبع فتح الكريم ١٠٦٩ هـ .

التثبيت والتعليل المذكورين في الآية لا يكون إلا بعد السؤال فلهذا وقته النبي عليه السلام بقوله : إذا قيل له [(١)] .

وبهذا القول قال القفال والماوردي وجماعة (٢) .

وقال الكرمانى : [وجلّ المفسرين على أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر] (٣) .

ثانياً - القائلون بأن المراد بالحياة الدنيا : القبر ،

والآخرة : يوم القيامة :

استعرض الدكتور وهبة الزحيلي الأقوال في المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية ثم قال : [وقيل وهو المشهور : معناه الثبات عند سؤال القبر ، والمراد بالحياة الدنيا : مدة الحياة (٤) ، والآخرة يوم القيامة والحساب] (٥) .

وقال الخازن : [وقوله « في الحياة الدنيا » يعني في القبر عند السؤال ، وفي الآخرة ، يعني يوم القيامة عند البعث والحساب ، وهذا القول

(١) ذاته ٤٩٠ .

(٢) انظرتفسير القرطبي ٣٦٣/٩ .

(٣) غرائب التفسير ، وعجائب التأويل ٥٨٠/٨ للشيخ تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى ، تحقيق الدكتور شمران سركال يونس العجلي ، دار القبلة ، جدة ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٤) يقصد تلك المرحلة الكبرى التي تشمل القبر وما بعد الموت ، بقرينة تفسيره الآخرة .

(٥) التفسير المنير ٢٤٥/١٣ في العقيدة والشريعة والمنهج ، للدكتور وهبة الزحيلي . دار الفكر المعاصر بيروت ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

واضح [١] ، وهو أحد قولي الإمام مجاهد (٢) .

ثالثاً - القائلون بأن المراد بالحياة الدنيا ما قبل الموت ،

والآخرة : حين السؤال في القبر :

يُروى هذا القول عن « عبدالله بن عباس » رضي الله عنهما (٣) ، وذكر الطبري في تفسيره جميع الآراء في المراد بالحياة الدنيا (٤) وركز على آراء القائلين بأن المراد بالحياة الدنيا ، حين السؤال في القبر ، ثم سرد الأحاديث الصحيحة التي تعضد ذلك (٥) ، ومن عجب أنه ذكر ذلك كله ثم قال : [والصواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وهو أن معناه (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) وذلك تشبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم « وفي الآخرة » بمثل الذي ثبتهم به في الحياة الدنيا ، وذلك في قبورهم حين يُسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم] (٦) .

وسلك هذا المسلك « ابن عطية » وقال بعد استعراض الآراء والأدلة :

[والأول أحسن ، ورجحه الطبري] (٧) .

(١) تفسير الخازن ٧٧/٣ . المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٣٨١ هـ . د . ط .

(٢) انظر تفسيره ٤١١ .

(٣) انظر تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٢١٣ ، مكتبة الجمهورية

العربية ، القاهرة ، د . ط . د . ت .

(٤) انظر تفسير الطبري ٦٠٢/١٦ . دار المعارف بمصر د . ط . د . ت .

(٥) ذاته ٥٨٩/١٦ - ٦٠٢ .

(٦) ذاته ٦٠٢/١٦ .

(٧) تفسير ابن عطية ٢٣٩/٨ - ٢٤٠ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب =

ويعلق محقق تفسير ابن عطية قائلاً : [وليس في الحديث ما يفيد أن الحياة الدنيا هي في القبر ، وأن الآخرة هي يوم القيامة ، وليس فيه أيضاً ما يفيد العكس ، ولهذا قال ابن عطية : في لفظ مُتَأَوَّل] (١) .

وذهب الصنعاني إلى أن المراد بالثبوت في الحياة الدنيا هو قول لا إله إلا الله ، وأن المراد بالآخرة المسألة في القبر (٢) .

ورجح البغوي أن المراد بالحياة الدنيا قبل الموت ، والآخرة في القبر (٣) ، ومع ذلك روى بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله إذا فرغ من دفن الرجل ووقف عليه : [استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يُسأل] (٤) . وروى بسنده أيضاً عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الآية نزلت في عذاب القبر (٥) ... !!!

= العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق وتعليق ، عبدالله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم ، قطر ، الدوحة الطبعة الأولى غرة رجب ١٤٠٥هـ ، آذار - مارس ، ١٩٨٥م .

(١) ذاته هامش ٢٤٠/٨ وكلام المفسر والمحقق يدور حول حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الوارد في الصحيحين الذي يذكر نصاً أن المراد بالحياة الدنيا هو حين السؤال في القبر ، فمن أين جاء التأول ؟ وكيف استجاز المحقق لنفسه أن ينفي ما يفيد ذلك ؟ أو ما يفيد العكس ؟ سبحان الله (!!!) وانظر مراد « ابن عطية » من « تأوله » ص ٧٤ من هذا البحث .

(٢) انظر تفسير القرآن الجزء الأول ، القسم الثاني ص ٣٤٢ للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني ١٢٦-٢١١هـ تحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

(٣) انظر تفسير البغوي ٣٣/٣ المُسمّى معالم التنزيل ، للإمام الجليل محيي السنة أبي محمد الحسين بن سعود القراء البغوي الشافعي ت ٥١٦ هـ تحقيق خالد بن عبد الرحمن العك ومروان سوار ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

(٤) ذاته ٣٥/٣ . (٥) ذاته ٣٣/٣ و ٣٤/٣ .

أما ابن الجوزي فذكر القول الأول وهو [أن الحياة الدنيا زمن السؤال في القبر]^(١) ثم ذكر القول الثالث ومال إليه ، فقال : [إن الحياة الدنيا زمان الحياة على وجه الأرض ، والآخرة : زمان المساعة في القبر وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب وفيه أحاديث تعضده]^(٢).

وإلى هذا ذهب الكلبي في تفسيره ، وأشار إلى أنه قول الجمهور^(٣) (!!!).

ويوافق العلامة محمود شكري الألوسي^(٤) ، ما ذهب إليه البيضاوي^(٥) من أن الجار في قوله تعالى : (في الحياة الدنيا) متعلق بتثبيت ، [أي يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم فلا يزالون إذا قبيض لهم من يفتنهم ويحاول زلهم عنه]^(٦) .

(١) زاد المسير في علم التفسير ٣٦١/٤ للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، المكتب الاسلامي ، دمشق - بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

(٢) ذاته ٣٦١/٤ ومعلوم أن هذا المعنى لم يذهب إليه البراء بن عازب رضي الله عنه قطعاً ، بل العكس ، وما من حديث هناك يعضد هذا المعنى إطلاقاً !!!

(٣) انظر : كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ١٤١/٢ للإمام العلامة الحافظ المفسر خادم القرآن العظيم محمد بن أحمد بن جزّي الكلبي ، الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

(٤) انظر روح المعاني ٢١٧/١٣ في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، إدارة الطباعة المنيرية ، دمشق ، د . ط . د . ت .

(٥) انظر تفسير البيضاوي ٣٤٠ المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، تأليف الإمام ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي ، دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م . د . ط .

(٦) روح المعاني ٢١٧/١٣ وقوله « فلا يزالون » لعل صوابه (فلا يزالون) .

ويشير العلامة الألوسي - رحمه الله - إلى رواية البراء بن عازب رضي الله عنه أن التثبیت في الحياة الدنيا ، أي في القبر ، ثم يردف قائلاً : [وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا : مدة الحياة وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء واختاره الطبري] (١).

وحول أمر تعلق الجارين في الآية، يذكر الأقوال في ذلك ثم يقول : [وأمر تعلق الجارين ما قدمنا ، وهذا عند بعضهم مثل إيتاء الشجرة أكلها كل حين] (٢) ملمحاً إلى التفسير الفلسفي الصوفي لها (٣) .

ويعلل القاسمي تفسير الآخرة بالقبر بقوله : [لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا] (٤) .

رابعاً-الذين ذكروا هذه الأقوال ولم يرجحوا واحداً منها:

ذكر «الزمخشري» في كشافه، قولين منها (٥) وكذلك قول الماوردي (٦)،

(١) ذاته ٢١٧/١٣ . نعم اختاره الطبري ، ولكن هل هذا مذهب جمهور العلماء حقاً ؟ ! سيتضح ذلك فيما يأتي من بحث . فتابع .

(٢) ذاته ٢١٧/١٣ .

(٣) انظر هذا التفسير فيه ٢١٣/١٣ وما بعدها .

(٤) تفسير القاسمي ٣٧٢٩/١٠ ، محاسن التأويل ، تأليف علامة الشام ، محمد جمال الدين القاسمي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

(٥) انظر الكشف ٣٧٧/٢ طبعة دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

(٦) انظر تفسير الماوردي ٣٤٨/٢ ، النكت والعيون ، لأبي الحسن علي بن ٣٦٤-٤٥٠هـ تحقيق خضر محمد خضر ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت مطابع مقهوي ، الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

والخطيب الشربيني^(١) . أما السيوطي فقد استقصى هذه الأقوال جميعها وأسندها إلى أصحابها مستعرضاً أدلتهم بالتفصيل^(٢) .

خامساً - ما ترجح لدن :

وأستطيع بعد هذا التنقيب والبحث في بطون المراجع وكتب التفسير - قدر استطاعتي - أن أحاول إبداء رأيي في المراد بالحياة الدنيا في الآية ؛ فأقول - والله أعلم - إن الصواب والصحيح والأرجح هو عند السؤال في القبر بخاصة ، وحياة البرزخ بعامة ، و [هذا قول أكثر المفسرين]^(٣) ، ولا يغرنك ما قاله بعضهم في معرض الاحتجاج لرأيهم المخالف بأنه قول أكثر المفسرين^(٤) .

والحجة واضحة ، والدليل بين ، ذلك أن التثبيت في الآية قد فسره الحديث الصحيح بأنه [في القبر حين يسألهم منكر ونكير]^(٥) ، ويتفق الثعالبي ، وابن عطية ، على أن [هذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة]^(٦) . تلميحاً إلى مرحلة الحياة الكبرى التي تشمل

(١) انظر تفسير القرآن الكريم ١٨٠/٢ المسمى بالسراج المنير للإمام الشيخ الخطيب الشربيني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، مصورة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة ، بولاق ، مصر ، ١٢٨٥ هـ .

(٢) انظر الدر المنثور ١٤٦/٤ - ١٥١ .

(٣) تفسير البغوي ٣٣/٣ وانظر في الإشارة إلى أنه المشهور وقول أكثر المفسرين : التفسير الكبير ١٢٢/١٩ للرازي ، وغرائب التفسير ٥٨٠/٨ للكرماني . والتفسير المنير ٢٤٥/١٣ لوهبة الزحيلي .

(٤) انظر مثلاً روح البيان ٢١٧/١٣ والتسهيل لعلوم التنزيل ١٤١/٢ لابن جزي الكلبي .

(٥) التصاريف ٣٥٣ ليحيى بن سلام ، تحقيق هند شلبي ، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٩ م ، د . ط .

(٦) انظر تفسير ابن عطية ٢٣٩/٨ وتفسير الثعالبي ٢٧٩/٢ الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، د . ط ، د . ت .

القبر^(١)، يفصح عن ذلك قول ابن عطية في مسألة التأول [لأن ذلك في مدة وجود الدنيا]^(٢) وقول جماعة من العلماء : [لأن الموتى في الدنيا حتى يُبعثوا]^(٣) ، ولا إشكال في أن المراد بالحياة الدنيا القبر ، أو حين المسألة فيه^(٤) ، فالمعنى يشملهما ، فلا فرق .

والدليل القاطع والبرهان الساطع على أن المراد بالحياة الدنيا في الآية هو القبر والمسألة فيه وعذابه ونعيمه ؛ تلك الآية التي تمسك بها أهل السنة في إثبات عذاب القبر ، وهي قوله تعالى عن آل فرعون : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب)^(٥) ؛ [ولا شك أن المراد بالغزو والعشيّ دار الدنيا من بعد الوفاة إلى يوم القيامة ، بقرينة قوله (ويوم تقوم الساعة)]^(٦) ، وهذا قول جميع

(١) عن مفهوم الحياة الكبرى ، والحياة الصغرى سيأتي الحديث فيما يأتي من بحث .

(٢) تفسير ابن عطية ٢٤٠/٨ .

(٣) انظر فتح القدير ١٠٧/٣ ، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . د . ط . د . ت .

(٤) انظر القولين في فتح القدير ١٠٧/٣ وأشار هنا إلى توافق القولين الأول والثاني في أن المراد بالحياة الدنيا هو : القبر ، قولاً واحداً . والاختلاف فقط في المراد بالآخرة في الآية .

(٥) الآية ٤٦ من سورة غافر .

(٦) التفسيرات الأحمديّة ٦٤٧ وانظر تفسير مجاهد ٥٨٣ وانظر تفسير سورة إبراهيم عليه السلام ص ١٧٩ للدكتور محمد جميل غازي ، مطبعة المدني ، جدة . د . ط . د . ت .

وانظر كذلك كتب التفسير في قوله تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا) الآية من سورة طه . وأن المقصود بـ « معيشة ضنكا » عذاب القبر . وكذلك تفسير الصحابة رضوان الله عليهم بهذا في الزهد ٤٤٠/٨ ، ٤٤١ لهناد السري .

المفسرين من أهل السنة^(١) .

هذا هو القول الحق ، ولا يحتاج إلى تأويل ، فالآيات والأحاديث الصحيحة تعضده ، فكما يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا - أي في القبر - بالقول الثابت ؛ يخزي الله الذين كفروا ويسومهم أشد العذاب في الحياة الدنيا - أي في القبر - ولعلّ هذا إشارة وبيان وتوضيح لخزي الكفار في الحياة الدنيا التي توعدهم الله به في غير ما آية من كتابه الكريم .

ولا حاجة للجمع بين الأقوال فالمعنى واضح ، إلا أن هناك تعليقاً لطيفاً لمحمد عزّ دروزة ، حاول فيه الجمع بين الأقوال ، لا بأس من إيرادها ، إذ يقول رحمه الله :

[إنه ما دام مضمون الآية وروحها يلهمان أنها أوسع شمولاً ، وأنها تتناول كل موقف في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فالمتبادر أن ما جاء في الأحاديث هو من باب التمثيل لتثبيت الله للمؤمن واضطراب الكافر في موقف من المواقف]^(٢) . هذا والله وحده أعلم بالصواب .

ج - مفهوم الدنيا الخاص :

سبق القول إنّ الدنيا مشتقة من الدنوّ ، وأن الدنوّ هو [القرب بالذات أو بالحكم ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة]^(٣) .
وسبق أيضاً أن كلمة « الدنيا » وردت ثلاثاً وأربعين مرة مفردة علماً

(١) انظر كتب التفسير في تفسير هذه الآية .

(٢) التفسير الحديث ١٤٣/٦ لمحمد عزّ دروزة ، دار إحياء الكتب العربية ،

عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣ م ، د . ط .

(٣) المفردات ١٧٢ .

قائماً بذاته^(١) . وقد جاءت في ثلاثة وثلاثين موضعاً يقابلها لفظ «الآخرة»^(٢) وجاءت في أربعة مواضع يقابلها معنى الآخرة^(٣) . ويقابلها «يوم القيامة» في ثلاثة مواضع^(٤) . ومرة واحدة مقابل «الدار الآخرة»^(٥) و«دار الآخرة»^(٦) وتكرر لفظ «الدنيا» مرتين في آيتين فقط^(٧) .

وقد جرى الذين عرفوا «الدنيا» في القرآن الكريم على أنها [صفة الحياة وهي التي تسبق الأخرى وقد يحذف الموصوف]^(٨) ويقولون إنها [جاءت بمعنى الحياة التي تسبق الأخرى]^(٩) وإنها [وصف للحياة ، ثم حُذِفَ الموصوف ، وعليه سائر ما جاء في التنزيل]^(١٠) .

- (١) أخطأ صاحب (التطور الدلالي) ص ٣٤٨ فظنّها سبعاً وأربعين مرة .
 (٢) في سورة البقرة الآيات ١١٤ ، ١٣٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ وسورة آل عمران الآيات ٢٢ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، وسورة النساء الآيتان ٧٧ ، ١٣٤ ، وسورة المائدة الآيتان ٣٣ ، ٤١ ، وسورة الأعراف الآية ١٥٦ ، وسورة الأنفال الآية ٦٧ ، وسورة التوبة الآيتان ٦٩ ، ٧٤ ، وسورة يوسف الآية ١٠١ ، وسورة النحل الآيتان ٤١ ، ١٢٢ ، وسورة الحج الآيتان ١١ ، ١٥ ، وسورة النور الآيات ١٤ ، ١٩ ، ٢٣ ، وسورة العنكبوت الآية ٢٧ ، وسورة الأحزاب الآية ٥٧ ، وسورة غافر الآية ٤٣ ، وسورة الشورى الآية ٢٠ ، وسورة الحشر الآية ٣ .

- (٣) في قوله تعالى (وتزهق أنفسهم) سورة التوبة الآية ٨٥ ، وقوله تعالى (ثم إلينا مرجعهم) سورة يونس الآية ٧٠ ، وقوله تعالى (ثم إليّ مرجعكم) سورة لقمان الآية ١٥ ، وقوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) سورة الزمر الآية ١٠ .

- (٤) سورة هود الآية ٦٠ ، وسورة الحج الآية ٩ ، وسورة القصص الآية ٤٢ .

- (٥) سورة القصص الآية ٧٧ .

- (٦) سورة النحل الآية ٣٠ .

- (٧) سورة النساء الآية ١٣٤ ، وسورة التوبة الآية ٣٨ .

- (٨)(٩)(١٠) الموسوعة القرآنية ٨٤٥/٣ .

وهذا التعريف صحيح ذلك أن [وصف الدنيا بأنها الأولى تؤكد من القرآن الكريم بأن حياة أخرى سوف تتبعها]^(١).

ويؤكد هذا التعريف ويؤصله « عودة خليل أبو عودة » في كتابه « التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم » فيقول :

[وقد فرّق القرآن الكريم بين كلمة « الدنيا » وحدها ، وبين كلمة « الحياة الدنيا » فكلمة « الدنيا » عندما ترد وحدها تقابل في السياق القرآني كلمة « الآخرة » وترد عندما يكون الحديث عن الدنيا فقط ، ولا يتعرض لعمل الإنسان وصفاته وآثاره ونتائجه وهذا يدلّ على أن « الدنيا » بهذا الاستعمال هي : علّم على هذه الحياة التي نحيّاها قبل الموت]^(٢).

وكما أكّدتُ فإن هذا التعريف صحيحٌ إلا أنه تعريف قاصر ، أخذ معنى واحداً من معاني الدنيا الكثيرة وترك الباقي .

فمثلاً قول « عودة خليل أبو عودة » في تعريفه إنها [علّم على هذه الحياة التي نحيّاها قبل الموت]^(٣) فهل معنى هذا أن الدنيا بإضافتها إلى الحياة يكون لها معنى آخر ؟ ! أو أنها صفة لحياة أخرى غير هذه ؟ !

وكذلك تعريف أصحاب الموسوعة القرآنية للدنيا بأنها [وصفُ الحياة ثم حُذِفَ الموصوف ، وعليه سائر ما جاء في التنزيل]^(٤) ، فهل ينطبق هذا التعريف مثلاً على قوله تعالى :

(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)^(٥) ؟ !

(١) انظر التطور الدلالي ٣٥١ .

(٢) (٣) ذاته ٣٤٩٠ .

(٤) ٨٤٥/٣ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

وقد أجمع المفسرون على أن معنى كلمة « الدنيا » هنا هي :
الغنائم ، وفيها يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : [ما شعرنا أن
أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان
يوم أحد]^(١).

فهل نقول -مثلاً- إن الدنيا هنا صفة للحياة وقد حُذِفَ الموصوف ؟ !!
وللأسف فقد اعتاد من يتطرقون للدراسات القرآنية على تعريف « الدنيا » بهذا
التعريف المبسّر ، نقلاً وتقليداً وتوفيراً للوقت والجهد .

ومن خلال استقراي لآيات الذكر الحكيم وجدت أن كلمة « الدنيا » إذا
قُرِنت مع الحياة فإن معناها واحد فقط وهو : تلك المرحلة من الحياة بما فيها
البرزخ بين مراحل الموت والحياة المتتالية .

أما إذا أُفردت « الدنيا » فإنها تستقل بمعناها ولا تظل مرتبطة في
الذهن بلفظ الحياة ، إلا أنها إذا سُبِّحت بما يدل على الظرفية كانت إلى معنى
المرحلة أقرب ، وما عدا ذلك فإن معناها مرتبط بما يتصل بها من كلمات مثل :
« ثواب الدنيا » و « متاع الدنيا » و « عرض الدنيا » .. الخ وسيأتي بيانه
لاحقاً .

وقد أسرف مؤلفوا « دائرة المعارف الإسلامية »^(٢) في قولهم إن القرآن
الكريم قد ذم الدنيا مطلقاً وإنها مشتقة من الدناءة أي : الحقارة ، واستدلوا
بآيات في غير مفهومها وخرجوا باستنتاجات تربط المفهوم النصراني
بالمفهوم الإسلامي وقد كفانا الدكتور «محمد مهدي علام» مؤونة الرد عليهم^(٣) ،

(١) انظر القرطبي ٢٣٧/٤ ، والطبري ٥٠٩/٢ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣٠٠/٥ وما بعدها .

(٣) ذاته ٣٠٢/٥ - ٣٠٣ .

[سئل أبو صفوان الرعيني^(١) : ما الدنيا التي ذمها الله عز وجل في القرآن التي ينبغي للعاقل أن يجتنبها ؟ قال : كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم ، وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة فليس منها]^(٢) .

وهكذا فإن الذمّ الوارد في « الدنيا » في القرآن الكريم ليس راجعاً إلى زمانها من ليل ونهار إلى يوم القيامة ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :
(وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً)^(٣) .

وعليه قول بعض السلف^(٤) :

إنما الدنيا إلى الجذبة والنار طريق
والليالي متجر الإنسا ن والأيام سوق

ومعلوم أن « الدنيا » إذا كانت بمعنى المرحلة فإنها أمرٌ لا يملكه ابن آدم يدخلها ويخرج منها بغير إرادته ، أما إن كانت بمعنى : الكون والأرض وتسخير ما فيهما له من مال وزينة ومتاع وشهوات ونحوها فإن ابن آدم فيهما حرٌّ غير مقيد إلا بأحكام الهية وهنا المناط في الحساب (فمن يعمل

(١) كان « سفيان بن عيينة » يجيء فيسلم عليه بمكة ويقف عليه ، ولم أجد ما أترجم له به .

(٢) ذم الدنيا ١٤٥ .

وتزكية النفوس وتربيتها كما يقررها علماء السلف ١٢٨ جمع وترتيب أحمد فريد تحقيق ماجد بن أبي الليل ، مكتبة التوعية الإسلامية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٣) الفرقان : ٦٢ .

(٤) البيهقي - الزهد - رقم ٧٩١ . أورده من قول « عامر بن العباس الهمداني الزاهد » .

مَثَقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١) وَيَكُونُ ذِمَّةُ الدُّنْيَا حِينَئِذٍ رَاجِعًا إِلَى أَفْعَالِ بَنِي آدَمَ فِي الدُّنْيَا .

ولذلك وردت الآيات الكثيرة التي تبين عدم إيمان الكافرين بالآخرة وأنهم مهتمون بالدنيا ويرونها الحياة الوحيدة (٢) . وقد سماها الله سبحانه وتعالى : « العاجلة » قال تعالى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) (٣) [أي الدار الدنيا والحياة فيها] (٤) .

وسماها « الأولى » قال تعالى : (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى) (٥) وسماها أيضاً « الحافرة » قال تعالى : (أَتُنَّا لَمُرِيدُونَ فِي الْحَافِرَةِ) (٦) أي [في أول أمرنا] (٧) . [إلى الحياة الأولى إلى الدنيا] (٨) و [إلى خلقنا الأول] (٩) .

-
- (١) الزلزلة : الآيتان ٦ ، ٧ .
- (٢) انظر مثلاً سورة : البقرة الايات ٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ ، وسورة النساء الآية ٧٧ ، وسورة الأنعام الايتان ٣٢ ، ٧٠ ، وسورة الروم الآية ٦ ، وسورة لقمان الآية ٣٣ ، وسورة فاطر الآية ٥ وغيرها كثير .
- (٣) سورة القيامة ٢٠ .
- (٤) القرطبي ١٩/١٠٧ .
- (٥) الضحى : ٤ .
- (٦) سورة النازعات الآية ١٠ وانظر « تأملات في سورة النازعات » ٣٩ - ٤١ للدكتور حسن محمد باجودة ، دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٧م د . ط .
- (٧) فقه اللغة ١٩ لأبي منصور اسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان د . ط . د . ت .
- (٨) تفسير أبي السعود ٥/٢٣ لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (٨٩٦ - ٩٥١ هـ) مكتبة ومطبعة محمد علي صبح ، مصر د . ط . د . ت .
- وتأملات في سورة النازعات ٣٩ - ٤٣ للدكتور حسن محمد باجودة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ط . د . ت (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - مقدمة) .
- (٩) الأمالي ١/٢٧ .

وأنشد ابن الأنباري :

[أحافرة على صلعٍ وشيبٍ معاذ الله من سفهٍ وعارٍ

أي أُرْجِعْ إِلَى الصَّبَا بعدما شَبْتُ وَصَلَعْتُ .

وقال أعرابي لابن الكلبي : « ما معنى قول الله تعالى : (أُنْثَا

لمردودون في الحافرة) ؟ ، فقال : الخلق الأول ، قال : فما معنى : (عظاماً

نخرة) ؟ فقال : التي تتخر فيها الريح ، أما سمعت قول صاحبنا يوم

القادسية :

أقدم أخا نهمٍ على الأساوره ولا تهولنك رجلٌ نادره

فإنما قصرُك تربُ الساهره حتى تعود بعدها في الحافره

من بعد ما صرتَ عظاماً ناخره^(١) .

وهكذا فالسياق القرآني يدلّ على أنّ الحافرة هي الدنيا .

(١) الأمالي ٢٧/١ ولم يُنسب لقائل .

د - مفهوم الدنيا من خلال السياق :

هناك ألفاظ كثيرة ارتبطت بكلمة « الدنيا » من خلال السياق القرآني الكريم ، وقد تتبعناها فوجدتها تزيد معناها وضوحاً ، وهناك ألفاظ في حكم المترادف مثل : ثواب ، وحسنة ، وأجر ، وحرث ، الخ .

وهذه بعض الألفاظ التي وردت في السياق القرآني مرتبطة بكلمة الدنيا :

١ - تفكر : قال تعالى : (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة)^(١) والتفكر في هذه الآية الكريمة [متناول للأحوال التي في النشأة الأولى وما يكون في النشأة الآخرة]^(٢) .

٢ - أجر : قوله تعالى عن ربراهيم عليه السلام (وأتيناه أجره في الدنيا)^(٣) ف [الأجر والأجرة : ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً]^(٤) وهناك عدة أقوال تفسر الأجر في هذه الآية منها [أن أكثر الأنبياء من ولده]^(٥) [وقال قتادة : هو مثل قوله (وأتيناه في الدنيا حسنة)^(٦) أي عاقبة وعملاً صالحاً وثناً حسناً]^(٧) وهذا أرجح الأقوال عندي والله أعلم وتؤيده الشواهد القرآنية الكثيرة .

٣ - ثواب : وتعريفه قريب من « الأجر » ذلك أن الثواب هو [ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثواباً تصوراً أنه

(١) سورة البقرة الآيتان ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٢) المفردات ١٧٢ . (٣) سورة العنكبوت الآية ٢٧ .

(٤) المفردات ١٠ - ١١ .

(٥) القرطبي ١٣/٣٤٠ وانظر فيه بقية الأقوال .

(٦) سورة النحل الآية ١٢٢ . (٧) القرطبي ١٣/٣٤٠ .

هو هو [١] قال تعالى : (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ) (٢) .

٤ - حسنة : و [يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ كُلِّ مَا يَسِرُّ مِنْ نِعْمَةٍ تَنَالُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ وَبِدَنِهِ وَأَحْوَالِهِ وَالسَّيِّئَةُ تَضَادُّهَا] (٣) وَمِنْ مَعَانِيهَا الثَّوَابُ (٤) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (٥) .

ودائماً يأتي لفظ « الدنيا » مجرداً من إضافته للحياة إذا ما اقترن بكلمة « حسنة » وما اشتق منها ، ولعلّ هذا مما يدلّ على تميّز « الدنيا » عن « الحياة الدنيا » .

٥ - حرث : [الحرث : إلقاء البذر في الأرض وتهيئها للزرع ويُسمّى المحروث حرثاً قال الله تعالى : (أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ) (٦) وَتُصَوِّرُ مِنْهُ الْعِمَارَةُ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (٧) وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي « مَكَارِمِ الشَّرِيعَةِ » (٨) كَوْنَ الدُّنْيَا حَرْثاً لِلنَّاسِ وَكَوْنَهُمْ حُرَّاثاً فِيهَا وَكَيْفِيَّةَ حَرْثِهِمْ] (٩) .

والحرث هو [العمل والكسب] (١٠) ، وبهذا يكون معنى الحرث في الآية الكريمة : [مَنْ طَلَبَ بِمَا رَزَقْنَاهُ حَرْثاً لِآخِرَتِهِ فَأَدَّى حَقَّقَ اللَّهَ وَأَنْفَقَ فِي إِعْزَازِ الدِّينِ فَإِنَّمَا نَعْطِيهِ ثَوَابَ ذَلِكَ ، لِلوَاحِدِ عَشَرَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ فَكَثُرَ ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ « حَرْثَ الدُّنْيَا » أَيَّ طَلَبَ بِالْمَالِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ رِيَاسَةً فِي الدُّنْيَا وَالتَّوَصَّلَ إِلَى الْمُحْظُورَاتِ فَإِنَّا لَا نَحْرِمُهُ الرِّزْقَ أَصْلاً ، وَلَكِنْ لَا حِظَّ لَهُ فِي

(١) المفردات ٨٣. (٢) سورة آل عمران الآية ١٤٨ .

(٣)(٤) المفردات ١١٨. (٥) سورة النساء الآية ٧٩ .

(٦) سورة القلم الآية ٢٢. (٧) سورة الشورى الآية ٢٠ .

(٨) كتاب « للأصفهاني » صاحب المفردات . وهو كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة » .

(٩) المفردات ١١٢. (١٠) القرطبي ١٨/١٦ .

الآخرة من ماله [١].

وهذا نظير قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مدموماً مدحوراً) [٢].

ونلاحظ هنا أن : الأجر ، والثواب ، والحسنة ، والحرث ، تقترب معانيها حتى تبدو وكأنها مترادفات .

٦ - خسر: [وكل خُسْرانٍ ذكره الله تعالى في القرآن فهو على] [٣] معنى [المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين] [٣] وليس [الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية] [٤] كما فسره القرطبي : [بأنه لا حظ له في غنيمة ولا ثناء] [٥].

٧ - حبط : وقد جاء حبط العمل في القرآن الكريم [على أضرب : أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية فلا تُغني في القيامة غناءً كما أشار إليه بقوله : (وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً) [٦].

والثاني : أن تكون أعمالاً أخروية لكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى كما روي : « أنه يؤتى يوم القيامة برجل فيقال له : بم كان اشتغالك؟ قال : بقراءة القرآن فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قاريء وقد قيل ذلك ، فيؤمر به إلى النار » [٧].

(١) ذاته ١٨/١٦ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١٨ .

(٣) المفردات ١٤٧ .

(٤) ذاته ١٤٧ .

(٥) القرطبي ١٨/١٢ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٧) الاصفهاني هنا يروي الحديث بالمعنى ، انظر الحديث بنصه في : صحيح

مسلم ٥٠/١٣ بشرح النووي .

والثالث : أن تكون أعمالاً صالحة ولكن بإزائها سيئات توفى عليها وذلك هو المشار إليه بخفة الميزان^(١) .

وأصل الحَبْط من الحَبَط وهو : ان تكثر الدابة أكلًا حتى ينتفخ بطنها ، وقال عليه السلام : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلِمُّ » . وسُمِّي الحارثُ « الحَبْط » ، لأنه أصابه ذلك ثم سُمِّي أولاده حبطات [٢] .

٨ - لعن : [اللعن : الطرد والإبعاد على سبيل السَّخَط ، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة ، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه]^(٣) .

يقول تعالى عن قوم هود : (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة)^(٤) أي ألحقوها ، وأشار إلى الدنيا بالضمير « هذه » في قوم شعيب في قوله تعالى : (وأتبعوا في هذه لعنة)^(٥) أي في الدنيا .

٩ - نصيب : [النصيب : الحظ المنسوب المعين]^(٦) قال تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا)^(٧) وفي تفسير النصيب في هذه الآية أقوال عديدة منها أنه : العمل الصالح ، العمر والعمل ، الحظ والتمتع بالحلال ، النظر في عاقبة الدنيا ، تقديم الفضل وإمساك ما يبلِّغ ، الأكل والشرب بلا سرف ، الكَفَن ، النصيب من الحلال في الدنيا^(٨) .

(١) كما في قوله تعالى : (وأما من خفت موازينه فأمله هاوية) سورة القارعة الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) المفردات ١٠٦ والحَبْط : بفتح فكسر . وهو « الحارث بن عمرو بن تميم بن مر » والحبطات : بفتححتين أبناؤه .

(٣) ذاته ٤٥١ . (٤) سورة هود الآية ٦ .

(٥) سورة هود الآية ٩٩ . (٦) المفردات ٤٩٤ .

(٧) سورة القصص الآية ٧٧ .

(٨) انظر هذه الأقوال وغيرها في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣١٤/١٣ .

ويتجلى معنى النصيب أكثر في قوله تعالى : (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)^(١) .

[وهذا فيه تنبيه للمؤمن أن لا يقصر دعواته في الدنيا]^(٢) ذلك أن [العرب في الجاهلية كانت تدعو في مصالح الدنيا فقط فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدو ، ولا يطلبون الآخرة ، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها]^(٣) وسؤال الدنيا هنا هو ما [يُعبر به عن النصيب ، فيقال : فلان ذو أكل من الدنيا]^(٤) أي نصيب .

وهكذا نجد أن الألفاظ المقترنة بالدنيا تجلى معناها وتوضحه أكثر ، فالدنيا مجال للتفكير ينال فيها المؤمن الأجر والثواب والحسنة وما عند الله خير وأبقى ويحبط عمل الكافرين فيخسروا الدنيا والآخرة ، ويبوءوا بغضب الله ولعنته وما ينتظرهم في الآخرة أشد وأبقى ، والدنيا مجال العمل للآخرة فمن عمل فيها يريد وجه الله تال سعادة الدارين ، ومن أراد الدنيا وحدها كان حرثه ونصيبه من الدنيا فقط ، ويقول الله تعالى لهم يوم الحساب (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)^(٥) .

(١) سورة البقرة الآيات ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) القرطبي ٤٣٢/٢ . (٣) ذاته ٤٣٢/٢ .

(٤) المفردات ٢٠ . (٥) سورة الأحقاف الآية ٢٠ .

هـ - مفهوم « الدنيا » و « الحياة الدنيا » من خلال السياق المشترك :

هناك ألفاظ اقترنت بمرور كلمة « الدنيا » في القرآن الكريم ، وكذلك اقترنت الألفاظ ذاتها بـ « الحياة الدنيا » ومن خلال استقراء هذه الألفاظ ومعانيها يزيد معنى « الدنيا » مفردة وضوحاً ، وكذلك معنى « الحياة الدنيا » باقتران الحياة بها ، ومن هذه الألفاظ ما يلي :

١ - أراد « ومشتقاتها » [والإرادة منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء ، والإرادة في الأصل: قوة مركبة من شهوة وحاجة وجعل اسماً لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل] (١).

وعن إرادة الحياة الدنيا يقول تعالى : (قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون) (٢) وواضح أن معناها هنا مقترن بالمال والثراء (٣).

أما قوله تعالى : (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) (٤) فمعناها إلى المرحلة الأقرب .

وعن إرادة الدنيا يقول تعالى معاتباً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) (٥) ومعناها هنا هنا هو : الغنيمة ، ويفسرها قول ابن مسعود رضي الله عنه [ما شعرنا أن أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد] (٦) .

(١) المفردات ٢٠٦ . (٢) سورة القصص الآية ٧٩ .

(٣) انظر تفسيرها كاملاً في الجامع للقرطبي ٣١٧/١٣ .

(٤) سورة النجم الآية ٢٩ . (٥) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٦) القرطبي ٢٣٧/٤ .

٢ - خزي : وهو الانكسار وضربٌ من الاستخفاف ومصدره الخزي ورجلٌ خَزِيٌّ وهو الذلُّ والهوان ، قال تعالى : (ذلك لهم خزيٌ في الدنيا)^(١) وقال تعالى : (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا)^(٢) ولعل « الخزي » بالتعريف ينطبق عليه هذا المعنى أكثر من كونه « مفرداً منكراً » وخاصة إذا تأخر عن « الدنيا » كما في قوله تعالى : (لهم في الدنيا خزي)^(٣) فإن الخزي هنا له معنى خاص كما ذكر القرطبي إذ قال : [الكفار خزيهم في الدنيا القتل والصلب والجلاء والسبى والجزية والذل]^(٤) والدليل على أن معنى « الخزي » هو الذل والهون ، هو قوله تعالى : (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا)^(٥) وقوله تعالى : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون)^(٦) . وكما أن الخزي عذاب في الدنيا والآخرة كذلك الهون عذاب في الدنيا وفي الآخرة ، قال تعالى : (فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم)^(٧) وقوله تعالى : (ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون)^(٨) وقوله تعالى : (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق)^(٩) .

٣ - متاع : [المتاع : المدة ، قال الله تعالى : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)^(١٠) وقال تعالى : (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى

(١) سورة المائدة الآية ٣٣ .

(٢) سورة الزمر الآية ٢٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ١١٤ ، وسورة المائدة الآية ٤١ ، وفي سورة الحج الآية ٩ (له في الدنيا خزي) .

(٤) انظر القرطبي ١٨٢/٦ .

(٥) سورة فصلت الآية ١٦ . (٦) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٧) سورة التوبة الآية ٦٣ . (٨) سورة فصلت الآية ١٦ .

(٩) سورة الأحقاف الآية ٢٠ .

(١٠) سورة البقرة الآية ٣٦ .

حين) (١) ومنه يقال : متع النهار [(٢)] ومتع النبات إذا ارتفع في أول النبات ، والمتاع : انتفاع ممتد الوقت [(٣)] وكل ما ينتفع به على وجه ما فهو متاع ومتعة [(٤)] وكذلك [الآلات التي ينتفع بها] (٥) قال تعالى : (ولما فتحوا متاعهم) (٦) أي طعامهم فسمّاه متاعاً ، وقيل وعاء هم وكلاهما متاع ، وهما متلازمان فإن الطعام كان في الوعاء [(٧)] .

[والمتاع : المنفعة ، قال الله تعالى : (نحن جعلناه تذكرة ومتاعاً للمقوين) (٨) وقال تعالى : (متاعاً لكم ولأنعامكم) (٩) وقال تعالى : (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة) (١٠)] (١١) .

والمتاع : هو كل [ما يتمتع به ويتنفع كالفأس والقدر والقصة ثم يزول ولا يبقى ملكه] (١٢) [ويقال لما ينتفع به في البيت متاع ، قال : (ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) (١٣)] (١٤) و [الأثاث : متاع البيت الكثير ، وقيل للمال

(١) سورة الأنبياء الآية ١١١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٣٩٢ لابن قتيبة شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م (مقدمة) د . ط ، عيسى البابي الحلبي .

(٣) المفردات ٤٦١ . (٤) المفردات ٤٦١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ٣٩٢ (٦) سورة يوسف الآية ٦٥ .

(٧) المفردات ٤٦١ .

(٨) سورة الواقعة الآية ٧٣ و « المقوين » أي : المسافرين .

(٩) سورة النازعات الآية ٣٣ وسورة عبس الآية ٣٢ .

(١٠) سورة المائدة الآية ٩٦ .

(١١) انظر تأويل مشكل القرآن ٣٩٢ .

(١٢) القرطبي ٣٠٢/٤ .

(١٣) سورة الرعد الآية ١٧ .

(١٤) المفردات ٤٦١ .

كله إذا كان كثيراً أثاث ، ولا واحد له كالمَتَاع^(١) قال تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً)^(٢) فثاثاً هنا : أي متاعاً كثيراً^(٣) .

وقد جاءت كلمة « متاع » في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه :

أولاً : - مفردة - أي غير متصلة أو مقترنة بذكر الدنيا أو الحياة

الدنيا - بجميع اشتقاقاتها مثل : تمتعوا ، استمتعوا ، يتمتعون ... الخ

ومن ذلك قوله تعالى : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)^(٤)

فيه بيان وتنبيه [أن لكل إنسان في الدنيا تمتعاً مدة معلومة]^(٥) .

وقوله تعالى : (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر)^(٦)

فالتمتع هنا [في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات

الله عليهم]^(٧) وعلى ذلك قوله تعالى : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما

تأكل الأنعام)^(٨) [وقيل : المؤمن في الدنيا يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر

يتمتع]^(٩) وأما قوله تعالى : (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من

قبلكم بخلاقهم)^(١٠) فالاستمتاع هنا [طلب التمتع]^(١١) . وأما قوله تعالى :

(واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى)^(١٢)

فأصل الإمتاع هنا [الإطالة ومنه أمتع الله بك ومتع]^(١٣) والمعنى [يمتعكم

بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن

أهلك قبلكم]^(١٤) .

(١) المفردات ٩ . (٢) سورة مريم الآية ٧٤ .

(٣) انظر القرطبي ١٤٢/١١ .

(٤) سورة البقرة الآية ٣٦ . (٥) المفردات ٤٦١ .

(٦) سورة الفرقان الآية ١٨ . (٧) القرطبي ١١/١٣ .

(٨) سورة محمد الآية ١٢ . (٩) القرطبي ٢٣٥/١٦ .

(١٠) سورة التوبة الآية ٦٩ والخلاق هو : النصيب والحظ .

(١١) المفردات ٤٦١ . (١٢) سورة هود الآية ٣ .

(١٣) القرطبي ٤/٩ . (١٤) ذاته ٤/٩ .

وأما قوله تعالى : (لا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاعٌ قليل)^(١) فالمتاع هنا : [ما يعجل الانتفاع به ، وسمّاه قليلاً لأنه فانٍ ، وإن كان كثيراً فهو قليل]^(٢) .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : (فلا يغررك تقلبهم في البلاد)^(٣) ، والآيات التالية تزيد معنى المتاع هنا وضوحاً وهي قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً)^(٤) وقوله تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبئين تسارع لهم في الخيران بل لا يشعرون)^(٥) وقوله تعالى : (وأملي لهم إن كيدي متين)^(٦) وغيرها من الآيات .

ثانياً : - واقعة في سياق ذكر الحياة الدنيا ، وهو على عدة أوجه منها :

أ - وصف الحياة الدنيا بأنها متاع أو هي المتاع ، كما في قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار)^(٧) وكان الجاهليون يرون « الحياة الدنيا » هي المتاع ، إذ لا يؤمنون بحياة أخرى ، يقول مشعّت العامري^(٨) يخاطب نفسه :
تمتّع يا مشعّت إن شيئاً سبقت به الوفاة هو المتاع^(٩)

-
- (١) سورة آل عمران ١٩٦ . (٢) القرطبي ٤/٣٢٠ .
(٣) سورة غافر الآية ٤ . (٤) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .
(٥) سورة المؤمنون الآية ٥٦ .
(٦) سورة الأعراف الآية ١٨٣ وسورة القلم الآية ٤٥ .
(٧) سورة غافر الآية ٣٩ .
(٨) نكر المرزباني مشعّتاً وقال : « وأحسبه لقبا » . وهو شاعر جاهلي لم أجد ما أترجم له به ، انظر : معجم الشعراء ٤٧٥ والأصمعيات ١٦٥ ومعجم ألقاب الشعراء ٢١٣ ، ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٣٣٧ .
(٩) معجم الشعراء ٤٧٥ .

ولذلك يقول الله تعالى عن مشركي مكة : (وفرحوا بالحياة الدنيا)^(١) لأنهم ما عرفوا [غيرها وجهلوا ما عند الله]^(٢) ثم أكد سبحانه وتعالى بأن الحياة الدنيا ليست سوى [متاع من الأمتعة كالقصعة والسكرجة ، أو شيء قليل ذاهب - من متع النهار إذا ارتفع - فلا بد له من زوال ، أو كزاد الراعي]^(٣) فقال : (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع)^(٤) .

ب - إضافة المتاع إلى « الحياة الدنيا » : قال تعالى : (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها)^(٥) وقال تعالى في تفصيل هذا المتاع وبيان هذا الزخرف وهذه الزينة : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا)^(٦) وقوله تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا)^(٧) .

أما قوله تعالى : (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا)^(٨) فإنه في شأن الفساد والشرك الذي يعود وباله على الكافرين

(١) سورة الرعد الآية ٢٦ .

(٢) القرطبي ٣١٤/٩ .

(٣) انظر القرطبي ٣١٤/٩ والسكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

(٤) سورة الرعد الآية ٢٦ .

(٥) سورة القصص الآية ٦٠ وسورة الشورى الآية ٣٦ (فما أوتيتم) .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٤ .

(٧) سورة الزخرف الآيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ وانظر تفصيل أقوال المفسرين في

متاع الحياة الدنيا ، القرطبي ٣٦/٤ و ٣٠٢/٤ .

(٨) سورة يونس الآية ٢٣ .

ويمتعون به قليلاً في الحياة الدنيا (١) .

أما قوله تعالى : (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (٢) وقوله تعالى : (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) (٣) فإن المعنى في الآية الأولى مرتبط بالمعنى اللغوي للمتاع وهو الفترة القليلة ما بين الضحى والظهر ، وفي الثانية مرتبط بالمعنى الاصطلاحي للمتاع وهو الشيء الزائل الذاهب .

ج - وصف الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور : قال تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٤) [والغرور - بالضّم : ما اغترّ به من متاع الدنيا] (٥) و [الغرور : الباطل] (٦) ويقال [غرّ الرجل يغره غراً : إذا أوطأه عشوة أو خبره بكذب] (٧) وهكذا فمعنى متاع الغرور أي الكذب والباطل ولذلك [فإن من أثر الخمول (٨) وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غراً فيما قصد له ولا مذموماً بنوع من الذم] (٩) .

(١) انظر القرطبي ٣٢٦/٨ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٨ . (٣) سورة الرعد الآية ٢٦ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٥ وسورة الحديد الآية ٢٠ .

(٥) لسان العرب (غ ر ر) ١٢/٥ .

(٦) لسان العرب (غ ر ر) ١٣/٥ وانظر المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ٢١٦/٥

- ٢١٧ تأليف علي بن اسماعيل ابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ) تحقيق إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ، مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، والمفردات ٣٥٩ .

(٧) جمهرة اللغة ٨٥/١ لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) طبعته بالأوفست دار صادر بيروت ، عن الطبعة الأولى في حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٤٤ هـ

(٨) الخمول هنا ليس معناه الكسل المتبادر إلى الذهن أول مرة وإنما المقصود به الالتفات إلى النفس والزهد عن الشهرة وحبّ الظهور .

(٩) لسان العرب (غ ر ر) ١٢/٥ .

[وقال سعيد بن جبير : « متاع الغرور : ما يلهيك عن طلب الآخرة ،
ومالم يلهك فليس بمتاع الغرور ، ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه » (١) .

د - وصف متاع الحياة الدنيا بأنه زهرتها : قال تعالى : (ولا تمدنْ
عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) (٢) ومعنى
زهرة الحياة الدنيا [زينتها بالنبات ، والزهرة : بالفتح في الزاي والهاء نُورُ
النبات] (٣) [ويقال : سراج زاهر أي له بريق ، وزهر الأشجار ما يروق من
ألوانها ، وفي الحديث : « كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون » (٣) أي :
نير اللون ، ويقال لكل شيء مستتير : زاهر وهو أحسن الألوان] (٤) .
فزهرة الحياة الدنيا قريب معناها من الزينة والزخرف .

ثالثاً - مقترنة بكلمة « الدنيا » ، وقد وردت في القرآن الكريم في آيتين
فقط هما قوله تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) (٥) وقوله تعالى : (قل إن الذين
يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم
نذيقهم العذاب الشديد) (٦) .

ومتاع الدنيا [منفعتها والاستمتاع بلذاتها ، وسماه قليلاً لأنه لا
بقاء له] (٧) . [تنبيهها أن ذلك في جنب الآخرة غير معتد به ... وكل موضع
ذُكر فيه تمتعوا في الدنيا فعلى طريق التهديد وذلك لما فيه من معنى
التوسع] (٨) ، وتلك دعوة الشاعر الجاهلي « عبید بن الأبرص » (٩) إلى النهم من

(١) تزكية النفوس ١٢٨ . (٢) سورة طه الآية ١٣١ .

(٣) الحديث في صحيح البخاري ٢٧/٥ . (٤) القرطبي ٢٦٣/١١ .

(٥) سورة النساء الآية ٧٧ . (٦) سورة يونس الآيتان ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) القرطبي ٢٨١/٥ . (٨) المفردات ٢٦١ .

(٩) شاعر جاهلي قديم ، كان سيداً وفارساً من فرسان قومه المشهورين .
وقد نُسِجَتْ حول موته الأساطير شأن امريء القيس . انظر ترجمته
في ديوانه .

ملذات الحياة ومفاتها ورغائبها في قوله :

تزود من الدنيا متاعاً فإنه على كل حال خير زاد المزود^(١)

وكذب ، فإن خير الزاد التقوى . وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا كلها متاعاً فقال : [الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة]^(٢) وفي السراج الوهاج^(٣) أن المرأة الصالحة هي المرادة بالحسنة في قوله تعالى : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة)^(٤) .

وهنا لمحة لطيفة وهي أن المتاع إذا ما اقترن بالحياة الدنيا فإنه غالباً ما يوصف بأنه « متاع الغرور » . وأما إذا اقترن بالدنيا فإنه يوصف بأنه « قليل » وفي ذلك إيماء إلى معنى كل من الحياة الدنيا والآخرة ، ذلك بأن وصف المتاع بأنه « غرور » يعني بأن الحياة هذه لا تدعو أن تكون فترة اختبار وليست الحياة الحقيقية بل إنها خداع وباطل وأحلام نائم ، أما وصف « المتاع » بأنه قليل فذلك إحياء بأن الدنيا في جنب الآخرة قليل وإن بدا لنا أنه كثير .

٤ - عَرَض : (بفتح الراء) تكاد جميع مصادر اللغة تجمع على تعريف العَرَض بأنه^(٥) : حطام الدنيا وما يصيب الإنسان منها ومتاعها وما

(١) ديوانه ٦٨ ، دار بيروت ودار صادر ، بيروت ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م ، د . ط .

(٢) صحيح مسلم . ٥٦/١ . (٣) ١٤٤/٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٠١ .

(٥) انظر هذا التعريف مثلاً في : لسان العرب (ع ر ض) وتاج العروس

(ع ر ض) ٤٠١/١٨ - ٤٠٣ ، والصحاح للجوهري (ع ر ض) ١٠٨٣/٣ ،

وتهذيب الصحاح (ع ر ض) ٤٣٥/١ تأليف محمود بن أحمد الزنجاني

تحقيق عبدالسلام محمد هارون وأحمد عبد الغفور عطار ، دار المعارف

بمصر ، د . ط ، د . ت ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م (مقدمة) ، وترتيب القاموس

(ع ر ض) ١٧٠/٣ ، والعين للخليل بن أحمد (ع ر ض) . =

كان من مالٍ قلٍّ أو كثرٍ ، ويُقال : « الدنيا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ
والفاجر » (١) .

[وفسّره أبو عبيدة بأنه الطمع ، قال « عديّ بن زيد » (٢) :

= والمصباح المنير ١٥٣ للعلامة أحمد بن محمد علي الفيومي المقرئ :
مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٧ م ، د . ط .

وإصلاح المنطق ٧٢ ، لابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ) شرح وتحقيق أحمد
محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر (سلسلة
نخائر العرب) الطبعة الثانية ١٩٧٠ م ، والأمالى ، للقالى ١١٩/١ ومعجم
متن اللغة ٧٣/٣ لأحمد رشيد رضا ، وديوان الأدب ٢١٦/١ لأبي إبراهيم
إسحاق بن إبراهيم القارابي (ت ٣٥٠ هـ) ، تحقيق أحمد مختار عمر ،
المطابع الأميرية القاهرة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ، والقرطبي ٣٣٩/٥ .

(١) من خطبة لشداد بن أوس رضي الله عنه في البيان ٧٠/٤ ، والعقد الفريد
١٩١/٤ ، تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨) تحقيق
محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، د . ط ، د . ت . وصفة الصفوة ٧٠٩/١
للإمام جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي (٥١٠ - ٥٩٧ هـ) تحقيق محمود
فاخوري ، دار الوعي حلب ، د . ط ، د . ت ، وأصلاح المنطق ٧٢ وهو حديث
مرفوع له في مشكاة المصابيح ١٤٣٨/٣ ، تأليف محمد بن عبد الله
الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي
، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، حديث رقم ٥٢١٦ وانظر
الحديث وتخريجه في كتاب الأمثال والحكم ١٢٠ ، تأليف علي بن محمد
بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ،
مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، وانظر تاج العروس ٤٠٢/١٨ .

(٢) هو أبو عمير عدي بن زيد العبادي التميمي عاش في زمن « كسرى
أبرويز » فترجم له واكتسب العربية . حبسه « النعمان بن المنذر »
لأمر كان بينهما ومات في الحبس . كان شاعراً نصرانياً فصيحاً مقدماً ،
عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة الجاهليين ، ألفت عنه كتب عدة .
انظر ترجمته في ديوانه .

[وما هذا بأول من يلاقي من الحدثان والعرض القريب
 في اللسان : أي الطمع القريب] (١) .
 وقال آخر (٢) :

من كان يرجو بقاءً لا نفاذ له فلا يكن عرض الدنيا له شجناً (٣)
 وفسرّوه (٤) بأنه المال لأنه - أي المال - عارض زائل غير ثابت ولكونه
 مائلاً أبداً ، وجميع متاع الدنيا عرض (٥) وجمعه عروض وهو ما لا يكون له
 ثبات (٦) . [وقيل الدنيا عرض حاضر تنبئها أن لا ثبات لها] (٧) .
 والعرض عند المناطقة والمتكلمين [ما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون
 والطعم] (٨) و [لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير من حال إلى حال] (٩) .
 وقد جاء لفظ « عرض » في القرآن الكريم على الوجوه التالية :

-
- (١) تاج العروس ٤٠٢/١٨ (عرض) .
 - (٢) لم ينسب .
 - (٣) معجم مقاييس اللغة ٢٧٦/٤ لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا
 (ت ٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ ، دار
 إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، وتاج العروس ٤٠٢/١٨ .
 - (٤) انظر القرطبي ٣٣٩/٥ ، والمفردات ٤٧٨ .
 - (٥) القرطبي ٣٣٩/٥ .
 - (٦) تاج العروس ٤٠٣/١٨ ، والمفردات ٣٣١ .
 - (٧) المفردات ٣٣١ .
 - (٨) المفردات ٣٣١ وانظر تاج العروس ٤٠٢/١٨ ، والقرطبي ٣٨٦/٦ .
 - (٩) المفردات ٣٣٠ ، والقرطبي ٣٨٦/٦ .

١ - مقترباً بالحياة الدنيا : وذلك في موضعين :

الأول : قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا)^(١) وسبب نزول هذه الآية أن المسلمين لحقوا رجلاً في غنْيمَةٍ^(٢) له فقال : السلام عليكم فقتلوه ، وأخذوا تلك الغنْيمَةَ ، فنزلت هذه الآية^(٣) .

الثاني : قوله تعالى : (ولا تُكْرِهوا فتياتكم على البغاءِ إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا)^(٤) .

والعَرَضُ هنا هو [الشيء الذي تكسبه الأمة بفرجها ، والولد يُسْتَرْقُ فيباع]^(٥) .

٢ - مقترباً بالدنيا : وورد ذلك في موضع واحد هو قوله تعالى :

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة)^(٦) .

والعَرَضُ هنا هو ما يدفعه الأسرى من فداء . ونظير هذه الآية قوله تعالى في عتاب المسلمين بعد غزوة أحد : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)^(٧) [قال ابن مسعود : ما شعرنا أن أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد]^(٨) ففسر ابن مسعود رضي الله عنه الغنْيمَةَ هنا بعرض الدنيا .

(١) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٢) جماعة من الغنم أو قطعة منها .

(٣) انظر مختصر سنن أبي داود ٤/٦ بتحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة

السنة المحمدية ، د . ط . د . ت .

(٥) القرطبي ٢٥٥/١٢ .

(٤) سورة النور الآية ٣٣ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٦) سورة الأنفال الآية ٦٧ .

(٨) القرطبي ٢٣٧/٤ .

٣ - **مقترنا بالأدنى** : قال تعالى : (يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا)^(١) . وفسرُوا العَرَضَ هنا بأنه الرُّشوة في الأحكام^(٢) ، وما يعرض من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم^(٣) .

٤ - **مفرداً** ، وذلك في موضعين :

الأول : قوله تعالى : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه)^(٤) وهذه الآية تكملة للآية السابقة ولا يخرج معنى العرض هنا عن الذي قبله .

الثاني : قوله تعالى : (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك)^(٥) والعرض هنا ما يعرض من منافع الدنيا والمراد : الغنيمة^(٦) .

وشبيه بهذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : [لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرَقاً سميماً أو مرماتين^(٧) حسنتين لشهد العشاء]^(٨) .

وهكذا يتبين لنا أن العَرَضَ هو متاع الدنيا الحسِّي والمتاع هو : متاعها الحسِّي والمعنوي ، إذن فكل عَرَضٍ متاع وليس كل متاع عَرَضاً ، وأخالف في ذلك « أبا عبيدة » إذ يقول : [جميع متاع الدنيا عَرَضٌ]^(٩) وليس كذلك فقد أفضت في شرح معنى كل منهما وبالتأمل يظهر الفرق .

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٩ .

(٢) انظر تاج العروس ٤٠٢/١٨ .

(٣) القرطبي ٣١١/٧ . (٤) سورة الأعراف الآية ١٦٩ .

(٥) سورة التوبة الآية ٤٢ . (٦) انظر القرطبي ١٥٣/٨ .

(٧) مثنى مرمأة وهي : ظلف الشاة أو ما بين ظلفها واللحم ، ولعلّه ما يطلق عليه عامّة أهل الحجاز « المقادِم » والعَرَق : القَدْرَة من اللحم ، أى القطعة منه .

(٨) صحيح البخاري ٢٦٢/١ .

(٩) تاج العروس ٤٠٢/١٨ .

أما العَرَضُ (بسكون الراء) فهو ما سوى النقيدين من متاع الدنيا وعرضها^(١) [فكل عَرَضٍ داخل في العَرَضِ وليس كل عَرَضٍ عَرَضاً]^(٢) .
وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم : [ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ ولكن الغنى غنى النفس]^(٣) .

-
- (١) انظر مثلاً: تاج العروس ٣٩١/١٨ ، وبيوان الأدب ١١٥/١ ، والصحاح ١.٨٣/٣ وتهذيبه ٤٣٥/١ ، والمصباح المنير ٤٥/٢ ، وأمالى القالي ١١٩/١ ، والقرطبي ٣٤٠/٥ .
(٢) تاج العروس ٤٠١/١٨ ، وانظر القرطبي ٣٤٠/٥ .
(٣) صحيح البخاري ١٧١/٨ .

٣ - مفاهيم عامة للدنيا

قد تُطْلَق كلمة الدنيا ولا يراد بها معناها اللغوي أو الاصطلاحي وإنما هي مفاهيم توارثتها الأجيال أو مفاهيم خاصة تعورف عليها ، وقد يكون هنا نوع من الروابط بين المفهوم وبين المعنى الأصلي لكلمة الدنيا ، وسأحاول قدر استطاعتي الإيجاز ما أمكن في سرد هذه المفاهيم .

فمن هذه المفاهيم مايلي :

أ - المرحلة الحياتية الصغرى : وأقصد بها مدة حياة شخص

ما فهي دنياه ، ومن ذلك قوله تعالى : (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين)^(١) فسرّها القرطبي بقوله : [هذا سؤال لهم عن مدة حياتهم في الدنيا]^(٢) ويطرّد معنى الدنيا بهذا المفهوم على جميع الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ الدنيا ، بل إنّ هذا المفهوم هو المفهوم الغالب لهذه الكلمة .

ب - المرحلة الحياتية الكبرى : وهي تلك المرحلة التي تبدأ من

هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض إلى موت آخر فرد من ذريته قبل قيام الساعة . بما في ذلك عذاب القبر كما مرّ معنا سلفاً^(٣) .

و [قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف وإنما يُعَذَّبُ الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد^(٤) في النار من أيام الآخرة ، إنما هي سبعة أيام فأنزل الله (وقالوا لن تمسّنا النار إلا أياماً معدودة)^(٥)]^(٦) .

-
- (١) سورة المؤمنون الآية ١١٢ .
(٢) القرطبي ١٥٥/١٢ وانظر أيضاً ٣٨٩/٦ في تفسير قوله تعالى : (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) سورة الأنعام الآية ٢ .
(٣) انظر ص ٦٤ وما بعدها من هذا البحث .
(٤) كذا ، ولع الصواب « يوماً واحداً » . (٥) الآية ٨ من سورة البقرة .
(٦) القرطبي ١٠/٢ ، في الحديث عن سبب نزول الآية .

وقد اشتهر بين الناس أن مقدار الدنيا سبعة آلاف سنة ، وهذا وغيره من التخمينات لا يدعو أن يكون رجماً بالغيب ، فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يُردّ إليه [علم الساعة] (١) .

وللتدليل على أن مفاهيم الدنيا أنها : المرحلة الحياتية الكبرى أنهم عرفوها بأنها [اسم الحياة الأولى للبشر] (٢) .

وهكذا يمكن تقسيم مراحل الدنيا حسب هذا المفهوم إلى :

١ - المرحلة الكبرى : وهي تعم جميع البشر من مبدأ الحياة إلى انتهائها .

(١) جزء من الآية ٤٧ سورة فصلت وانظر مثلاً سورة الأعراف الآية ١٨٧ وسورة النحل الآية ٧٧ وسورة طه الآية ١٥ وسورة لقمان الآية ٣٤ وسورة الأحزاب الآية ٦٣ وسورة سبأ الآيتان ٣ ، ٣٠ وسورة الشورى الآية ١٧ وسورة الزخرف الآية ٨٥ وسورة النازعات الآيتان ٤٢ ، ٤٣ ومع هذه النصوص الصريحة الجازمة بأن منتهى الدنيا وقيام الساعة علم استأثر به الله وحده إلا أننا نجد من يخطب خطب عشواء ويدعى معرفته بما اختص الله بعلمه انظر مثلاً :

- مقدمة شمس العلوم للحميري وفيها تقدير عدد (أيام) الدنيا بـ ١٥٧٧٩١٦٤٥٠٠٠ يوماً وعدد سنيها ٤٣٢٣٥٥٧٦٧ سنة وأبياتاً لنشوان الحميري وغيره في ذلك .

- وخاتمة كتاب (الإذاعة : لما كان ويكون بين يدي الساعة) للسيد محمد صديق القنوجي البخاري رحمه الله .

وكذلك كتابيه : حجج الكرامة ، ولقطة العجلان ، وغيرها من الكتب في هذا الموضوع . ولابن حجر العسقلاني في فتح الباري ٣٥١/١١ كلام طويل في مقدار الدنيا .

(٢) معجم متن اللغة ٤٦٠/٢ .

٢ - المرحلة الصغرى : وهي الخاصة بكل فرد من حين ينفخ الروح في بطن أمه إلى أن تخرج هذه الروح من الجسد ، و [من مات فقد قامت قيامته]^(١) .

٣ - مرحلة آخر الزمن " وهي مرحلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقول : [بعثت أنا والساعة كهاتين]^(٢) . ولقوله صلى الله عليه وسلم : [نحن الآخرون زماننا في الدنيا السابقون أهل الكتاب وغيرهم منزلة وكرامة يوم القيامة]^(٣) .. الخ الحديث .

ج - **العالم الأصغر** : ذلك أن هناك عالمين : عالماً أصغر وآخر أكبر فالعالم [الأكبر هو عالم الآخرة ، والأصغر هو عالم الدنيا]^(٤) .

ولعل التعبير بالأدنى أحياناً عن الأصغر^(٥) من مسوغات تسمية الدنيا بالعالم الأصغر .

د - **السلطان والجاه** : ويوضح هذا المفهوم قول أبي بكر رضي الله عنه لمن سألَه أن يستعمل أهل بدر : [إنى أرى مكانهم ولكنى أكره أن أدنسهم بالدنيا]^(٦) .

(١) انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الضعيفة حديث رقم ١١٦٦ .

(٢) صحيح البخاري ١٨٩/٨ وانظر شرحه فتح الباري ٢٧٨/١١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، وابن ماجه ١٧/١ و ١٣٤١/٢ ، ومجمع الزوائد ٣١٢/١٠ وانظر تخريجه في الزهد ٦١٧/٢ لهناد .

(٣) انظر الحديث وشرحه في عون الباري ٢٨٩/٢ وما بعدها وآخر قريباً منه في ٣٩٨/٤ وما بعدها .

(٤) انظر الفوائد لابن القيم ١٠ .

(٥) انظر المفردات ١٧٢ .

(٦) حياة الصحابة ٤٦/٢ تأليف العلامة الشيخ محمد يوسف محمد إلياس الكاندهلوي ، إدارة إشاعة الدينيات دلهي الهند الطبعة الثانية ، د . ت .

وقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لما بلغه مصرع زياد بن أبيه بالطاعون : [اذهب إليك ابن سمية ، فلا الدنيا بقيت لك ولا الآخرة أدركت]^(١) وحديث ابن عباس رضي الله عنهما وتعبيره لرؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم وهي أن بني مروان ينزون على منبره نزو القردة بأنها الدنيا أعطوها^(٢). وذكُرت الدنيا عند عبدالملك بن مروان [فذمها ونال منها وقال : هذا معاوية عاش أربعين سنة^(٣) . عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، هذه جثوته^(٤) عليها ثمامة^(٥) نابتة ، لله در ابن ختمة - يعني عمر بن الخطاب - ما كان أعلمه بالدنيا]^(٦).

وهذا التابعي الجليل « سلمة بن دينار »^(٧) يجهر بالحق في وجه سليمان بن عبدالملك وهو خليفة ، فيذكر أن بني أمية أخذوا الأمر (أي الخلافة) عنوة من غير شورى ولا إجماع في سبيل طلب الدنيا^(٨)، ويرى « ابن القيم » رحمه الله أن الخلق هلكوا من قبل عدوين : [صار عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله ، ومفتون بدنياه ورئاسته]^(٩).

-
- (١) البيان والتبيين ٦٦/٢ . (٢) انظر القرطبي ٢٨٢/١ - ٢٨٣ .
 (٣) أي في الحكم ، فكان حياته قبل الحكم غير محسوبة وكأن الدنيا هي السلطان لا غير .
 (٤) أي قبره .
 (٥) عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلى مائة وخمسين سنتمترًا .
 (٦) ذم الدنيا ٨٧ .
 (٧) هو الامام القدوة ، الواعظ ، شيخ المدينة النبوية ، أبو حازم المدني المخزومي ، القاص ، الزاهد ، وُلِدَ في أيام « ابن الزبير » وابن « عمر » وتوفي في خلافة « أبي جعفر المنصور » انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٩٦/٦ ومراجع ترجمته ثم .
 (٨) انظر القصة في صفة الصفوة ١٥٩/٢ .
 (٩) الفوائد ١٠١ .

وإذا كان من ضمن تعريفات الدنيا : الزمان ، فإن من معاني السلطان -على سبيل التشبيه التبليغ - : الزمان ، [سأل معاوية الأحنف عن الزمان ، فقال : أنت الزمان فإن صلحت صلح وإن فسدت فسد] (١) .

هـ - الثراء والبذخ : ومنه تعريفنا للثرى بأنه صاحب دنيا ، وكذلك قولنا عن «إبراهيم بن أدهم» (٢) مثلاً : كان ذا ثروة عريضة ثم رفض الدنيا وصار إلى الزهد (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : [إن أحساب أهل الدنيا الذي يذهبون إليه المال] (٤) وذكرَت الدنيا يوماً عنده صلى الله عليه وسلم فقال : [ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ إن البذاذة من الإيمان ، إن البذاذة من الإيمان - يعني التقحل -] (٥) وقال صلى الله عليه وسلم : [لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا] (٦) .

و - العالم المحسوس : هناك عالمان : محسوسٌ مشاهد وعالم غيبيّ فكلّ ما يمكن أن تراه أو يصل إليه علمك فهو العالم المحسوس من أرض وسماء وكون مشاهد ، وكثيراً ما نقول مثلاً : لو أن لي الدنيا وما فيها ، أو :

-
- (١) مجمع الأمثال ٦٤/٤ للميداني .
 (٢) هو الإمام القدوة العارف ، سيد الزهاد ، أبو إسحاق ، العجلي ، الخراساني البلخي نزيل الشام ، ولد في حدود المائة وتوفي سنة اثنتين وستين ومائة له أخبار وأعاجيب في الزهد ، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٣٨٧/٧ وهناك مراجع الترجمة .
 (٣) انظر البيان والتبيين ٢٦٠/١ .
 (٤) السراج الوهاج ١٤٦/٥ وانظر التعليق على الحديث في الهامش .
 (٥) السلسلة الصحيحة للألباني ٥٧/٤ حديث رقم ٣٤١ والتقحل : التقشّف في اللبس والحال .
 (٦) السلسلة الصحيحة للألباني ١٧/١ حديث رقم ١٢ ، وانظر الحديث وشرحه في فيض القدير للمناوي ٣٨٧/٦ .

نرَقَع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرَقَع^(١)

ج - المعاش : قال تعالى : (وجعلنا النهار معاشا)^(٢) ويعرّف ابن خلدون المعاش بأنه [عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله]^(٣).

وقول الله سبحانه وتعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق)^(٤) [أي يبتغون المعاش في الدنيا]^(٥) وقوله تعالى : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا)^(٦) [فالمراد من « الحياة الدنيا » ما به الحياة والتعيش]^(٧).

وقوله تعالى : (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا)^(٨) [أي يعلمون الأمور الدنيوية دون الآخروية]^(٩) وهي أمور [معاشهم ودنياهم]^(١٠) وقوله تعالى : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة)^(١١)

(١) عيون الأخبار ٣٣٠/٢ لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) دار الكتب المصرية ، القسم الأدبي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة الطبعة الأولى ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م ، والعقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والحيوان ٥٠٦/٦ والبيان والتبيين ٢٦٠/١ .

(٢) سورة النبا الآية ١١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٨٢ دار القلم بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٤م .

(٤) سورة الفرقان الآية ٢٠ .

(٥) القرطبي ١٣/١٣ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٠٤ .

(٧) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٣٢٢ ، تأليف لجنة من علماء الأزهر الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، المطابع الأميرية .

(٨) سورة الروم الآية ٧ .

(٩) المفردات ٣١٨ .

(١٠) القرطبي ٧/١٤ وفيه أقوال أخرى .

(١١) سورة البقرة الآيتان ٢١٩ ، ٢٢٠ .

وفسر القرطبي رحمه الله التفكير في الدنيا هنا بأنه ما يُصلح في معاش الدنيا^(١).

وقد امتن الله على عباده فقال (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش)^(٢) وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من الاهتمام بأمر الدنيا الذي هو أمر المعاش فقال : [إن الله يبغض كل جعظري^(٣) ، جواظ^(٤) ، سخاب^(٥) ، في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة]^(٦).

ط - خيال وأحلام نائم : وهذا أقرب إلى تصوير الدنيا منه إلى تكوين مفهوم لها ، وبالأحرى فهمها لا مفهومها ، يقول سبحانه وتعالى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو)^(٧) ويقول « يونس بن عبيد »^(٨) :

[ما شبّهت الدنيا إلا كرجلٍ نائمٍ فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك إذ انتبه]^(٩).

ويقول « سلمة بن دينار »^(١٠) : [ما مضى من الدنيا فحلم وما بقي

(١) انظر الجامع ٦٢/٣ . (٢) سورة الأعراف الآية ١٠ .

(٣) اللفظ الغليظ المتكبر . (٤) الجموع المتنوع .

(٥) كالصّخاب ، كثير الضجيج والخصام .

(٦) السلسلة الصحيحة للألباني ١٧١/٢ ، حديث رقم ١٩٥ .

(٧) سورة محمد الآية ٣٦ .

(٨) ابن دينار ، الإمام القدوة ، الحجة ، أبو عبد الله العبيدي ، من صفار التابعين وفضلائهم ، انظر ترجمته ومراجعتها في سير أعلام النبلاء ٢٨٨/٦ .

(٩) ذم الدنيا ١٩ .

(١٠) تقدمت ترجمته آنفاً ص ١٠٤ من البحث .

فأَمَانِي [(١)] .

وَذُكِرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ :

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظَلِّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ (٢)
وَقَالَ الشَّاعِرُ (٣) :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ وَمَا خَيْرَ عَيْشٍ لَا يَكُونُ بِدَائِمٍ
تَأْمَلْ إِذَا مَا نَلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَةً فَافْقِنِيَّتَهَا هَلْ أَنْتِ إِلَّا كَحَالِمٍ
وَيُرَوَّى عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُهُ :

يَا أَهْلَ لَذَاتِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا إِنْ اغْتَرَارًا بِظَلِّ زَائِلٍ حَمَقُ (٤) .

س - تَافَهُةٌ وَحَقِيرَةٌ : وذلك بيان لقيمتها ، ولأضرب مثلاً لهذا المفهوم للدنيا بالجسر الممتد بين الرجل وقريته على نهر عريض تافه من حيث قصره وقلة شأنه إذا ما نُظِرَ إليه بحد ذاته ، ولكنه بالغ الخطورة في الوقت نفسه من حيث إنه السبيل الوحيد الذي يوصل الرجل إلى قريته .

وَيَبَيِّنُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيَمَةَ الدُّنْيَا فِي قَوْلِهِ : [لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدَلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ] (٥) .

وَعَنْ هَذَا الْمَفْهُومِ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

(١) انظر صفة الصفوة ١٥٧/٢ وعيون الأخبار ٣٣٠/٢ وهو في البيان ١٥٢/٣

منسوب لبكر بن عبد الله المزني ، ولم ينسبه ابن القيم في الفوائد ٦٥ .

(٢) ذم الدنيا ١٩ .

(٣) لم ينسبه القرطبي في الجامع ٤١٤/٦ .

(٤) ذم الدنيا ١٩ .

(٥) السلسلة الصحيحة للألباني ٣٠٥/٢ ، ٦٥٨ ، حديث رقم ٦٨٦ و ٩٤٣ .

[إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر
 فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن زف^(١) من جناح لطائر
 فما رضى الدنيا ثواباً لمؤمن ولا رضى الدنيا عقاباً لكافر^(٢).
 ومرو النبي صلى الله عليه وسلم بجدي ميت منتن أسك الأذنين^(٣) ثم
 قال : [فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم] ^(٤).
 وركب « مسروق »^(٥) بغلة فأتى بها كناسة^(٦) بالحيرة قديمة ، فجعل
 يقول: [الدنيا تحتنا] ^(٧).

ك - طريق مسافر ورحلة انتقال : يوصي النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فيقول : [كن في

-
- (١) زف : بالكسر الصغير من الريش .
 (٢) البيان والتبيين ١٧٩/٣ غير منسوب .
 (٣) أي صغيرهما .
 (٤) مسلم (الزهد والرقائق) ٩٣/١٨ وفيه أحاديث أخرى بهذا المعنى والمفهوم .
 (٥) هو الإمام القدوة ، العَلَم ، أبو عائشة ، الهمداني الكوفي ، وهو « مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن مر بن سلمان بن معمر . و « مسروق » : ابن أخت « عمرو بن معديكرب » . وعداده في كبار التابعين والمخضرمين الذين أسلموا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوفي سنة ثلاث وستين على الأرجح . انظر ترجمته ومراجعها في سير أعلام النبلاء ٦٣/٤ .
 (٦) أي مزبلة .
 (٧) الزهد للإمام أحمد ٤٢٠ وذي الدنيا ٤٠ .

الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل [١].

ويقول ابن القيم رحمه الله : [الحياة طريق مسافر ؛ والناس مذ خلقوا لم يزلوا مسافرين وليس لهم حظ رحالهم إلا في الجنة أو النار] [٢].

ويقول أبو بكر رضي الله عنه : [إنما الدنيا بلاغ وخير البلاغ أوسع] [٣].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه [ما أحد أصبح في الدنيا إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مردودة] [٤].

وسئل نبي الله نوح عليه السلام قبل موته بعد عمر زاد على ألف سنة : [كيف رأيت الدنيا ؟ قال : مثل رجل بُني له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر] [٥].

ويقول « بلال بن سعد » [٦] : [أنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما تنتقلون من دار إلى دار كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى الدنيا ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ومن الموقف إلى الخلود] [٧].

ولم يرد لفظ « الدار الدنيا » مقابل « الدار الآخرة » لا في القرآن الكريم ولا الحديث الشريف ، تنبيهاً إلى أنها ليست بدار مستقر وإنما هي دار

(١) صحيح البخاري ١٥٩/٨ . (٢) الفوائد ٢٥٨ .

(٣) الزهد للإمام أحمد ١٣٧ . (٤) ذاته ٢٠٤ .

(٥) القرطبي ٣٣٣/١٣ .

(٦) هو بلال بن سعد بن تميم السكوني ، الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق ، كان لأبيه صحبة . انظر ترجمته ومراجعتها في سير أعلام النبلاء ٩٠/٥ .

(٧) الزهد للإمام أحمد ٤٦١ وانظر قولاً نحوه للحجاج بن يوسف في البيان والتبيين ١٦٧/٣ .

رحلة وانتقال ، وإذا إضيف إليها الدار نحو « دار الدنيا » فذلك دليل وجود دار أخرى . ولا يُغَرَّن المرء ما يرى من خفض العيش ولكن فليُنظر إلى سرعة الظعن وسوء المنقلب^(١) ، وليتزود للدار الآخرة (فإن خير الزاد التقوى)^(٢).

(١) انظر وصية أعرابي لابنه بهذا المعنى في الأمالي للقالبي ٥٧/٢ .

(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

٢ - مفاهيم خاصة

وهذه مفاهيم أخرى خاصة عبر فيها الحكماء والعلماء والفلاسفة والزهاد عن مفهومهم للدنيا ، ويبدو في بعضها الغرابة والطرافة .

فيرى بعضهم أن الدنيا عبارة عن هذا العالم ، أو هي : ما حواه الليل والنهار وأظلمته السماء وأقلمته الأرض .

وقال أهل السلوك : الدنيا : ما شغلك عن الله تعالى .

وقيل : الدنيا : عبارة عن حظوظ النفس لا عن الدراهم والدنانير ، وكل ما لك فيه حظ قبل الموت فهو دنياك إلا ما يبقى معك بعد الموت^(١) .

وسئل الحسن البصري رحمه الله : [ما الثمن القليل ؟ قال : الدنيا بحذافيرها]^(٢) ويقول « يزيد بن معاوية النخعي »^(٣) : [إن الدنيا جُعِلَتْ قليلاً فما بقي منها إلا قليل من قليل]^(٤) .

[ويُقال : ما بقي في الدنيا إلا لُعَاعَة ، أى بقية يسيرة ، ومنه الحديث : « أوجدتم يا معاشر الأنصار من لعاعة من الدنيا ، تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى دينكم ؟ ! »]^(٥) .

(١) انظر هذه الأقوال جميعها في :

كشف اصطلاحات الفنون ٥٠٥/٢ . للشيخ المولوي محمد أعلى بن علي التهانوي ، شركة خياط بيروت . د . د . ط . د . ت . دائرة المعارف ٥٣/٨ للبيستاني .

(٢) ذم الدنيا ١٥٧ .

(٣) فارس من أشرف العرب في صدر الإسلام ، يماني الأصل ، ممن نزل بالكوفة . كان من أصحاب « عبدالله بن مسعود » قتل في غزوة « بلنجر » في بلاد الخزر حوالي سنة ٣٢ . انظر ترجمته في الكامل ٥٠/٣ لابن الأثير ، والأعلام ١٨٨/٨ .

(٤) الزهد للإمام أحمد . ٤٤٠ ، والزهد لهناد ٦١٢/١ .

(٥) المعجم في بقية الأشياء ١٤٤ للشيخ الأديب أبي هلال العسكري ، مكتبة الهداية ، بيروت - لبنان الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

ويعرّف « عامر بن عبد قيس »^(١) الدنيا فيقول : [الدنيا والدة للموت]^(٢).

ويُغرق بعض المحدثين^(٣) في الطرافة فيقول :

إنما دنيائي نفسي فإذا تلفت نفسي فلا عاش أحد

ومن أمثال العرب [الدنيا فروض]^(٤) ويُقال [الدنيا داحة]^(٥) .
وتُكنّى « أم دُفَر »^(٦) .

وكان الزهاد يسمونها « الخنزيرة »^(٧) و « السحارة »^(٨) .

ويراها علي بن أبي طالب رضي الله عنه « أم الناس » فيقول : [الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه]^(٩) .

ويورد المستشرق « رينهارت دوزي » في كتابه « تكملة المعاجم العربية »^(١٠) أقوالاً وتعابير محدثة في الدنيا منها :

(١) أبو عمرو التميمي العنبري ، البصري ، القدوة الولي الزاهد ، توفي ببیت المقدس أيام « معاوية » رضي الله عنه . انظر ترجمته ومراجعها في سير أعلام النبلاء ١٥/٤ .

(٢) البيان والتبيين ١٤٢/٣ . (٣) لم ينسبه القالي في نوادره ٢١٥ .

(٤) المستقصى في الأمثال ٣١٧/١ .

(٥) الصحاح ٣٦١/١ وفيه : الدّاح : نقش يُلَوَّح به للصبيان يتعلّلون به .

(٦) الزهد ، لهناد ٦٦٤/١ ونُفَر : للنتن خاصة وفي المعجم الوسيط ٨٢٨/٢ : اللّاعة : الدنيا .

(٧) ذم الدنيا ١١٩ . (٨) ذاته ٢٤ .

(٩) مجمع الأمثال للميداني ٥٣/٤ ومثله قول الشاعر :

ونحن بنو الدنيا خلّقنا لغيرها وما كنت منه فهو شيءٌ محببٌ

عيون الأخبار ٣٢٩/٢ .

(١٠) نقله إلى العربية د . محمد سليم النعيمي ، دار الرشيد ، العراق

١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، د . ط .

الدنيا غضة : كل العالم يبتسم . ودنيا : أي مسرات الدنيا ولذاتها ،
 وأنستك دنياك حبيبك : أي مسراتك ولذاتك ، ودنيا : أي أموال هذا العالم ،
 وعلى الدنيا السلام : أي وداعاً انتهى كل شيء ، قضي الأمر ، ودنيا : جو ،
 سماء ، يقال : الدنيا صحو أي الجو صحو ، ودنيا مغيمة أي جو غائم ... الخ ،
 والدنيا موسخة : أي الأمور قذرة ، وإيش وقت الدنيا ؟ : كم الساعة ؟
 والدنيا : أي كل شيء ، ودنياوي : نسبة إلى الدنيا ، ودنيائي ، ودنياني ،
 ودنياوي ، ودنيائي : ثري غني ، ودنيه : تصحيف دنيا ، : يقال في دنيةٍ
 أخرى : أي ساء مشئت البال ، مشدوه ، مبهوت ... الخ (١) .

(١) بتصرف من تكملة المعاجم العربية ٤/٤١٧ - ٤١٨ .

الفصل الثالث

المقومات

من خلال البحث والاستقصاء ، وبحسب المعلومات التي أمكن توافرها لديّ ، قسّمت هذه المقومات إلى صنفين :

الصنف الأول : المقومات الكبرى أو « الأساسية » .

الصنف الثاني : المقومات المرحلية .

وقد حاولت قدر الجهد والطاقة أن أكتفي من البحث بومضات سريعة حتى لا يشغل هذا الفصل من البحث حيزاً كبيراً هو به جدير .

الصنف الأول : المقومات الكبرى :

وأعني بها تلك المقومات التي لا تستقيم الحياة بدونها ، أو تلك التي تحتوي الحياة والأحياء ، وتصبح الحياة مجرد عنصر من عناصرها .
وتتمثل هذه المقومات في التالي :

١ - الكون : وبعيدا عن الدخول في متاهات الفلسفة وعلم المنطق يمكن القول وببساطة : إن [الكون : هو الوجود المطلق العام]^(١) ، وهو : [الحدث ، وقد كان كونا وكيونة]^(٢) [والكون : ليس أرضنا وما عليها وكفى ولا هو محصور فيما يقع عليه حسنا من كواكب وأفلاك ، وإنما الكون مجموع ما خلق الله من محسوس وغير محسوس ، حاضرٍ وغيبٍ]^(٣) يقول تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)^(٤) .

(١) المعجم الوسيط مادة (كان) ٨٠٦/٢ .

(٢) لسان العرب مادة (ك و ن) ٣٦٣/١٣ وانظر تهذيب اللغة مادة (ك و ن) ٣٧٦/١ .

(٣) حياة محمد صلى الله عليه وسلم ٥٦٣ .

(٤) سورة الحاقة الآيتان ٣٨ ، ٣٩ وقد وردت كلمة « بصر » بجميع اشتقاقاتها « ١٣٤ » مرة في القرآن الكريم منها « ٩٠ » بمعنى البصر بالقلب نحو =

وفي رأي المتواضع أن أوضح تعريف للكون وأبسطه هو : كل كائن سوى الله سبحانه وتعالى ، وبمعنى آخر أدق هو : كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى ، وكل ما سوى الله عالم خاضع لربوبيته ومشيئته وإرادته ، يقول تعالى : (الحمد لله رب العالمين) (١) .

وقد تُطلق الدنيا ويُراد بها « الكون » إذاً فالكون هو الدنيا في بعض المعاني التي تُقصد بها ، ومن هنا ، فإذا ما ذكرنا بعض مقومات الكون فإننا في الحقيقة لا نعدو ذكر مقومات الدنيا .

فمن خلال مفهوم أن الكون هو كل مخلوقات الله تعالى ، فإن الخلق هو الركيزة العظمى وأهم مقومات الكون إذ لا كون بدون خلق ، ولذلك فإن القرآن الكريم اهتم بجانب الخلق اهتماماً كبيراً لعلاقته بتوحيد الله سبحانه وتعالى (٢) .

فيقيم الله تعالى الحجة على خلقه بأنه (خالق كل شيء) (٣) وأنه

= قوله تعالى (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ، سورة الأعراف الآية ١٩٨ وقوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) سورة النازعات الآية ٩ .

(١) الآية الأولى من سورة الفاتحة ، وقد وردت كلمة « العالمين » بهذا اللفظ والمعنى قريباً من « ٦٠ » مرة في القرآن الكريم .

(٢) الخلق هو : ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ، وليس ذلك إلا لله تعالى ، احترازاً من الخلق الذي يكون بالاستحالة والذي جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال ، قال تعالى لعيسى عليه السلام : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني) سورة المائدة الآية ١١٠ ، انظر مفردات الأصفهاني ص ١٥٧ . وقد وردت كلمة « خلق » بجميع اشتقاقاتها ٢٤٥ مرة في القرآن الكريم .

(٣) جزء من الآية ١٠٢ سورة الأنعام والآية ١٦ سورة الرعد ، والآية ٦٢ سورة غافر .

(أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ^(١) ويقول : (ألا له الخلق والأمر) ^(٢) وينكر على المشركين عبادة غيره ، فيقول تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون) ^(٣) .

وكما وجه القرآن الكريم الإنسان إلى النظر في خلقه هو فقال عز من قائل (فلينظر الإنسان مم خلق) ^(٤) وجه نظره إلى الكون بعامة فقال تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) ^(٥) ووجهه إلى بعض مخلوقاته بخاصة ، قال تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت) ^(٦) .

ومن هذه المخلوقات المقصودة بالنظر والتفكر التي ركّز عليها القرآن الكريم : الأرض والسماء ^(٧) ، والليل والنهار ^(٨) ، والشمس والقمر والنجوم ^(٩) .

(١) سورة طه الآية ٥٠ . (٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٣) سورة النحل الآية ١٧ .

(٤) سورة الطارق الآية ٥ ، وسيأتي مزيد بيان عن الإنسان وخلقها فيما يأتي من بحث .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٨٥ ، وقد وردت كلمة « نظر » بجميع اشتقاقاتها بمعنى « نظر الاعتبار والتفكر » ٥٥ مرة في القرآن الكريم .

(٦) سورة الغاشية الآيات ١٧-٢٠ .

(٧) الأرض إحدى المقومات الكبرى وقد أفردتها ببحث مستقل ، أما لفظ « السماء » مفرداً فقد ورد في القرآن الكريم « ١٢٠ مرة » وورد بصيغة الجمع « السموات » ١٩٠ مرة واقترن ذكر الصيغتين بالأرض ٢٢٠ مرة .

(٨) جاء لفظ « ليل » مفرداً وجمعاً مذكراً ومؤنثاً « ٩٢ » مرة ، وورد لفظ « النهار » ٥٤ مرة ، واقترن ذكرهما معا « ٤٥ » مرة .

(٩) ورد ذكر « الشمس » ٣٣ مرة و « القمر » ٢٦ مرة ، واقترن ذكرهما معا ٢٠ مرة ، وورد ذكر « النجم » مفرداً ٤ مرات وجمعاً ٩ مرات ومع الشمس والقمر ٣ مرات .

كل ذلك ليعلم الإنسان أن خالق الكون وفاطر^(١) السموات والأرض
وبديعهما^(٢) ومن بيده مقاليدهما^(٣) ومقاليد كل شيءٍ ، لم يخلق ذلك عبثاً ،
وإنما خلقه لغاية معينة وهدف^(٤) معين ، وحكمة بالغة .

والكون في مجمله سلسلة مترابطة من المخلوقات بديعة التكوين ، تسير
وفق نظام دقيق محكم ، يدلّ على وحدة الخالق ووحدة الهدف^(٥) ، يقول
تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)^(٦) .

وهذا النظام وهذه الدقة أكبر شاهدين على عدم عبثية الوجود ،
(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق)^(٧) .

(١) فطر الشيء : أوجده وأبدعه ، وقد وردت لفظة « فطر » بجميع تصريفاتها
١٨ مرة في القرآن الكريم .

(٢) الابداع : إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء ، وهو من الله تعالى : إيجاد
الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان ، وليس ذلك إلا لله ، انظر
مفردات الراغب الأصفهاني ص ٣٨ ، وقد وردت هذه اللفظة « بدع »
بجميع تصريفاتها ، بالمعنى الأول في الآيتين ٩ من سورة الأحقاف و ٢٧
من سورة محمد ، ووردت بالمعنى الثاني في الآيتين ١١٧ من سورة
البقرة و ١٠١ من سورة الأنعام .

(٣) مقاليدهما : أي قدرته عليهما وحفظه لهما ، وقد وردت مرتين في الآيتين
٦٣ من سورة الزمر و ١٢ من سورة الشورى .

(٤) سيأتي الحديث عن : « الغاية والهدف من الوجود » في قسم : المقومات
المرحلية .

(٥) انظر في نظام الكون وإعجازه مثلاً : كتاب الاستاذ « وحيد خان » :
الإسلام يتحدّى .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٧) سورة الدخان ٣٨ ، ٣٩ وانظر سورة الأنبياء الآية ١٦ وسورة المؤمنون
الآية ١١٥ وسورة ص الآية ٢٧ .

ويتواءم عناصر الوجود الثلاثة : الذات والحياة والكون ، يعيش الإنسان حياته كما أرادها الله له ، يقول تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء)^(١) .

وإذا كان الكون هو الدنيا في أحد معانيها ، وإذا كان الكون هو منبع المقومات وأصلها وإذا كانت المقومات جزءاً من الكون فإن المقومات التالية مقومات رئيسة للدنيا وللكون معا .

٢ - الأرض^(٢) :

ويعرفها اللغويون بأنها : [التي عليها الناس ، أنثى ، وهي اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال : أرضة ، ولكنهم لم يقولوا]^(٣) ، وقالوا إنها [الجرم المقابل للسماء]^(٤) ولعلمهم يقصدون المقابلة اللغوية لا المكانية لأن الأرض لا تعدو أن تكون هبة بالغلة الدقة في هذا الكون الضخم الفسيح .

وجمعها [أراض وأروض وأرضون]^(٥) ولم [تجيء مجموعة في القرآن]^(٦)

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٩ - ٨١ .

(٢) تكررت كلمة « الأرض » ٤٦١ مرة في القرآن الكريم منها ٤٥١ مرة بلفظ « الأرض » رفعا ونصباً وجراً ، والعشر الباقيات كالتالي : أرضاً ٢ ، أرضكم ٣ ، أرضنا ٣ ، أرضهم ١ ، أرضي ١ .

(٣) لسان العرب ١١١/٧ مادة (أرض) وللاستزادة في المعنى والمدلول انظر القرطبي ٢٠٢/١ وما بعدها .

(٤) المفردات ١٦ .

(٥) لسان العرب ١١٢/٧ مادة (أرض) .

(٦) المفردات ١٦ .

الكريم وهي مهبط آدم عليه السلام من الجنة^(١) يقول [العباس^(٢)] :

ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ، ولا مضغة ، ولا علق

أراد لما أهبط الله آدم إلى الدنيا كنت في صلبه غير بالغ هذه الأشياء^(٣) .

وهي مستقر ومتاع بني آدم إلى حين^(٤) ، منها خلقوا ، وفي باطنها يُورأوا إذا ما ماتوا ، ومنها يخرجون إلى البعث والنشور ، (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)^(٥) .

وقد [وُجِدَ بالتحليل الكيميائي أن جسم الإنسان يتركب من عناصر هي ذاتها العناصر الموجودة في التراب وتتجدد هذه العناصر في جسم الإنسان في دورة دائمة ما دامت الحياة على وجه الأرض]^(٦) .

(١) الهبوط : نقيض الصعود . انظر لسان العرب مادة « هبط » ٤٢١/٧ . ومن عجب أن يفرد عبدالكريم الخطيب في كتابه « الانسان في القرآن الكريم .. من البداية إلى النهاية » عشر صفحات كاملة ليثبت أن جنة آدم عليه السلام التي أُهبط منها هي جنة الأرض لا جنة السماء !!!! .

(٢) هو العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ عم النبي صلى الله عليه وسلم . والبيت من قصيدة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . انظرها في البداية ٢٨/٥ والرواية فيه : « ولا نطفة ، ولا علق » .

(٣) لسان العرب مادة « هبط » ٤٢٢/٧ .

(٤) مستقر : موضع استقرار ، ومتاع : ما يُستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغيره ، وإلى حين : أي حين الموت أو نهاية حياة البشر ، وللاستزادة انظر القرطبي ٣٢١/١ .

(٥) سورة طه الآية ٥٥ .

(٦) الإنسان في القرآن الكريم ، ٢ تأليف محمد الشيخ عايد طبيشات ، الدار الوطنية للنشر والتوزيع ، الرياض ، د . د . ط . د . ت .

ويذكر الدامغاني أنها جاءت على ثلاثة عشر وجهاً في القرآن الكريم^(١)
وبالمعاني التالية :

الجنة^(٢) ، بيت المقدس بالشام^(٣) ، المدينة^(٤) ، مكة^(٥) ، مصر^(٦) .
أرض الاسلام^(٧) ، الأرض كلها^(٨) ، القبر^(٩) . أرض التيه^(١٠) ، أرض القيامة^(١١) ،
القلب^(١٢) ، ساحة المسجد^(١٣) ، المقدم^(١٤) .

(١) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٢٩-٣٢
للحسين بن محمد الدامغاني تحقيق عبد العزيز سيد الأهل ، دار العلم
للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م .

- (٢) في الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء ، والآية ٧٤ من سورة الزمر .
(٣) في الآية ١٣٧ من سورة الأعراف ، والآية ٧١ من سورة الأنبياء ، والآية ٣
من سورة الروم .
(٤) في الآيتين ٩٧ ، ١٠٠ من سورة النساء ، والآية ٧٦ من سورة الإسراء ،
والآية ٥٦ من سورة العنكبوت .
(٥) في الآية ٩٧ من سورة النساء ، والآية ٤١ من سورة الرعد ، والآية ٤٤ من
سورة الأنبياء .
(٦) في الآيتين ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة الأعراف ، والآية ٥٥ من سورة يوسف ،
والآيتين ٦٠ ، ٦١ من سورة القصص ، والآية ٢٦ من سورة غافر .
(٧) في الآية ٣٣ من سورة المائدة ، والآية ٩٤ من سورة الكهف .
(٨) في الآية ٦ من سورة هود ، والآية ٢٧ من سورة لقمان .
(٩) في الآية ٤٢ من سورة النساء .
(١٠) في الآية ٢٦ من سورة المائدة .
(١١) في الآية ٤٨ من سورة إبراهيم ، والآية ٦٩ من سورة الزمر .
(١٢) في الآية ١٧ من سورة الرعد وهو أليق بكلام المتصوفة .
(١٣) في الآية ١٠ من سورة الجمعة .
(١٤) في الآية ٣٤ من سورة لقمان .

ولبيان مدى اهتمام القرآن الكريم بالأرض ؛ نعرِّج على بعض الألفاظ التي اقترن ذكرها بالأرض في القرآن الكريم - حسب الترتيب الهجائي - ومنها :

- بَسَطَ : [بَسَطُ الشَّيْءِ : نشره وتوسَّعهُ]^(١) ، [والبساط : الأرض المتسعة]^(٢) . قال تعالى : (والله جعل لكم الأرض بساطاً)^(٣) .

- ثَوْر : [ثار الغبار والسحاب ونحوهما يثور ثوراً وثوراناً : انتشر ساطعاً ، وقد أثرتَه]^(٤) ، ومنه قوله تعالى : (وأثاروا الأرض وعمروها)^(٥) .

- خَرَجَ : [خرج خروجاً أبرز من مقره أو حاله]^(٦) [ويقال في التكوين الذي هو من فعل الله تعالى]^(٧) ، قال تعالى : (يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه)^(٨) ، ومن معاني الخروج المرتبطة بالأرض البعث^(٩) وإخراج النبات^(١٠) والطيبات ، وكل ما يخرج منها^(١١) .

- خَزَنَ : [الخزن : حفظ الشيء في الخزانة ثم يُعبَّر به عن كل حفظ]^(١٢) قال تعالى : (والله خزائن السموات والأرض)^(١٣) .

(١)، (٢) المفردات ٤٦ .

(٣) سورة نوح الآية ١٩ . (٤) المفردات ٨٤ .

(٥) سورة الروم الآية ٩ ، وانظر الآية ٧١ من سورة البقرة .

(٦)، (٧) المفردات ١٤٥ . (٨) سورة الزمر الآية ٢١ .

(٩) انظر مثلاً الآية ٢٥ من سورة الأعراف والآيتين ١٩ ، ٢٥ من سورة الروم

والآية ٨ من سورة نوح والآية ٢ من سورة الزلزلة .

(١٠) انظر مثلاً الآيات والصور التالية : ٢٢ ، ٦١ ، ٢٦٧ سورة البقرة ، ٩٩

الأنعام ، ٣٢ ، ٥٧ الأعراف ، ٣٢ إبراهيم ، ٥٣ طه ، ١٩ الروم ، ٢٧ السجدة ،

٣٣ يس ، ٢١ الزمر ، ١١ الزخرف ، ١١ ق ، ١٥ النبأ ، ٣١ النازعات ، ٤

الأعلى .

(١١) انظر مثلاً الآيتين ٢ ، ٤ من سورتي سبأ والحديد .

(١٢) المفردات ١٤٦ . (١٣) سورة المنافقون الآية ٧ .

- خضر : [الخضرة : أحد الألوان بين البياض والسواد وهو إلى السواد أقرب]^(١) قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة)^(٢) وقال تعالى : (فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكماً)^(٣) .

- خلق : وقد تقدم معناه^(٤)، وقد خلق الله تعالى جميع ما على الأرض لبني الإنسان ، قال تعالى : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)^(٥) .

- ديب : [الدبّ والديب : مشي خفيف ، ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر ، ويستعمل في الشراب والبلى ونحو ذلك ، مما لا تدرك حركته الحاسة ، ويستعمل في كل حيوان وإن اختصت في التعارف بالفرس]^(٦) وعليها جميع الدواب في القرآن الكريم^(٧) .

- ذرأ : [الذرء : إظهار الله تعالى ما أبدأه ، يقال : ذرأ الله الخلق : أي أوجد أشخاصهم]^(٨) ، قال تعالى : (وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون)^(٩) .

(١) المفردات ١٥٠ .

(٢) سورة الحج الآية ٦٣ . (٣) سورة الأنعام الآية ٩٩ .

(٤) انظر ص ٩٠ من هذا البحث هامش رقم (٢) .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٩ وانظر الآية ١٣ من سورة الجاثية . وللاستزادة في المعنى والمدلول انظر تفسير القرطبي ٢٥١/١ .

(٦) المفردات ١٦٤ .

(٧) انظر مثلاً الآيات والصور التالية : ١٦٤ البقرة ، ١٣٨ الأنعام ، ٦ ، ٥٦ هود ، ٤٩ ، ٦١ النحل ، ٤٥ النور ، ٨٢ النمل ، ١٠ لقمان ، ١٤ سبأ ، ٢٨ ، ٤٥ فاطر ، ٢٩ الشورى ، ٤ الجاثية .

(٨) المفردات ١٧٨ .

(٩) سورة المؤمنون الآية ٧٩ وانظر الآية ٢٤ من سورة الملك .

- ذلل : [الذلول : المطواع السليم]^(١) ، قال تعالى : (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً)^(٢) أي [منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها ، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها]^(٣) .
- رسو : [يقال رسا الشيء يرسو : ثبت]^(٤) قال تعالى : (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا)^(٥) .
- سبيل : [السبيل : الطريق الذي فيه سهولة وجمعه سُبُل]^(٦) قال تعالى : (هو الذي جعل لكم الأرض مهذاً وسلك لكم فيها سبلاً)^(٧) .
- عثى : العثى : يطلق على الفساد الذي [يَدْرِكُ حكماً ، يُقَالُ عثأ يعثى عثياً]^(٨) وعليه قول الله تعالى : (ولا تعثوا في الأرض مفسدين)^(٩) .

(١) قاموس القرآن للدامغاني ١٨٤ .

(٢) سورة الملك الآية ١٥ .

(٣) الفوائد لابن القيم ٢٨ . وانظر الصفحة ٢٨ وما بعدها في صفات الأرض وتسخيرها الواردة في جميع آيات القرآن الكريم .

(٤) المفردات ١٩٦ وانظر قاموس القرآن للدامغاني ٢٠٥ .

(٥) سورة النحل الآية ١٥ وانظر الايات والسور التالية : ٣ الرعد ، ١٩ الحجر ، ٣١ الأنبياء ، ٦١ النمل ، ١٠ لقمان ، ١٠ فصلت ، ٧ ق ، ٢٧ المرسلات ، ٣٢ النازعات .

(٦) المفردات ٢٢٣ .

(٧) سورة طه الآية ٥٣ وانظر السور والآيات التالية : النحل ١٥ ، والأنبياء ٣١ ، ونوح ٢٠ .

(٨) المفردات ٣٢٢ .

(٩) ورد هذا النص القرآني خمس مرات جزءاً من الآيات التالية : الآية ٦ . سورة البقرة ، والآية ٧٤ سورة الأعراف ، والآية ٨٥ سورة هود ، والآية ١٨٣ سورة الشعراء ، والآية ٣٦ سورة العنكبوت .

- علو : [العلو : ضدُّ السُّفل]^(١) [والعلوُّ : الارتفاع]^(٢) [وقيل : إنَّ علا يُقال في المحمود والمذموم ، وعليّ لا يُقالُ إلا في المحمود]^(٣) والعلو والاستعلاء في القرآن الكريم قرين الكبر والاستكبار ، قال تعالى : (إن فرعون علا في الأرض)^(٤) وقال عن قومه وجنده : (فاستكبروا وكانوا قوماً عالين)^(٥) وغيرها من الآيات كثير في هذا المعنى ، وارتباط العلو والاستكبار بالأرض أو ربطها به يدلُّ على مدى تقاهة من يتخلق بهذا الخلق فهو لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً ، وإنما هو لصيق الأرض التي خلق منها وإليها يعود ، ويُستدلُّ على مناقضة هذا الخلق لحقيقة الأرض : الهبوط من الجنة إليها^(٦) .

- عمر : يُقال : [أعمرته الأرض واستعمرته : إذا فوضت إليه العمارة]^(٧) قال تعالى : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)^(٨) وقال تعالى : (وأثأروا الأرض وعمروها)^(٩) .

- فرش : [الفرش : بسطُ الثياب ، ويُقال للمفروش فرشٌ وفراش]^(١٠) .

(١)(٢)(٣) المفردات ٣٤٥ .

(٤) سورة القصص الآية ٤ . (٥) سورة المؤمنون الآية ٤٦ .

(٦) انظر مادة (هبط) في سياق هذا البحث هنا ، وقد وردت لفظة (علا) بهذا المعنى من صفات الانسان في أربعة عشر موضعاً في القرآن الكريم ، وانظر السور والآيات التالية : يونس ٨٣ ، الإسراء ٤ ، ٧ ، طه ٦٤ ، المؤمنون ١٩ ، ٤٦ ، النمل ١٤ ، ٣١ ، القصص ٨٣ ، ص ٨٥ ، الدخان ١٩ ، ٣١ ، النازعات ٢٤ .

(٧) المفردات ٣٤٧ وانظر معنى : الإعمار والاستعمار كاملاً طويلاً مفيداً للقرطبي في تفسيره ٥٥/٩ - ٥٨ .

(٨) سورة هود الآية ٦١ . (٩) سورة الروم الآية ٩ .

(١٠) المفردات ٣٧٥ .

قال تعالى : (هو الذي جعل لكم الأرض فراشاً)^(١) ، [أي : ذللاً ولم يجعلها نائية لا يمكن الاستقرار عليها]^(٢) [يعني : بساطاً]^(٣) ، وقال تعالى : (والأرض فرشناها فنعم الماهدون)^(٤) .

- فسَدَ : [الفساد : خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ويزاده الصلاح]^(٥) ، قال تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون)^(٦) ، ويُطلق الفساد في الأرض على الأعمال غير الصالحة ، قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام وإخوته : (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين)^(٧) .

- قرر : [قرَّ في مكانه : يقرُّ قراراً : إذا ثبت ثبوتاً جامداً]^(٨) قال تعالى : (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً)^(٩) أي مستقراً .

- كبر : [الكِبَر : الحالة التي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه

(١) سورة البقرة الآية ٢٢ .

(٢) المفردات ٣٧٥ وانظر المعنى كاملاً ومطولاً في القرطبي ٢٢٨/١ - ٢٢٩ .

(٣) قاموس القرآن ٣٥٤ .

(٤) سورة الذاريات الآية ٤٨ .

(٥) المفردات ٣٧٩ .

(٦) سورة البقرة الآية ١١ .

(٧) سورة يوسف الآية ٧٣ وقد ورد لفظ (فسَدَ) بجميع تصاريفه ٥ مرة في القرآن الكريم ٤٦ منها عن الفساد في الأرض - صراحة أو مفهوماً من خلال السياق - ومرتين عن فساد السموات والأرض ومرتين عن الفساد بمعناه العام .

(٨) المفردات ٣٩٧ .

(٩) سورة غافر الآية ٦٤ وانظر الآيات والسور التالية : ٣٦ البقرة ، و ٢٤ الأعراف ، و ٦١ النمل .

بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره ، وأعظم الكبر : التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة ^(١) والاستكبار [أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له ، وهذا هو المذموم ، وعلى هذا ما ورد في القرآن] ^(٢) قال تعالى : (إنه لا يحب المستكبرين) ^(٣) .

- مَدَدَ : المَدَّو : البسطُ والتسوية ^(٤) ، قال تعالى : (والأرض مددناها) ^(٥) .

- مَكَّنَ : المكان عند أهل اللغة : الموضع الحاوي للشيء ، ويقال : مكنته ومكنت له فتمكن ^(٦) ، قال تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض) ^(٧) ، أي

(١) المفردات ٤٢١ .

(٢) المفردات ٤٢١ وذلك رأي الأصفهاني ، ولكن منطوق القرآن الكريم ومفهومه بخلاف ذلك ، فالتكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة هو الكبر المذموم بحق في القرآن الكريم قال تعالى عن عاد (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق) ١٥ فصلت وقال تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ٦٠ غافر ، وهكذا .. وقول الأصفهاني وإن كان داخلا في هذا المعنى إلا أنه ليس المقصود غالباً . قال تعالى : (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) الآية ٤٩ من سورة النحل .

(٣) سورة فاطر الآية ٤٣ .

(٤) انظر قاموس القرآن ٤٢٩ و ٤٣٠ .

(٥) سورة الحجر الآية ١٩ وانظر سورة الرعد الآية ٣ وسورة ق الآية ٧ وسورة الانشقاق الآية ٣ .

(٦) انظر المفردات ٤٧١ .

(٧) سورة الأعراف الآية ١٠ وانظر السور والايات التالية : الأنعام الآية ٦ ، ويوسف الآيتين ٢١ ، ٥٦ ، والكهف الآية ٨٤ ، والحج الآية ٤١ ، والمؤمنون الآية ١٣ ، والنور الآية ٥٥ ، والقصص الآية ٥٧ ، والأحقاف الآية ٢٦ .

جعلنا لكم عليها سلطاناً وقدره .

- مَهْدَ : [المهد : ما تُهَيَّي للصبي ، قال تعالى : (كيف نكلم من كان في المهد صبياً)^(١) والمهد والمهاد : المكان الممهّد الموطّأ ، قال تعالى : (الذي جعل لكم الأرض مهدياً - ومهاداً)^(٢) وذلك مثل قوله تعالى : (الذي جعل لكم الأرض فراشاً)^(٣) .

ومهدت لك كذا هيئته وسويته ، قال تعالى : (ومهدت له تمهيداً)^(٤) [(٥) .

- نبت : النبت والنبات ما يخرج من الأرض ، ومتى اعتبرت الحقائق فإنه يستعمل في كل نام نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً ، والنبات يستعمل في كل ذلك^(٦) ، قال تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتاً)^(٧) ، فنبّه بذلك أن الإنسان هو من وجه نبات من حيث إنّ بدأه ونشأه من التراب ، وأنه ينمو نموّه ، وإن كان له وصف زائد على النبات ، وعلى هذا نبّه بقوله (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة)^(٨) .

(١) سورة مريم الآية ٢٩ .

(٢) المفردات ٤٧٦ و (الذي جعل لكم الأرض مهدياً) جزء الآيتين ٥٣ من سورة طه والآية ١٠ من سورة الزخرف ، ولم يرد في القرآن الكريم (الذي جعل لكم الأرض مهدياً) وإن كان السياق يوهم ، وإنما ورد (ألم نجعل الأرض مهدياً) الآية ٦ من سورة النبأ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢ . (٤) سورة المدثر الآية ١٤ .

(٥) المفردات ٤٧٦ . (٦) انظر المفردات ٤٨٠ .

(٧) سورة نوح الآية ١٧ .

(٨) سورة غافر الآية ٦١ وانظر الآيات والصور التالية : ١٦١ البقرة ، ٩٩

الأنعام ، ٢٤ يونس ، ١١ النمل ، ٤٥ الكهف ، ٥٣ طه ، ١٥ ، ١٩ الحج ، ٧ ،

الشعراء ، ٢٥ ، ٦٠ النمل ، ٧ لقمان ، ٢٦ يس ، ٧ ، ٩ ق ، ١٧ نوح ، ١٥ النبأ

، ٢٧ عبس . وانظر المفردات ٤٨٠ .

- نشأ : النشء والنشأة إحداث الشيء وإيجاده وتربيته ، وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان ، ومن الإنشاء بمعنى الإيجاد المختص بالله تعالى (١) ، قوله عز وجل (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) (٢) .

- وَرِثَ : [الوراثة والإرث : انتقال قُنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد] (٣) . [ووصف الله تعالى نفسه بأنه الوارث من حيث إن الأشياء كلها صائرة إلى الله تعالى] (٤) ، وارتبط هذا المعنى بالأرض غالباً في القرآن الكريم ، قال تعالى : (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) (٥) .

هذه فقط بعض الألفاظ التي ارتبط ذكرها بالأرض في القرآن الكريم ، وإلا فهناك ألفاظ كثيرة أخرى منها : السماء ، والنظر في عاقبة الأمم السالفة ، والسير في الأرض ، وغيرها .

وهذا يعطينا دليلاً أكيداً على مدى اهتمام القرآن الكريم بالأرض باعتبارها محل اختبار بني آدم وحياتهم الدنيا ، وفيها يُدفنون ومنها يُخرجون للبعث والنشور وإذا كانت حياة الإنسان على الأرض ورزقه فيها فلا أدل على ارتباطه بها من هذه المعادلة التي يجب التفكير بها دائماً :

(١) انظر المفردات ٤٩٤ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٢ وانظر الآيات والسور التالية : ٦ ، ٩٨ ، ١٣٣ الأنعام ، ٦ هود ، ١ الأنبياء ، ١٤ ، ٣١ ، ٤٢ المؤمنون ، ٤٥ القصص ، ٢ العنكبوت ، ٧٩ يس ، ٤٧ النجم ، ٣٥ ، ٦١ ، ٦٢ الواقعة ، ٢٣ الملك .

(٣) المفردات ٥١٨ .

(٤) المفردات ٥١٩ .

(٥) سورة مريم الآية ٤ وانظر السور والآيات التالية : آل عمران ١٨٠ ، الأعراف ١٠٠ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، والأنبياء ١٠٥ ، والشعراء ٥٩ ، والقصص ٥ ، والأحزاب ٢٧ ، والزمر ٧٤ ، والدخان ٢٨ ، والحديد ١٠ .

ارتباط الأرض بالرزق ، وارتباط الرزق بخزائن الأرض ، وارتباط الخزائن بالتراب وارتباط الانسان بالتراب ، فالعلاقة وثيقة إذاً بين : الإنسان والأرض والتراب والرزق ، وتلك هي بعض معاني (الدنيا) الأساسية .

٣ - الإنسان :

الإنسان ، والناس ، والأناس ، والإنس ، والأناسي ، ألفاظ متعددة لمعانٍ متقاربة تصل إلى حد الترادف .

فالإنسان : [قيل هو إفعلان ، وأصله : إنسيان ، سُمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي]^(١) [قال ابن عباس : « نسي آدم عهد الله فسُمي إنساناً ، وعلى هذا فالهمزة زائدة ، قال الشاعر :

لا تنسين تلك العهود فإنما سُميت إنساناً لأنك ناسي

وقيل سُمي إنساناً لأنسه بحواء ، وقيل لأنسه بربه]^(٢) [وقيل سُمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألّفه]^(٣) و [سُمي بذلك لأنه خلق خلقاً لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض ولهذا قيل : الإنسان مدني بالطبع]^(٤) .

[قال الشاعر :

وما سُمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب]^(٥)

وعلى هذا فالهمزة أصلية .

أما الناس فاختلف في لفظه ، فقال النحاة : [هو اسم من أسماء الجموع ، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ ، وتصغيره : نويس]^(٦) .

(٢) القرطبي ١/١٩٣ .

(٥) القرطبي ١/١٩٣ .

(١) المقدرات ٢٨ .

(٣) (٤) المقدرات ٢٨ .

(٦) نفسه ١/١٩٢ .

وقال اللغويون : [أصله أناسٌ فحذف فاءه لما أُدخل عليه الألف واللام] ^(١)، [وقيل أصله من نسي ، فأصل ناسي : نسي ، قُلِبَ فصار : نيس تحركت الياء ، فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً ، ثم دخلت الألف واللام فقليل : الناس] ^(٢) .

وقيل [أصله إنسيان على إفعلان] ^(٣) .

وقيل [الناس : من النوس ، وهو الحركة ، يقال : ناس ينوس أي تحرك] ^(٤) .

والأناس هم الناس ^(٥) .

والإنس : [البشر ، كالإنسان ، الواحد إنسي] ^(٦) . وهو [خلاف الجن ، والإنسي : منسوب إلى الإنس] ^(٧) .

والأناسي جمع الإنس ^(٨) . وقيل بل هو جمع [أنسي] ^(٩) .

وهكذا فالألفاظ السابقة متداخلة المعاني ، وقد وردت جميعها في

(١) المفردات ٥٠٩ .

(٢) القرطبي ١٩٢/١ - ١٩٣ وانظر المفردات ٥٠٩ .

(٣) المفردات ٥٠٩ .

(٤) القرطبي ١٩٢/١ وانظر المفردات ٥٠٩ .

(٥) ترتيب القاموس المحيط ١٨٦/١ .

(٦) ذاته ١٨٥/١ .

(٧) المفردات ٢٨ .

(٨) انظر المفردات ٢٨ .

(٩) ترتيب القاموس المحيط ١٨٥/١ .

القرآن الكريم وأضفى عليها سماتٍ مميزة لكل منها^(١) .

وإذا كانت هذه الألفاظ قد وضعت تمييزاً لجنس عن جنس أو جمعاً لمفرد ، أو علماً على جنس معين ، فإن لفظ « الإنسان » له دلالات ومعانٍ وخصائص تميزه عن هذه الألفاظ .

ونستطيع أن نلم ببعض هذه الخصائص إذا عرفنا أن القرآن الكريم يطلق لفظ « الإنسان » ويريد به « آدم » عليه السلام ، كما في قوله تعالى : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار)^(٢) أو يطلقه ويريد به « جميع بني آدم » ، كما في قوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً)^(٣) . والمراد بالإنسان في اللغة ويراد به [المرأة]^(٤) .

ومن خلال اطلاعي على كثير من المراجع التي تحدثت عن الإنسان ، يمكنني القول إن أبسط تعريف وأوضحه للإنسان هو : « ذلك المخلوق الذي أوجده الله من تراب الأرض وأودعه سره الإلهي « الروح » وأسكنها جسداً هيباً له من التناسق المعجز والأداء الفريد بين سائر الأحياء ما لا نظير له ، وهو مع ذلك أضعفها تحملاً لعوارض الحياة من جوع وعطش ومرض وكد وتعب وغيره .

(١) مثلاً : الإنس عادة ما يذكر مقابلها الجن ، والأناس : لفئة القليلة من الناس ، قال تعالى (إنهم أناس يتطهرون) سورة الأعراف الآية ٨٢ ، وسورة النمل الآية ٥٦ ، وقال تعالى : (قد علم كل أناس مشربهم) سورة البقرة الآية ٦٠ ، وسورة الأعراف الآية ١٦٠ . وقد ورد لفظ « الإنسان » ٦٥ مرة ، والإنس ١٨ مرة ، والأناس ٥ مرات ، والأناسي مرة واحدة في الآية ٤٩ من سورة الفرقان .

(٢) سورة الدهر الآية ٢ .

(٣) سورة الرحمن الآية ١٤ .

(٤) ترتيب القاموس ١٨٥/١ .

وقد زُوِّدَ هذا الجسدُ بأعجوبة « العقل » و « التفكير » متفوقاً بهما ومكرماً على سائر المخلوقات ، وكل ما حوله من ظاهر وباطن مخلوقٌ لخدمته ومُسَخَّرٌ له .

وقد ذكر الله تعالى أصل خلق آدم عليه السلام وهو التراب ، فقال : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) (١) .

وفي الحديث الشريف ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لما صورَ الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيفُ به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك] (٢) ثُمَّ نُفِخَ فِي هَذَا الْكَائِنِ الْأَجُوفِ الرُّوحُ ، وهي مما اختص الله بعلمه لم يُطْلَعِ عليه ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا .

وتكوين جسد الإنسان ليس مجرد جمع خلطيٍّ لمواد أرضية بل يتضمن صناعة متقنة دقيقة معجزة (٣) ، فاكتمل خلق الإنسان غاية الاكتمال ، قال تعالى : (الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورةٍ ما شاء ركبك) (٤) ، ف [ركبهُ على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهدهاه إلى التماسه بفطرته] (٥) .

والإنسان صاحب الخلقِ الدقيق المحكم ضعيف في أمس الحاجة إلى غيره ، قال تعالى عن ضعف الإنسان (وخلق الإنسان ضعيفاً) (٦) .

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩ وانظر في هذا البيان والتبيين ٢٠٤/٣ .

(٢) صحيح مسلم ١٦٤/١٦ .

(٣) انظر : لمحات نفسية في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد الهاشمي ص ٤٦-٤٨ .

(٤) سورة الانفطار الآيتان ٧ ، ٨ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ٤٢ . (٦) سورة النساء الآية ٢٨ .

[ولهذا قيل : الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلاّ ببعض ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه]^(١) .

ومع هذا وذاك ، فذلك الإنسان المخلوق الضعيف الذي لا يكاد يقوم بحاجات نفسه قد خلق الله جميع ما في العالم له [وامتنّ به عليه في غير ما آية من كتابه ، فقال : (سخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)^(٢)]^(٣) ، ومن المخلوقات التي سخرها الله للإنسان وامتنّ عليه بها : الشمس والقمر^(٤) والنجوم^(٥) ، والليل والنهار^(٦) ، والبحر^(٧) ، والفلك التي تجري فيه^(٨) ، والأنهار^(٩) ، والأنعام^(١٠) .

(١) المفردات ٢٨ وللاستزادة انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤١ وما بعدها .
(٢) سورة الجاثية الآية ١٣ وقد وهم ابن خلدون فأوردها هكذا : « خلق لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » . ولعلها اختلطت عليه . يقول الله تعالى في سورة البقرة الآية ٢٩ (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وانظر الآيتين ٦٥ من سورة الحج و ٢٠ لقمان ، فلتصح هذه الآية في هذا الكتاب .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٨٠ .

(٤) انظر السور والآيات الكريمة التالية : الأعراف ٥٤ ، والرعد ٢ ، وإبراهيم ٣٣ ، والنحل ١٢ ، والعنكبوت ٦١ ، ولقمان ٢٩ ، وفاطر ١٣ .

(٥) في الآية ٥٤ الأعراف ، والآية ١٢ النحل .

(٦) انظر الآية ٣٣ من سورة إبراهيم و ١٢ سورة النحل .

(٧) في الآيتين ١٤ سورة النحل ، و ١٢ سورة الجاثية .

(٨) انظر مثلاً الآية ٣٢ إبراهيم .

(٩) في الآية ٣٢ إبراهيم .

(١٠) انظر مثلاً الآيات والسور الكريمة التالية : ٤ النحل ، و ٣٦ ، ٣٧ النحل ،

و ١٣ الزخرف ، وفي مجال تسخير المخلوقات انظر تفسير القرطبي

٣٨٤/٦ لبداية سورة الأنعام فقد أسهب وأجاد وأفاد .

والتسخير مستلزماته وهي : العقل والتفكير والتدبير (١) .

ولم يخلق الله الإنسان عبثاً ، ولم يتركه هملأً ، وإنما خلقه لحكمة بالغة وهدف سام ، قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢) .

والإنسان عالم قائم بذاته مليء بالأسرار والألغاز عوالم واقع الأمر أن الإنسان نفسه يجهل جهلاً مطبقاً كثيراً من هذه الأسرار و [لو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبر به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته] (٣) . والله در الشاعر إذ يقول :

[وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر] (٤)

[قال بعض الحكماء : كل شيء في العالم الكبير له نظيره في العالم الصغير . ولذلك قال تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) (٥) وقال : (وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون) (٦)] (٧) .

ويعلل الجاحظ القول بأن الإنسان هو « العالم الصغير » فيقول : [إنما

(١) سيأتي بحث حول هذا في قسم المقومات المرحلية .

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦ وسيأتي بحث حول هذا في قسم المقومات المرحلية .

(٣) الفوائد لابن القيم ١٧ .

(٤) لم أعثر للبيت على قائل بالرغم من شهرته ، وهو في الديوان المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ص ٧٥ .

(٥) سورة التين الآية ٤ .

(٦) سورة الذاريات الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(٧) القرطبي ٣٣٣/٧ وانظره ٢٠٢/٢ - ٢٠٣ ففيه كلام في غاية الجودة والإفادة لبيان انطواء العالم الأكبر في العالم الأصغر - الإنسان - وضرب الأمثلة منه وفيه .

قليل له العالم الصغير ، سليل العالم الكبير لأنه يصور بيديه كل صورة ، ويحكي بفمه كل حكاية ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع ، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا^(١).

ولا تعدو جميع التبريرات والتعليلات أن تكون مجرد اجتهادات فالإنسان كان ولا يزال وسيظل سراً غامضاً يجهل من نفسه أهم ما فيها وهو الروح^(٢).

وإنما أفضت في الحديث عن الإنسان ، لأن القرآن الكريم قد جعله قضيته الرئيسة [لأنها قضية وجوده في هذا الكون ، وقضية مصيره ، قضية علاقته بهذا الكون ، وبهؤلاء الأحياء ، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء ، وهي قضية لا تتغير لأنها قضية الوجود والإنسان]^(٣).

ويهدف القرآن الكريم إلى [تحقيق التناسق بين حياة الإنسان ، وحركة الكون الذي يعيش فيه]^(٤).

(١) البيان والتبيين ٧٠/٨ .

(٢) للاستزادة ، فهذه بعض الكتب التي تمحضت للحديث عن الإنسان في القرآن الكريم:

- الاستبان ، الروح ، والعقل والجسد للدكتور نبيه عثمان .
- القرآن وقضايا الإنسان ، للدكتورة بنت الشاطيء .
- آدم وخلافة الإنسان للدكتور البهي الخولي .
- الإنسان في القرآن الكريم ، (كتب) بالعنوان ذاته لكل من : العقاد ، وعبد الكريم الخطيب ، وعابد طبيشات ... وغيرهم .
- وأحسب أن أهم كتاب تحدث عن الإنسان بصفة عامة هو كتاب : الإنسان ذلك المجهول ، لمؤلفه الكسيس كارليل .

(٣) معالم في الطريق ٢٠ لسيد قطب .

(٤) ذاته ١٠٠ .

وهكذا نستطيع القول إن موضوع القرآن هو الإنسان وما هو مدار نجاحه وسعادته وما هو مدار خسارته وشقائه ، ودعوته إلى المنهج الصحيح (١) .

ولعل قراءة سور « السجدة » و « الدهر » و « الأعلى » و « الغاشية » كل جمعة في صلاتي الفجر والجمعة ما ينبيء عن هذه الحقيقة ، ويذكر الانسان بأنه لا يعدو مجرد ضيف على هذه الحياة ما يلبث أن يرتحل عنها ، وذلك درس أسبوعي يذكره بربه ، و (الذكرى تنفع المؤمنين) (٢) .

٤ - الشيطان :

النون في الشيطان أصلية من شطن : أي تباعد ، وقيل : بل هي زائدة من شاط يشيط : احترق غضباً ، فالشيطان مخلوق من النار ، ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة ، وامتنع من السجود لأدم (٣) .

و [قال أبو عبيدة : الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات قال تعالى : (شياطين الإنس والجن) (٤) وقال عز وجل : (وإن الشياطين ليوحون) (٥) - وقال تعالى : (وإذا خلوا إلى شياطينهم) (٦) أي

(١) للاستزادة والاستفادة . انظر كتاب العلامة أبي الأعلى المودودي « مباني »

أساسية لفهم القرآن الكريم » .

(٢) جزء الآية ٥٥ من سورة الذاريات .

(٣) انظر المفردات ٢٦١ .

(٤) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ١٤ من سورة البقرة .

أصحابهم من الجن والإنس [١].

[وسمي كلُّ خُلُقٍ ذميمٍ للإنسان شيطاناً ، فقال عليه السلام :
«الحسد شيطان والغضب شيطان» [٢] [٣] .

وفي الحديث الشريف : [لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيفُ به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك [٤] ، ومصدق ذلك قوله تعالى : (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفاً) [٥] ؛ وهناك مواطن ضعف في الإنسان جاءه الشيطان من خلالها [٦] .

وقصة إبليس مع آدم عليه السلام قد بيّنها القرآن الكريم بأدق تفاصيلها في أكثر من موضع [٧] .

ولما أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم سجدوا كلهم أجمعون (إلا إبليس أبى واستكبر) [٨] (وقال : أأَسْجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِيناً) [٩] ، ولما رأى إكرام

(١) المفردات ٢٦١ .

(٢) انظر مثلاً : جامع العلوم والحكم ٣٦٦/١ لابن رجب تحقيق الأرناؤوط وباجس ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

(٣) المفردات ٢٦١ .

(٤) صحيح مسلم ١٦٤/١٦ .

(٥) سورة النساء الآية ٢٨ .

(٦) انظر مواطن الضعف الانساني هذه أمام الشيطان الرجيم في كتاب «الفلسفة التربوية في القرآن الكريم» ص ٦٧ - ٧٠ .

(٧) انظر مثلاً الآيات : ٣٠ - ٣٩ من سورة البقرة ، والآيات ١١ - ٢٧ من سورة الأعراف والآيات ٢٦ - ٤٣ من سورة الحجر . والآيات ١١٥ - ١٢٣ من سورة طه ، والآيات ٧١ - ٨٥ من سورة ص .

(٨) الآية ٣٤ من سورة البقرة . (٩) الآية ٦١ من سورة الإسراء .

الله تعالى لآدم (قال أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً) (١) (وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) (٢) وكان ما كان من إغواء إبليس لآدم عليه السلام بالأكل من الشجرة التي حرّمها الله عليه ، (وعصى آدم ربه فغوى) (٣) ، فأهبطه الله تعالى وزوجته من الجنة ، وقال لهما مشيراً إلى عداوة إبليس لهما : (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) (٤) وفي آية أخرى (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) (٥) .

وجميع الأديان والرسالات السماوية حذّرت من هذه العداوة الشديدة من الشيطان للإنسان ؛ ولا أدلّ على ذلك من قول «أمية بن أبي الصلت» وكانت عنده أثارة من علم أهل الكتاب - مبيّناً أن الدنيا دار خداع وباطل والعدو المتربص فيها شيطان رجيم :

فإنك في دنيا غرور لأهلها وفيها عدو كاشح الصدر يوقد (٦)

ولجكمة إلهية قال تعالى لإبليس الذي أقسم وقال : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) (٧) قال له عز وجل : (اذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً) (٨) .

وهكذا احتدمت المعركة بين الشيطان والإنسان .

أ - ميدان المعركة :

والدنيا هي ميدان الصراع بين الإنسان والشيطان ، وبين الحقّ

(١) الآية ٦١ من سورة الإسراء . (٢) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٣) سورة طه الآية ١٢١ . (٤) سورة طه الآية ١٢٣ .

(٥) الآية ٣٦ من سورة البقرة ، وانظر الآية ٢٤ من سورة الأعراف .

(٦) ديوانه ٣٧٤ .

(٧) سورة ص الآية ٨٢ . (٨) سورة الإسراء الآية ٦٣ .

والباطل وبين الخير والشر ؛ صراع بين الهداية والغواية (١) .

ومجال المعركة ليس هو الأرض وحدها ، وليس هو الحياة الدنيا وحدها ، وشهودها ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال ؛ إن الملأ الأعلى يُشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها (٢) ، (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) (٣) .

ب - أساليب الصراع :

ومن ملامح أساليب هذا الصراع بين الإنسان والشیطان تحريش إبليس وبعثه سراياه لفتنة الناس، جاء في الحديث الشريف: [إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة] (٤).

وكذلك الشيطان القرين الذي يلزم الإنسان ويجري منه مجرى الدم، يوسوس له ، ويزين ، ويغريه ويغويه ، يقول صلى الله عليه وسلم : [ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن] (٥) .

وفي تفسير قوله تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) (٦) ؛ يقول القرطبي : [قيل : في الدنيا ، يمنعه من

(١) انظر مثلاً: القرطبي ٦٨/٤ و ٣٥٦/٩ وكتاب : « الإنسان في القرآن الكريم » لعبد الكريم الخطيب ص ١٣٤ - ١٥٦ .

ومبحث « المعركة الخالدة بين البشر والشیطان » من كتاب « الإنسان ، الروح والعقل والنفس » ص ٥١ - ٧٠ للدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان ، سلسلة دعوة الحق - رابطة العالم الإسلامي - س ٧ ع ٧٠ محرم ١٤٠٨هـ اغسطس ١٩٨٧م .

(٢) انظر كتاب « معالم في الطريق » للشهيد سيد قطب ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) صحيح مسلم ١٥٦/١٧ .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٢ .

(٦) سورة الزخرف الآية ٣٦ .

(٥) صحيح مسلم ١٥٧/١٧ .

الحلال، ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية [(١)] . ومن قبل الشيطان في الدنيا فقد قارنه [(٢)] .

وفي الحديث القدسي الشريف : [وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا] (٣) .

ومداخل الشيطان ثلاثة هي : ١ - التزيد والاسراف ، ٢ - الغفلة ، ٣ - تكلف ما لا يعني (٤) .

وهناك سبل كثيرة يترصد بها الشيطان للعبد المؤمن ليصده عن ذكر الله ومنها : المال والأهل والولد . يقول تعالى : (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) (٥) .

وإبليس الذي قال لرب العزة : (ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) (٦) ، لا يتورع حتى عن إغواء عباد الله المخلصين ، يقول تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) (٧) ، بل وتجراً على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، يقول تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) (٨) .

(١) القرطبي ٨٩/١٦ . (٢) القرطبي ١٩٤/٥ .

(٣) صحيح مسلم ١٩٧/١٧ .

(٤) بتصرف من كتاب الفوائد لابن القيم ص ٢٥٩ .

(٥) سورة التغابن الآية ١٤ وانظر القرطبي ١٤١/١٨ - ١٤٢ .

(٦) سورة الحجر ، الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

(٧) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .

(٨) سورة الحج الآية ٥٢ .

ج - مظاهر الصراع :

إن أبرز مظاهر الصراع هو تواعد الشيطان وتعهدده بغواية بني آدم حسداً منه لإكرام الله آدم عليه السلام وتفضيله عليه .

وقد فصل القرآن الكريم جوانب هذا الصراع ومظاهره مؤكداً أن الشيطان عدو^(١) مضلّ مبين^(٢) يضلّ^(٣).

ويصدّ عن ذكر الله وعن سبيل الحق^(٤) ، وهو داعية فتنة^(٥) ، ينزغ^(٦) ، ويوقع العداوة والبغضاء^(٧) ، ويزين سوء العمل^(٨) ، ويسول^(٩) ، ويعدّ ويمني^(١٠).

(١) شدد القرآن الكريم على عداوة الشيطان للإنسان في ١٩ موضعاً ، وانظر مثلاً الآيات والسور التالية : ٣٦ ، ٤٢ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ سورة البقرة ، ١٢٣ سورة طه ، ٤٢ سورة الأنعام ، ٦ سورة فاطر ، ٤٤ سورة مريم ، ٦٠ سورة يس ، ٥٣ سورة الإسراء ، ٦٢ سورة الزخرف ، ٤٥ سورة النساء ، ٢٢ سورة الأعراف ، ١٥ سورة القصص ، ٩١ سورة المائدة ، وغيرها .

(٢) انظر سورة القصص الآية ١٥ .

(٣) انظر الآيتين ٦٠ من سورة النساء و ١٥ من سورة القصص .

(٤) انظر مثلاً سورة الزخرف ٦٢ .

(٥) انظر مثلاً سورة الأعراف ٢٧ والحج ٥٣ .

(٦) انظر مثلاً : سورة الأعراف ٢٠٠ ويوسف ١٠٠ والإسراء ٥٣ وفصلت ٣٦ ، والنزغ : الدخول في الأمر لإفساده .

(٧) انظر سورة المائدة الآية ٩١ .

(٨) انظر مثلاً : الأنعام ٤٣ ، والأنفال ٤٨ ، والنحل ٦٣ ، والنمل ٢٤ ، والعنكبوت ٣٨ .

(٩) سورة محمد الآية ٢٥ والتسويل : تزيين النفس لما تحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن .

(١٠) انظر مثلاً : سورة النساء ١٢٠ والإسراء ٦٤ والحج ٥٢ .

، ويزل (١) ويستزل (٢) .

ويعد بالفقر ويأمر بالفحشاء (٣) ، وينسي ذكر الله وغيره (٤) ، ويستهوئ الإنسان (٥) ، ويستحوذ عليه (٦) ، ويملي له (٧) ، ويوسوس له (٨) ، ويمسه ويؤذيه (٩) .

وقد اتخذ الشيطان من بني آدم أولياء (١٠) وإخواناً (١١) ، وجنوداً (١٢) ، وأتباعاً (١٣) ، يضمهم إلى حزبه (١٤) . ويتواصل شياطين الإنس والجن (١٥) ، ويوحون إلى أوليائهم لمجادلة المؤمنين (١٦) ، والشيطان يخوف أولياءه (١٧) ، ويخذلهم (١٨) .

وبيّن لنا الله سبحانه وتعالى أن عداوة الشيطان للإنسان ابتدأت بعداوته لآدم وحواء عليهما السلام (١٩) ، وأن الشر والضلال والأذى من عمل

-
- | | |
|--|--------------------------------|
| (١) سورة البقرة الآية ٣٦ . | (٢) سورة آل عمران الآية ١٥٥ . |
| (٣) سورة البقرة الآية ٢٦٨ . | |
| (٤) انظر مثلاً: سورة الأنعام الآية ٦٨ ويوسف الآية ٤٢ ، والكهف الآية ٦٣ ، والمجادلة الآية ١٩ . | |
| (٥) سورة الأنعام الآية ٧١ . | (٦) سورة المجادلة الآية ١٩ . |
| (٧) سورة محمد الآية ٢٥ . | |
| (٨) انظر مثلاً: سورة الأعراف الآية ٢ ، وطه الآية ١٢ ، والناس الآية ٤ . | |
| (٩) انظر سورة البقرة الآية ٢٧٥ ، والأعراف الآية ٢٠١ ، والكهف الآية ٥٠ ، و ص الآية ٤١ . | |
| (١٠) انظر مثلاً: سورة النساء الآية ٧٦ ، والأنعام الآية ١١٢ ، والأعراف الآيتان ٢٧ ، ٣٠ ، ومريم الآية ٤٥ . | |
| (١١) سورة الإسراء الآية ٢٧ . | (١٢) سورة الشعراء الآية ٩٥ . |
| (١٣) انظر مثلاً: سورة النساء الآية ٨٣ ، والأعراف الآية ١٧٥ ، والحج الآية ٣ . | |
| (١٤) سورة المجادلة الآية ١٩ . | (١٥) سورة الأنعام الآية ١١٢ . |
| (١٦) سورة الأنعام الآية ١٢١ . | (١٧) سورة آل عمران الآية ١٧٥ . |
| (١٨) سورة الفرقان الآية ٢٩ . | (١٩) سورة طه الآية ١١٧ . |

الشيطان^(١) ، وهو طريق الكفر والغواية من سلك طريقه واتبع خطواته ابتعد عن منهج الله وصراطه المستقيم^(٢) ، وطاعته عبادة له وشرك بالله^(٣) ، وطريق إلى النار^(٤) وعذاب السعير^(٥) .

وبالرغم من ذلك فإن كيد الشيطان ضعيف^(٦) ، لا يضر الإنسان ما استعصم بالله وآمن به^(٧) .

د - الشيطان وأولياؤه :

[الولاء والتوالي : أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد ، والولاية : النصرة . والولاية : تولي الأمر]^(٨) .

والشيطان يمارس مهمته في هذه الحياة بإغواء بني آدم واستدراجهم إلى عبادته من نون الله . والعجيب أن القرآن الكريم يركز على ولاية الإنسان للشيطان فيذكر دائماً أن الإنسان هو الذي يتخذ الشيطان ولياً من نون الله ولا يذكر أبداً موالاته للشيطان للإنسان ، بل العكس دائماً ما يخذل الشيطان

(١) انظر مثلاً : سورة المائدة الآية ٩٠ والقصاص الآية ١٥ .

(٢) انظر مثلاً : سورة البقرة الآيتان ١٦٨ و ٢٠٨ ، والأنعام الآية ١٤٢ ، والنور الآية ٢١ .

(٣) انظر مثلاً : سورة الأنعام الآية ١٢١ ، ومريم الآية ٤٤ ، ويس الآية ٦ .

(٤) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٥) سورة لقمان الآية ٢١ .

(٦) سورة النساء الآية ٧٦ .

(٧) سورة الإسراء الآيات ٦٤ - ٦٦ .

(٨) المفردات ٥٣٣ ..

الانسان في أخرج المواقف^(١) ، يقول تعالى عن الشيطان وخذلانه للمشركين يوم بدر : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب)^(٢) ، وعن خذلان الشيطان لبني الإنسان يقول تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين)^(٣) .

وفي يوم الحساب الأكبر يكون خذلان الشيطان لأوليائه مؤلماً شديداً ، يقول تعالى : (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل)^(٤) .

فانظر إلى هذا التملّص العجيب ، وقارنه بالتقريع الشديد من الله تعالى في قوله : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون)^(٥) ، وفي قوله تعالى : (أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلاً)^(٦) .

(١) يقول تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولاً) سورة الفرقان الآية ٢٩ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٣) سورة الحشر الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(٤) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٥) سورة يس الآيات ٦٠ - ٦٣ .

(٦) سورة الكهف الآية ٥٠ .

والقرآن الكريم يحذّر ويلجّ في التحذير من اتخاذ الشيطان ولياً من دون الله يقول تعالى : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً)^(١)، ويقول عزّ وجل : (كُتِبَ عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير)^(٢) .

وسيطرة الشيطان وسلطانه إنما هي على من تولاه من بني البشر في الدنيا ، يقول تعالى : (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)^(٣) .

وولاية الشيطان للإنسان في الدنيا فقط وهي ولاية غواية وغرور وابتلاء ، ولكن ولاية الله سبحانه في الدنيا وفي الآخرة (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(٤)، وأولياء الله هم المتقون الصالحون^(٥) ، وأولياء الشيطان هم الذين لا يؤمنون^(٦) ، والذين يزيّن لهم الشيطان أعمالهم^(٧) ويحسبون أنهم مهتدون^(٨) .

وإذا خذل الشيطان أولياءه في المحشر فإن الله سبحانه وتعالى هو الولي ونعم المولى ونعم النصير لا يخذل عباده في ذلك اليوم العظيم ، (هناك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا)^(٩) .

وعاقبة أولياء الشيطان وخيمة ، نار تلتظي يصلونها معه خالدين فيها أبداً ، يقول تعالى ذاكرنا عاقبة كل من الفريقين : أولياء الرحمن وأولياء

(١) سورة النساء الآية ١١٩ . (٢) سورة الحج الآية ٤ .

(٣) سورة النحل الآية ١٠٠ . (٤) سورة فصلت الآية ٣١ .

(٥) انظر الايات والصور التالية : ١٩٦ الأعراف ، ٣٤ الأنفال ، و ١٠٠ يوسف ، و ١٩ الجاثية .

(٦) انظر الأعراف الآية ٢٧ . (٧) انظر النحل الآية ٦٣ .

(٨) انظر سورة الأعراف الآية ٣٠ . (٩) سورة الكهف الآية ٤٤ .

الشیطان: (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً)^(١) ، ويقول عن مصير أولياء الشيطان : (فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ، وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً)^(٢) . ويقول تعالى : (فكذبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)^(٣) .

ولم يترك الله سبحانه وتعالى بني آدم نهبة للشياطين فقد حذر سبحانه وتعالى وبألف في التحذير من نزغهم^(٤) ووساوسهم ، وغرورهم وباطلهم وخطواتهم وخداعهم ومكرهم ، وتزيين العمل السيء .

وقد أبان القرآن الكريم طريق الحق ، وصراط الله المستقيم ودعا إلى نهج هذا الطريق والابتعاد عن سبل الشيطان ، يقول تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)^(٥) ، فإله يهدي إلى الحق ، والشيطان يدعو إلى النار (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً)^(٦) .

وعداوة إبليس المقيتة لبني آدم يجب أن يواجهوها بعصيانهم له لا بتغيظهم منه ، والله در أبي حازم الأعرج إذ سمع قوماً يلعنون إبليس ويتغيظون

(١) سورة مريم الايتين ٨٥ - ٨٦ . (٢) سورة مريم الآيات ٦٨ - ٧٢ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ٩٤ - ١٠١ .

(٤) انظر مثلاً : الأعراف ٢٠٠ والإسراء ٥٣ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٥٢ . (٦) سورة النساء الآية ٦ .

منه فقال [وما إبليس ؟ لقد عصيَ فما ضرَّ ، وأطيعَ فما نفع] (١) .

وللأسف فأتباع إبليس كثير ، يقول تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) (٢) .

٥ - الملائكة :

ولن أطيل في هذا الباب كثيراً ، فالملائكة خلق من خلق الله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (٣) وهم مكلفون بأعمال وعبادات (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٤) . ومن الأعمال التي كُفوا بها حفظ بني آدم ومدافعة المردة والشياطين عنهم ، يقول تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) (٥) ، وقال تعالى : (قل من يكؤم بالليل والنهار من الرحمن) (٦) .

ومن الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون الذين يحفظون على الإنسان رزقه وعمله وأجله يقول تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) (٧) ويقول عز وجل : (إن كل نفس لمام عليها حافظ) (٨) حتى إذا جاء بنو آدم يوم القيامة

(١) الأمثال والحكم للماوردي ١٤٠ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٠ .

(*) وعن الصراع بين الإنسان والشیطان ورد في القرآن الكريم التحذير من مكائد الشیطان وأحابيله ٩١ مرة ، وورد عصيان إبليس لأمر ربه بالسجود لآدم ٩ مرات ، وورد توعد الشیطان بغواية بني آدم في ١٦ موضعاً .

(٣) سورة التحريم الآية ٦ . (٤) سورة الأنبياء الآية ٢٠ .

(٥) سورة الرعد الآية ١١ . (٦) سورة الأنبياء الآية ٥٢ .

(٧) سورة الانفطار الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٨) سورة الطارق الآية ٤ .

ونشرت صحائفهم على الملأ يفزعون (ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) (١) .

ويدون هؤلاء الملائكة لا يمكن لحياة ابن آدم أن تستقيم (٢) .

٦ - الاختلاف :

ومن سنن الله سبحانه وتعالى في الكون والمخلوقات الاختلاف والتباين ، من ليل ونهار ، وضياء وظلام ، وأرض وسماء ، وحق وباطل ، وخير وشر ، وصالح وفساد ، ومن البشر ، الغني والفقير ، والكبير والصغير ، والعظيم والحقير ، والصالح والطالح ، وولي الرحمن وولي الشيطان ، ومؤمن ومجرم ... الخ

وفي هذا الاختلاف والتباين رحمة للبشر وقوام لحياتهم وحكمة إلهية ، يقول تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (٣) ، وتلك الكلمة هي المقصودة في قوله تعالى : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) (٤) .

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٢) انظر القرطبي ٣/٢٠ وما بعدها وعن بعض الأعمال التي كُلف بها الملائكة انظر أوائل السور التالية : الذاريات ، والمرسلات ، والنازعات .

(٣) سورة هود الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) سورة يونس الآية ١٩ .

ويؤكد سنة الاختلاف قول الله تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين)^(١) . وقوله عز وجل : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)^(٢) .

وعجيبُ ذلك الكلام النفيس الذي فسّر به الخليفة العباسي المأمون سنة الاختلاف للمرتدّ الخراساني الذي أوحشه ما رأى من اختلاف المسلمين ، فكان مما قاله المأمون ^(٣): [ولو شاء الله أن يُنزلَ كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثته رسلاً لا يحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكننا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دُفِعَ إلينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل وليس على هذا بنى الله الدنيا] .

وقد صادف هذا التحليل والتقدير مني هوى فأختم به هذا المبحث .

(١) سورة الزخرف الآية ٣٣ - ٣٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

(٣) انظر القصة بكاملها في البيان والتبيين ٣/٣٧٦ .

الصف الثاني - المقومات المرحلية :

وهذا القسم ينضوي تحته نوعان من المقومات هما :

أ - المقومات الحياتية . ب - المقومات الدينية .

ونعني بالمرحلية : تلك المرحلة الكبرى في هذه الحياة منذ هبوط آدم عليه السلام من الجنة إلى أن يهلك آخر ولد من أولاده ، وما تحتاجه تلك الرحلة من زاد يعين على المسير ، سواءً أكان هذا الزاد دينياً أم حياتياً ، وسواءً أكان مادياً أم معنوياً حتى الوصول إلى نهاية الطريق وهو الموت .

النوع الأول

المقومات الحياتية

وقد رتبناها بحسب أهميتها كالتالي :

- ١ - الحياة .
- ٢ - الأمل وطوله .
- ٣ - الموت .
- ٤ - الآخرة .
- ٥ - التناسل والتكاثر .
- ٦ - الزرق .
- ٧ - تقلب الأحوال وتصرفها .

١ - الحياة :

الحياة هبة من الله للمخلوقات اختص الله سبحانه وتعالى بالعلم بكنهها وسرّها ولا يعلم ذلك أحد سواه ، وإن كان إبراهيم الخليل عليه السلام قد رجا ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى فأراه الله كيفية الإحياء ولم يُطْلِعْهُ على مضمون الحياة .

وأما تعريفات الحياة التي نراها هنا وهناك مبثوثة في بطون الكتب والمراجع فلا تعدو أن تكون مجرد تأصيل لغوي لهذه الكلمة ، أو مجرد اجتهد لرصد مظاهر الحياة وظواهرها ، وآثارها ونتائجها ، ولا يمكن أن يتطرق التعريف إلى حقيقتها وماهيتها فذلك شيء علمه عند الله تعالى .

ولنضرب مثلاً على ذلك بتعريف الأصفهاني في مفرداته للحياة^(١) ، فقد ذكر أنها تُستعمل على عدة أوجه منها :

١ - القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان ، قال تعالى :
(اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها)^(٢) .

٢ - القوة الحسّاسة وبه سمّى الحيوان حيواناً ، قال تعالى : (إن الذي أحيّاها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير)^(٣) فقله : « إن الذي أحيّاها » إشارة إلى القوة النامية ، وقوله « لَمْحْيِيُ الموتى » إشارة إلى القوة الحسّاسة.

٣ - القوة العاملة العاقلة كقله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه)^(٤).

(١) المفردات ١٣٨ - ١٤٠ بتصرف .

(٢) سورة الحديد الآية ١٧ .

(٣) سورة فصلت الآية ٣٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

٤ - عبارة عن ارتفاع الغمّ ، قال الشاعر (١) :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميّت ميّت الأحياء (٢)

٥ - الحياة الأخروية الأبدية ، قال تعالى : (يا ليتني قدمت لحياتي) (٣).

٦ - الحياة التي يوصف بها الباري عز وجل ، فمعناه لا يصحّ عليه الموت وليس ذلك إلا لله عز وجل وجل . وقال بعض أهل اللغة : الحيوان والحياة واحد ، وقيل : الحيوان ما فيه الحياة والموتان ما ليس فيه الحياة .

وهكذا نجد أن تعريف الحياة مهما كان محلّه لغة أو اصطلاحاً علمياً أو استقرائياً لا يبعد أبداً عن تتبع مظاهر الحياة لا الحياة ذاتها .

ومن خلال ما اطلعت عليه من تعريفات للحياة أجدني مضطراً إلى القول إن التعريف الواضح لها لم يأت ، ولما يأت بعد .

ويمكن أن نصنف الحياة - لا أن نعرّفها - بأن نقول مثلاً :

الحياة سرٌّ من أسرار الله وهبه الله لمخلوقاته ومنحها به القوة والنموّ والحساسية والعقل ليؤدي كلّ مخلوقٍ وظيفته التي هيّها الله له في هذا الكون الرحب الفسيح .

وهناك حياة حقيقية مثل : النبات والحيوان والإنسان ، وهناك حياة معنوية مثل ما يمكن أن نطلق عليه : حياة القلوب ، أو حياة الضمائر .

(١) والشاعر هو : عدي بن الزعلاء الغساني ، شاعر جاهلي ، والرعاء اسم أمه ، اشتهر بها . انظر ترجمته في : معجم الشعراء ٢٥٢ والأصمعيّات ١٥٢ ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٢٠٥ .

(٢) الأصمعيّات ١٥٢ .

(٣) سورة الفجر الآية ٢٤ .

والحياة والأحياء نوعان :

أ - مشاهد مثل جميع ما تقع عليه أعيننا ،

ب - وغير مشاهد مثل : الجن ، والملائكة .

ومن حيث أقسام الحياة الزمانية ، فهناك الحياة الدنيا الفانية التي لا بقاء لها ، وهناك الحياة الأخرى وهي الحياة الدائمة الباقية .

والقسم الأول من الحياة الزمانية هو الذي نحن بصددده وهو ما يعنينا في هذا البحث ، وهي تلك الحياة التي بين موتتين^(١) .

وموطن هذه الحياة هو الأرض قال تعالى : (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)^(٢) .

وفي الأرض أيضاً معاشنا [والعيش : الحياة المختصة بالحيوان ، وهو أخص من الحياة ؛ لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي الملك ، ويشترك منه المعيشة : لما يتعيش منه قال تعالى : (وجعلنا لكم فيها معاش)^(٣) ، وقال عز وجل (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا)^(٤) .

والحياة مرحلة اختبار قال تعالى : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)^(٥) (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة)^(٦) والجزاء من جنس العمل (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة)^(٧) .

(١) زيادة في التفصيل انظر ص ٦٠ من هذا البحث .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٠ ، وسورة الحجر الآية ٢٠ .

(٤) سورة ص الآية ١٢٤ . (٥) سورة الملك الآية ٢ .

(٦) سورة الأنفال الآية ٤٢ . (٧) سورة النحل الآية ٩٧ .

والذي يقرأ القرآن الكريم يلفت نظره بشكل واضح اهتمامه بتنظيم حياة الإنسان الدنيا^(١) . ويذكر القرآن الكريم ويركز على أن الماء هو مصدر الحياة لجميع الأحياء^(٢) . قال تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي)^(٣) .

وحيث إن تعريف الباحثين للحياة الدنيا يكاد ينحصر في نقطتين هما^(٤) : أ - أنها الحياة الحسية الملموسة ، ب - أنها الحياة المقابلة للحياة الآخرة ، فإن هذا التعريف القاصر ينزع من الحياة أهم مضامينها ألا وهو الهدف منها ، ثم إن هذه الحياة البشرية المحدودة بزمان معين ومكان معين حياة غالية نفيسة على الإنسان أو هكذا فطر الله فيه حب الحياة ثم طالبه بأن يحيا هذه الحياة لله وفي الله ومع الله (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت)^(٥) .

وقد يطغى حب الحياة ونزوة الشهوات على ابن آدم فينصرف عن هذا الهدف الذي خلق له ، حينذاك يصور القرآن الكريم هذه الحياة على حقيقتها بأنها لعب^(٦) ، ولهو^(٧) ، ومتاع

(١) انظر كتاب : « الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر » للدكتور عبدالغني عبود ص ١٤٧ ، دار الفكر العربي مصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ م .

(٢) ورد ذكر الماء بهذا اللفظ والمعنى ٥٩ مرة في القرآن الكريم .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

(٤) انظر مثلاً : دائرة المعارف الإسلامية للناشئين ١٧٣ .

(٥) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٦) « يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً » انظر المفردات للأصفهاني ٤٥٠ وقد وردت كلمة (لعب) بهذا المعنى ٢٠ مرة في القرآن الكريم .

(٧) اللهو هو « ما يشغل الإنسان عن ما يعنيه ويهمه » انظر المفردات ٤٥ وقد وردت بهذا اللفظ والمعنى في ١٦ موضعاً في القرآن الكريم .

الغرور^(١) وبأنها ساعة من نهار ، فهي حياة قصيرة محدودة لا بقاء للذاتها ولا لمصائبها والسعيد من قطع هذه الرحلة بما يرضي الله ويكون له ذخراً في الحياة الأخرى^(٢) .

ومجمل القول إن جميع من تحدثوا عن الحياة الإنسانية في القرآن الكريم ، قد سلكوا إحدى سبيلين : إما سبيل التعرض لما ليس من شأنهم وهو محاولة الوصول إلى معرفة كنه الحياة وحقيقتها وهذا ما لا طاقة لهم به ، إذ الحياة مرتبطة بالروح فلا روح بلا حياة ولا حياة بلا روح ، وكلاهما سر اختص الله وحده بعلمه (قل الروح من أمر ربي)^(٣) ، وإما أنهم حاولوا معرفة بعض أشكال الحياة وخصائصها وذلك مجال للبحث لهم فيه سعة ولن يحققوا فيه شيئاً يذكر^(٤) .

وحسبك أن الله تحدّى البشر جميعاً أن يخلقوا ذباباً ، ذلك المخلوق الضئيل الضعيف ، بل وتحداهم أن يستتقنوا منه شيئاً سلبه منهم (ضعف الطالب والمطلوب)^(٥) فأتى لهم وهم بهذا الضعف أن يصلوا إلى حقيقة الحياة .

(١) انظر ص ٩٤ من هذا البحث .

(٢) انظر كلاماً جميلاً في هذا ص ١٩ - ٢٣ من كتاب (من أسرار التعبير في القرآن « صفاء الكلمة ») للدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ ، الرياض ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، د . ط .

(٣) الإسراء الآية ٨٥ .

(٤) انظر مثلاً في تعريف الحياة الانسانية في القرآن الكريم كتاب « منهج الحضارة في القرآن الكريم » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ٩١-٦٤ .

(٥) الحج الآية ٧٣ .

ولمن يلحّ في معرفة سرّ الحياة كانت سورة البقرة بحق سورة «الحياة» ففيها قصة بني إسرائيل الذين أحياهم الله بعد ما أماتهم^(١) وفيها إحياء الله البقرة التي ذبحها بنو إسرائيل^(٢) ، وفيها حبّ اليهود وحرصهم الشديد على الحياة^(٣) وفيها الحياة بالقصاص^(٤) ، وفيها قصة الذين خرجوا من ديارهم ألوف فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم^(٥) وفيها قصة إبراهيم مع النمرود^(٦) وقصة عزيز مع حماره^(٧) وفيها طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى^(٨) وفيها آية الكرسي : (الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم)^(٩) .

وبهذه الآيات وغيرها قد ضرب الله الأمثال^(١٠) للحياة الدنيا ، ولكن الحياة مع ذلك تبقى سرّاً مغلّقاً لا يفكّ مغاليقه ولا يعلم أسرارها إلا الباري عز وجلّ ، وما علينا إلا الاعتراف بعجزنا والرّضا والتسليم له سبحانه وتعالى .

ومنهج تصوير القرآن الكريم للحياة الدنيا منهج مستقل عن جميع النظريات الجاهلية قديمها وحديثها ؛ حياة إنسانية تقيم في الأرض نظاماً يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله^(١١) .

(١) الآيتان ٥٥ - ٥٦ . (٢) الآية ٧٣ .

(٣) الآية ٩٦ . (٤) الآية ١٧٩ .

(٥) الآيات ٢٤٣ - ٢٥١ . (٦) الآية ٢٥٨ .

(٧) الآية ٢٥٩ . (٨) الآية ٢٦٠ .

(٩) الآية ٢٥٥ .

(١٠) انظر مثلاً: سورة يونس الآية ٢٤ وسورة الكهف الآية ٤٥ ، وانظر

القرطبي ٤١٢/١ - ٤١٦ ففيه بحث نفيس في هذا المجال .

(١١) انظر : معالم الطريق للشهيد سيّد قطب ص ١٤٨ .

ويوجز قصة الحياة أبلغ إيجازٍ الزبرقان^(١) في قوله :

[وإنما الناس للرحمن أمكم أكائل الطير أو حشو لأرجام
هم يهلكون ويبقى كل ما صنعوا كأن قصتهم خُطَّت باقلام]^(٢) .

(١) هو حصين بن بدر بن امريء القيس التميمي . والزبرقان هو : البدر ، لقب بذلك لجماله وقيل لأنه كان يزبرق عمامته أي يصفرها في الحرب ، وقيل غير ذلك .

ويكنى : أبا عيش ، وأبا شذرة ، وهو شاعر مخضرم محسن ، قمر أهل نجد وسيدهم ، وكان عظيم القدر في الجاهلية والإسلام . انظر ترجمته في ديوانه .

(٢) المؤلف للأمدي ١٢٨ .

٢ - طول الأمل :

نمّ الله سبحانه وتعالى اليهود فقال : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)^(١) فإذا كانوا أحرص الناس على الحياة فمعنى هذا أن الحرص مشترك بين جميع الناس ولكن اليهود أشدّ الناس حرصاً والأسباب في هذا الحرص مختلفة .

والحرص على الحياة وحبّها أمر غريزي ، وكذلك طول الأمل ، فحرص الإنسان على الدنيا وانشغاله بها ينسيه الموت وما بعده ، يعين على هذا هوى متبع ودنيا غرورة .

ولأهمية الأمل وطوله عقدت كتب الحديث والزهد والحكم أبواباً وفصولاً فيه ، من ذلك الباب الذي عقده البخاري وعنون له بقوله : [باب في الأمل وطوله]^(٢) ومعناه [أي هذا باب في بيان إلهاء الأمل عن العمل]^(٣) .

[وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحبّ لها والإعراض عن الآخرة]^(٤) [فالأمل يُكسِلُ عن العمل ويورث التراخي والتواني ويعقب التشاغل والتعاس ، ويُخَلِدُ إلى الأرض ويميل إلى الهوى]^(٥) [والأمل مذموم لجميع الناس]^(٦) .

[والفرق بين الأمل والتمني : أن الأمل ما يقوم بسبب والتمني بخلافه ، فالإنسان لا ينفك عن الأمل ، فإن فاتته الأمل عوّل على التمني]^(٧) .

فكما أنّ [طول الأمل داء عضال ومرض مزمن ، ومتى تمكن من

(٢) انظر البخاري ١٥٩/٨ .

(٤) القرطبي ٣/١٠ .

(٦) عمدة القاري ٣٣/٢٣ .

(١) سورة البقرة الآية ٩٦ .

(٣) عمدة القاري ٣٣/٢٣ .

(٥) ذاته ٣/١٠ .

(٧) ذاته ٣٣/٢٣ .

القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ، ولم يفارقه داء ، ولا نجع فيه دواء ، بل
أعيا الأطباء والحكماء ، ويئس من برئه الحكماء والعلماء [^(١)] فإن [كثرة
التمني تخلق العقل وتفسد الدين وتطرد القناعة] ^(٢) .

وطول الأمل مع هذا ركيزة من ركائز الحياة لا قوام لها بدونها ، وذلك
أن الموت أمرٌ غيبي لا يعلم أجله إلا الله سبحانه وتعالى ، وتغييب موعد الموت
فسحة وراحة للإنسان فلو علم كل إنسان متى يموت لما هنا العيش لأحد ،
ولامتلات النفوس غمّاً وهمّاً ونكدّاً ... ورُعْباً ... وظلّ البشر يعيشون على
هاجس هذا الموعد الرهيب .

ولله در الطغرائي ^(٣) إذ يقول :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ^(٤)
ونحوه قول ذي الرمة ^(٥) :

ليالي اللهو يطبيني فاتّبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

(١) القرطبي ٣٠٢/١٠ . (٢) عمدة القاري ٣٣/٢٣ .

(٣) شاعر عباسي من شعراء القرن السادس وهو أبو إسماعيل الحسين بن
علي الأصبهاني ، لقب بالطغرائي لأنه كان يكتب الطرة في أعلى الكتب ،
وهي لفظة أعجمية ، قُتِلَ صبراً سنة ٥١٥ هـ لاتهامه بالزندقة ، انظر
ترجمته في ديوانه .

(٤) ديوانه ٣٠٦ بتحقيق الدكتور علي جواد الطاهر ، ويحيى الجبوري ، دار
القلم ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

(٥) هو الشاعر الأموي المعروف ، أبو الحارث غيلان بن عقبة ، وسمي ذا
الرمة لقوله يصف الوتد وبقيّة جبل فيه :

لم يبق منها أبد الأبيد غير ثلاث ما ثلاث سود
وغير مرضوخ القفا موتود أشعث باقي رمة التقليد
وقيل غير ذلك . انظر ترجمته في ديوانه .

لا أحسب الدهر يبلى جدة أبداً ولا تقسم شعباً واحداً شعباً^(١)

وجهل الإنسان بموعد موته فتح له باب الأمل على مصراعيه ، ولذلك نجد ارتباط ذكر الأمل بالموت ارتباطاً وثيقاً .

وقصة الإنسان مع الأمل والموت هي قصة الحياة ذاتها ، وهذه نماذج من أبيات قالها شعراء عبر كل منهم عن نظرتهم ومداخلهم نفسه حيال الأمل والموت . من ذلك قول الأغلب العجلي^(٢) :

[من عاش داهراً فسيأتيه الأجل والمرء تواق إلى ما لم ينل

الموت يتلوه ويلهيه الأمل]^(٣)

وقول الآخر^(٤) :

(١) ديوانه ١١ ، ١٢ ، المكتب الاسلامي ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ، وانظر جمهرة أشعار العرب ٩٠٤/٣ .

يطبيني : يدعوني ويميل بي ، ضارب : سابح ، غمرة : الماء الكثير ، يريد ميلة الشباب ، لعب : صفة للسابح .

(٢) هو الأغلب بن جعشم بن عمرو بن عبيدة الجشمي العجلي ، شاعر مخضرم ، أول من أطال الرجز قال عنه الآمدي في المؤلف ٢٢ : « وهو أرجز الرجاز وأرصنهم كلاماً وأصحهم معاني ... وله في المفاحشات ما ليس لشاعر » وذكر حجة المحققين العلامة محمود شاكر في هامش طبقات الشعراء ٧٣٩ قول الآمدي هذا وعلق عليه بقوله : « وصدق فإن ما رواه ابن سلام فاحش محنك الفحش بليغه » .

انظر ما قاله في سجاح في طبقات الشعراء ٧٣٩ وترجمته هناك ٧٣٧ وفي المؤلف ٢٢ .

وانظر مراجع ترجمته في معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٢٦ .

(٣) البيان والتبيين ١٩٤/٣ وانظر الأمثال والحكم ١٤٢ للماوردي ، باختلاف يسير .

(٤) هو أبو النجم العجلي .

كلنا يأمل مدّاً في الأجل والمنايا هي آفات الأمل^(١) .
وما أحسن قول عمران بن حطان الخارجي^(٢) في الدنيا والأمل
والموت : في أبيات له :

[أَرَانَا لَا نَمَلُ الْعَيْشَ فِيهَا وَأَوْلَعْنَا بِحَرْصٍ وَانْتَظَارِ
وَلَا تَبْقَى وَلَا تَبْقَى عَلَيْهَا وَلَا فِي الْأَمْرِ نَأْخُذُ بِالْخِيَارِ
كَرْكَبٍ نَازِلِينَ عَلَى طَرِيقٍ حَثِيثٍ رَائِحٍ مِنْهُمْ وَسَارِي]^(٣)
وعن الأمل والموت يقول كعب بن زهير^(٤) رضي الله عنه :

والمرء ما عاش ممدود له أمل لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر^(٥)
وفي غمرة الإنسياق وراء بهارج الدنيا وزخارفها ، والتلهي بها عن
المصير المحتوم ؛ تأتي على الإنسان أوقات يعرف فيها حقيقة أمره ، فيعدّ للأمر
عدته ، وذلك لأسباب منها :

(١) البيان والتبيين ١٩٤/٣ .

(٢) هو « عمران بن حطان بن طبيان » من « بني الحارث بن سدوس » يكنى
« أبا دلان » ؛ رأس من رؤوس الخوارج ، وشاعر محسن مقدم ، يقول عنه
الأمدي : أشعر الناس في الزهد ، انظر المؤلف ٩١ .

(٣) ديوان شعر الخوارج ١٧٢/٢ دار الشروق بيروت القاهرة ، الطبعة الرابعة
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٤) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام ، وله في
إسلامه قصة ، عده ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول شعراء
الجاهلية . انظر ترجمته في ديوانه .

(٥) شرح ديوانه ٢٢٩ صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله
السكري ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ -
١٩٥٠ م ويروى : « لا تنتهي العين ما لم ينته الأثر » .

- * هدي من الله على لسان رسله وأنبيائه .
- * أو عرض من عوارض الحياة يرى الإنسان فيه دلالة مابعده .
- * فقد عزيز أو نجاة من موت مؤكد .
- * وقد يكون السبب بلوغ المرء من العمر وطوله ما يُحَوِّجُ الإنسان إلى طلب الموت الحثيث ، كما في قول « نهشل بن حرّى »^(١) يرثي أخاه :
- [أرى الدنيا ونحن نعيش فيها مولية تهيأ لانطلاق
أعاذل قد بقيت بقاء قيس وما حي على الدنيا بباقي]^(٢).
- * وقد يكون السبب مواجهة الموت عياناً كما في قول « طرفة بن الأة ابن نضلة »^(٣) :

(١) هو نهشل بن حرّى بن ضمرة أحد بني نهشل بن دارم من تميم شاعر شريف مشهور مخضرم ، بقي إلى أيام معاوية وكان مع علي في حروبه ، عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة من فحول الإسلام . وذكر تسلسل أجداده في الشرف وقال : فهم ستة كما ذكرنا لا أعلم في تميم رهطاً يتوالون توالي هؤلاء .

انظر ترجمته في : طبقات الشعراء ٥٨٣ ، والشعر والشعراء ٦٣٧ . ومراجع الترجمة في : معجم شعراء الحماسة ١٣٣ ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٣٦٢ .

(٢) أمالي المرتضى ٢٢٧/٢ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م .

(٣) هو طرفة بن الأة بن نضلة الفلتان بن المنذر بن سلمى بن جندل بن نهشل بن دارم . وهو القائل :

اثني علي بما جرّبت من خلقي فقد بلوت وقد جرّبت أخلاقي

ولست إن ساقني ربّي إلى قدري إلى الحياة ولا الدنيا بمشتاق^(١)

وفي خريف العمر يزدهر ربيع الأمل ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم [يهرم ابن آدم وتشبّ منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على الأمل]^(٢) وفي رواية : [قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : حبّ العيش والمال]^(٣) وفي رواية أخرى : [لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين : في حب الدنيا ، وطول الأمل]^(٤) وفي حديث آخر : [يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان : حبّ المال وطول العمر]^(٥) .

ولعل انتعاش الأمل وازدهاره في الشيخوخة للإحساس بقرب الرحيل ، فبالرغم من آفات الكبر التي عدّها « الهيثم بن الأسود »^(٦) في قوله :

== لا أخذل الداعي المولى لدعوته ولا أخون ولم أغدر بميثاق
ولست وإن ساقني ربّي إلى قدري إلى الحياة ولا الدنيا بمشتاق
أتابع ورق الدنيا لأخلده وما على الدهر والأحداث من باقي
إنّي لأرجو مليكي أن يعافيني ويعقب الله أمتاً بعد إشفاق
المؤتلف ١٤٦ .

هكذا ترجم له الأمدي ، ولم أجد - فيما بين يدي من مراجع - ما أترجم له به غير هذا .

(١) المؤتلف والمختلف ١٤٦ وفيه إشارة إلى ما ذكرته في الفصل الأول من أن الدنيا غير الحياة .

(٢) مسلم ١٣٨/٧ وانظر شرحه في السراج الوهاج ٦٣٢/٣ - ٦٣٣ .

(٣) مسلم ١٣٨/٧ .

(٤) البخاري ١٦٠/٨ - ١٦١ وانظر شرحه في عمدة القاري ٣٦/٢٣ وعون الباري ٢٠٥/٦ وما بعدها ، وفتح الباري ٢٣٩/١١ .

(٥) البخاري ١٦١/٨ وانظر شرحه في مراجع الهامش الذي قبله .

(٦) هو الهيثم بن الأسود النخعي المذحجي أبو العريان مخضرم معمر خطيب شاعر من ذوي الشرف والمكانة في الكوفة عاش إلى أن غزا القسطنطينية مع مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ .

[اسمع انبيك بآيات الكبر نوم العشاء وسعال بالسحر
 وقلة النوم إذا الليل اعتكر وقلة الطعم إذا الزاد حضر
 وسرعة الطرف وتجميع النظر وتركي الحساء في قبل الطهر
 وحذراً أزداده إلى حذر والناس يبلون كما يبلى الشجر^(١)
 إلا أننا نجد من الزهاد من يقول^(٢) :

[بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة ما من شيء إلا قد عرفت النقص فيه
 إلا أمني كما هو^(٣) . وفي هذا تصديق لحديث المصطفى صلى الله عليه
 وسلم .

وكما ذكرنا فالأمل المعقول المتوازن من مقومات الدنيا الرئيسة ، أما
 الإغراق في الأمل والإفراط فيه فقد حذر من ذلك الله سبحانه وتعالى في
 كتابه العزيز ، ورسوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف ، وحذر منه
 جلة الصحابة وعامتهم ، وحذر منه كذلك ، الزهاد وأولوا الألباب من الحكماء
 وغيرهم .

= انظر ترجمته ومراجعها في الأعلام ١٠٣/٨ والمقتنى في سرد الكنى برقم
 ٤١٧٩ والبيان والتبيين ٣٩٩/١ والحيوان ٤٩/٥ وانظر الإصابة ترجمة
 رقم ٩٠٦١ .

(١) البيان والتبيين ٣٩٩/١ .

(٢) القائل هو : « أبو عثمان النهدي » : عبدالرحمن بن مل - الميم مثلثة
 واللام مثقلة - وقيل : ابن ملي بن عمرو بن عدي البصري . مخضرم
 معمر وغزا في خلافة عمر وبعدها غزوات . يقول عنه الذهبي : الإمام ،
 الحجة ، شيخ الوقت ، انظر سير أعلام النبلاء ١٧٥/٤ ومراجع ترجمته
 هناك .

(٣) صفة الصفوة ٢٠١/٣ .

قال الله تعالى : (فمن زُحِرَ حَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)^(١) ، وقال تعالى : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل)^(٢) .

ويُروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : [الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى]^(٣) .

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل واحد منها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل]^(٤) وقوله رضي الله عنه [إنما أخشى عليكم اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسي الآخرة ، وإن اتباع الهوى يصدّ عن الحق]^(٥) .

وخطب ابن مسعود رضي الله عنه في هذا كثيرة ومشهورة^(٦) .

-
- (١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ . زحزح : أُبْعِدَ ، فاز : نجا .
 (٢) سورة الحجر الآية ٣ . ذرهم : الأمر هنا للتهديد وفيه زجر عن الإثمك في ملاذ الدنيا . يلههم : يُشْغَلهم عن عمل الآخرة .
 وقد أورد البخاري هذه الآية وسابقتها في : « باب في الأمل وطوله »
 انظر البخاري ١٥٩/٨ ، وشرح الآيات ومناسبتها للباب في : عمدة القاري ٣٤/٢٣ ، وفتح الباري ٢٣٥/١١ .
 (٣) مشكاة المصابيح حديث رقم ٥٢٨٩ وضعيف ابن ماجه ٤٢٦ وضعيف الترمذي ٤٣٦ وضعيف الجامع الصغير ٤٣٠٥ .
 (٤) أورده البخاري في « باب في الأمل وطوله » ذلك أن الدنيا لما كانت مدبرة فالأمل فيها مدموم . ولا يخلو كتاب من كتب الزهد من ذكر هذا القول لعلي رضي الله عنه ، باختلاف في الرواية .
 (٥) الزهد ٦٠٤/١ لهناد السري .
 (٦) انظر مثلاً : خطباً له في صفة الصفوة ٤٠٨/١ - ٤٠٩ ، وفي الفوائد لابن القيم ص ٢٠٠ و ٢٠١ .

ومواعظ أبي الدرداء رضي الله عنه ونصائحه لأهل دمشق معروفة
ومنها أنه ذات يوم ذكرهم بعباد وثمرود وما صاروا إليه ، وقال لهم : من
يشترى مني اليوم تركتهم بدرهمين ؟ ! وأنشد :

يا ذا المؤمل آملاً وإن بعدت منه ويزعم أن يحظى بأقصاها

أنى تفوز بما ترجوه ويك وما أصبحت في ثقةٍ من نيل أدناها^(١)

وعامة أحاديث الزهاد وأقوالهم وكتب الزهد حول هذا الموضوع
بالذات^(٢) . وكما أسلفت فإن طول الأمل داء عضال ، ومن آثاره الخطيرة
المرتبة على عقيدة الإنسان وحياته مايلي :

١ - أنه سبب لقوات خير الدنيا والآخرة ، قال تعالى في قصة نوح
عليها السلام مع قومه (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم
مدراراً)^(٣) ، [قال قتادة : علم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنهم أهل
حرص على الدنيا ، فقال : هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا
والآخرة]^(٤) .

٢ - أنه سبب لهلاك الأمم ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالذات
، قال صلى الله عليه وسلم : [صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك
آخرها بالبخل والأمل]^(٥) .

٣ - أنه علم من أعلام الشقاء التي هي : [قسوة القلب ، وجمود

(١) انظر القرطبي ٣/١٠ .

(٢) انظر مثلاً : كتاب « الاستعداد للموت » ص ١٤ وما بعدها .

(٣) سورة نوح الآيتان ١١ ، ١٢ .

(٤) القرطبي ٣.٢/١٨ .

(٥) الزهد للإمام أحمد ١٦ .

العين ، وقلة الخيار ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا [(١)] .

٤ - أنه يدعو إلى سوء العمل وعدم استباق الخيرات ذلك أنه [ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل] (٢) .

وهناك أدواء كثيرة لطول الأمل مثل : ترك الطاعة ، والكسل عنها ، والتسوية في التوبة ، والحرص على جمع الأموال وغيرها ولا يتسع المجال لتفصيلها .

وطول الأمل عجيب من عجائب العقل الإنساني فكيف يظن مصيره ومآله ؟ ! أليس كما يقول النمر بن تولب (٣) رضي الله عنه :

يحبُّ الفتى طول السلام والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل ؟! (٤)

وقد ع النفس وعصيانها ومحادثتها بالذكر أنجع دواء لطول الأمل (٥) .

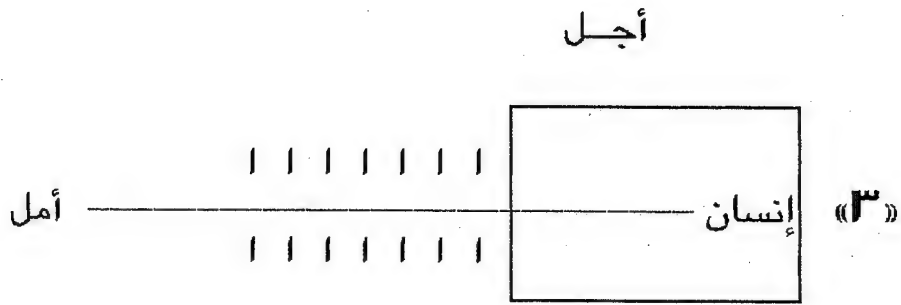
(١) نسب ابن أبي الدنيا هذا القول لمالك بن دينار في كتابه « ذم الدنيا » ص ٢٣ وعاد فنسبه إلى فضيل بن عياض ص ٦٠ باختلاف يسير . وفي مسند البزار حديث بنحوه ذكره القرطبي في تفسيره ٢/١٠ .

(٢) الأمثال والحكم للماوردي ١٠٥ ولم ينسبه وهو كذلك غير منسوب في الزهد للإمام أحمد ٢٦٩ ونسب للحسن البصري في كل من : الأمالي للمرتضى ١٥٨/١ ، والقرطبي ٣/١٠ .

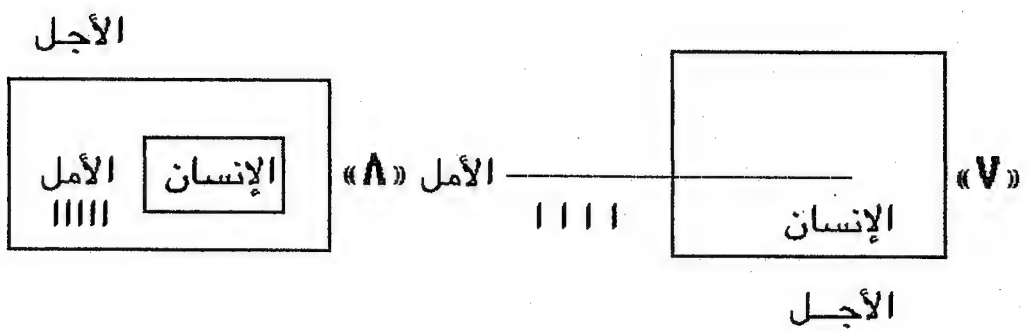
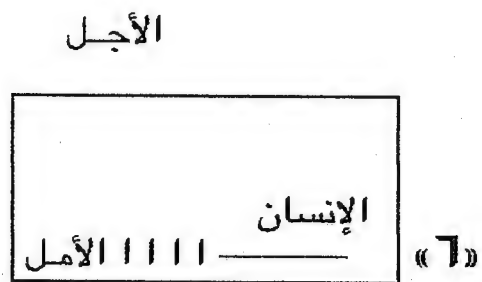
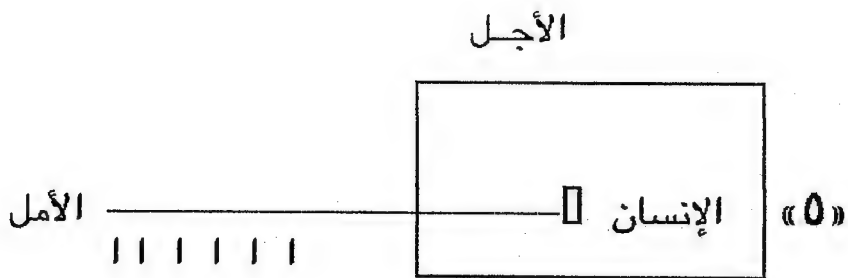
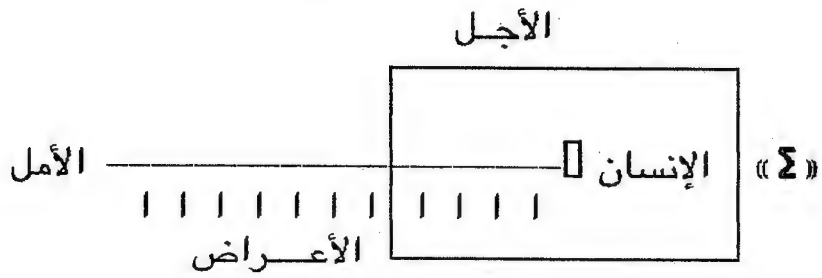
(٣) هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي . شاعر مخضرم أدرك الإسلام كبيراً فأسلم وحسن إسلامه . وهو من الأجواد المعدودين والفرسان المشهورين ، ومن العمرين عاش حتى خرف وأنكر بعض عقله . انظر ترجمته في ديوانه .

(٤) شعره ص ٨٧ صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، د . ط ، د . ت . وانظر البيان والتبيين ١٥٤/١ .

(٥) انظر كلاماً نحو هذا للحسن البصري في البيان والتبيين ٢٩٨/١ .



ثانياً - فتح الباري ١١/٢٣٧:



٣ - الموت (*) :

سبق تعريف الحياة بأنها ضد الموت^(١) ، وكذلك [الموت : ضد الحياة]^(٢).

أ - أنواع الموت :

وقد ذكر الأصفهاني خمسة أنواع للحياة ومثلها للموت^(٣) ، وأنواع الموت هي :

١ - موت الأرض : قال تعالى : (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها)^(٤).

٢ - زوال الحاسة « الموت الحقيقي » : قال تعالى : (قل إن الموت الذي تقرون منه فإنه ملائكم)^(٥).

٣ - زوال القوة العاقلة « وهي الجهالة » ، قال تعالى : (أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)^(٦).

٤ - الحزن المكثّر للحياة ، واستدل بقوله تعالى : (ويأتية الموت من كل مكان وما هو بميت)^(٧). والأولى أن تؤخذ الآية على ظاهرها .

(*) ورد ذكر الموت بجميع تصريفاته ١٦٦ مرة في القرآن الكريم .

(١) انظر ص ١٥٥ من هذا البحث .

(٢) القرطبي ٢٢٠/١ .

(٣) انظر المفردات ٤٧٦ - ٤٧٧ بتصرف .

(٤) سورة الحديد الآية ١٧ .

(٥) سورة الجمعة الآية ٨ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

(٧) سورة إبراهيم الآية ١٧ .

ه - النوم وقيل : النوم: موت خفيف ، والموت : نوم ثقيل ، قال تعالى :
(الله يتوفى الأنفس حين موتها) (١) .

ثم يفسر الموت في قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت) (٢) فيقول :
بأنه [عبارة عن زوال القوة الحيوانية وإبادة الروح عن الجسد] (٣) .

ب - حتمية الموت :

إن [الخلود هو تَبَرِّي الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها] (٤) وهو حُلْمُ الإنسان منذ أن أغوى الشيطان آدم عليه السلام بأكل الشجرة المحرمة فقال : (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (٥) .

ويقول الله تعالى عن قوم عاد إذ قال لهم هود عليه السلام :
(وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) (٦) وذلك دليل على حب الخلود في هذه الدنيا ، ولكن الله سبحانه وتعالى حسم الأمر بحكمته فقال عز وجل (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) (٧) .

وهناك خلود في دار الخلود ينتظر المؤمنين والكافرين ، فالمؤمنون وعدهم الله تعالى بـ (جنة الخلد) (٨) ، والكافرون موعدهم (النار لهم فيها دار الخلد) (٩) وعذابهم فيها (عذاب الخلد) (١٠) .

(١) سورة الزمر الآية ٤٢ .

(٢) جزء من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران والآية ٣٥ من سورة الأنبياء والآية ٥٧ من سورة العنكبوت .

(٣) المفردات ٤٧٧ . (٤) المفردات ١٥٤ .

(٥) سورة طه الآية ١٢٠ . (٦) سورة الشعراء الآية ١٢٩ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ٣٤ . (٨) سورة الفرقان الآية ١٥ .

(٩) سورة فصلت الآية ٢٨ . (١٠) سورة السجدة الآية ١٤ .

ويظل هاجس الموت والعالم الغامض الذي سينقل إليه الإنسان ؛ رعباً
يسيطر على الإنسان يُشْعِرُهُ بعجزه وضعفه ، كل ما رأى الموت يخطف عزيزاً ،
أو رأى ما يذكره بهذا المصير المحتوم . وعن هذه الحقيقة عبر الكثرة الكاثرة
من الشعراء جاهليين وإسلاميين وعرباً وعجماً ، وسأختار طرفاً منها ، يقول
الشاعر الجاهلي : « شَمِرُ بن عمرو الحنفي » (١) :

[لو كنت في ريمان لست ببارح ابدا ، وسدّ خصاصه بالطين
لي في ذراه ماكل ومشارب جاءت إليّ منيتي تبغيني] (٢).
وكأنه يستلهم معنى الآية الكريمة (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم
في بروج مشيدة) (٣) . ويقول « المتلمس » (٤) :

ألم تر أنّ المرء رهن منيةٍ صريعاً لعافى الطير أو سوف يرمس (٥)
ويقول حكيم الشعراء الجاهليين « زهير بن أبي سلمى » :
تزود إلى يوم الممات فإنه ولو كرهته النفس آخر موعد (٦).

(١) هوشَمِرُ بن عمرو الحنفي ، أحد شعراء بني حنيفة باليمامة شاعر جاهلي
، ذكروا أنه قتل « المنذر بن ماء السماء » غيلة .
انظر ترجمته في الأصمعيات ١٣٧ ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين
. ١٦٥ .

(٢) الأصمعيات ١٢٦ وموسوعة الشعر العربي ١٨٨/٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٧٨ .

(٤) شاعر جاهلي مشهور إليه تُنسب الصحيفة المشئومة التي يُضرب بها
المثل هذا لقبه لشعر قاله . واختلف في اسمه ، والأشهر أنه جرير بن
عبد المسيح الضبي أخواله « بتويشكر » كان مع ابن أخته طرفة في
القصة المشهورة التي انتهت بمقتل طرفة . انظر ترجمته في ديوانه .

(٥) حماسة عسيلان ٣٣١/١ .

(٦) شرح ديوانه ص ١٧٠ صنعة أبي العباس ثعلب ، تحقيق د. فخر الدين قباوة
، دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

ويستدلّ « القمقام بن العباهل بن ذي سحيم »^(١) على هذه الحقيقة بقوله :

منع البقاء تقلّب الشمسِ وطلوعها من حيث لا تُمسي
تبدولنا ببيضاء واضحة وتغيّب في صفراء كالورس
اليوم نعلم ما يجيء به ومضى بفصل قضائه أمس^(٢) .

أما « قس بن ساعدة الإيادي » و « النابغة الذبياني » فيشتركان في استنتاج واحد هو أن من ذهب لا يعود ، وكذلك من بقي مصيره الارتحال بلا عودة .

يقول « قس بن ساعدة » عن المقابر في قصيدته الشهيرة :

ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إليَّ ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنني لا محال لة حيث صار القوم صائر^(٣) .

ويقول « النابغة الذبياني » :

ولم تلفظ الأرضُ القبورَ ولم تنزل نجوم السماء والأديم صحيح^(٤) .

(١) هو القمقام بن العباهل بن ذي سحيم بن العزيز وهو تبع الثاني أو الثالث ملك حضرموت واليمن . هكذا ترجم له المرزباني في معجم الشعراء ٣٣٩ . ولم أجد شيئاً أنكره عنه غير هذا . وانظر الخلاف في نسبة هذا الشعر ص ٥٤ - ٥٥ و ص ٣٧٩ من هذا البحث .

(٢) المؤلف للأمدى ٣٣٩ وفيه « وتروى هذه الأبيات لأسقف نجران » .

(٣) المؤلف ٣٣٨ .

(٤) ديوانه ١٩٠ . و « قس » خطيب العرب قاطبة ، كان من الخطباء الشعراء ، الأبيناء الحكماء البلغاء . انظر ترجمته في : معجم الشعراء ٣٣٨ ، والبيان والتبيين ٤٢/١ وما بعدها والأعلام ١٩٦/٥ .

ومن أمثال الجاهليين : [ستساقُ إلى ما أنت لاق] (١) .

ومن الشعراء المخضرمين « النمر بن تولب العكلي » (٢) يقول :

فإن المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما (٣)

وأشهر بيت قاله شاعر مخضرم في هذا المعنى قول « كعب بن زهير »

في برده المشهورة التي أنشدها في حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم :

كل ابن أنتى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حذاء محمول (٤)

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يتمثل ببيت شبيه له هو :

وكل حصن وإن طالت سلامته وإن تماثل فيه العز مهذوم (٥)

وأبو بكر رضي الله عنه كان يتمثل بأخر هو :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله (٦)

وعن هذا المصير المحتوم أسهب الشعراء الاسلاميون في العصر

الراشد وعصر بني أمية وبخاصة شعراء الزهد ، وسأذكر لغيرهم مثالين ،

(١) جمهرة الأمثال للعسكري ٤٩٣/١ .

(٢) سبقت ترجمته في ص من البحث.

(٣) ديوانه ص ١٠١ . وهذا البيت قاله بعد إسلامه حتماً ، فتأثره لفظياً بقوله

تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت) واضح في قوله « فسوف تصادفه

أينما »

(٤) ديوانه ص ٩ .

(٥) الأمثال والحكم للماوردي ١٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ١٨٢/٣ .

الأول : « محمد بن بشير الأنصاري »^(١) يقول :

وكل امريء يوماً سيركب كارها

على النعش أعناق العدا والأقارب^(٢)

والثاني جرير بن عطية في قوله :

لا يُلبِثُ القرناءُ أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار^(٣)

ويوجز هذه الحقيقة الزاهد « الربيع بن خيثم »^(٤) أو « خثيم » في

قوله : [أصبحنا ضعفاء مذنبين ناكل أرزاقنا ، وننتظر آجالنا]^(٥) .

(١) هو أبو سليمان محمد بن بشير الخارجي من خارجة بن عدوان وليس هو من الخوارج . كان ينزل الروحاء من بوادي المدينة لا يكاد يحضر مع الناس . وله حلف في أشجع ، وكان منقطعاً إلى عبيد الله بن عبد الله بن زمعة القرشي . وهناك خلط كبير بينه وبين محمد بن يسير ، وذلك غير هذا . انظر ترجمته في : معجم الشعراء ٤١٢ ، والمحمدون من الشعراء ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وحماسة عسيلان ٣٩٤/١ .

(٢) الحماسة (عسيلان) ٣٩٥/١ .

(٣) شرح ديوانه ٢٠١ لمحمد إسماعيل عبد الله الصاوي ، الطبعة الأولى د . ت ، مطبعة الصاوي .

(٤) هو الإمام القدوة العابد ، أبو يزيد الثوري الكوفي ، أحد الأعلام ، أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٥٨/٤ ومراجع ترجمته هناك .

(٥) الزهد لهناد السري ٦٠٩/١ .

ج - الموت والحياة :

قال الله تعالى : (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)^(١) ، فالموت والحياة خلقان من خلق الله ، وقُدِّم الموت على الحياة لأن الموت هو الأصل^(٢) ، قال تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)^(٣) .

والموت والحياة مترابطان يتناوبان ابن آدم فلا موت بلا حياة ولا حياة دون موت ، وكلّ منهما جسر يوصل للآخر ، فحياتنا الدنيا جسر لمرحلة الموت ، والموت جسر لحياة أخرى .

وكانت قضية البعث بعد الموت هي قضية القرآن الأولى مع منكره الذين يقولون : (أنذا ضللنا في الأرض أننا لفي خلق جديد)^(٤) واستبعدوا أن تدب الحياة في العظام من جديد وهي رميم^(٥) (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)^(٦) ويكون ردّ القرآن الكريم (قل بلى وربّي لتبعثن)^(٧) . (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)^(٨) . (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم)^(٩) .

(١) سورة الملك الايتان : ٢٠ ، ١ .

(٢) انظر أقوالاً أخرى في القرطبي : ٢٠٦/١٨ - ٢٠٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨ وانظر ص ٥٩ من هذا البحث . وانظر القرطبي ٢٤٩/١ - ٢٥٠ و ٢٩٧/١٥ - ٢٩٨ .

(٤) حم السجدة الآية ١٠ .

(٥) انظر مثلاً سورة مريم الآية ٦٦ وسورة يس الآيات ٧٧ - ٨٣ وسورة ق الآية ٣ .

(٦) سورة التغابن الآية ٧ .

(٦) سورة النمل الآية ٢٨ .

(٩) سورة يس الآية ٨١ .

(٨) سورة الروم الآية ٢٧ .

وعلى الايمان بالبعث ترتكز على كل المقومات الأساسية لدعوة الرسل
وتعاليمهم لإقامة حكم الله في الأرض ، ويدون هذا الايمان الجازم بالبعث
تصبح الحياة والموت مجرد عبث لا هدف من ورائها ولا غاية ، والله تعالى يقول
: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) (١) .

وفي الجاهلية كان هناك من يؤمن بالبعث وهم الحنفاء (٢) ، ومنهم قس
بن ساعدة الإيادي الذي يقول :

يا ناعي الموت والأموات في جدث عليهم من بقايا برّهم خرقُ
دعهم فإن لهم يوماً يُصاحُ بهم كما يُنبّه من نوماته الصعقُ (٣)
وتظهر الحيرة واضحة في من راودته فكرة الإيمان بالبعث فطرةً ، في
قول طرفة :

لعمري لموت لا عقوبة بعده لذي البث أشقى من هوى لا يزايله (٤)
و [الموت أشد ممّا قبله وأهون ممّا بعده] (٥) ولذلك كان الصحابة
رضوان الله عليهم يتواصون بأربع منها : خذ لـ [حياتك قبل موتك] (٦)
والسعيد من عمل لأخرفته ، والشقي من إذا حضره الموت قال : (يا ليتني

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥ .

(٢) انظر رسالة الماجستير للدكتور حبيب حنش وموضوعها : أدب الحنيفية
في العصر الجاهلي . كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى .

(٣) المؤتلف للأمدى ٣٣٨ .

(٤) ديوانه ١٣٩ دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م د . ط . . وفي الديوان « أشقى »
بالقاف ولعلّه خطأ مطبعي . وانظر موسوعة الشعر العربي ٤٢٧/٢ .

(٥) من أقوال أبي بكر رضي الله عنه إذا أراد أن يعزّي أحداً ، وقد ذهب مثلاً ،
انظر : مجمع الأمثال ، للميداني ٤٨/٤ والبيان والتبيين ٢٨٤/٣ .

(٦) الزهد لهناد السري ٥٩٦/١ .

قدمت لحياتي^(١) و (قال رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت)^(٢) .

والموت داء الحياة :

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى على يومه علق إلي حبيب^(٣)

ويقول الحسن البصري : [إن الموت فضح الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً]^(٤) ومثله قول « مطرف بن عبدالله بن الشخير »^(٥) : [إن هذا الموت أفسد على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه]^(٦) وما أحسن قول « أعشى همدان »^(٧) :

[وبينما المرء أمسى ناعماً جذلاً في أهله معجباً بالعيش ذا أفقٍ

غراً ، أتبع له من حينه عرض فما تلبث حتى مات كالصعق

فما تزود مما كان يجمعه إلا حنوطاً وما وراه من خرق

(١) سورة الفجر الآية ٢٤ . (٢) سورة المؤمنون الآية ٩٩ .

(٣) أمالي القالي ١٤٩/٢ من قصيدة لكعب بن سعد الغنوي في مرثيته الشهيرة لأخيه أبي المغوار .

(٤) الزهد ٣١٦ للإمام أحمد .

(٥) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، أبو عبدالله الحرشي العامري البصري ولد زمن النبوة بعد الهجرة - على الأرجح - وتوفي أول ولاية الحجاج سنة ست وثمانين ، وقيل غير ذلك ، انظر ترجمته ومراجعها في سير أعلام النبلاء ١٨٧/٤ .

(٦) صفة الصفوة ٢٢٤/٣ .

(٧) هو عبدالرحمن بن عبدالله بن الحارث ، شاعر أموي كوفي شهير محسنٌ مقدم مفوه . كان متعبداً فاضلاً ، قتله الحجاج لما خرج عليه مع ابن الأشعث . انظر ترجمته في المؤلف ١٤-١٥ ومعجم ألقاب الشعراء ٢٥ وانظر الترجمة ومراجعها في : سير أعلام النبلاء ١٧٥/٤ .

وغير نفحة أعوادٍ تُشَبُّ لَه وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلق^(١)

والموت له وقت معين وأجل معلوم لا يتقدّم ولا يتأخّر وفي صراع الحياة والموت يتمايز الجبناء من الشجعان ، ومن هذا القبيل قول أبي بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد رضي الله عنه حين بعثه لقمع الرّدة : [فرّ من الشرف يتبعك الشرف ، واحرص على الموت توهب لك الحياة]^(٢) . وعليه قول « الحصين بن الحمام المرّي »^(٣) :

تأخّرت استبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما^(٤)

ولكن لا يعني الإقدام على الموت التهور والاندفاع الذي يصل إلى حدّ الانتحار ، فالحياة غالية وعزيزة وقد حرص الاسلام على المحافظة عليها وسنّ العقوبات والحدود لمن يجتريء على المساس بها ، فالحياة في الاسلام - كما سلف - فرصة للتزود للآخرة ، ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بعدم تمني الموت إذا تكالبت على الإنسان الهموم والمصائب فقال صلى الله عليه وسلم : [لا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمْ الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرٌ إلا خيراً]^(٥) .

و [سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول : بارك الله لنا في الموت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وفي الحياة »]^(٦) .

(١) العصر الإسلامي ٣٣٢ شوقي ضيف .

(٢) العقد الفريد ١٥/١ . وقد ذهب قوله رضي الله عنه هذا مثلاً أيضاً ، انظر مجمع الأمثال للميداني ٤٨/٤ وانظر نهاية الأرب ٥/٣ .

(٣) تُرجم في ص ٥٣ من هذا البحث . (٤) الحماسة (عسيلان) ١١٤/١ .

(٥) صحيح مسلم ٨/١٧ وانظر حديثاً نحوه في البخاري بشرحه فتح الباري ١٢٧/١ .

(٦) الزهد ٤٥٥ للإمام أحمد .

فالموت شيء مفزع مخيف ، وما أطرف قول « ضابي بن الحارث »^(١) :
 لكل جديد لذة غير أنني رأيت جديد الموت غير لذية^(٢)
 وسواء كان جديد الموت لذياً أم غير لذية فهو آت لا محالة ، ولا بقاء
 للإنسان ، فكما طال عمره تهدم جسمه ، وقد أبلغ « النمر بن تولب » في
 التعبير عن هذا بقوله :

يود الفتى طول السلامة والغنى

فكيف ترى طول السلامة يفعل^(٣)
 وأختم هذه الجزئية من البحث بأبيات لـ « عبدالله بن ثعلبة الحنفي »^(٤)
 يصور فيها صراع الناس مع الموت وقصة الحياة والأحياء والأموات ؛ يقول :

(١) هو ضابي بن الحارث بن أرطاة من البراجم ، شاعر مخضرم . كان رجلاً
 بذياً كثير الشر ، وكان بد المدينة صاحب صيد وصاحب خيل ، حبسه
 عثمان رضي الله عنه - لرميه امرأة من بني نهشل بـ كلب - ومات في
 السجن ، وكان ابنه « عمير بن ضابي » ممن وثب على « عثمان » رضي
 الله عنه بعد أن قتل فيقال إنه كسر صلبه أو كسر ضلعاً له . وقد قتل
 « الحجاج » « عميراً » وهو شبيبة هرم بعد أن علم بفعلته هذه . انظر ترجمة
 ضابي في : طبقات الشعراء ١/١٧٣ وما بعدها ، والأصمعيات ٢٠٥ ،
 والشعر والشعراء ٣٥٠ .

(٢) الأمثال والحكم للماوردي ٧٨ وينسب للحطيئة في ديوانه ١٢٠ وانظر
 جمهرة الأمثال ٥١/٢ ، والمحاسن والمساوي ٤٣٤/١ وفصل المقال ٣٢٤ .

(٣) شعره ص ٨٧ ولم ينسبه الماوردي في الأمثال والحكم ١٤١ وورد فيه (طول
 السلامة والبقا) .

(٤) شاعر ورع وزاهد ، كان معاصراً للحافظ المشهور « سفيان بن عيينة »
 من حفاظ القرن الثاني ، انظر ترجمة الشاعر في حماسه عسيلان ٤٣١/١
 وصفة الصفوة ٣٨١/٣ .

[لكل أناسٍ مقبرٌ بقنائهم فهم ينقصون والقبور تزيدُ
 هم جيرة الأحياء أما محلهم فدانٍ ولكنَّ اللقاء بعيدٌ] (١).
 ونحو البيت الثاني قول النابغة الذبياني يرثي أخاه لأمه :
 حسب الخليلين نأي الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بال (٢)
 والموت عظة وعبرة لمن يعتبر ، قال صلى الله عليه وسلم :
 [تركت فيكم ناطقاً وصامتاً] (٣) وفسرُوا الناطق بأنه القرآن الكريم
 والصامت بالموت ، ولعل قول « يزيد بن تميم » : [من لم يردعه القرآن والموت
 يقول « ابن حبيب » إنه تنصّر ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يردع] (٤)
 يُفصِح عن مفهومه لهذا الحديث .
 ويقول « برج بن مسهر » (٥) الشاعر جاهلي :
 كفى بالقبور صارماً لو رعيتَه ولكنَّ ما أعلنت بادٍ وخافض (٦)
 ومن أقوال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [كفى بالموت واعظاً] (٧)
 وكان ذلك نقش خاتمه رضي الله عنه .

(١) البيان والتبيين ١٧٩/٣ - ١٨١ وانظر الحماسة (المرزوقي) ٣٦٨/١ ،
 وعيون الأخبار ٦٦/٣ . (٢) ديوانه ٢١١ .
 (٣) الاستعداد للموت ص ١٠ . (٤) الزهد لأحمد ٢١٠ .
 (٥) هو البرج بن مسهر بن الجلّاس أحد بني جديلة ثم أحد بني طريف بن
 عمرو . شاعر جاهلي من العمرين ، جاور كلباً أيام الفساد فلم يحمدهم ،
 كان خليلاً لـ « الحصين بن الحمام المرّي » ونديماً له على الشراب في
 الجاهلية ثم جرت بينهما هزات وقعت بسببها حرب بين قبيلتيهما ووقع
 « البرج » أسيراً فعرف له « الحصين » عشرته فأكرمه وجزّ ناصيته وخلّى
 سبيله فذهب إلى بلاد الروم ولم يُعرف له خبر . له ابن اسمه « حسان »
 من رؤساء الخوارج ، قتل يوم « النهروان » . انظر ترجمة البرج
 ومصادرهما في : معجم شعراء الحماسة ١٣ ، ومعجم الشعراء الجاهليين
 والمخضرمين ٤٦ ، والمحبّر ٤٧١ والمؤتلف والمختلف ٦١ ، وحماسة عسيلان
 ٢١٠/١ ، وموسوعة الشعر العربي ٩٣/٤ ، والأعلام ٤٧/٢ .

(٦) الحماسة ٣١٢/١ عسيلان .

(٧) المنتظم ١٣١/٤ ، والبداية ١٣٤/٧ .

٢ - الآخرة :

وللتدليل على أهمية الآخرة بالنسبة إلى الدنيا فقد قسّمت هذه الجزئية من البحث إلى ستة أقسام هي :

أولاً - ارتباط الدنيا بالآخرة :

[إن الدنيا في التصوّر^(١) الإسلامي لا يمكن أن تقوم بنفسها لأنها دار موقوته وجسر للآخرة ومزرعة لها ، تثمر الأعمال في الدنيا لتحصد في الآخرة ، فإذا انقطعت عن الآخرة انقطعت عن غايتها وبيات مجرد قضية زمن فارغ خالٍ من القصد والمتعة ومقومات الحياة]^(٢) ، يقول تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان)^(٣).

ومهمّة الانسان في هذه الدنيا الاستخلاف وهو مسئول عن هذه المهمة في الآخرة وهكذا فالدنيا غير منقطعة عن الآخرة وإنما هي زرع حصاده في الآخرة ، فالإنسان المؤمن أشدّ حرصاً على جودة زرعه ليجود حصاده (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً)^(٤).

يقول ابن خلدون في مقدمته : [واعلم أن الدنيا كلّها وأحوالها مطيّة للآخرة ومن فقد المطيّة فقد الوصول]^(٥).

ولا تكاد تجد آية من آيات القرآن الكريم وفيها ذكر للدنيا إلا وذكرت

(١) أتحفظ على كلمة « تصوّر » هذه التي كثيراً ما ترد في كتابات المفكرين الاسلاميين ، وهي بحق الفلسفة والفلاسفة ألصق وأليق منها بالاسلام ، فالاسلام « محجّة بيضاء » وليس تصوّراً .

(٢) الانسان في الأدب الإسلامي ص ٤٤٨ للهاشمي .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٤ .

(٤) سورة المزمل الآية ٢٠ .

(٥) المقدمة ٢.٢ .

الآخرة مقابلة لها ، بل إن هناك آيات بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة ، كما في قوله تعالى : (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) (١) .

والصراط المستقيم الذي ندعو الله بالهداية إليه في كل ركعة صلاة وعند قراءة الفاتحة من هُدي إليه في الدنيا هُدي إليه في الآخرة هناك على متن جهنم سواء بسواء ، ومن ضلّ عنه في الحياة الدنيا فهو في الآخرة أضل (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً) (٢) (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) (٣) .

ومن الدنيا على الآخرة دليل قال تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتعلموا عدد السنين والحساب) (٤) ، فلولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة .

ثانياً - الإيمان بالآخرة :

لا تكاد تُتلى آية من كتاب الله فيها ذكر الإيمان بالله عز وجل إلا ويقابله الإيمان باليوم الآخر (٥) ، ومعيار الإيمان بالله تعالى هو الإيمان بما أخبر به من البعث بعد الموت والحساب والنشور ، ويزداد الإيمان وينقص باطراد مع الإيمان باليوم الآخر ، وصلاح الأعمال وفسادها كذلك .

(١) سورة الأنعام الآية ١١. وانظر تفسير القرطبي ٦٥/٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٢ .

(٣) سورة طه الآية ١٢٤ ، وانظر القرطبي ٢٥٨/١١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ١٢ وانظر سورة الأنعام الآية ٩٦ وسورة يونس الآية

٥ وسورة الرحمن الآية ٥ .

(٥) انظر ص ٤٩ من هذا البحث .

فألله سبحانه وتعالى أخبرنا بما يكون بعد الموت من بعثٍ ونشورٍ وما علينا إلا التصديق ، ولذلك كان من أهم خصائص المؤمنين في قوله تعالى : (والذين يصدقون بيوم الدين) ^(١) يصدقون به تصديقاً يصل إلى حد اليقين الذي هو : [من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها . يقال : علم يقين ، ولا يُقال : معرفة يقين ، وهو : سكون الفهم مع ثبات الحكم . وقال : علم اليقين ^(٢) ، وعين اليقين ^(٣) ، وحق اليقين ^(٤)] ^(٥) . قال تعالى عن المؤمنين : (وبالآخرة هم يوقنون) ^(٦) .

ويعطّل القرآن الكريم إنزال الكتب وإرسال الرسل وإظهار عظمة الله في خلقه بقوله تعالى : (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) ^(٧) .

وإذا ذكر الإيمان بالله ذكر الإيمان باليوم الآخر (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ^(٨) .

وكم كُذّب الرسل في هذه القضية ، قضية البعث والنشور (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون) ^(٩) .

ومن الكفار من يؤمن بالله وينكر البعث ولذلك إذا دعوا الله طلبوا الدنيا

(١) سورة المعارج الآية ٢٦ . (٢) سورة التكاثر الآية ٥ .

(٣) سورة التكاثر الآية ٧ .

(٤) سورة الواقعة الآية ٩٥ وسورة الحاقة الآية ٥١ .

(٥) المفردات ٥٥٢ وانظر القرطبي ١/ ١٨٠ - ١٨١ .

(٦) جزء من الآية ٤ سورة البقرة والآية ٣ سورة النمل والآية ٤ لقمان .

(٧) سورة الرعد الآية ٢ . (٨) سورة الزمر الآية ٤٥ .

(٩) سورة المؤمنون الآية ٣٥ وانظر الآية ٨٢ وكذلك سورة النمل الآية ٢٧

وسورة الصافات الآيتان ١٦ ، ٥٣ ، وسورة ق الآية ٣ ، وسورة الواقعة

الآية ٤٧ .

فقط ، قال تعالى : (فمن الناس من يقول ربنا آتتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق)^(١) لأنهم (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)^(٢) .

أما قوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون)^(٣) فيصدق على الكفار وعلى المرائي بعمله أو من يريد بعمله غير الله ، وعلى اليهود والنصارى ، وعلى المنافقين الذين جاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم . أما المؤمنون فيسألون الله خير الدارين^(٤) .

والإيمان باليوم الآخر يُزهد في الدنيا ، ولذلك ورد في الأمثال : [من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا]^(٥) و [من أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنَى]^(٦) .

وكل يوم نكرر في كل صلاة مفروضة (مالك يوم الدين)^(٧) تذكيراً بذلك اليوم الموعود ، ولعل الحكمة من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يخطب الجمعة^(٨) بسورة (ق) لا تبعد عن هذا .

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

(٢) سورة الروم الآية ٧ .

(٣) سورة هود الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٤) انظر الآية ٢٠١ من سورة البقرة والآيات ٢٠ إلى ٢٠٥ تفصل أحوال

الكفار والمؤمنين والمنافقين في هذا وانظر القرطبي ١٤/٣ - ١٥ .

(٥) (٦) الأمثال والحكم للماوردي ص ٣٩ .

(٧) سورة الفاتحة الآية ٣ .

(٨) انظر: الجمعة ومكانتها في الدين ١٦٦ تأليف أحمد بن حجر آل بوطامي ،

من مطبوعات إدارة إحياء التراث الإسلامي ، بدولة قطر ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الطبعة الثالثة .

ثالثا - إيثار الآخرة على الدنيا :

الذين لا يؤمنون بالآخرة كافرون بالله وبما أخبر به رسله ، ولكن البلاء الأشد فيمن يؤمن بالآخرة ويعلم أنها الوعد الحق والحياة الباقية ثم يؤثر الدنيا عليها ، واستمع إلى هذا التقرير الشديد لمن كان هذا سبيله ، في قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان ممن الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)^(١) ، وقوله تعالى : (وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون^(٢) الحياة الدنيا على الآخرة)^(٣).

[ومن يشته كرامة الآخرة يدع زينة الدنيا]^(٤) [لأن من اعتقد^(٥) أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة في الدنيا ، لما يصير إليه من نعيم الجنة وينزل عنه من أذى الدنيا]^(٦) ، ولا قوام للدنيا إلا إذا جعلناها مرحلة سريعة إلى الآخرة لا ميداناً للتنافس والتصارع والتناحر وكأن العيش فيها دائم لا يزول ، خلاصة القول : إن عماد هذه الحياة هو الاستعداد للرحيل عنها بالتزود منها .

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ ، وانظر معاني جميلة حول الآيتين في كتاب « الأمثال في القرآن » لابن القيم ص ٣٠ .

(٢) يستحبون : أي يختارون ، انظر القرطبي ١٠/١٩٢ .

(٣) سورة ابراهيم الآيتان ٢ ، ٣ وانظر الآيات ١.٦-١.٩ من سورة النحل والآيات ٧٢-٧٦ سورة طه .

(٤) من أمثال العرب ، انظر مجمع الأمثال للميداني ٤/٤٥ .

(٥) لعله يقصد : الرجاء ، لا الاعتقاد الجازم فذلك مما اختص الله بعلمه .

(٦) القرطبي ٢/٣٣ .

رابعاً - الآخرة هي الحياة الحقّة:

يقول الله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى)^(١)
ويقول تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن
لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها
يتكئون وزخرفاً)^(٢) يقول الحسن البصري في معنى هذه الآية : [لولا أن
يكون الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا
ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله عز وجل]^(٣) وعلى هذا أكثر المفسرين .

وفي غزوة الخندق كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يرتجزون
قائلين : [اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة]^(٤) ويقول صلى الله عليه وسلم :
[والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر
بم يرجع]^(٥).

ومن فساد الفطرة وجهل الإدراك استبدال الذي هو أدنى بالذي هو
خير ، والرضا بالفاني دون الباقي ، وحسبك قول « عمر بن الخطاب رضي الله
عنه » : [فانظر الذي خلقت له فاكده له ، ودع ما سواه ، فإن الدنيا أمد
والآخرة أبد]^(٦) . وعلى هديه ونهجه سار الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز »
في قوله : [إنما خلقتكم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنتقلون]^(٧) .

(١) سورة الأعلى الآيتان ١٦ ، ١٧ . (٢) سورة الزخرف الآيات ٣٣ - ٣٥ .

(٣) القرطبي ٨٤/١٦ .

(٤) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٣١/١١ . وهذا الرزجو مكسور ،

والروايات فيه مختلفة ، انظر مثلاً : صحيح البخاري بشرحه فتح الباري
٥٢٦/١ ، ١١٨/٧ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٣٩٤ ، ٢٣١/١١ ، ١٩٢/١٣ . وانظر صحيح

مسلم بشرح النووي ٨٠/٧ و ١٧٢/١٢ - ١٧٣ و ١٩٢/١٧ .

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٣٢/٢٣ .

(٦) حياة الصحابة ١١٣/٢ .

(٧) ذم الدنيا ٩٠ وانظر خطبته هذه في حلية الأولياء ٢٦٥-٢٦٦ و ٢٨٧/٥ .

خامساً - العمل في الدنيا للآخرة :

يقول الله سبحانه وتعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا)^(١) وفيه الابتداء بتقديم نصيب الآخرة على الدنيا ، وهذا ما يُلْمَحُ بطرف خفيٍّ من قوله تعالى : (ولا تنس)^(٢) .

فالدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء^(٣) ، والكثرة الكثرة من آيات الذكر الحكيم تؤكد هذا المعنى وبخاصة سورة النحل [فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع^(٤) ، لسرِّ بديع ، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها]^(٥) .

ومن فتنة القلوب أن تُلْتَمَسُ الدنيا بعمل الآخرة ، وإنما الدنيا سوق الأرباح وتجارات الآخرة ، ومن الغبن الخروج من هذا السوق بوفاضٍ خال ،

(١) سورة القصص الآية ٧٧ .

(٢) انظر تفسير الآية في القرطبي ٣١٤/١٣ وانظر الزهد لهناد ١/٦١٤ .

(٣) انظر كلاماً جميلاً مفصلاً في هذا لابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين » ١٨٣/٢ .

(٤) في الآيات ٣٠ ، ٤١ ، ٩٧ ، ١٢١ .

(٥) أعلام الموقعين ١٨٣/٢ وانظر مثلاً : الآيات ٨٦ ، ٩٣ - ٩٦ من سورة البقرة ، و ١٢٣ من سورة النساء ، و ٣٥ من سورة التوبة ، و ٧ ، ٢٤ من سورة يونس ، و ٣ من سورة إبراهيم ، و ٧ ، ١٨ - ١٩ من سورة الإسراء ، و ٤٤ من سورة الكهف ، و ٦٠ من سورة القصص ، و ٣٣ من سورة لقمان ، و ٥٥ - ٥٧ من سورة الزمر ، و ٢١ ، ٢٢ من سورة الجاثية ، و ٢٠ من سورة الحديد ، و ١٨ ، ١٩ من سورة الحشر ، و ٨ من سورة الجمعة ، و ٣٤ - ٤١ من سورة النازعات ، و ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى ، و ١٥ ، ١٦ من سورة الفجر ، و ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

يقول صلى الله عليه وسلم : [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ]^(١) . أي هذان أمران إذا لم يُستعملا فيما ينبغي فقد غبن صاحبهما فيهما أي باعهما بثمن بخس لا تحمد عاقبته ، أو ليس له رأي في ذلك البتة .

سادساً - التوازن بين الدنيا والآخرة :

والعمل للدنيا لا ينافي العمل للآخرة ، وإذا تأملت آيات القرآن الكريم تجد أنه [لا تنازع فيه بين دنيا وآخرة ولا فصام فيه للذات الانسانية يحار فيه العقل وتتمزق به أوصال الضمير ، وقوامه في خطاب التبليغ للانسان من بني آدم كافة]^(٢) في قوله تعالى : (وابتغ فيا آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)^(٣) [فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة]^(٤) ذلك أن [من أحب دنياه أضرب بآخرته ومن أحب آخرته أضرب بدنياه]^(٥) .

والصحابة رضوان الله عليهم قدوتنا في هذا ، يقول غلام عبدالله بن الزبير رضي الله عنه : [كنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت : هذا رجل لم يرد الله طرفة عين ، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت : هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين]^(٦) .

(١) حديث في صحيح البخاري ١٥٨/٨ ، انظر شرحه في عمدة القاري ٣١/٢٣ ، وفتح الباري ٢٢٩/١١ ، ونعمتان : مثنى نعمة وهي الحالة الحسنة ، ومغبون : من الغبن - بسكون الباء وهو النقص في البيع أو من الغبن بفتح الباء وهو النقص في الرأي .

(٢) موسوعة العقاد ٢٤١/٤ ، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م د.ط .

(٣) سورة القصص الآية ٧٧ . (٤) القرطبي ٣١٤/١٣ .

(٥) انظر ضعيف الجامع الصغير للألباني ١٤٩/٥ حديث رقم ٥٣٤٦ ، ومشكاة المصابيح ١٤٣١/٣ حديث رقم ٥١٧٩ .

(٦) حياة الصحابة ١٩٥/٣ - ١٩٦ . وللاستزادة من « التوازن بين الحياتين » : الدنيا والآخرة ، انظر كتاب : مفاهيم ينبغي أن تصحح ٢٨٣ وما بعدها للشيخ محمد قطب . وكذلك كتابه دراسات في النفس الإنسانية ٢٣٧ وما بعدها .

٥ - التكاثر والتناسل :

والحياة قائمة على التناسل وبدونه ينقطع الجنس البشري وغيره ،
والتكاثر هو : [التباري في كثرة المال والعز]^(١) وهو من مقومات الحياة
الأساسية ولكن المبالغة فيه تخرجه إلى الانقطاع عن الآخرة عملاً وقصداً .

وقد أفرد البخاري في صحيحه^(٢) باباً لقوله تعالى : (أنما^(٣)
الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال
والأولاد .. الآية)^(٤) .

أما قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحد وجعل منها زوجها
ليسكن إليها)^(٥) فذلك في الجنة ، [ثم ابتداء بحالة أخرى في الدنيا بعد
هبوطهما]^(٦) فقال تعالى : (فلما تغشاهما حملت حملاً خفيفاً)^(٧) فمحلّ
التناسل إذاً : الدنيا . وكذلك التكاثر [لأن الإنفاق منها لا ينقطع كلما
تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضي به]^(٨) .

(١) المفردات ٤٢٦ .

(٢) صحيح البخاري ١٥٨/٨ .

(٣) جاءت في كل من صحيح البخاري ١٥٨/٨ وشرحه فتح الباري ٢٣١/١١ ،
وعمدة القاري ٣٢/٢٣ (إنما) هكذا بكسر الهمزة ، وصوابها (اعلّموا أنما)
بفتح الهمزة ، ولعله نظر إلى الابتداء .

(٤) سورة الحديد الآية ٢٠ والزينة : هي ما يتزين به مما هو خارج عن ذات
الشيء مما يحسن الشيء به . والتفاخر : غالباً ما يكون بالنسب كعادة
العرب .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٨٦ .

(٦) القرطبي ٣٣٧/٧ .

(٧) سورة الأعراف الآية ١٨٦ .

(٨) غذاء الألباب ٥٣٥/٢ .

والمذموم في التكاثر هو ما أُلهى عن الآخرة فقلوه تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)^(١) : [أبلغ في الذم من شغلكم . فالعامل قد يستعمل جوارحه وقلبه غير لاهٍ به ، فاللهو هو : ذهول وإعراض]^(٢) .

وفي حديث : [لو كان لابن آدم واديان]^(٣) [ذم الحرص على الدنيا ، وحب المكاثرة بها ، والرغبة فيها ، وفيه : أن ابن آدم لا يزال حريصاً على الدنيا حتى يموت ويمتليء جوفه من تراب قبره .

قال النووي : هذا الحديث خرج على حكم غالب بني آدم في الحرص على الدنيا]^(٤) .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن : الأشر والبطر والتكاثر والتناجش في الدنيا هو داء الأمم وسيصيب أمته^(٥) .

وعن فرح الكافرين بالدنيا يقول تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً)^(٦) .

ويذكر القرآن الكريم أن من خصائص صفات الكفار التباهي بالدنيا والتفاخر بها ، فإذا دعاهم رسولهم إلى الله قالوا (نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين)^(٧) وإذا دُعُوا إلى الله قالوا : (للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً)^(٨) وفي قصة صاحب الجنتين يقول

(١) سورة التكاثر الآية ١ .

(٢) الفوائد ٤٦ لابن القيم .

(٣) الحديث في مسلم انظره في شرحه : السراج الوهاج ٦٣٥/٣ .

(٤) السراج الوهاج ٦٣٥/٣ .

(٥) انظر الحديث في صحيح مسلم ١٩٦/٢ .

(٦) سورة آل عمران الآية ١٧٨ . (٧) سورة سبأ الآية ٣٥ .

(٨) سورة مريم الآية ٧٣ .

البಾಗಿ منها : (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً)^(١) .

وفي أسلوب الإنكار عليهم والتوبيخ لهم يجيء قول الحق جل وعلا :
(أحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبين ناسار لهم في الخيرات بل لا يشعرون)^(٢) ويبين مالهم وعاقبتهم بقوله عز وجل : (لا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد)^(٣) ، كما يجيء في المحشر قول الحق جل وعلا : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم)^(٤) ويقول تعالى : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون)^(٥) . [وهذا الوعيد من الله تعالى وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة ولذلك قال (فاليوم تجزون عذاب الهون)^(٥) فقد يخشى مثله على المنهمكين^(٦) في الطيبات المباحة لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يؤمن أن يرتبك في الشهوات أي يقع وينشب ولا يتخلص منها]^(٧) .

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : [ما قل وكفى خير مما كثر وألهى]^(٨) وغلظ على الذين يكثرزون الأموال^(٩) .

-
- (١) سورة الكهف الآية ٣٤ .
 - (٢) سورة المؤمنون الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .
 - (٣) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ .
 - (٤) سورة الأنعام الآية ٩٤ .
 - (٥) سورة الأحقاف الآية ٢٠ وانظر سورة الأنعام الآية ٩٣ .
 - (٦) يقصد « من المؤمنين » .
 - (٧) غذاء الألباب ١١٨/٢ .
 - (٨) صحيح الجامع الصغير ١٥١/٥ حديث رقم ٥٥٢٩ والسلسلة الصحيحة حديث رقم ٩٤٥ .
 - (٩) انظر أحاديث في هذا مثلاً في صحيح مسلم ٧٧/٧ - ٧٩ .

وكان الحسن البصري [إذا قريء : (أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ) ^(١)] قال : عمّ
أَلْهَآكُم ؟ ! عن دار الخلود وجَنَّة لا تبيد . هذا والله فضح القوم ، وهتك السُّتر ،
وأبدى العُوار ^(٢) [^(٣)] .

ومن أقوال طاووس بن كيسان ^(٤) الحكيمه : [يكفي من الدنيا ما يكفي
العجين من الملح] ^(٥) .

(١) سورة التكاثر الآية ١ .

(٢) العوار : مثلث العين ومعناه : العيب ، ومته : العورة .

(٣) البيان والتبيين ١٣٤/٣ .

(٤) هو الفقيه القدوة ، عالم اليمن ، أبو عبد الرحمن الفارسي ثم اليمني
الجندي - نسبة إلى الجند باليمن - الحافظ ، ولِدَ في خلافة « عثمان »
رضي الله عنه أو قبل ذلك ، وتوفي سنة ست ومائة . انظر ترجمته
ومراجعتها في سير أعلام النبلاء ٣٨/٥ .

(٥) البيان والتبيين ٢٨٩/٣ .

٦ - الرزق :

وردت كلمة « ر ز ق » بهذا اللفظ ٩٠ مرة في القرآن الكريم ، ووردت ٣٣ مرةً بتصريفات أخرى و [الرزق : مصدر رزق يرزق رزقاً فالرزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق]^(١) .

أ - معانيه :

ومن معاني^(٢) الرزق مايلي :

- ١ - العطاء الجاري ، تارةً دنيوياً كان أم أخروياً .
- ٢ - المال والجاه والعلم ، قال تعالى : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت)^(٣) .
- ٣ - النصيب ، قال تعالى : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)^(٤) أي : وتجعلون نصيبكم من النعمة تحري الكذب ، وقيل معناه هنا الشكر ، أي تجعلون شكركم التكريب .
- ٤ - ما يصل إلى الجوف ويتغذى به ، قال تعالى : (فليأتكم برزق منه)^(٥) أي بطعام يتغذى به .
- ٥ - المطر ، قال تعالى : (وفي السماء رزقكم)^(٦) قيل عنى به : المطر ، وقيل : هو تنبيه أن الحظوظ بالمقادير . وقال تعالى : (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها)^(٧) فالمعنى هنا : الماء ، والمطر .

(١) القرطبي ١٧٨/١ .

(٢) انظرها في : المفردات ١٩٤ والقرطبي ١٧٨/١ .

(٣) سورة المنافقون الآية ١٠ . (٤) سورة الواقعة الآية ٨٢ .

(٥) سورة الكهف الآية ١٩ . (٦) سورة الذاريات الآية ٢٢ .

(٧) سورة الجاثية الآية ٥ .

إلى غير ذلك من المعاني ؛ ولا حاجة للقول إن الرزق أهم مقومات الحياة^(١) ، وفي الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : [اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وديناي التي فيها معاشي وأخرتي التي إليها معادي]^(٢) .

ب - ضوابط الرزق :

كل ما ينتفع به الإنسان حلالاً كان أم حراماً رزقٌ ، وقد بين القرآن الكريم وحدد ضوابط للرزق النافع منها :

١ - أن يعلم المرزوق أن الرزق بيد الله سبحانه وتعالى ولا رازق غيره ، وتلك قضية أساسية من قضايا التوحيد شدد عليها القرآن الكريم . قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ... الآية)^(٣) .

٢ - أن يكون حلالاً^(٤) .

٣ - أن يكون طيباً^(٥) ، وكثيراً ما يقترن ذكر الحلال^(٦) بالطيب ، [وسمى الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه]^(٧) [ولا يكون المال حلالاً حتى يصفو من ست خصال : الربا والحرام والسُّحت - وهو اسم مجمل -

(١) في غذاء الألباب ١١٩/٢ كلام جميل في هذا .

(٢) صحيح مسلم ٤٠/١٧ .

(٣) سورة يونس الآية ٣١ .

(٤) ورد لفظ حلال بجميع تصريفاته ٥١ مرة في القرآن الكريم .

(٥) وورد ذكر « طيب » بجميع اشتقاقاته ٥٠ مرة .

(٦) ورد ذكرهما معاً أكثر من ١٠ مرات .

(٧) القرطبي ٢/٢٠٨ وانظر المفردات ١٢٨ .

والغلول والمكروه والشبهة [(١)] .

أما الطيب فأصله [ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس ، والطعام الطيب في الشرع : ما كان متناولاً من حيثما يجوز ويقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز ، فإنه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً أم آجلاً] (٢) وهذا هو المراد بقوله تعالى : (والطيبات من الرزق) (٣) .

٤ - أن يكون رزقاً حسناً وتقييده بالحسن حتى لا يكون رزق ابتلاء وفتنة وإملاء ، قال تعالى : (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً) (٤) .

٥ - عدم البغي فيه ومجاوزة الحد إلى البطر والأشر ، ، وكفى بقارون عبرة ، قال تعالى : (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي) (٥) .

٦ - أن يُنْذَل في وجوه الخير ، وعامة آيات الرزق في القرآن الكريم على هذا .

ج - طلب الرزق ووسائله :

قال الله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) (٦) [هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش] (٧) .

(١) القرطبي ٢/٢٠٨ .

(٢) المفردات ٣٠٨ وانظر القرطبي ٦/٦٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٣٢ .

(٤) سورة الحج الآية ٥٨ .

(٥) سورة طه الآية ٨١ وانظر كلاماً مفيداً في هذا : القرطبي ١٦/٢٧ .

(٦) سورة الفرقان الآية ٢٠ .

(٧) القرطبي ١٣/١٤ .

وقال تعالى : (وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً)^(١)
يستدلّ من هذه الآية [على أن الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل
ابن آدم إلى سعي ما فيه ، لأنه أمر مريم بهزّ النخلة]^(٢) .

والأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله في عباده لحاجة العبد إلى
ما يصلح شأنه في دنياه ، وهذا الأمر على نوعين^(٣) :

ضروريات : مثل الطعام والشراب والمسكن والمنكح والمركب والبساط .

كماليات : مثل أدوات الزينة والبناء المزخرف وأنواع الثياب وما شابه .

وقد حثّ القرآن الكريم ، والحديث الشريف على طلب الرزق ، يقول الله
تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)^(٤) ،
ويقول صلى الله عليه وسلم : [التمسوا الرزق في خبايا الأرض]^(٥) إلى غير
ذلك من الآيات والأحاديث .

ووسائل تحصيل الرزق كثيرة جداً لا يتسع المجال لحصرها^(٦) ولعلّها
تعود إلى ثلاثة أصول هي : التجارة والصناعة والصيد .

(١) سورة مريم الآية ٢٥ .

(٢) القرطبي ٩٥/١١ .

(٣) انظرهما بالتفصيل وزيادة بيان وفوائد في كتاب : العبودية لابن تيمية
٢٢-٢٣ .

(٤) سورة الجمعة الآية ١٠ .

(٥) انظر شرحه في القرطبي ٣/٦٠٣ .

(٦) للاستزادة في معرفة هذه الوسائل انظر : مقدمة ابن خلدون ٣٨١-
٣٨٣ ومحاضرة للشيخ عبد الله البسام في هذا الموضوع ألقاها ضمن
ندوة محاضرات رابطة العالم الإسلامي بموسم حج ١٣٨٧هـ انظر ص

وليعلم العبد أن عليه الطلب والرزق بيد الله ، وليكن ديدنه قول
الأعرابية لقومها إذ اجتاحت زرعهم جائحة فحزنوا : [مالي أراكم قد نكستم
رء وسكم وضأقت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنا ، ورزقنا عليه يأتينا به حيث
شاء ، ثم أنشأت تقول :

لو كان في صخرة في البحر راسية صمًا مَلَمَّةً مَلَسًا نواحيها
رزق لنفسٍ براهها الله لانفلقت حتى تؤدِّي إليها كل ما فيها
أو كان بين طباق السبع مساكنها لسهل الله في المرقى مراقبيها
حتى تنال الذي في اللوح خُطَّ لها إن لم تنله وإلا سوف يأتينا^(١).

د - الإجمال في الطلب :

حث القرآن الكريم على طلب الرزق ، قال تعالى : (فإذا قضيت
الصلاة فانتشروا في لأرض وابتغوا من فضل الله)^(٢) ، ولكن هذا الحث لا
يعني الانهماك في طلب الدنيا والانشغال بها عن الآخرة ، يقول صلى الله عليه
وسلم : [أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما خلق له]^(٣) ، وذلك أن نعيم
الآخرة [ولذاتها إنما تنال بتقوى الله وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام ،
والحرص الشديد والتعب والعناء والكد والشقاء في طلب الدنيا ، إنما يُنال
بالإجمال في الطلب ؛ فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها ، ومن أجمل في
الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها]^(٤).

(١) القرطبي ٤٣/١٧ .

(٢) سورة الجمعة الآية ١٠ .

(٣) السلسلة الصحيحة ٥٩٧/٢ حديث رقم ٨٩٨ وستن ابن ماجه (كتاب

التجارات) برقم ٢١٤٢ وصحيح الجامع الصغير ١٠٦/١ حديث رقم ١٥٠ .

(٤) الفوائد ٨٠ لابن القيم .

وليُعلم المسلم أن ما قدّر الله له من رزقٍ آتٍ لا محالة ، فما عليه إلا طلبه من وجوهه ؛ والرزق على الله وحده، يقول صلى الله عليه وسلم : [الرزق يطلب ابن آدم كما يطلبه أجله ، فأجملوا في الطلب]^(١).

هـ - الرزق مُقَدَّرٌ ؛ حدوده وما يكفي منه :

في سنن ابن ماجة [عن حبة وسواء ابني خالد ، قالا : دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئاً فأعناه عليه فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رء وسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله عز وجل]^(٢).

وفي قصة الأشعرين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ضائقة أَلَمَتْ بهم يسألونه العطاء ، فسمع قول الله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)^(٣) . فرجع ولم يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : [ليس الأشعريّون بأهون على الله من الدواب]^(٤) فالرزق مقسوم لا يزيده الاحتياج له ولا ينقصه الضعف عن طلبه، يقول صلى الله عليه وسلم : [لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت]^(٥) يقول الله تعالى : (وفي السماء

(١) صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٣٥٤٥ ومشكاة المصابيح برقم ٥٣١٢ وكنز العمال ٥٠٧ ، والحلية ٨٦/٦ وانظر مجمع الأمثال ٤٤/٤ للميداني ، والأمثال والحكم ٥٣ للماوردي ، وحياة الصحابة ٣٩٨/٣ .

(٢) سنن ابن ماجة ١٣٩٤/٢ حديث رقم ٤١٦٥ ، وانظر القرطبي ٤٣/١٧ ، وقشر : معناه هنا ؛ الثياب .

(٣) سورة هود الآية ٤ .

(٤) القرطبي ٦/٩ و ٤٣/١٧ .

(٥) السلسلة الصحيحة ٦٧٢/٢ حديث رقم ٩٥٢ وانظر حديثاً نحوه في مستدرك الحاكم ٣٢٠/٤ .

رزقكم وما توعدون) (١) . ويقول عز وجل : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) (٢) .

وحتى الجاهليون فهموا هذا ، وأدركوا هذه الحقيقة ، يقول «حاتم طيء» :

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا فإن على الرحمن رزقكم غدا (٣)
ومن أمثال العرب : [رزقك كدك] (٤) ، وقال الشاعر (٥) :

الرزق عن قدرٍ لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال (٦)
ولا يعني أن الرزق مقدرٌ أن يقعد المرء عن طلبه فكل شيء سبب ،
وأيضاً لا يفهم من الطلب المبالغة فيه بل الإجمال في الطلب خيراً الأمرين ،
وحسب ابن آدم من رزقه ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : [من
أصبح منكم معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما
حيزت له الدنيا] (٧) أمّا من كان له امرأة يأوي إليها ، ومركبٌ يركبه ، وخادم
يخدمه ، فقد أناخت له الدنيا ركايبها .

(١) سورة الذاريات الآية ٢٢ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٣٢ وانظر تفسيرها في القرطبي ٨٣/١٦ وانظر كلاماً نفيساً حولها في الفوائد ٧٧ - ٧٨ لابن القيم .

(٣) ديوانه ٢٣١ تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال .

(٤) جمهرة الأمثال للعسكري ٤٩٠/١ .

(٥) لم ينسبه العسكري ولم أصل إلى معرفته .

(٦) جمهرة الأمثال ٤٩٠/١ .

(٧) سنن ابن ماجه ١٣٨٧/٢ حديث رقم ٤١٤١ .

و - الرزق والدين :

كان الكفار يفخرون على الصحابة بالدنيا لما يرون من قشافتهم وخشونة عيشهم ورتانة ثيابهم ، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون خير ثيابهم ، فقالوا للمؤمنين : (أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً)^(١) ولم يعلموا أن الله تعالى نحى أولياءه عن الاغترار بالدنيا ، ذلك [أن المسلوب من سلب دينه ، فإنه لا فقر بعد الجنة ولا غنى بعد النار]^(٢) ، ولكن الدين في الوقت ذاته سبب عظيم من أسباب الرزق ؛ يقول تعالى : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً)^(٣) . والدليل على ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم ورثوا ملك قريش وفارس والروم بانقيادهم لأمر الله واستقامتهم عليه .

والترف والغلو في النعيم والرفاهية والتمادي في الإسراف وتدليل النفس منشؤه كثرة المال وقلة العقل وقوة الشهوة وضعف الإيمان^(٤) .

(١) سورة مريم الآية ٧٣ وانظر تفسيرها في القرطبي ١٤١/١١ ، ١٤٢ .

(٢) من أقوال جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، انظر الزهد للإمام أحمد ٢٥١ .

(٣) سورة الجن الآية ١٦ وانظر الآية ٦٥ من سورة المائدة الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

(٤) أوضح القرآن الكريم هذه الحقائق في السور والآيات التالية : سورة الأنعام الآيتان ٤٣ ، ٤٤ ، وسورة الحجر الآية ٢ ، وسورة الإسراء الآية ١٦ وسورة سبأ الآية ٣٤ ، وسورة الشورى الآية ٢٧ ، وسورة محمد الآية ١٢ ، وسورة العلق الآيتان ٦ ، ٧ وغيرها كثير . وقد أفرد ابن رجب الحنبلي رحمه الله كتاباً لشرح حديث « ما ننبأان جائعان ... الحديث » والحديث في صحيح الجامع الصغير ١٤٣/٥ رقم ٥٤٩٦ وسنن الدارمي ٣٠٤/٢ وغيرهما .

فـ [الرزق في الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق في الآخرة وأما في الدنيا فإنما تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية]^(١) .

أما الكافر فإنه يُثابُّ على حسناته في الدنيا ثواباً عاجلاً حتى يلقي الله وليس له حسنة^(٢) .

والإسلام دين شامل فقد حدّد موارد الرزق ومصادره ومصارفه في الزكاة والإنفاق وغيرها من أعمال البر ، وحفظ الحقوق العامة والخاصة ، وجعل من المسلم فرداً يعيش لأُمته لا لنفسه^(٣) .

وقد يشتغل الإنسان بالتجارة وطلب الرزق عن ذكر الله ، يقول تعالى : (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)^(٤) [وخص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة]^(٥) ولذلك اشترط عمر رضي الله عنه على التجار فقال : [لا يبيع في سوقنا هذا إلا من تفقه في الدين]^(٦) ليعرف

(١) هذا مفهوم ابن حجر في تفسيره لقوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً) الآيات ١٩-٢١ من سورة المعارج ، وانظر فتح الباري ٥١١/١٣ .

(٢) انظر حديثاً بهذا المعنى في السلسلة الصحيحة للألباني ٨٢/١ حديث رقم ٥٣ .

(٣) انظر مثلاً آيات الزكاة والإنفاق في القرآن الكريم والآيات التي تنظم البيع والشراء وحقوقهما فمثلاً منها : سورة البقرة الآيات ٢٧٥ - ٢٨٠ ، وسورة الأعراف الآية ٨٥ وانظر حديثاً في الحث على الصدقة والإنفاق في السراج الوهاج شرح صحيح مسلم ٥٢٢/٣ - ٦١٤ .

(٤) سورة النور الآية ٣٧ .

(٥) القرطبي ٢٧٩/١٢ .

(٦) حياة الصحابة ١٩٤/٣ .

حقوق المال وواجباته ، ولتقوى صلته بالله تعالى ، وليعلم أن ذكر الله تعالى حير من الدنيا وما فيها ، وأن المال - مهما كثر - لا يساوي شيئاً مقابل لحظة يذكر فيها الله تعالى .

وأخيراً ورد في الحديث [إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً ، فانظر ما يخرج من ابن آدم وإن قرّحه وملّحه ، قد علم إلى ما يصير]^(١) .
وقديماً قال الحكماء : [من الدنيا على الدنيا دليل]^(٢) .

(١) السلسلة الصحيحة حديث رقم ٣٨٢ .

(٢) انظر الأمثال والحكم للماوردي ص ٩٠ .

٧ - تقلب الأحوال وتصرفها :

هناك أمور تحدث للإنسان ولا خيار له فيها مثل : الخلق ، والولادة ،
والحياة ، والموت ، والعمر ، والصحة ، والمرض ، والطول ، والقصر ، واللون ،
والرزق .

وهناك أمور له فيها الخيار مثل : الطاعة والعصيان ، والبر والفجور ،
والعبادة ، واللغو ، والكفر ، والإيمان ، ... الخ

واختلاف الناس وتباينهم في الإيمان والكفر والغنى والفقر ... الخ كل
ذلك من أهم مقومات الحياة ، ولا معنى لحياة تسير على وتيرة واحدة تدعو
إلى الملل والسأم والضجر والهروب منها إلى الموت^(١) .

والدنيا قُلْبٌ لا تستقرّ على حال والمرء فيها غرض للمنايا ونهب
للمصائب له ، مع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصص ، لا ينال نعمة إلا
بفراق أخرى ، ولا يزيد يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله^(٢) .

لا تَبْقَى صُرُوفُ الدَّهْرِ - رِإْسَاناً عَلَى حَالٍ^(٣)

وقد أكثر الحكماء والشعراء من الحديث في هذه المعاني وسأسرد
بعضاً منها :

(١) انظر عن رحلة الإنسان في الحياة : منهج الحضارة الانسانية في القرآن
الكريم للبوطي ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) انظر خطبة بهذا المعنى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في الأمالي
٥٤/٢ وقد نسبها القالي في ١٠٠/٢ لعمر بن عبد العزيز باختلاف يسير
في ألفاظها .

(٣) للفند الزماني ، انظر موسوعة الشعر العربي ٢٨٢/١ .

أ - فعن تصرف الأحوال بعامة ، يقول « قيس بن الخطيم » :

ومن عادة الأيام أن خطوبها إذا سرّ منها جانب ساء جانب^(١)
وقول الآخر^(٢) :

متى ما تفكر في الزمان وصرفه تقل لعب هذا وليس بلاعب
وقال « علي بن الغدير الغنوي »^(٣) :

وهلك الفتى أن لا يراح إلى الندى

وأن لا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا^(٤)

يقول الأمدي في شرح هذا البيت [أي هلكه أن لا يرى شيئاً يوجب
التعجب فيعجب ، أي من عرف أحوال الدنيا وصروفها في الخير والشر لم
يعجب من شيء ولم يعظم عليه أمر]^(٥) . وما أحسن قول « سهم بن حنظلة
الغنوي »^(٦) :

(١) زيادات ديوانه ١٦٢ تحقيق ناصر الدين الأسد ، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ -
١٩٦٢م مطبعة المدني القاهرة ، وقيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو
الخرجي الأزدي ، عده ابن سلام من شعراء القرى العربية . أدرك الاسلام
وقتل قبل الهجرة . انظر ترجمته في ديوانه .

(٢) لم ينسبه الماوردي في الأمثال والحكم ١٩١ .

(٣) شاعر فارسي من شعراء الدولة الأموية ، وله شعر في فتنة ابن الزبير
، انظر المؤلف ١٦٤ ومعجم الشعراء ٢٨٠ وأمالي القالي ١٨١/٢ ، والأغاني
(تقدّم) ٤٥/١٨ .

(٤) البيان والتبيين ٣/٣٤٣ .

(٥) المؤلف ١٦٤ ويراح : أخذته أريحية وخفة وفرحة .

(٦) هو سهم بن حنظلة أحد بني غنى بن أعصر ، فارس مشهور ، وشاعر
مخضرم محسن أفاض محقق الأصمعيات ٤٦ في ترجمته ، انظر المؤلف

[ألا ترى ! إنما الدنيا معللة أصحابها ثم تسرى عنهم سلبا
 بنيا الفتى في نعيم يطمئن به ردّ البئس عليه الدهر فانقلابا
 أو في بئس يقاسيه وفي نصبٍ أمسى وقد زایل البأساء والنصباء]^(١)
 ومن أمثال العرب [كل أمر سيعود مريباً]^(٢) يضرب في تنقل الدهر
 بأبنائه .

ب - وعن **الصحة والمرض**، يقول «النمر بن تولب» رضي الله عنه :
 [يودّ الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السلامة يفعل؟!
 يُردّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحةٍ ينوء إذا رام القيام ويحمل]^(٣)
 ويقول « حميد بن ثور الهلالي »^(٤) رضي الله عنه :
 أرى بصري قد رايني بعد صحة وحسبك داءً أن تصحّ وتسلم^(٥)
 ج - وعن **الفقر والغنى** يقول « أحيحة بن الجلاح »^(٦) :
 وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(٧)

-
- (١) الأصمعيّات ٥٥ . (٢) مجمع الأمثال للميداني ٦/٣ .
 (٣) ديوانه ٨٧ .
 (٤) هو حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري ، أبو المثنى ، شاعر مخضرم
 فارس له أشعار جياذ ، عدّه ابن سلام في الطبقة الرابعة من الإسلاميين
 وعدّه الأصمعيّ أحد شعراء العرب الأربعة العظماء في الإسلام . مات في
 خلافة عثمان رضي الله عنه ، وقيل : أدرك زمن عبد الملك بن مروان ،
 انظر ترجمته في ديوانه .
 (٥) ديوانه ٩ صنعة عبدالعزيز الميمني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة
 الأولى ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .
 (٦) هو أبو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي ، سيّد الأوس في
 الجاهلية شاعر جاهلي قديم ، كان غنياً شحيحاً . انظر ترجمته في ديوانه .
 (٧) ديوانه ٧٤ من مطبوعات نادي الطائف الأدبي ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، الطبعة
 الأولى وانظر جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٥ .

د - وعن الشبابة والكبر : انظر أبيات قالها « الخيار بن أوفى النهدي »^(١) لما سألته معاوية - رضي الله عنه - عما صنع به الدهر ، فأجابه بهذه الأبيات يصف فيها الدنيا وما تصنع بالإنسان طفلاً فصبياً فشاباً فشيخاً فكهنلاً ، وقد جمع فيها ما تفرق في أقوال الشعراء عن ذلك^(٢).

هـ - وعن الموت والحياة ، يقول « عبدالله بن الزبير الأسدي »^(٣) :

[أعاذل غضى بعض لومك إنني

أرى الموت لا يرضى بدين ولا رهن

وإنى أرى دهرًا تغيّر صرفه

ودنيا أراها لا تقوم على وزن]^(٤)

وتمثل « عبدالملك بن مروان » بهذا البيت :

وكلّ جديد يا أميم إلى بلى وكلّ امريء يوما يصير إلى كان^(٥)

وقد أحسن « مروان بن الحكم بن أبي العاص » الأمير الأموي ، في

قوله :

(١) يُستدلّ من الخبر على أنه من المعمرين ، وله ترجمة في الإصابة ١٥٣/٢

ومختصر ابن عساكر ١٨٣/٥ وانظر لباب الآداب ٣٤٢ .

(٢) انظر أمالي القالي ٩٢/٢ وأبياتاً أخرى نحوها في ٩٣/٢ .

(٣) هو أبو كثير ، عبدالله بن الزبير - بفتح الزاي - بن الأشيم بن الأعشى

ابن بجرة ينتهي نسبه إلى أسد بن خزيمه .

شاعر كوفي النشأة أمويّ الهوى ، توفي في خلافة « عبد الملك بن مروان »

انظر ترجمته ومراجعها في : معجم شعراء الحماسة ٧٢ - ٧٣ .

(٤) البيان والتبيين ٢٢٦/١ .

(٥) نفسه ١٧٦/٣ وانظر تاريخ الطبري ١٩١/٧ .

[وهل نحن إلا مثل من كان قبلنا نموت كما ماتوا ونحيا كما حيوا
وينقص منا كل يومٍ وليلةٍ ولا بد أن نلقى من الأمر ما لقوا
نؤمل أن نبقي وأين بقاؤنا فهلاً الأولى كانوا مضوا قبلنا بقوا؟!
فنوا وهم يرجون مثل رجائنا ونحن سنقني مثل ما أنهم فنوا
ونتزل داراً أصبحوا ينزلونها ونبلى على ريب الزمان كما بلوا] (١)
وهنا يأتي السؤال... كيف يتعايش الإنسان مع تقلب الأحوال وتصرف
الأزمان؟! والجواب... إذا لم يكن المرء على هدى من الله وبيّنة ساقته
هذه التقلبات إلى حياة بائسة مخيفة قد يتخلص منها بالانتحار، وذلك ديدن
المجتمعات التي ابتعدت عن منهج الله في الحياة وضلت عن سبيل الهدى.
أما ديننا دين الاسلام الذي أنعم الله به علينا فلم يتركنا نهياً لهذه
التقلبات، فقد وضع لنا أسساً وعلامات نسير عليها في دروب الحياة لنصل
إلى بر الأمان. فقد أرشدنا الاسلام إلى مايلي:

١ - معرفة حق الله علينا في حال اليسر، ف [من لم ير أن لله عليه
نعمة إلا في الأكل والشرب فقد قل فهمه وحضر عذابه] (٢) وأن الله سبحانه
وتعالى سيسألنا يوم القيامة عن النعيم (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) (٣)، فيقول
تعالى في الحديث القدسي: [ألم أصبح لك الجسم وأرؤك من الماء البارد؟] (٤).

(١) معجم الشعراء للمرزباني ٣٩٦.

(٢) من أقوال أبي الدرداء رضي الله عنه. انظر حياة الصحابة ٥٩٣/٢.

(٣) سورة التكاثر الآية ٨.

(٤) السلسلة الصحيحة حديث رقم ٥٣٩ وفي الزهد ٤. للإمام أحمد « وأرؤيك » بالنصب، ولعلّه من باب العطف على اللفظ لا المحلّ أو أنه خطأ مطبعي. والصواب: « أرؤك » بالجزم والحذف.

٢ - أن نعلم أن الدنيا مبنية على النقص [في كل يومٍ ما يُكره^(١)]
وليس في الدنيا راحة فإن [الإنسان إن سقم ندم ، وإن صحَّ أمن ، وإن
استغنى فتن ، وإن افتقر حزن]^(٢) ، يقول صلى الله عليه وسلم : [إن حقا
على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه]^(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : [أصدق بيت قاله الشاعر :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *]^(٤) .

٣ - أن نجعل من المصائب التي نواجهها عظاتٍ على الدنيا ، على
حد قول « عدي بن زيد » :

كفى زاجراً للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي^(٥)

٤ - أن نعلم أن الإنسان معرض للابتلاء ، وقد يكون الابتلاء نعمة ،
وقد يكون الأمن من الابتلاء نقمة ، يقول علي رضي الله عنه [ما المبتلى وإن
اشتد بلاؤه بأحق من الدعاء من المعافي الذي لا يأمن البلاء]^(٦) .

(١) جمهرة الأمثال للعسكري ٤٩٣/١ . وانظر الأمثال في الحديث النبوي ٤١٧ .

(٢) من أقوال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، انظر الزهد ٢٨ للإمام أحمد .

(٣) صحيح البخاري ١٨٩/٨ ، وانظر شرحه في فتح الباري ٣٤٠/١١ وعمدة القاري ٨٨/٢٣ وفي الحديث قصة لطيفة .. وفي رواية (يرفع شيء) .

(٤) صحيح البخاري ١٨٤/٨ وانظر شرحه في فتح الباري ٣٢١/١١ ، وعمدة القاري ٧٨/٢٣ . والشعر شطر من بيت للبيد بن ربيعة رضي الله عنه
وتمامه : * وكل نعيم لا محالة زائل * . انظر ديوانه ٢٥٦ .

(٥) ديوانه ١٠ ونسبته في أدب الدنيا والدين إلى « عدي بن حاتم » رضي الله عنه .

(٦) انظر شرح نهج البلاغة ٣٨٦/٤ وقد عدّه الماوردي في الأمثال والحكم ١٥١ حديثاً .

٥ - أن تُقابل البلاء بالصبر والنعمة بالشكر^(١) . يقول عمر رضي الله عنه : [أو لا يسكت أحدكم ؟ ! فإن ابتلي صبر ، وإن عوفي شكر !]^(٢) فإنه [ما من عبد يشرب الماء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج بغير أذى إلا وجب عليه الشكر]^(٣) .

ويقول عمر رضي الله عنه : [لو أن الصبر والشكر بغيران ما باليت أيهما أركب]^(٤) .

وفي الأمثال : [حيلة من لا حيلة له الصبر]^(٥) .

وتلك الحياة الإنسانية الحقة التي هدانا إليها الإسلام دين الله القويم ، ولو اتبعنا هدى الاسلام وعشنا في ظلال القرآن لابتعدنا عن تلك الحياة البهيمية التي يحياها من لا هادي له ولا دليل ، يقول الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم كذلك في الدنيا تعيش البهائم^(٦) .

(١) انظر القرطبي ٣٨٧/١ و ١٧٣/٢ في تفسيره لقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ... الخ) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

(٢) حياة الصحابة ٥٩٢/٢ .

(٣) من أقوال أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . انظر حياة الصحابة ٥٩٣/٢ .

(٤) البيان والتبيين ١٢٦/٣ وهو باختلاف يسير في حياة الصحابة ٥٩١/٥ .

(٥) جمهرة الأمثال للعسكري ٤٩٤/١ .

(٦) انظر القرطبي ٢١١/١ .

النوع الثاني المقومات الدينية

لا قوام للدنيا إلا بالدين^(١) ، ولا صلاح للأرض إلا به ، يقول شعيب عليه السلام لقومه (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)^(٢) ويقول تعالى عن المنافقين : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون)^(٣) والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وقد قسّمت هذه المقومات إلى ثمانية أقسام هي :

- ١ - العهد والميثاق .
- ٢ - إرسال الرسل وإنزال الكتب .
- ٣ - العقل .
- ٤ - العلم .
- ٥ - الإيمان .
- ٦ - العمل .
- ٧ - التفكير .
- ٨ - التقوى .

(١) أفرد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مبحثاً بهذا المعنى في كتابه (منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم) ٣٠ وما بعدها ، ولا يخفى الكم الهائل من الكتب التي تحدثت في هذا الموضوع وإنما خصصت هذا المرجع بالذكر لأن فيه كلاماً نفيساً مؤداه : هل الدين من أجل الدنيا أم العكس ؟ فليراجع .

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٥ . (٣) سورة البقرة الآية ١١ .

١ - العهد والميثاق (١) :

يصف الله تعالى المؤمنين بأنهم (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) (٢) ويصف الكافرين بأنهم (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) (٣).

قيل إن المراد بالعهد هنا : هو قول الله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) (٤) ، وقد ورد حول هذه الآية أقوال كثيرة تذكر أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فحينئذ أمر بالكتاب والشهود، وتختلف هذه الأقوال في الكيفية ، ولعلّ الراجح منها ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ذرية آدم أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، وجعل لهم عقولاً كنملة سليمان (٥) وقيل المراد بالعهد : الفطرة : بمعنى الاسلام ، في قول الله تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) (٦) .

(١) جاء ذكر العهد والوفاء به في ٤٤ موضعاً في القرآن الكريم . وجاء ذكر الميثاق والدعوة إلى عدم نقضه في ٢٩ موضعاً في القرآن الكريم . وانظر كتاب : العهد والميثاق في القرآن الكريم للدكتور ناصر بن سليمان العمرو ، ففيه فوائد ونفائس .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٠ .

(٣) جزء من الآية ٢٧ سورة البقرة والآية ٢٥ من سورة الرعد .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٢ وانظر القرطبي ٢٤٦/١ - ٢٤٧ و ١٠٨/٦ في

تفسيره لقول الله تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به) الآية ٧ من سورة المائدة .

(٥) انظر تفسير القرطبي ٣١٤/٧ - ٣١٥ .

(٦) سورة الروم الآية ٣٠ وانظر مختصر سنن أبي داود ٨٢/٧ ، ٨٣ .

وقد فسر حماد بن سلمة^(١) قول النبي صلى الله عليه وسلم : [كل مولود يولد على الفطرة]^(٢) بقوله : [هذا عندنا : حيث أخذ الله عليهم العهد في أصلاب آبائهم حيث قال : (أست بربكم قالوا بلى)]^(٣) [٤] .

وهناك أقوال أخرى في العهد ، أما الميثاق فهو العهد المؤكد باليمين^(٥) .

وعندي أن العهد الذي أخذه الله على بني آدم في قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)^(٦) ، هو التوحيد ، لا مرء في ذلك ولا شك ، يشهد لذلك تكملة الآية التي تليها ، يقول تعالى : (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون)^(٧) .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا

(١) هو حماد بن سلمة بن دينار ، الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، أبو سلمة ،

البصري ، النحوي ، البزاز ، البطائني . انظر ترجمته ومراجعها في

سير أعلام النبلاء ٤٤٤/٧ .

(٢) الحديث في مسلم ٢٠٩/٦ وهو في البخاري بشرحه في عون الباري

٦٤٣/٢ باختلاف يسير في اللفظ وانظر مختصر السنن ٨٨/٧ ، ٨٩ .

(٣) جزء الآية ١٧٢ سورة الأعراف .

(٤) مختصر سنن أبي داود ٨٨/٧ ، ٨٩ . وانظر تفسير الآية في المستدرك

للحاكم ٢٧/١ .

(٥) انظر الأقوال في العهد ، والميثاق : تفسير القرطبي ٢٤٦/١ ، ٢٤٧ .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٧) سورة الأعراف الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ .

الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (١) .

وجاء في الحديث القدسي : [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعتك ؟ فيقول : شرّ مضجع ، فيقال له : لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم ، فيقول : كذبت ، قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك ، فيؤمر به إلى النار] (٢) .

وكذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الله [أخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره فأقروا بذلك والتزموه] (٣) .

والتوحيد هو حق الله على عباده (٤) ، وهو الهدف والغاية من الخلق قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٥) .

وبالتوحيد تستقيم الحياة على منهج الله ، وبه يحصل الأمن في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (٦) والاهتداء - هنا - في الدنيا (٧) .

ومما يدل على عظم شأن التوحيد ، رواية النبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١ .

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني ١٢٢/٢ . حديث رقم ١٧٢ .

(٣) القرطبي ٣١٥/٧ .

(٤) انظر في هذا حديثاً في مسلم بشرحه في السراج الوهاج ١/٦٠ وما بعدها .

(٥) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ٨٢ .

(٧) انظر القرطبي ٣٠/٧ .

لخطبة قس بن ساعدة الإيادي بعكاظ ، وهو إسنادٌ يقول عنه الجاحظ : [تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال] ^(١) ثم يعلل سبب نيل قس لهذا الشرف فيقول : [وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجة للتوحيد ، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث ، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة] ^(٢).

وإذا كان المشركون يعظمون الدنيا فكذلك [في الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم وتنقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة] ^(٣) ، فإنهم يعيشون على التوحيد ويودعون الحياة بكلمة التوحيد ^(٤) .

وعهد الله وهو التوحيد [يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يلزم الطلاق من شهد عليه به وقد نسيه] ^(٥) ، والفطرة تدعو إلى التوحيد ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ^(٦) .

٢ - إرسال الرسل وإنزال الكتب :

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل للناس رسلاً تذكركم بعهد الله إذا نسوا ، وكما أسلفت فإن هذا العهد هو « التوحيد » ولذلك نجد بلاغ الرسل يرتكز على قولهم (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ^(٧) ويقول تعالى موضحاً

(١)(٢) البيان والتبيين ٥٢/١ .

(٣) القرطبي ٢٥٦/١٧ .

(٤) انظر حديثاً في تلقين الميت بـ « لا إله إلا الله » في صحيح مسلم ٢٤٠/٨ .

(٥) القرطبي ٣١٧/٧ .

(٦) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٧) انظر مثلاً سورتي الأعراف والشعراء وانظر تفسير القرطبي ٣١٧/٧ .

هدف الرسل (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (١) ويقول تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : (واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) (٢) وتلك أيضاً هي المهمة الأولى للكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله : (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) (٣) والقسط : العدل، وليس هناك ظلم أكبر من الشرك (٤) .

٣ - العقل (٥) :

العقل مناط التكليف .

[وهو الذي جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً ، فأوجب الله التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه] (٦) .

والعقل حجة الله على خلقه الذين يقولون (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) (٧) وقد زودهم الله تعالى بوسائل العقل والإدراك ولكن غلبت عليهم شقوتهم (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) (٨) .

(١) سورة النحل الآية ٣٦ . (٢) سورة الأنبياء الآية ٤٥ .

(٣) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٤) انظر قول الله تعالى في سورة الأنعام الآية ٨٢ (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ، وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم للظلم بأنه الشرك في صحيح البخاري ١١٠/٦ .

(٥) جاء (العقل) بجميع تصريفاته واشتقاقاته في ٤٩ موضعاً في القرآن الكريم . وانظر نهاية الأرب ٢٣٠/٣ وما بعدها في الحديث عن العقل .

(٦) القرطبي ٢٦١/٥ ، وانظر القرطبي أيضاً ١٦/٢٠ .

(٧) سورة الملك الآية ١٠ . (٨) سورة الأحقاف الآية ٢٦ .

والعقل ووسائل الحس والإدراك شهود الآخرة على العمل في الدنيا ،
(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد
عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون)^(١) .

٢ - العلم :

العلم من المقومات الأساسية للدنيا والدين ، ذلك أن العلم نوعان :

أ - علم دنيوي : وهذا بدوره ينقسم إلى قسمين :

الأول : قسم ألهمه الله بالفطرة وعلمه آدم وذريته من بعده ، ولعله
المقصود بقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها)^(٢) ومن هذا العلم معرفة
الإنسان الأكل والشرب وما يضره وما ينفعه من سائر المأكولات والمشروبات ،
ولعل أكبر دليل على العلم الملهم بالفطرة التقام الرضيع ضرع أمه بعد
الولادة مباشرة .

الثاني : علم مكتسب بالخبرة والتجارب وبما منحه الله للإنسان من
وسائل الإدراك والمقارنة والاستنباط ، قال تعالى : (والله أخرجكم من
بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم
تشكرون)^(٣) ، وهذا العلم يفيد الإنسان في حياته الدنيا ويوفر له أسباب
الراحة والرفاهية ورغد العيش .

(١) سورة فصلت الآيتان ١٩ و ٢٠ وانظر القرطبي ١/١٨٩ - ١٩٠ عن وسائل
المعرفة ومعانيها ودلالاتها ، وانظر كتاب الدكتور محمد الشرقاوي
« تأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم » الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ -
١٩٨٢م عالم الكتب ، فهو مفيد في بابه .

(٢) سورة البقرة الآية ٣١ وانظر تفسير القرطبي ١/٢٨٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٧٨ .

ب - علم ديني :

وهو العلم الذي كلف الله الرسل بتبليغه وتعليمه ، قال تعالى :
(كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)^(١) ، ويدعو إبراهيم الخليل ربه فيقول :
(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم)^(٢) وهذا العلم أيضاً ينقسم إلى قسمين :

الأول : علم يفيد الإنسان في حياته الدنيا ويدفع عنه أضرارها ، مثل تحريم شرب الخمر ، وتحريم الربا والميسر والقمار والزنى والفواحش وغيرها من الكبائر التي تفسد حياة الإنسان ، بل إن من الحدود ما يحفظ له الحياة ذاتها قال تعالى : (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب)^(٣) ، والله سبحانه تعالى رحيم بعباده لا يأمرهم إلا بما يصلحهم ولا ينهاهم إلا عن ما يضرهم قال تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً)^(٤) .

واتباع أوامر الله واجتناب نواهيه فيه سعادة الدنيا والآخرة .

الثاني : علم يراد به الآخرة : وهو المقصود في الحديث الشريف [من تَعَلَّمَ علماً مما يُبْتَغَى به وجه الله ، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة]^(٥) .

(١) سورة البقرة الآية ١٥١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

(٤) سورة النساء الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٥) سنن ابن ماجه ٩٣/١ حديث رقم ٢٥٢ . وانظر صحيح الجامع الصغير

٢٧٢/٥ حديث رقم ٢٥٢٠ وانظر الأمثال والحكم ١٣٤ .

وهذا علم الأنبياء وعلمُ ورثتهم من العلماء ، فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه بحقه أخذ بحظٍّ وافر (١) .

والعلم الديني هو الذي رفع الله شأنه وكرّم أهله ، قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٢) ، وقوله تعالى : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب) (٣) ويقول تعالى : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (٤) إلى غير ذلك من الآيات (٥) .

ومن لا يحمل هذا العلم أو يطلبه ينال سخط الله وغضبه ، قال تعالى : (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) (٦) .

وكذلك ذم من حمّله وتعلّمه يريد به عرضاً من الدنيا ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما [لو أن حملة العلم أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله وملائكته والصالحون ، ولهابهم الناس ، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس] (٧) .

وكما شرف الله حملة علم الأنبياء كذلك شرف علماء الدنيا لأن العلم الدنيوي الذي يفيد البشر ممّا يستوجب رضا الله تعالى وإكرامه ، قال تعالى : (نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) (٨) .

(١) انظر حديثاً بهذا في سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٢٣ .

(٢) سورة المجادلة الآية ١١ . (٣) سورة الرعد الآية ١٩ .

(٤) سورة الزمر الآية ٩ .

(٥) انظر مثلاً الآيات والصور التالية : آل عمران ٢٤ ، هود ٧٦ ، يوسف ١ .

إبراهيم ١١٤ ، طه ٤٣ ، العنكبوت ٦ ، سبأ ١ .

(٦) سورة الروم ٥٩ .

(٧) جامع العلوم ١٨٨/١ ، وحياة الصحابة ٢٧٣/٣ وانظر زيادة للفائدة :

تفسير القرطبي ٢٨٦/١ .

(٨) سورة يوسف الآية ٧٦ .

٥ - الإيمان :

ورد « الإيمان » بجميع تصريفاته واشتقاقاته إحدى عشرة وثمانمائة مرة في القرآن الكريم ، وجاء بعدة معان ودلالات^(١) هي :

أ - اسم للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين .. الآية)^(٢) .

ب - وصف لكل من دخل في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مقراً بالله وبنبوته ، وقيل عليه قوله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)^(٣) .

ج - إذعان النفس للحق على سبيل التصديق ، ويجيء في القرآن على سبيل التمدح ، وذلك باجتماع أشياء ثلاثة : تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب ذلك بالجوارح ، قال تعالى : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون)^(٤) .

د - إطلاقه على كل من : الاعتقاد ، والقول ، والصدق ، والعمل الصالح ، قال تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم)^(٥) ، وقال تعالى : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)^(٦) قيل معناه : بمصدق لنا .

هـ - قد يطلق الإيمان ويراد به الاسلام أو العكس^(٧) .

(١) المفردات ٢٦ بتصرف . (٢) سورة البقرة الآية ٦٢ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٦ . (٤) سورة الحديد الآية ١٩ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٤٣ . (٦) سورة يوسف الآية ١٧ .

(٧) انظر مختصر سنن أبي داود ٤٩/٧ - ٥٠ ففيه كلام جميل مفصل حول وجه العموم والخصوص المطلق بينهما . وانظر حديثاً في مسلم بشرحه في السراج الوهاج ٤٥/١ وما بعدها يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام الخمسة وأنها هي الإيمان .

وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين في غير ما آية ، وأوفى وصف لهم في سورة « المؤمنون »^(١) وأهم ميزة ميّزهم بها القرآن الكريم هي : « الإيمان بالغيب »^(٢) ، قال تعالى : (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ... الايات)^(٣) .

[والغيب في قوله « يؤمنون بالغيب » ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يُعَلَّم بخبر الأنبياء عليهم السلام ، ويدفعه يقع على الانسان اسم الإلحاد]^(٤) .

وإذا فمحك الإيمان الحقيقي هو « الإيمان بالغيب » إيماناً لا يداخله ذرة من شك ، والإيمان بالله وأنه هو وحده عالم الغيب^(٥) ، والإيمان بجميع ما يخبر به الله ورسوله من أمور الغيب .

(١) سورة المؤمنون الآيات ١ - ١٤ .

(٢) انظر حول هذا الجزء « بتوسع » الكتب التالية : عالم الغيب والشهادة في التصور الاسلامي ، بقلم عثمان جمعة ضميرية ، مراجعة الشيخ ناصر بن حمد الراشد ، مكتبة السوادى ، جدة الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م . وكتاب : رحلة عبر الغيب بين آيات القرآن وصفحات الأكوان ، عبد الكريم عثمان ، دار السلام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م وكتاب : مفاهيم قرآنية حول حقيقة الانسان ص ١٧ د/ فاروق الدسوقي ، المكتب الاسلامي ، بيروت ومكتبة فرقد الخاني ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

(٣) سورة البقرة الآيات ١ - ٥ وقد ورد الإيمان بالغيب في ٦٠ موضعاً من القرآن الكريم .

(٤) المفردات ٣٦٧ .

(٥) انظر في اختصاص الله تعالى العلم بالغيب الآيات والصور التالية : البقرة ١ - ٥ ، والأنعام ٥٩ ، والأعراف ١٨٨ ، ويونس ٢٠ ، والرعد ٨ ، ٩ ، والنمل ٦٥ ، ولقمان ٣٤ ، والنجم ٣٥ ، والحشر ٢٢ ، والجن ٢٦ ، ٢٧ .

والإيمان هو حياة القلوب في الدنيا ، ونورها في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)^(١) وقال تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات)^(٢) . وقال عز وجل (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)^(٣) .

ويأتي المؤمنون والمؤمنات يوم القيامة (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم)^(٤) أما المنافقون والكافرون ومن لم يهتد إلى طريق الحق فيقول تعالى عنهم (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)^(٥) .

ولن أتطرق إلى قضية الإيمان وهل يزيد وينقص أم لا ! فليس هذا مجاله^(٦) ، وإنما ستذكر حقيقة الإيمان الواردة في هذا الحديث الذي يبين الصلة العميقة بين الدنيا والإيمان والنور ، قال النبي صلى الله عليه وسلم للحارث بن مالك^(٧) : [كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت

(١) سورة الأنفال الآية ٢٤ .

(٢) سورة فاطر الآيات ١٩ - ٢٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٢ وانظر كلاماً مفصلاً ومفيداً في كل من : الفوائد

لابن القيم ص ٤٠ وتفسير القرطبي ٧/٧٨ .

(٤) سورة الحديد الآية ١٢ .

(٥) سورة النور الآية ٤٠ ، وانظر القرطبي ٢/٢٨٦ .

(٦) انظر في هذا : « كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكمالته ودرجاته »

صنّفه أبو عبيد القاسم بن سلام وحققه محمد ناصر الدين الألباني ،

سلسلة « من كنوز السنة » أربع رسائل ، الرسالة الثانية د . ط . د . ت .

د . ن . ، والقرطبي ١/١٩٤ - ١٩٥ .

(٧) وفي رواية : حارثة بن النعمان .

مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل قولٍ حقيقةً ، فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عرَّفتُ نفسي عن الدنيا وأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي قد أبرز للحساب ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة ، وكأني أسمع عواء أهل النار ، قال : فقال : عبدُ نور الإيمان قلبه ، إن عرفتَ فالزمُ ^(١) فإن [الحياة الدنيا لتصغر وتضؤل في عين المؤمن بقدر اتساع آفاق نفسه المؤمنة] ^(٢) .

أما علاقة الإيمان بالعمل فهذا ما سأحدث عنه فيما يأتي .

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٤٣/١١ تحقيق عامر الأعظمي ، سلسلة مطبوعات

الدار السلفية ٢٣ بومباي الهند .

(٢) معالم في الطريق ١٧٩ بتصرف .

٦ - العمل :

إن من ثمرات الإيمان : الاستقامة على منهج الله ، وطمأنينة القلب ، والتوكل ، والصبر ، والجهاد في سبيل الله ، والاعتزاز بالله ، والثقة به ، وعدم القنوط من رحمته ، وصلاح الباطن والظاهر ، ونبذ التفاخر وحب الرياسة والكبر والعلو وغير ذلك^(١) .

وهذه الثمرات هي ركائز الحياة القويمة ولا يمكن جنيها إلا بالعمل ، وقد ارتبط ذكر الإيمان بالعمل في القرآن الكريم حتى أصبحا متلازمين في الذكر^(٢) .

بل إن الإيمان هو العمل^(٣) ، يقول تعالى : (وتلك الجنة التي أُرثتموها بما كنتم تعملون)^(٤) وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى : (فوريك لنساءنهم أجمعين عما كانوا يعملون)^(٥) عن قول لا إله إلا الله . [وسمى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عملاً ، قال أبو ذر وأبو هريرة : « سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله وجهاد في سبيله ، وقال : (جزاء بما كانوا يعملون) »^(٦) . وقال وفد عبد القيس للنبي صلى الله عليه وسلم : مرنا بجمل من الأمر إن عملنا بها دخلنا الجنة ، فأمرهم

(١) انظر مثلاً : كتاب « التوبة » لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق عبد الله حجاج ، مكتبة التراث الاسلامي ، القاهرة . د . ط . د . ت . ، وكتاب « الإنسان في القرآن الكريم » لطبيشات ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) ذكر العمل بجميع تصريحاته « ٣٥٩ » مرة في القرآن الكريم واقترن بالعمل الصالح « ٩٢ » مرة وبالإيمان « ٥٢ » مرة .

(٣) انظر فتح الباري ٧٧/١ واستدلالاته على هذا .

(٤) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٥) سورة الحجر الآيتان ٩٢ ، ٩٣ .

(٦) سورة الواقعة الآية ٢٤ .

بالإيمان والشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فجعل ذلك كله عملاً ^(١) .

والإيمان قول وعمل ^(٢) وقد حث القرآن الكريم والسنة المطهرة على العمل ، قال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ^(٣) وقال تعالى : (لمثل هذا فليعمل العاملون) ^(٤) .

وفي حديث مرسل : [وأصدق الأسماء : الحارث وهمام ، حارث لدنيا ودينه ، وهمام بهما] ^(٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يملّ حتى تملوا وإن أفضل العمل أدومه وإن قل) ^(٦) .

ولا ينفع العمل بلا إيمان ، ففي الحديث : [كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً] ^(٧) .

ولذلك شرط القرآن الكريم الإيمان لقبول العمل ، قال تعالى :

-
- (١) فتح الباري ٥٢٧/١٣ وانظر حديثاً آخر بنحوه ٥٢٨/١٣ .
 - (٢) انظر كتاب « الإيمان » لابن أبي شيبه ، ص ٤٦ وما بعدها ، من سلسلة كنوز السنة بتحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني .
 - (٣) سورة التوبة الآية ١٠٥ .
 - (٤) سورة الصافات الآية ٦١ وانظر في حث القرآن الكريم على العمل الايات والصور التالية: الأعراف الآية ١٠ والآية ١٢٩ ، وسورة النور الآية ٥٥ ، وسورة الزخرف الآية ٣٢ ، وسورة الجمعة الآية ١٠ .
 - (٥) السلسلة الصحيحة ٦٠٧/٢ .
 - (٦) صحيح الجامع الصغير ٣٩١/١ حديث رقم ١٢٣٩ وانظر القرطبي ٢٠٨/١ .
 - (٧) سنن ابن ماجه « باب الإيمان » حديث رقم ٦١ ، وحزاورة : جمع الحزور وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم .

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون)^(١) .

أما عمل الكفار ولو كان صالحا فيقول عنه تبارك وتعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا)^(٢) .

وفي صحيح مسلم : [عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله « ابن جدعان »^(٣) كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه؟ قال : لا ينفعه . إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين]^(٤) . وفي حديث آخر أن [الكافر يطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها]^(٥) .

[وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ، لكن بعضهم أشدّ عذابا من بعض بحسب جرائمهم]^(٦) . يقول الله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم)^(٧) .

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٤ ، وانظر الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ وانظر الآية ١١٧ من سورة آل عمران ، وتفسير القرطبي ٢/٢٨٢ وما بعدها ، والأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ص ٥٣ .

(٣) هو « عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب » سيد قريش في الجاهلية صاحب الحلف المشهور وممدوح « أمية بن أبي الصلت » وكان ممن حرم الخمر على نفسه .

انظر ترجمته في كتاب « نسب قريش » ٢٩١ - ٢٩٣ و « المحبر » ١٢٣ ، و « الأعلام » ٧٦/٤ .

(٤) السراج الوهاج ١/١٩٤ . (٥) نفسه ١/٢٣٦ .

(٦) نفسه ١/١٩٥ وانظر ١/٢٣٧ .

(٧) سورة يونس الآية ٩ .

و [العمل الصالح هو الإحسان وفعل الحسنات ، والحسنات هي : ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به عن إيجاب واستحباب]^(١) .
ولا يُقبل العمل إلا بشروط ، أوجزها « الفضيل بن عياض » يرحمه الله في ثلاثة هي :

أ - أن يكون لله ، ب - أن يكون خالصاً ، ج - أن يكون صواباً .
ومعنى أن يكون لله خالصاً له هو أن لا يبتغي به عرضاً من الدنيا ولا شرفاً ولا رئاسة ، وأن لا يدخله الرياء والسمعة ، يقول صلى الله عليه وسلم [إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِيَ به وجهه]^(٢)
فإن [العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه]^(٣) .

وأما أن يكون صواباً فمعناه أن يكون العمل موافقاً لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والسلف الصالح غير مقترن ببدعة محدثة أو ظلم أو فاحشة ، وذلك هو العمل الطيب، يقول صلى الله عليه وسلم : [لا يقبل الله من الأعمال إلا الطيب]^(٤) .

وجماع ذلك كله النية [فالنية روح العمل ولبّه وقوامه ، وهو تابع لها

(١) العبودية ص ١٧ لابن تيمية وفيه : « فما كان من البدع التي في الدين ليست مشروعة فإن الله لا يحبها ولا رسوله فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح » .

وانظر مبحثاً بعنوان : « العمل الصالح » في كتاب الفلسفة التربوية في القرآن الكريم ٥٧ - ٦١ للجمالي .

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني ٨١/١ حديث رقم ٥٢ .

(٣) الفوائد لابن القيم ٦٧ .

(٤) الحديث في البخاري بشرحه في عون الباري ١٨/٣ وما بعدها .

يصحّ بصحتها ويفسد بفسادها [١] ، قال صلى الله عليه وسلم : [إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى] [٢] .

وإذا ما استكمل العمل شروط القبول فتلك هي الاستقامة المقصودة في قوله تعالى : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) [٣] وفي الحديث الذي جاء فيه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم [يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك] [٤] ، قال : « قل آمنت ثم استقم » [٥] [٦] .

وأفضل الأعمال بعد الإيمان بالله الجهاد [٧] في سبيله ، وورد في الحديث الصحيح أن الجهاد أفضل العمل [٨] ، وخير الأعمال الصلاة ، يقول صلى الله عليه وسلم : [سدّدوا ، وقاربوا ، واعملوا ، وخيروا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن] [٩] .

وتفاضل الأعمال أمر نسبي فإن [مثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين] [١٠] .

(١) أعلام الموقعين ٤١١/٣ .

(٢) هو أول حديث في البخاري وانظر تخريجه في كتاب جامع العلوم والحكم ٥٩/١ .

(٣) سورة هود الآية ١١٢ . (٤) وفي رواية : غيرك .

(٥) وفي رواية : فاستقم .

(٦) الحديث في مسلم بشرحه السراج الوهاج ١٢٤/١ وما بعدها .

(٧) الجهاد من الجهد أو الجُهد وهو استفراغ الوسع في مدافعة العدو ، المفردات ١٠١ بتصرف .

(٨) انظر مثلاً صحيح البخاري ٦٧/٤ .

(٩) السلسلة الصحيحة ٢١/٢ حديث رقم ١١٥ .

(١٠) من أقوال أبي الدرداء رضي الله عنه انظر الزهد للإمام أحمد ١٧١ .

وحتى تتبين الصلة القوية التي تربط الدنيا بالعمل يحسن القول : إن
 ذم الدنيا الوارد في الكتاب والسنة ليس راجعاً إلى مكانها [وهو الأرض وما
 أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن فإن ذلك كله من نعم الله على
 عباده لما لهم فيها من المنافع ، والاعتبار ، والاستدلال على وحدانية الصانع
 سبحانه وقدرته وعظمته وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا
 لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته ^(١) ولكن [الله المستعان
 على السنة تصف وقلوب تعرف ، وأعمال تخلف] ^(٢) .

(١) تزكية النفوس ١٢٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢٨٤/١ من أقوال عمرو بن ذر رحمه الله .

V - التفكير (١) :

التفكر : [هو جولان القوة المطرقة للعلم إلى المعلوم بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون الحيوان] (٢) .

ومن نظائره : التدبر وهو : [التفكير في دبر الأمور] (٣) والعبرة وهي : الاعتبار [بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد] (٤) ، والبصر هو [قوة القلب المدركة] (٥) ، والنظر وهو [تقيب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص] (٦) ، والعقل ويطلق على [العلم الذي يستفيده الانسان بالقوة المتهيئة لقبول العلم] (٧) .

قال تعالى : (أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) (٨) ، وقال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٩) وقال تعالى عن الأنبياء عليهم السلام : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) (١٠) . وقال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون) (١١) ، وقال تعالى : (قل انظروا ماذا

(١) حث القرآن الكريم على التفكير في مخلوقات الله (بلفظ التفكير) في ١٦ موضعاً ، وللاستزادة في هذا الموضوع انظر الكتابين التاليين « التفكير فريضة إسلامية » للعقاد ، و « المعرفة في الإسلام » لأحمد عبد الرحيم السايح .

(٢) المفردات ٣٨٤ بتصرف .

(٣) ذاته ١٦٥ . (٤) ذاته ٣٢٠ . (٥) ذاته ٤٩ .

(٦) ذاته ٤٩٧ . (٧) ذاته ٣٤١ .

(٨) سورة الروم الآية ٨ . (٩) سورة محمد الآية ٢٤ .

(١٠) سورة يوسف الآية ١١١ .

(١١) سورة الذاريات الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

في السموات والأرض) (١) ، وقال تعالى : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (٢).

والتفكر والتأمل طريق الاستدلال ، والاستدلال والنظر سبيل الإيمان ، وأعظم ما يجب التفكر فيه والتدبر كلام الله سبحانه وتعالى ، قال عز وجل : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (٣) ، وقال تعالى : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) (٤) ، وقال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) (٥) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : [لقد نزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها : (إن في خلق السموات والأرض .. الآية) (٦)] (٧) .

وكان سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على أربع : [الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر] (٨) .

وكان أكثر عمل أبي الدرداء رضي الله عنه التفكر والاعتبار ، وكان يقول : [تفكر ساعة خير من قيام ليلة] (٩) . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث والآثار التي تدلّ على أهمية التفكر وفضله . ومن الأمور التي وجّه الله تعالى إلى التفكر فيها : الدنيا والآخرة ، قال تعالى : (كذلك يبين الله

(١) سورة يونس الآية ١٠١ . (٢) سورة الحج الآية ٤٦ .

(٣) تكررت هذه الآية أربع مرات في سورة القمر في الايات : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

(٤) سورة ق الآية ٤٥ . (٥) سورة ص الآية ٣٨ .

(٦) السلسلة الصحيحة ١/١٠٦ حديث رقم ٦٨ .

(٧) صفة الصفوة ١/١٦١ .

(٨) ذاته ١/٦٢٨ وانظر حياة الصحابة ٢/٦١٨ ، ٦١٩ ، والحلية ١/٢٠٨ ، والزهد

للإمام أحمد ١٦٨ .

(٩) انظر مثلاً تفسير القرطبي ٤/٣١٣-٣١٥ .

لكم الآيات لعلمكم تتفكرون في الدنيا والآخرة (١) وكان تفكير النبي صلى الله عليه وسلم فيما يبقَى ويفنى (٢). وهذا من أكبر الدلائل على أن التفكر من أهم مقومات الدنيا ، بل إن الله سبحانه وتعالى أمر بالتفكر في مقومات الدنيا مثل : خلق السموات والأرض (٣)، واختلاف الليل والنهار (٤)، والأرض (٥)، والسير فيها (٦)، وعاقبة من كذب رسل الله (٧)، والسحاب (٨)، والرياح (٩)، والانسان وكيف خُلِقَ؟ ومم خُلِقَ؟ وكيف يعيش؟ وإلى أين مصيره؟ (١٠) وغير ذلك من آيات الله في الأرض والسماء والكون والنفس والأحياء ، وجميع ما يستدعي التأمل والتفكر في عظمة الخالق وضعف المخلوق (١١).

-
- (١) سورة البقرة الآيتان ٢١٩ ، ٢٢٠ .
 (٢) صفة الصفوة ١/١٦١ .
 (٣) والآيات في هذا كثيرة جداً .
 (٤) انظر مثلاً : سورة البقرة الآية ١٦٤ ، سورة آل عمران الآية ١٩٠ .
 (٥) والآيات كثيرة في هذا أيضاً ، انظر مثلاً سورة يس الآية ٣٣ وسورة غافر الآية ٥٧ ، وسورة الذاريات الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
 (٦) والآيات في هذا أيضاً كثيرة انظر مثلاً سورة الأنعام الآية ١١ ، وسورة النمل الآية ٦٩ ، وسورة العنكبوت الآية ٢٠ .
 (٧) انظر مثلاً : سورة آل عمران الآية ١٣٧ وسورة الأنعام الآية ١١ وسورة الأعراف الآيات ٨٤ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ، وسورة يونس الآيتان ٣٩ ، ٧٣ ، وسورة هود الآية ٤٩ ، وسورة يوسف الآية ١٠٩ ، وسورة طه الآية ١٣٢ ، وسورة القصص الآيتان ٤٠ ، ٨٣ ، وسورة الروم الآيتان ٩ ، ٤٢ ، وسورة فاطر الآية ٤٤ ، وسورة الصافات الآية ٧٣ وسورة غافر الآيتان ٢١ ، ٨٢ .
 (٨) انظر مثلاً سورة البقرة الآية ١٦٤ .
 (٩) انظر مثلاً سورة الأعراف الآية ٥٧ وسورة النور الآية ٤٣ .
 (١٠) انظر مثلاً سورة الذاريات الآية ٢٠ ، وسورة عبس الآيات ١٨-٣٢ ، وسورة الطارق الآيات ٥ - ١٠ ، والقرطبي ١٧/٤٠ .
 (١١) انظر الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية .

ويشبهه الله سبحانه وتعالى من لا يعقل ولا يتأمل ولا يتفكر في مخلوقات الله بالسائمة بل أضل : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً)^(١) ، ويصمهم بعمى القلب : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)^(٢) ، أما الذين استخدموا عقولهم في الوصول إلى حقيقة الحياة وما بعدها فيقول عنهم عز وجل :

(إن في خلق السموات والأرض لآيات لأولي الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار)^(٣) .

وعموماً فمن وسائل التفكير : السير في الأرض والتأمل والنظر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، والاعتبار بقصص الأولين ، وتقلب الأحوال ، وتصرفها ، والتعرف على سنن الله في الكون والبشر والحياة .

وهذه جميعاً تقود إلى الإيمان بالله حق الإيمان والتخلق بأخلاق المؤمنين ، وهذا ما سأتناوله في ما يأتي من بحث^(٤) .

(١) سورة الفرقان الآية ٤٤ وانظر الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٢) سورة محمد الآية ٢٤ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .

(٤) للاستزادة في « مجالات التفكير في القرآن الكريم » انظر مثلاً : الصفحات ٥٠ - ٥٦ من كتاب الفلسفة التربوية في القرآن الكريم ، للجمالي .

وانظر في أنواع التفكير كتاب « الفوائد » لابن القيم ص ٣١ - ٣٢ و ص ٢٦٨ ففيه كلام نفيس .

٨ - التقوى^(١) :

كان من المفروض أن أضع عنواناً بديلاً لهذه الجزئية من البحث هو : « المقومات الأخلاقية » ولكنني وجدت أن مكارم الأخلاق وفضائلها لا تعدو أن تكون نتيجة حتمية للمقومات الدينية السالف ذكرها ، ولا أبالغ إن قلت إنها هي رسالة الأديان كلها وهدفها وغايتها ، يقول صلى الله عليه وسلم : [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]^(٢) ويقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ)^(٣) وإذا كان للحياة مقومات دينية ففضائل الأخلاق قيمها ومقوماتها في آن معاً .

وإنما خصصت التقوى بالذكر لأنها الجامع لفضائل الأخلاق ومكارمها ، وما سيأتي من بيان يوضح ذلك ويفصله .

وردت كلمة « التقوى » في تسعة وثلاثين ومائتي موضع في القرآن الكريم بجميع اشتقاقاتها وتصريفاتها وأصلها من الوقاية وهي [حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، يقال : وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء]^(٤) ، [والتقوى : جعل النفس في وقاية مما يُخَاف]^(٥) .

[والتقوى في تعارف الشرع : حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحظور]^(٦) .

(١) وردت كلمة التقوى بتصريفاتها بهذا المعنى قريباً من ٢٤٠ مرة في القرآن الكريم .

(٢) وفي رواية « صالح الأخلاق » انظر صحيح الأدب المفرد ١١٨ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٥ وانظر تخريجه هناك .

(٣) سورة القلم الآية ٤ .

(٤) المفردات ٥٣٠ . (٥) ذاته ٥٣٠ .

(٦) ذاته ٥٣١ وانظر معاني أخرى للتقوى في القرطبي ١٦١/١ ، ١٦٢ .

ويشرح النبي صلى الله عليه وسلم تقوى الله حقّ تقاته فيقول : [أن يطاعَ فلا يعصى ، ويشكرَ فلا يكفرَ ، ويذكرَ فلا ينسى] (١) .

وفهم هذا المعنى أيضاً من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي اعترض على قسمة الغنائم إذ قال [اتق الله يا محمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن يطع الله إن عصيته ؟ أياًمني على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ !] (٢) .

والتقوى هي نقيض الفساد والعلو في الأرض ، يقول تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يربون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (٣) .

أما كلمة « التقوى » في قوله تعالى : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) (٤) فقد روي في الحديث المرفوع أنها « لا إله إلا الله » وبها قال جمهور العلماء والمفسرين (٥) ، وقيل [لـ « طلق بن أبي حبيب » (٦) : صف لنا التقوى فقال : التقوى : عمل بطاعة الله ، رجاء رحمة الله ، على نور من الله ، والتقوى : ترك معصية الله ، مخافة الله ، على نور من الله] (٧) .

أما قول المتصوفة بأن التقوى [لبس الصوف والخشن من الثياب] (٨)

(١) ابن كثير ٣٨٧/١ ونقل عن الحاكم في المستدرک ٢٩٤/٢ قوله : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ثم قال : والأظهر أنه موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وهم القرطبي في تفسيره ١٥٧/٤ فعزاه إلى صحيح البخاري عن مرة بن عبد الله ، وانظر تفسير الطبري ٦٥/٧-٦٦ ، والدر المنثور ١٠٥/١ ، ومجمع الزوائد ٣٢٦/٦ .

(٢) صحيح مسلم ١٦١/٧ ، ١٦٢ ، وانظر الحديث هناك بطوله .

(٣) سورة القصص الآية ٨٣ ، وانظر الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .

(٤) سورة الفتح الآية ٢٦ .

(٥) انظر القرطبي ٢٨٩/١٦ ، ومجمع الزوائد ١٥/١ ، وحياة الصحابة ٤/٣ .

(٦) هو طلق بن حبيب العنزي بصري زاهد كبير من العلماء العاملين ، انظر ترجمته ومراجعتها في سير أعلام النبلاء ٦٠١/٤ .

(٧) الإيمان لابن أبي شيبه ٣٣ بتحقيق الألباني .

(٨) القرطبي ١٨٥/٧ .

وأنه [أقرب إلى التواضع وترك الرعونات ؛ فدعوى ، فقد كانت الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى] (١) .

أما علامات أهل التقوى فهي : [صبر على البلاء ، ورضى بالقضاء ، وشكر النعماء ، وذلٌ لحكم القرآن] (٢) .

وقد اهتم القرآن الكريم بالتقوى والمتقين اهتماماً بالغاً ، ونوّه بالمتقين ورفع من شأنهم وذكر صفاتهم في مواضع كثيرة ، وللتدليل على ذلك أكتفي بضرب مثالين لهذا من الآيات ٣ و ٤ و ١٧٧ من سورة البقرة فقد عدّدت تلك الآيات صفات للمتقين منها :

الإيمان بالله واليوم الآخر ، والغيب ، والملائكة ، والنبين ، والإيمان بالقرآن وما أنزل الله من كتب إلى الأنبياء والرسل ، وانفاق المال في وجوهه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر ، والسير على هدى من الله في دروب الحياة ، قال تعالى : (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) (٣) .

وقال تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه نوي القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام

(١) ذاته ١٨٥/٧ .

(٢) من أقوال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، انظر حلية الأولياء ٣٣٦/١ وحياة الصحابة ٥٢٧/٣ .

(٣) سورة البقرة الآيات ١ - ٥ .

الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (١).

وهناك صفات كثيرة أخرى ذكرها القرآن الكريم للمتقين مثل الإنفاق في السراء والضراء والعفو عن الناس والإحسان في القول والاعتقاد والعمل وغيرها (٢).

والمتقون هم أولياء الله في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : (إن أوليائه إلا المتقون) (٣) وقال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون) (٤) .

وفي التقوى سعادة الدارين ، وبها ينعم الله على العباد ويفتح لهم أبواب الرزق ، قال تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) (٥) .

وعن حياة المتقين الطيبة في الدنيا ومآلهم الحسن في الآخرة يقول تعالى : (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ، قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (٦) .

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ وانظر القرطبي ١٦٢/١ - ١٦٣ و ٢٣٧/٢ - ٢٤٤ ففيه زيادة تفصيل لصفات المتقين .

(٢) انظر مثلاً الآية ١٣٤ من سورة آل عمران والآية ٩٣ من سورة المائدة .

(٣) سورة الأنفال الآية ٣٤ .

(٤) سورة يونس الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٩٦ وانظر سورة المائدة الآيتان ٦٥ - ٦٦ .

(٦) سورة النحل الايات ٣٠ - ٣٢ .

والتقوى هي الزاد الذي نتزوّد به من حياتنا هذه للحياة الآخرة ،
قال تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى)^(١) ، فالحياة سفر للآخرة
ولا بد من زاد لهذا السفر ، والتقوى زاد الآخرة . وكان من دعاء محمد
بن علي بن الحسين بن علي^(٢) [اللهم أعني على الدنيا بالغني ، وعلى
الآخرة بالتقوى]^(٣) .

وأشرف علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذات يوم على الجبان فقال :
[يا أهل القبور ، يا أهل البلى ، يا أهل الوحشة ، ما الخبر عندكم ؟
فإن الخبر عندنا ، قد قسمت الأموال ، وأيّمت الأولاد ، واستبدل بالأزواج ،
فهذا الخبر عندنا فما الخبر عندكم ؟]^(٤) .

ثم يقول : [لو أذن لهم في الجواب لقالوا : إن خير الزاد التقوى ؛
ثم بكى]^(٥) .

وفي هذا المعنى يقول « الأعشى »^(٦) :

(١) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

(٢) هو أبو جعفر الباقر ، من التابعين فقهاء أهل المدينة ، وضع الشيعة على
لسانه أقوالاً واعتقدوا فيه عقائد باطلة ، انظر ترجمته ومراجعها في
سير أعلام النبلاء ٤/٤٠١ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢٧١ .

(٤) حياة الصحابة ٢/٦٠٧ . (٥) ذاته ٢/٦٠٧ .

(٦) الأعشى الشاعر الجاهلي المشهور ، ومن العجب أن يكون للقرآن الكريم كل
هذا التأثير في شعره لفظاً ومعنى ثم يموت مشركاً ولكنها سوء الخاتمة
أعاذنا الله منها ، ثم إن أبياته تدلّ على مدى تعمق كلمة التقوى بهذا
المفهوم في نفوس المسلمين حتى كانت أول قصيدة يمدح فيها الرسول
صلى الله عليه وسلم على هذا النمط . هذا إن سلم الشعر من التحل .

[إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا قيت بعد الموت من قد تزوداً
ندمت على أن لا تكون كمثلته وأنت لم ترصد بما كان أرصداً] (١)
ويقول « لبيد بن ربيعة » رضي الله عنه :
بل كل سعيك باطل إلا التقى فإذا انقضى شيء كأن لم يفعل (٢)
ولله در الشاعر إذ يقول :
موت التقى حياة لا فناء له

قد مات قوم وهم في الناس أحياء (٣)
وكان الحسن البصري يتمثل بهذا البيت إذا أصبح وإذا أمسى :
يسرّ الفتى ما كان قدّم من تقى إذا عرف الداء الذي هو قاتله (٤)
ومما يتقدّم يتبيّن واضحاً جلياً أن التقوى هي جماع كل خيرٍ من
الاعتقاد والأقوال والأعمال والأخلاق وتلك ميزة القيم الأخلاقية في القرآن
الكريم إذ ليست منفصلة ولا مفردة ولا مجردة وإنما هي قيم متكاملة تنبع من
تصوير القرآن الكريم للكون والحياة والانسان .
ويرتفع القرآن الكريم بالقيم فيجعلها جزءاً من العقيدة وعنصراً من
عناصر الإيمان (٥) .

(١) ديوانه ١٣٧ شرح وتعليق الدكتور محمد حسين ، مكتبة الآداب ،
الجماميز ، د . د . ط . د . ت .

(٢) ديوانه ١٢٦ وانظر قصيدة أخرى له في هذا المعنى ١٧٤ .

(٣) القرطبي ٢٦٩/٤ ولم يُنسب .

(٤) اقتضاء العلم العمل ٢١٦ .

(٥) بتصرف من « قيم الحياة في القرآن الكريم » لمحمد شديد ، ص ١٤ =

والجاهليون الذين نزل القرآن بلغتهم فهموا أن التقوى هي منبع فضائل الأخلاق ومكارمها ، يقول الأعشى الأكبر :

جماع الهوى في الرشد أدنى إلى التقى

وترك الهوى في الغي أنجى وأوفق^(١)

ويقول « المتلمس »^(٢) :

[وأعلم علم حق غير ظنٍّ وتقوى الله من خير العتادِ

لحفظ المال خير من بُغاهُ وسير في البلاد بغير زاد

وإصلاح القليل يزيد فيه ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ]^(٣)

ويوصي « عبد قيس بن خفاف البرجمي »^(٤) ابنه فيقول :

= وللاستزادة في هذا انظر كتاب « الإنسان في القرآن الكريم » لعابد طبيشات ص ١٣٢ وما بعدها . وكتاب « الفلسفة التربوية في القرآن الكريم » للجمالي ص ٤١ وما بعدها ، وكتاب « التصوف » لابن تيمية ٣٤ وما بعدها . وكتاب « الانسان . الروح والعقل والنفس » للدكتور نبيه عثمان ص ١٤١ وما بعدها .

(١) ديوانه ٢٢١ .

(٢) مضت ترجمته ص ١٧٥ من هذا البحث .

(٣) ديوانه ص ١٧٢ تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م .

(٤) هو أبو جبيل عبد بن قيس بن خفاف البرجمي التميمي ، شاعر جاهلي حكيم ، أحد فرسان الجاهلية وشجعانها ، عاصر « حاتم طيء » وهجا « النعمان » ملك الحيرة وتحل هجاءه « النابغة الذبياني » إيغاراً لصدر الملك عليه .

انظر ترجمته في : معجم الشعراء ٣٢٥ ، والمفضليات ٣٨٣ ، والشعر والشعراء ١٦٥ ، ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ١٩٢ ومراجع ترجمته ثم .

[أوصيك إيصاء امرئ لك ناصح طين بريب الدهر غير مغفل
 الله فاتقه وأوف بنذره وإذا حلفت مमारيا فتحلل] (١)
 أما حكيم الجاهليين « زهير » فيقول في ممدوحه :
 ومن ضرييته التقوى ويعصمه من سيئ العثرات الله والرحم (٢)
 وبهذا المعنى قسم ابن القيم التقوى إلى ثلاث مراتب :
 [إحداها : حمية القلب والجوارح من الآثام والمحرمات .
 الثانية : حميتها عن المكروهات .
 الثالثة : الحمية عن الفضول وما لا يعني .
 فالأولى : تعطي العبدحياته .
 والثانية : تفيد صحته وقوته .
 والثالثة : تكسبه سروره وفرحه وبهجته] (٣) .
 فالتقوى وما يستتبعها من فضائل الأخلاق في الدنيا كالسفينة في
 بحر عميق يغرق فيه ناس كثير ، فمن ركبها نجا ومن لم يركبها غرق وهلك .
 نسأل الله السلامة .

(١) المفضليات ٣٨٤ ، والأصمعيات ٢٢٩ ، وطين : أي فطن وحاذق .

(٢) ديوانه ١٢٦ .

(٣) الفوائد ٤٧ ، ٤٨ .

الفصل الثالث

لغاية والهدف

غاية الدنيا وأهدافها

إن جميع التساؤلات التي تدور في ذهن الإنسان عن سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله ، قد فسرها وأجاب عليها القرآن الكريم ، فقال للإنسان : من هو ؟ ومن أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف ؟ ومن الذي جاء به من العدم والمجهول ؟ ومن ذا الذي يذهب به ؟ وما مصيره هناك ؟

وقال له : ما هذا الوجود الذي يحسّه ويراه ، والذي يحسّ أن وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه ؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار ؟ من ذا يدبّره ؟ ومن ذا يحوِّره ؟ ومن ذا يجدّد فيه ويغيّر على النحو الذي يراه ؟ وقال له كذلك : كيف يتعامل مع خالق هذا الكون ؟ ومع الكون أيضاً ؟ كما بيّن له : كيف يتعامل العباد مع العباد ؟ (١) .

وإذا فقد الإنسان معرفة الهدف فقد معنى حياته ذاتها فأصبحت مجرد عبث ولعب ولهو ، وشقاء وبلاء .

ولم يقصد القرآن الكريم ببيانه لهدف الدنيا وغايتها مجرد المعرفة

(١) انظر معالم في الطريق ٢١ لسيد قطب رحمه الله ، وغالب كتاباته وكتابات أخيه محمد قطب - جزاهما الله عن الاسلام خيرا - تصبّ في هذا المصّب ، إلا أن التعبير عن ((تفسير القرآن والاسلام للوجود بكلمة » التصرّو الاسلامي « التي ترد كثيراً في كتاباتهما ؛ يؤخذ عليهما وعلى من نحى منحاهما ، وكان الأفضل أن يقال مثلاً : « تصوير » أو « تفسير » أو « بيان » أو ما شابه ذلك ، لأن التصرّو لا يأتي إلا من عاجز عن إدراك حقائق الأشياء .

والثقافة فحسب ؛ ولكنه نهج حياة يقوم على أساسه جميع أوجه النشاط الإنساني^(١) .

وقد وجدتُ أن جميع أهداف وغايات الدنيا تنضوي تحت لواء هدفين رئيسين هما : الخلافة والابتلاء ، تفصح عنهما الآية الكريمة : (ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون)^(٢) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : [إن الدنيا خضرة حلوة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون]^(٣) .

فالشرط الأول من الآية والحديث يتحدث عن الخلافة ، والشرط الثاني يتحدث عن الابتلاء ؛ يقول تعالى : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)^(٤) فالحياة : استخلاف ، والعمل : ابتلاء .

(١) انظر قيم الحياة في القرآن الكريم ٣٦ (بتصرف) وقد تحدثت عن ماهية الوجود في القرآن الكريم من ٣٦ - ٥٠ . وانظر كذلك : منهج الحضارة الإسلامية في القرآن الكريم ٦٤-٩١ للبطي ، وفيه بحث نفيس في هذا الموضوع .

(٢) الآية ١٢٩ من سورة الأعراف .

(٣) سنن ابن ماجه ١٣٢٥/٢ حديث رقم ٤٠٠٠ ، والعجيب أن محقق السنن « محمد فؤاد عبد الباقي » يشرح كلمة « مستخلفين » الواردة في الحديث ، بقوله : « أي جاعلكم متفرقين » . وفي ما يأتي من البحث البيان الصحيح لمعناها .

(٤) الآية ٢ من سورة الملك .

أولاً - الخلافة في الأرض :

يقول الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)^(١)
هذه الآية هي الأصل في خلافة الإنسان في الأرض .

١ - المعنى اللغوي :

« خليفة » و « خلافة » مشتقتان من مادة « خلف » وهي مادة ثرية جداً أسهبت المعاجم اللغوية في الحديث عن معانيها المتشعبة ، ومن اشتقاقاتها مايلي^(٢) :

« خَلَفَ يَخْلُفُ وَيَخْلُفُ وَيَسْتَخْلِفُ خَلْفاً واستخلفاً وخليفة وخلافة وخلفي وخلفاء وخلائف ... الخ

ومن معاني هذه المادة واشتقاقاتها مايلي :

يقال : [خَلَفَ فلان مكان أبيه يَخْلُفُ خلافة : إذا كان في مكانه ولم يَصِرْ فيه غيره ، وَخَلَفَهُ رَبُّه في أهله وولده : أحسن الخلافة ، وَخَلَفَهُ في أهله وولده ومكانه يَخْلُفُهُ خلافة حسنة : كان خليفة عليهم منه ، يكون في الخير والشر ، ولذلك قيل : أوصى له بالخلافة]^(٣) [ومنه قوله عز وجل : (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي)^(٤) .

وَخَلَفْتَهُ : إذا جئت بعده]^(٥) ويقال : [خلفته خلافة : كنت خليفة]^(٦) .

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) انظر المعاجم اللغوية مادة « خلف » .

(٣) لسان العرب ٨٥/٩ ، وانظر العباب ١٦٨ ، وتهذيب اللغة ٤٠٢/٧ ، ٤٠٣ .

(٤) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

(٥) العباب ١٦٨ ، وانظر لسان العرب ٨٣/٩ .

(٦) المغرب ١٥٢ .

- ويقال : [خَلَفَ فلاناً واستخلف فلاناً : جعله خليفته ، قال الله تعالى :
(لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (١)] (٢) .
- [واستخلف فلان من فلان : جعله مكانه] (٣) .
- [ويقال : خَلَفْتُ فلاناً اخلفه تخليفاً ، واستخلفته : أي جعلته
خليفتي] (٤) .
- [وقد خَلَفَ فلان فلاناً يخلفه تخليفاً . وخلف بعده يخلف خلواً] (٥) .
- [قال ابن الزثير : الخلف - بالتحريك والسكون - كل من يجيء بعد
من مضى] (٦) قال الله تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) (٧) [أي :
هذا خلف من هذا ، يذهب هذا ويجيء هذا] (٨) و [يقال : خَلَفَ فلان على
فلانة خلافة : إذا تزوجها من بعد زوج] (٩) .
- [والخلف : ما استخلفته من شيء ، تقول : أعطاك الله خلفاً مما
ذهب لك] (١٠) .

(١) الآية ١٧٣ من سورة النور ، ويلاحظ أنه لم يستدل بقوله تعالى : (إني
جاعل في الأرض خليفة) الآية ٣٠ من سورة البقرة ، بالرغم من أن
مقتضى السياق يوجب الاستدلال بها ، وفيما يأتي من البحث محاولة
للفهم .

(٢) العباب ١٦٩ وشمس العلوم ٧٤/٢ وانظر لسان العرب ٨٣/٩ .

(٣) لسان العرب ٨٣/٩ .

(٤) تهذيب اللغة ٤١٣/٧ .

(٥)(٦) لسان العرب ٨٥/٩ .

(٧) الآية ٦٢ من سورة الفرقان .

(٨) لسان العرب ٨٥/٩ ، والعباب ١٦٣ .

(٩) تهذيب اللغة ٤١٣/٧ . (١٠) لسان العرب ٨٤/٩ .

[ويقال : بنس الخلفُ هم : أي البدل]^(١) .

[ويقال للرجل مات له بنى صغير قد يُبدل : أخلف الله لك]^(٢) قال

الأزهري : [معناه : كان الله خليفة من مضى عليك]^(٣) .

والخَلْفُ [في الأصل : مصدر سُمِّي به من يكون خليفة والجمعُ

اخلاف كما تقول : بدلُ وأبدالُ لأنه بمعناه]^(٤) .

ويذكر « ابن منظور » أن هناك من يقول : إن الخلف ليس

بمعنى البدل ، ثم يقول : [والصحيح قول ثعلب : أن الخلف بمعنى البدل

والخلافة]^(٥) .

[والخلفُ والخَلْفُ : ما جاء بعدُ ، ويقولون : هو خلفُ صدق من أبيه

، وخلفُ سوءٍ من أبيه فإذا لم يذكروا صدقاً ولا سوءاً قالوا للجيد وللرديّ

خَلْفٌ ، قال الله تعالى : (فخلف من بعدهم خلفٌ)^(٦)]^(٧) .

[وخلفُ للسوء لا غير]^(٨) وانفرد أبو عبيدة بقوله : [ويقال للصدق

أيضاً : خلفُ صدق]^(٩) وأجاز بعضهم التسكين والتحريك لكلا المعنيين^(١٠)

[قال الأخفش : الخلفُ والخَلْفُ سواء]^(١١) وفسر الفراء الخلف في قوله

(١) تهذيب اللغة ٤١٦/٧ . (٢) ذاته ٣٩٦/٧ .

(٣) ذاته ٣٩٦/٧ وانظر ٤٠٥/٧ .

(٤) لسان العرب ٨٨/٩ .

(٥) ذاته ٨٩/٩ - ٩٠ ، وانظر تهذيب اللغة ٤٠٠/٧ .

(٦) الآية ٥٩ من سورة مريم .

(٧) مقاييس اللغة ٢١٠/٢ . (٨) تهذيب اللغة ٣٩٣/٧ .

(٩) ذاته ٣٩٣/٧ . (١٠) ذاته ٣٩٣/٧ و ٤١٦/٧ .

(١١) العباب ١٦١ وانظر لسان العرب ٨٤-٨٥/٩ .

تعالى : (فخلف من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتاب)^(١) فقال : [قَرْنُ]^(٢) .
 [وقول الله عز وجل : (وإذاً لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً)^(٣) - ويُقرأ
 « خَلْفَكَ » معناهما : بعدك]^(٤) .

وخليفة : [فعيلة بمعنى فاعل أي : خالف ، وقال بعضهم : يجوز أن
 تكون فعيلة بمعنى مفعول أي : استخلفه غيره ، مثل : ذبيحة ، قال الله تعالى
 : (إني جاعل في الأرض خليفة)^(٥) أي : يخلف من كان من قبله من الملائكة
 في الأرض ، وقال ابن عباس : أي يخلف من قبله من الجن]^(٦) . [والخليفة
 الذي يخلف غيره]^(٧) و [الذي يُستخلف ممن قبله]^(٨) وهو [من يقوم مقام
 الذاهب ويسد مسدّه - والهاء فيه للمبالغة -]^(٩) .

وجمع خليفة خلائف - على اللفظ - مثل : كريمة وكرائم ، وظريفة
 وظرائف ، ويُجمع على خلفاء لمعنى التذكير لا على اللفظ مثل : ظريف
 وظرفاء ، وقال سييويه : خليفة وخلفاء : كسروه تكسير فعيل لأنه لا يكون إلا
 للمذكر^(١٠) .

وإذا أُطلق الخليفة فالمقصود به [السلطان الأعظم]^(١١) .

-
- (١) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف . (٢) تهذيب اللغة ٣٩٦/٧ .
 (٣) الآية ٧٦ من سورة الإسراء . (٤) تهذيب اللغة ٤٠٨/٧ .
 (٥) الآية ٣٠ من سورة البقرة .
 (٦) شمس العلوم ٦٩/٢ . (٧) ذاته ٦٩/٢ .
 (٨) لسان العرب ٨٣/٩ وتهذيب اللغة ٤٠٨/٧ .
 (٩) لسان العرب ٨٩/٩ .
 (١٠) انظر : تهذيب اللغة : ٤٠٨/٧ ، ولسان العرب ٨٩/٩ وانظر الخلاف في
 تذكيره وتأنيثه : العباب ١٦٨ والمفردات ١٥٦ ولسان العرب ٨٤/٩ .
 (١١) العباب ١٦٧ ولسان العرب ٨٤/٩ .

[ويقال : إنه لخليفة بين الخلافة والخليفة]^(١) .

[والخلافة : الإمارة]^(٢) [وإنما سميت خلافة لأن الثاني يجيء بعد الأول قائماً مقامه ، وتقول : قعدتُ خلف فلان ، أي : بعده]^(٣) .

[والخليفة : بالكسر والتشديد والقصر]^(٤) : [الخلافة]^(٥) ويقول الزبيدي : [الخليفة : مبالغة في الخلافة لا نفسها كما يتوهم من كلام الصحاح]^(٦) ويقول الصَّغاني في قول عمر رضي الله عنه : [لو أطيق الأذان مع الخليفة لأذنت]^(٧) : [هذا النوع من المصادر يدل على معنى : الكثرة]^(٨) .

[وقيل : في قول أبي بكر رضي الله عنه ، وقد جاءه أعرابي فقال : أنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا ، قال : فما أنت ؟ قال : أنا الخالفة]^(٩) بعده ، أراد تصغير شأن نفسه وتوضيعها ولما كان سؤاله عن

(١) لسان العرب ٨٤/٩ ، وتهذيب اللغة ٤١٣/٧ .

(٢) لسان العرب ٨٤/٩ .

(٣) ذاته ٨٤/٩ .

(٤) لسان العرب ٨٤/٩ .

(٥) مقاييس اللغة ٢١٠/٢ ، والعياب ١٦٦ ، ولسان العرب ٨٤/٩ .

(٦) تاج العروس ٩٨/٦ .

(٧) ورد قوله هذا - رضي الله عنه - في المعاجم باختلاف يسير ، انظر مثلاً :

لسان العرب ٨٤/٩ ، والعياب ١٦٦ ، وتهذيب اللغة ٤١٣/٧ .

(٨) العياب ١٦٦ .

(٩) الخالفة : هو الذي لا غناء عنده ولا خير فيه ، انظر لسان العرب ٨٩/٩ ،

والخالفة : الأمة الباقية بعد الأمة السابقة ، ولعل هذا هو المعنى الذي

قصده أبو بكر رضي الله عنه لصفته لا لذاته .

الصفة دون الذات ، قال : فما أنت ؟ ولم يقل : فمن أنت ؟ [(١)] .

[وقال الفراء في قول الله تعالى : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) (٢) قال : جُعِلَتْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم خلائف كل الأمم ، وقال الزجاج نحوه ، قال : وقيل : « خلائف الأرض » : أي يخلف بعضكم بعضاً] (٣) .

وقال الزجاج : [جاز أن يقال للأئمة : خلفاء الله في أرضه بقوله عز وجل : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) (٤)] (٥) .
ويوجز المعنى « ابن منظور » فيقول : [فقد صار على هذا للفعل معنيان :

- خلفته خَلَفًا : كنتُ بعده خَلَفًا منه وبدلاً .

- وخَلَفْتَهُ خَلَفًا : جئتُ بعده .

واسم الفاعل من الأول : خليفة وخليف (٦) ، ومن الثاني : خالفة ، وخالف ، ومنه قوله تعالى : (فاقعدوا مع الخالفين) (٧) .

(١) القصة بخلاف يسير في : العباب ١٦٥ ، ولسان العرب ٨٩/٩ وانظر الفائق ٣٩٣/١ أما الاعتذار عن أبي بكر رضي الله عنه بأنه أراد توضيح شأن نفسه ... الخ فلا محلّ له هنا لأنه أراد صفته لا ذاته ، والدليل أن القصة وردت بطريقة أخرى : إذ قال له رجل : أنت خليفة الله ؟ قال : لا ، أنا خليفة رسول الله وحسبي ذلك ... (بتصرف) وانظر القصة بتمامها في : القرطبي ٣٥٥/١٤ .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام . (٣) تهذيب اللغة ٤٠٧/٧ .

(٤) الآية ٢٦ من سورة ص . (٥) لسان العرب ٨٤/٩ .

(٦) انظر الهامش رقم (٩) في الصفحة السابقة .

(٧) الآية ٨٣ من سورة التوبة .

وقد صحَّ الفرق بينهما على ما بيَّناه .

وهو من أبيه خَلَفَ : أي بدل ، والبدل من كل شيءٍ : خَلَفُ منه [(١)] .

أما « ابن دريد » فيقول : [الخاء واللام والألف : أصول ثلاثة :

أحدها : أن يجيء شيء بعد شيء أو يقوم مقامه .

الثاني : خلاف قَدَام ، الثالث : التغيُّر [(٢)] .

٢ - المفهوم :

تعددت المفاهيم حول « خلافة الإنسان في الأرض » ويمكن حصرها إجمالاً في ثلاثة اتجاهات هي :

أولاً - خلافة الإنسان « لله » أو « عن الله » في الأرض .

وأصحاب هذا الاتجاه في المفهوم لهم أدلة وحجج سأوجزها فيما يلي :

أ - يقولون : إن الإنسان أكرم خلق الله على الله وبذلك استحق الخلافة عنه وعمدتهم في ذلك تعريف الراغب الأصفهاني للخلافة بقوله :

[الخلافة : النيابة عن الغير إما الغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أوليائه في الأرض ، قال تعالى : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) (٣) [(٤)] .

وكذلك قول البيضاوي في تفسيره :

(١) لسان العرب ٩/٩٠ . (٢) مقاييس اللغة ٢/٢١٠ .

(٣) الآية ٣٩ من سورة فاطر . (٤) المفردات ١٥٦ .

[والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه - والهاء فيه للمبالغة - والمراد آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في الأرض وكذلك كل نبي]^(١) ويعمل خلافة الأنبياء عن الله فيقول : [لا حاجة به تعالى إلى من ينوبه ، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيوضه ، وتلقى أوامره بغير واسطة]^(٢) إلى آخر الحجج الفلسفية والمنطقية التي أوردها .

ب - استدلوا بأقوال كبار المفسرين في قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)^(٣) ومنهم القرطبي إذ يقول :

والمعني بالخليفة هنا - في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل - آدم عليه السلام - وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أول رسول إلى الأرض]^(٤) .

وابن جرير يفسرها بقوله:

[فكان تأويل الآية على هذا « إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه ، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حق فمن غير خلفائه]^(٥) .

(١) انظر تفسير البيضاوي ٢٣/١ - ٢٤ المسمى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،

دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، د . ط .

(٢) ذاته ٢٣/١ - ٢٤ .

(٣) الآية ٣ من سورة البقرة . (٤) القرطبي ٢٦٣/١ .

(٥) تفسير الطبري ٤٥٠/١ - ٤٥١ جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر

محمد بن جرير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ،

دار المعارف بمصر ، د . ط . ، د . ت . ، ونقله عنه ابن كثير في ٧٠/١ - ٧١ .

ج - واستدلوا بالحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده وفيه:
[إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها
خليفة الله المهدي]^(١).

وكذلك الحديث الذي في البخاري ومسلم : [ما بعث الله من نبي ولا
استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ،
وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه]^(٢) ... الحديث .

وحديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وفيه :

[فإن كان لله يومئذ في الأرض خليفة جلد ظهرك وأخذ ملك فالزمه ،
وإلا فمت وأنت عاضاً على جذل شجرة]^(٣) .

د - واعتمدوا على استنتاجات اللغويين في معرض شرحهم لمادة «
خلف » ومشتقاتها ، ومن ذلك مثلاً قول الزجاج : [جاز أن يقال للأئمة خلفاء
الله في أرضه لقوله عز وجل : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض)^(٤)]^(٥) .

ومن ذلك إيراد صاحب «المصباح المنير» قول بعضهم : [ولا يُقال خليفة
الله بالإضافة إلا لأدم وداود ولورود النص بذلك]^(٦) ويعلق عليه بقوله : [وقيل
يجوز - وهو القياس - لأن الله تعالى جعله خليفة كما جعله سلطاناً ، وقد سُمِعَ
: سلطان الله ، وجنود الله ، وخيل الله ، بالإضافة تكون بأدنى ملابسنة وعدم
السماع لا يقتضي عدم الاطراد مع وجود القياس ، ولأنه نكرة تدخله اللام

(١) الفتح الرباني ٥١/٢٤ لترتيب سند الامام أحمد بن حنبل الشيباني ،

تأليف أحمد عبد الرحمن البنا ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،

د . ت . وانظر ابن ماجة في الفتن ١٣٦٧/٢ وحديث رقم ٤٠٨٤ .

(٢) البخاري ١٣٨/٩ . (٣) الفتح الرباني ٢٥/٢٤ .

(٤) الآية ٢٦ من سورة ص (٥) لسان العرب ٨٤/٩ .

(٦) المصباح المنير مادة « خلف » ص ٢١٣ . (٧) ذاته ٢١٣ .

للتعريف فيدخله ما يعاقبها وهو الإضافة كسائر أسماء الأجناس^(٧).

وكذلك ما ذكره الثعالبي من أن العرب تضيف بعض الأشياء إلى الله تعالى فتقول : بيت الله ، وظلّ الله ، وناقة الله ... الخ^(١) .

وهناك أدلة وحجج كثيرة تعتمد على العقل والمنطق والفلسفة والجدل ولا يتسع المجال لسردها هنا وما ذكرته يكفي .

ثانياً - المعارضون لمقولة « خلافة الإنسان لله »

أو « عن الله » .

وأدلة القائلين ببطلان هذه المقولة كثيرة جداً ، أوجزها في النقاط التالية^(٢):

١ - إن الاستخلاف يتضمن معنى تفويض المستخلف لخليفته فيما هو من خصائصه .

٢ - إن التفويض إعطاء حق التصرف دون محاسبة ولا جزاء .

٣ - إن الاستخلاف تفويض في العمل والتصرفات ، وهو يتضمن معنى إباحة كل تصرف وعمل يصدر عن الإنسان وهذا لا يقبل به إنسان نو فكر فضلاً عن مؤمن بالله مسلّم له .

(١) انظر فقه اللغة ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٢) اعتمدت في هذه الجزئية من البحث - إلى حد كبير - على كتيب للدكتور « عبدالرحمن حبيكة » الميداني « لا يصح أن يُقال : الإنسان خليفة عن الله في أرضه ، فهي مقولة باطلة » نشر مكتبة إحياء التراث الاسلامي ، مكة المكرمة ١٤١١ هـ . د . ط . ، والكتيب رغم صغر حجمه مفيد جداً في بابه .

وانظر مثلاً : منهاج السنة ٩٤ - ٩٥ ، وشرح المقاصد ١٣٣/٢ ، والاتحاف ، شرح الإحياء ٥٦/٢ ، والكشاف الفريد ٤٣/٢ وما بعدها ، تأليف خالد محمد علي الحاج ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ مطبعة قطر .

- ٤ - إن كل شيء ملك لله تعالى وتحت تصرفه . فأين الخلافة إذن ؟
- ٥ - إن مفهوم الخليفة بهذا أعلى شأنًا من مفهوم النبي ومن مفهوم الرسول .
- ٦ - إن معنى التوكيل والإنابة في الخلافة يعطي حق التصرف فيما جُعلَ وكيلا عليه من قبل صاحب الحق ، والله يخبرنا انه على كل شيء وكيل .
- ٧ - إن التسخير ليس توكيلاً ولا تفويضاً ولا خلافةً عن الله .
- ٨ - إن الخليفة يستدعي غياب المستخلف أو موته أو غير ذلك مما يتنزه عنه الله تعالى .
- ٩ - إن فكرة الخلافة عن الله بدعة محدثة لم يقل بها أحد من السلف الصالح وليس لها سند من نص شرعي .
- ١٠ - إنها مزلقٌ خطيرٌ لفكرة : أن المؤهلين مادياً وحضارياً خلفاء لله ولو كانوا كافرين ، كما فعل ميرزا غلام أحمد القادياني في الهند مع الانكليز ، واحتجاه بالحجة ذاتها .
- ١١ - إن الملائكة الكرام لا يمكن أن يفهموا هذا المعنى ثم يقولون : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) (١) .
- ١٢ - إن آيات الوكالة والاستخلاف لا تدلّ على هذا المفهوم (٢) .

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) انظر في الوكالة مثلاً الآيات : ١٠٢، ١٠٧ من سورة الأنعام و ١٠٨ من سورة يونس و ١٢ من سورة هود و ٤١، ٦٢ من سورة الزمر ، و ٦ من سورة الشورى .

وانظر في الاستخلاف مثلاً : ١٣٣، ١٦٥ من سورة الأنعام و ٦٩، ٧٤، ١٢٩ من سورة الأعراف ، و ١٣، ١٤، ٧٣ من سورة يونس ، و ٥٧ من سورة هود ، و ٥٥، ٥٦، ٥٧ من سورة النور ، و ٦٢ من سورة النمل ، و ٣٩ من سورة فاطر ، و ٢٦ من سورة ص ، و ٧ من سورة الحديد .

١٣ - تشنيع علماء السلف والمدافعين عن العقيدة الصحيحة على القائلين بها ، واعتبارها شركاً وجهلاً وضلالاً ، ونسبوها إلى طائفة من الاتحادية وغيرهم .

والحقيقة أن الكلام في هذه المسألة إذا أطلق له العنان قد يستغرق كتاباً بذاته ، ولكنني أفصح عن رأيي وأوافق من يقولون بخطأ مقولة « خلافة الإنسان عن الله في الأرض » وهذه المقولة اتخذت ثلاث صيغ :

الأولى : إن الإنسان خليفة لله .

الثانية : إن الإنسان خليفة الله .

الثالثة : إن الإنسان خليفة عن الله .

وقد وردت الصيغة الأولى في حديثين أو ثلاثة طعن فيها علماء السلف^(١) ، وحتى لو لم يطعنوا فإنها لا تحتل معنى النيابة والوكالة والتفويض ، وإنما المعنى القريب والمتبادر والأسلم هو : إن خلافة الإنسان لمن سبقوه من الخلائق ملائكة أو جنأ أو غيرهم^(٢) خالصة في توجيهها لله^(٣).

(١) انظر مثلاً كتاب « المنار المنيف في الصحيح والضعيف » تأليف :

ناصر السنة الإمام « ابن قيم الجوزية » تحقيق محمود مهدي استانبولي

، د . ن . د . د . ط . د . د . ت . . الصفحة : ١٤٦ ، الحديث رقم ٣٤٠ .

(٢) روي عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم أن الملائكة أو الجن أو

مخلوقات أخرى سكنت الأرض قبل الإنسان مثل خلفها الإنسان ، انظر

مثلاً التفاسير التالية : القرطبي ١/٢٦٣ ، وابن كثير ١/٧٠ ، وابن جرير

١/٤٥٠ - ٤٥١ .

(٣) على شاكلة قوله تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب

العالمين لا شريك له) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

وكذلك الصيغة الثانية قل فيها مثل الأولى ، وزد أن الإضافة هنا (خليفة الله) إضافة مفعول إلى فاعل ، أي : أن الإنسان خليفة لمن سبقه ويخلفه من بعده^(١) ، وذلك كله بمشيئة الله وإرادته فهو الذي قدر ذلك وأراده .

وتقريباً للمعنى إلى الأذهان، نقول مثلاً ، قديسأل سائل : من الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض للخلائق قبله ويخلفه من بعده ؟ فيكون الجواب : الله ، فإذاً هو : خليفة الله .

وهناك تخريج آخر للصيغتين هو : أن خليفة إذا كان بمعنى مفعول مثل : ذبيحة ، فإن الإشكال يزولُ حتماً ، وإذا كان بمعنى فاعل ، فالصحيح في معناه أنه خَلَفَ من قبله ، ويخلفُ - بكسر اللام مع التشديد - من بعده ، وكلا المعنيين حقٌ وصدقٌ في الإنسان فهو إما خالف في حياته أو مخلوف بعد مماته .

أضف إلى ذلك قراءة زيد بن علي رضي الله عنه (إني جاعل في الأرض خليفة)^(٢) بالqاف .

أما الصيغة الثالثة وهي : « إن الإنسان خليفة عن الله » فلم ترد بالمفهوم الذي ذهبوا إليه في نصٍّ صحيح صريح لا في الكتاب العزيز ولا في السنة المطهرة ، ولم يقل بها أحد من الصحابة أو التابعين أو السلف الصالح مطلقاً ، اللهم إلا في كتب الملحدين من أصحاب الطولية والاتحاد مثل كتاب : « الفتوحات المكية »^(٣) لابن عربي ، ومن هم على

(١) باعتبار المعنى في صيغة (خليفة) إذا كانت بمعنى مفعول أو فاعل .

(٢) الآية ٣٠ من سورة النساء وانظر القراءة في القرطبي ٢٦٣/١ .

(٣) كتاب مطبوع في عشر مجلدات ، و « ابن عربي » فيلسوف ملحد ، يقول عنه الذهبي « قدوة القائلين بوحدة الوجود » افتى علماء الإسلام بكفره وزندقته وإلحاده وعمل بعضهم على إراقه دمه كما أريق دم « الحلاج » . انظر ترجمته ومراجعها في سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣ ، والأعلام ٢٨١/٦ .

شاكلته في الضلال والكفر .

والعجب العجيب أن هذه المقولة تتردد كثيراً في ثنايا كتابات (الإسلاميين) في العصر الحديث وبالغوا فيها حتى قال قائلهم إنها [هي ركن الزاوية في العقيدة الإسلامية]^(١) .

وعن غير قصد مني أجد بين يدي الآن خمسة كتبٍ نحت هذا المنحى في حديثها عن « خلافة الإنسان في الأرض » وهي :

١ - « الخلافة في الأرض »^(٢) للدكتور : أحمد حسن فرحات ،
أدرجه ضمن البحوث القرآنية ، وعده لوناً من التفسير الموضوعي .
٢ - « استخلاف الإنسان في الأرض »^(٣) للدكتور : فاروق أحمد
دسوقي .

٣ - « نظام الحياة في الإسلام »^(٤) للشيخ : أبي الأعلى المودودي .
٤ - « دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني »^(٥)
للدكتور : أحمد جمال العمري .

٥ - « معالم الانطلاقة الكبرى »^(٦) لمحمد عبد الهادي المصري .
ولك أن تتخذ منها مثلاً لسائر الكتابات المشابهة .

(١) الإنسان في القرآن الكريم ص ٥٣ لعابد طيشات ، الدار الوطنية ، الرياض ، د . ط . د . ت .

(٢) دار الأرقم ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

(٣) دار الدعوة ، الاسكندرية ، د . ط . د . ت .

(٤) الدار السعودية للنشر والتوزيع ، طبعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

(٥) مكتبة الخانجي ، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

(٦) دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

وقد جعلوا من هذه الفكرة وهذا المفهوم مسلّمة من المسلّمات وأصلاً أصيلاً من أصول الإيمان لا يقبل مجرد الحوار أو النقاش .

وقد حاولتُ جهدي أن أعثر على نصٍّ من الكتاب أو السنة أو أثر من آثار الصحابة أو التابعين يكون لهم سنداً فيما ذهبوا إليه ، ولكني للأسف لم أجد إلا احتجاجاً بآراء اللغويين كالزجاج مثلاً^(١) ، أو بعض الآراء المعلولة للبيضاوي ، وابن جرير ، والقرطبي ، أو بأحاديث مطعون فيها أو لا يفهم منها ما فهموه .

والعجب لا ينتهي فجميع أدلتهم العقلية والنقلية الواهية لم يرد فيها على الإطلاق « خلافة الإنسان عن الله » وإنما وردت الصيغتان السابقتان « خليفة الله » و « خليفة لله » .

وقد بلغت الجرأة على الله - ثم على خلقه من المفسرين - أن يقول أحدهم بكل وقاحة : [ويرى فريق من المفسرين أن الخلافة في الآية^(٢) خلافة عن الله]^(٣) سبحانك هذا بهتان عظيم ، ولم أجد مطلقاً أحداً من المفسرين قال بهذا ، أو بهذه الصيغة عينها ، فأين هي أمانة البحث العلمي ؟ !

وتحت عنوان بارز هو : « خلافة عن الله »^(٤) يسرد أدلتهم ومثله ويحاول ويناور ويشرق ويغرب ويرد على علماء السلف ، ولم يستطع أن يأتي بدليل لهذه الصيغة . ولكنه التعصب المقيت وعبادة الهوى .

ويدعي أن أبا بكر رضي الله عنه كان متواضعاً حينما أبى أن يُقال له خليفة الله ، وخليفة رسول الله ؟ !

(١) في الصفحات ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦ من هذا البحث سردت أدلتهم وحججهم .

(٢) يقصد قوله تعالى : (إني جاعل في الأرض خليفة) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٣) الخلافة في الأرض ١٢ . (٤) ذاته ص ١٢ - ١٥ .

وإني أتساءل إلى أين كان سيبلغ تواضعه رضي الله عنه لو قيل له :
خليفة عن الله ؟ !!!

وأجد نفسي مضطراً للإيجاز الشديد الذي يصل إلى حد الإخلال في
الردّ على فكرة « خلافة الإنسان لله » أو « عن الله » من خلال النقاط التالية :
- إن « الخلافة في الأرض » فيها معنى النيابة والبديل عن الله سبحانه
وتعالى وذلك لا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى المنزه عن الندّ والكفو والنظير
والشريك ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

- من معاني « الخلافة » مجيء قوم إثر قوم ، وذلك هو المعنى
الصحيح في « خلافة الإنسان في الأرض » يدلّ عليه قوله تعالى : (إن يشأ
يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) (١) ،
وقوله تعالى : (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض) (٢) ،
وقوله تعالى : (فخلف من بعدهم خلف) (٣) .

وهذه الإشراقة القرآنية تميل إلى معنى « الخلافة في الأرض » وأنها
لخلق سبقوا ، سواءً أكانوا جنّاً أم ملائكة أم خلقاً آخرين .

فما معنى الإصرار على أن الإنسان « خليفة عن الله » بعد هذه
الشواهد ؟ لا شيء اللهم إلا أن الله لم يقدر حق قدره جلّ في علاه أن يتخذ
من عباده خلفاء عنه .

- إن القول بتشريف « الإنسان » بخلافته « عن الله » محض هراء ،

(١) الآية ١٣٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٢٩ من سورة الأنعام .

(٣) جزء من الايتين ١٦٩ من سورة الأعراف و ٥٩ من سورة مريم . وانظر

الآيات ٦٩ - ٧٤ من سورة الأعراف .

فالإنسان مكلف بالخلافة في الأرض لا مشرف ، وهي أمانة عظيمة يحاسب ويُعاقبُ على التهاون فيها أشدَّ العذاب والعقاب ، فأين التشريف إذن ؟ !

- إن القرآن الكريم يصفُ الإنسان بأنه : ظلوم^(١) ، كفور^(٢) ، جهول^(٣) ، كنود^(٤) ، قنوط^(٥) ، يؤوس قنوط^(٦) ، ضعيف^(٧) ... الخ فهل هذه هي مؤهلات الخلافة « عن الله » ؟ !

- إن القول « بتكريم » الإنسان و « تشريفه » بالخلافة « عن الله » يجعل « بني إسرائيل » هم أحق أهل الأرض قاطبة بها ، ألم يقل الله تعالى عنهم : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين)^(٨) .

- إن لفظ « جعل » واشتقاقاته المقترن دائماً بلفظ « خلف » واشتقاقاته في القرآن الكريم و « جعل » [لفظ عام في الأفعال كلّها وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها]^(٩) .

(١) انظر الآية ٣٤ من سورة إبراهيم والآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٢) انظر الآية ٣٤ من سورة إبراهيم والآية ٦٧ من سورة الإسراء ، والآية ١٥

من سورة الزخرف والآية ١٧ من سورة عبس .

(٣) انظر الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٤) انظر الآية ٦ من سورة العاديات .

(٥) انظر الآية ١٠٠ من سورة الإسراء .

(٦) انظر الآية ٩ من سورة هود .

(٧) انظر الآية ٢٨ من سورة النساء .

(٨) الآية ١٦ من سورة الجاثية .

(٩) المفردات ٩٤ .

وهذا الاقتران يُوحى بأن الأمر لا خيار فيه ولا مشيئة ، وذلك أكبر النواقض للخلافة « عن الله » لأن الخلافة بهذا المفهوم إرادة واختيار .

- في قراءة « زيد بن علي »^(١) : (إني جاعل في الأرض خليفة)^(٢) بالقف .

- المعنى واحد في جميع آيات الخلافة والاستخلاف وتخصيص آية بعينها بمعنى خاص بذاته يحتاج إلى دليل ، ولا دليل .

- وأخيراً ... إن موضوعاً حساساً وخطيراً كهذا له مساس بالعقيدة الإيمانية يجب التوقف فيه على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، وصحابته ، والسلف الصالح ، وعدم الخوض فيه بدعوى أنه ركن الزاوية في العقيدة الإسلامية ، وعدم الخلط والخبط فيه خبط عشواء كما فعل أستاذ (العقيدة) الدكتور « فاروق دسوقي »^(٣) ، وذلك يدين كل من فقد المنهج وشط عن طريق السلف والعقيدة الصحيحة .

(١) هو « زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » كان يُقال له : زيد الشهيد ، عده الجاحظ من خطباء بني هاشم ، ومدحه أبو حنيفة ، اقتبس الاعتزال من واصل بن عطاء بالكوفة وبها قُتل لما خرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ ، واختُلف في مصير رأسه بعد قتله .
انظر ترجمته في : مقاتل الطالبين ١٢٧ ، ونسب قريش ٦٠ - ٥٦٣ ، والفرق بين الفرق ٢٢ و امرأة الجنان ٢٨٣ ، والبيان والتبيين ٣٠٩/١ - ٣١١ والأعلام ٥٩/٣ .

(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٣) في كتابه « استخلاف الإنسان في الأرض » .

ثالثاً : خصوصية الخلافة في الأرض وعموميتها :

وبمعنى آخر : هل الخلافة خاصة بشخص معين بذاته ؟ أم هي عامة لكل البشر ؟ ! .

وهل هي خاصة بالمؤمنين ؟ أم تشمل المؤمن والكافر ؟

هذه التساؤلات وغيرها جوابها في ما يأتي من حديث عن : الخلافة في الأرض ، مفهومها ، وحقيقتها ، وهدفها وغايتها .

٣ - مفهومها ، حقيقتها ، هدفها وغايتها في القرآن الكريم

في قول الله تعالى لأدم عليه السلام وزوجه : (ولا تقربا هذه الشجرة)^(١) [إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم لأن المخلد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا ينهى ، والدليل على هذا قوله تعالى : (إني جاعل في الأرض خليفة)^(٢) فدلّ على خروجه منها]^(٣).

وهبط آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض وكانت الخلافة فيها .

أ - مفهوم الخلافة في الأرض :

والوصول إلى مفهوم محدد واضح للخلافة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي :

١ - خلافة خلق لخلق :

وأعني به خلافة خلق من جنس ونوع مختلف لخلق من جنس ونوع آخر ، كخلافة الانسان للجنّ أو الملائكة .

٢ - خلافة قوم لقوم :

أو خلافة أمة لأمة ، كخلافة قوم هود لقوم نوح وخلافة قوم صالح لقوم هود ... وهكذا^(٤) . وكخلافة المسلمين للكفار ، قال تعالى :

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة البقرة والآية ١٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٣) القرطبي ٣٠٤/١ .

(٤) انظر مثلاً الآيات ٦٨ - ٧٤ من سورة الأعراف والآية ٥٧ من سورة هود .

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) (١) .

٣ - خلافة فرد لفرد :

وذلك كخلافة داود عليه السلام ، قال تعالى : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) (٢) . فالخلافة هنا للحكم أي خليفه لمن سبقه في الحكم . ويرى القائلون بخلافة الإنسان « عن الله » أن الخلافة بهذا المفهوم نوعان :

النوع الأول : خلافة خاصة :

ويقصدون بها تخصيص كل من آدم وداود عليهما السلام بالخلافة في الأرض في قوله تعالى عن آدم عليه السلام : (إني جاعل في الأرض خليفة) (٣) وعن داود عليه السلام : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) (٤) . وأرى - والله أعلم - أن خلافة آدم عليه السلام خلافة عامة لا خاصة ذلك أنه خليفة لخلق آخر يشاركه في ذلك ذريته ، ثم إن « خليفة » نكرة تقتضي العموم إذا لم يوجد ما يخصها ، ولا تخصيص . أما خلافة داود عليه السلام فهي خلافة حكم ودين .

النوع الثاني : خلافة عامة :

ويرى بعضهم أن جميع البشر برّهم وفاجرهم مسلمهم وكافرهم يشملهم معنى الخلافة فمنهم من قام بها ومنهم من لم يقم بها ولكن مسئولية الخلافة لا تنفك عنهم .

(١) الآية ٥٥ من سورة النور . (٢) الآية ٢٦ من سورة ص

(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة . (٤) الآية ٢٦ من سورة ص

ويرى آخرون أن الخلافة العامة إنما هي للمؤمنين بالله ورسالاته وهم المعنيون بها دون غيرهم . وذلك المفهوم الخاطيء - وأعني به خلافة الإنسان عن الله - أوقعهم في هذا الاختلاف والتخبط .

وعندي - والله أعلم - وكما فهمته من سياق الآيات القرآنية أن الخلافة الخاصة هي : خلافة الدين ، والوفاء بعهد الله وميثاقه ، وعبادته وحده لا شريك له ، قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(١) وسيأتي مزيد تفصيل في ذلك إن شاء الله .

أما الخلافة العامة فهي : خلافة سكنى الأرض ، وهي تشمل كل إنسان ، قال تعالى : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض)^(٢) .

وسبق أن عرفنا أن مادة « خلف » اللغوية تنحصر معانيها العامة في التالي :

- النيابة والبدل .
- الخلف التالي للمتقدم .
- خلاف قدام .
- التغير .

وكل هذه المعاني تصدق على « خلافة الإنسان في الأرض » :

فالنيابة والبدل : لها صور وأشكال كثيرة ، فمثلاً قول موسى

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات وخلافة قوم هود لقوم نوح وقوم صالح لقوم هود من هذا الباب .

(٢) الآية ٣٩ من سورة فاطر وانظر ص ١٢١، ١٣٢ من هذا البحث ، في الحديث عن الأرض والإنسان .

لهارون عليهما السلام : (اخلفني في قومي)^(١) من باب النيابة والبدل ، وكذلك لما قيل لأبي بكر رضي الله عنه : [يا خليفة الله ، فقال : لستُ بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله]^(٢) صلى الله عليه وسلم ، وقيام الابن مكان أبيه في غيابه ، ووكيل الأمير كذلك ، وغيرهما ... فكلها أحوالٌ - بهذا المعنى - تصدق في حق الإنسان مع الإنسان ، ولكنها أبداً لا تجوز للإنسان مع الله تعالى .

وأما **الخلف التالي للمتقدم** : فمن أمثلة ذلك خلافة الإنسان في الأرض لمن سبقه وتقدم في سكناها قبله ، وكذلك خلافة الأمم للأمم ، (خلائف في الأرض)^(٣) و (خلائف الأرض)^(٤) ، أي [خلفاً من بعد خلف وقرنا بعد قرن]^(٥) .

ويتضح هذا المعنى في الوراثة ، سواءً كانت وراثة أمة لأمة كما في قوله تعالى : (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم)^(٦) ، أو وراثة فرد لفرد كما في قوله تعالى : (وورث سليمان داود)^(٧) أو جماعة لجماعة كما في قوله تعالى : (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)^(٨) يقول المفسرون : [« مستخلفين فيه » : بوراثكم إياه عمّن كان قبلكم]^(٩) .

(١) جزء الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

(٢) انظر القرطبي ٣٥٥/١٤ .

(٣) جزء الآية ٣٩ من سورة فاطر .

(٤) جزء الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .

(٥) انظر القرطبي ٣٥٥/١٤ .

(٦) الآية ١٠٠ من سورة الأعراف وانظر في هذا المعنى الآيات ١٢٨ ، ١٣٧ من سورة الأعراف و ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية ١٦ من سورة النمل وجميع آيات المواريث الفرضية في هذا المعنى ، انظر أوائل وأواخر سورة النساء .

(٨) الآية ٧ من سورة الحديد . (٩) انظر القرطبي ٢٣٨/٧ .

وهكذا فالولادة والتناسل والموت دائرة مغلقة دائمة الدوران تحقق معنى : (خلفاء الأرض)^(١) . فرداً بعد فرد وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة وخلقاً بعد خلق .

أما **خلاف قدام** : فالمعنى واضح وكذلك **التغيير** : قال تعالى « ويستخلفُ ربِّي قوماً غيركم »^(٢) .

وهكذا وبعد هذا السرد الموجز لأقسام وأنواع ومعاني الخلافة يتضح المفهوم الصحيح لها بعيداً عن الفكرة الخطيرة والمفهوم الخاطيء لفكرة « خلافة الإنسان عن الله » .

ب - حقيقة الخلافة في الأرض :

ليست الخلافة في الأرض خلفاً للجن وحسب ، وإنما حقيقتها تتمثل في التالي :

١ - أن الانسان مخلوق ابتداءً ليسكنها ، قال تعالى : (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)^(٣) ، وأما الجنة فقد كانت مرحلة إعدادٍ وتهئية لسكنى الأرض ليكون للإنسان سابق تجربة مع عدوه الأزلي « الشيطان » .

٢ - أن خلافة الانسان في الأرض ينضوي تحتها أنواع أخرى من الخلافة هي :

(١) جزء الآية ٦٢ من سورة النمل .

(٢) الآية ٥٧ من سورة هود وانظر مثلاً الآية ٣٨ من سورة محمد ، والآية ٣٩ من سورة التوبة وانظر حديث « خلوف فم الصائم » بتمامه في صحيح البخاري ٥٨/٣ ، ٦٢ .

(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

النوع الأول - خلافة الأماكن :

كما في قوله تعالى: (ولنسكننكم الأرض من بعدهم)^(١) ، وقوله تعالى :
(عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون)^(٢) .

النوع الثاني - خلافة الأعراض والأموال :

فمنه قوله تعالى : (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)^(٣) أي :
[بوراثةكم إياه ممن كان قبلكم ، وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في
الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها
بإقامة الحق قبل أن تُزال عنكم إلى غيركم]^(٤) .

النوع الثالث - خلافة النسب :

يقول تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما
أنشأكم من ذرية قوم آخرين)^(٥) .

ففي التكاثر والتناسل^(٦) ومجيء الخلف بعد الخلف حفظ لخلافة
الإنسان في الأرض واستمرار لها ، وفيه معنى أصيل من معاني الخلافة .

النوع الرابع - خلافة الدين :

وذلك يدخل ضمناً في إهلاك الله لقوم كافرين واستخلاف قوم صالحين
ولعل تسمية من يقوم بالنيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة
الدنيا بـ « الخليفة »^(٧) من هذا القبيل .

(١) الآية ١٤ من سورة إبراهيم . (٢) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٧ من سورة الحديد . (٤) القرطبي ١٧/٢٣٨ .

(٥) الآية ١٣٣ من سورة الأنعام .

(٦) انظر ص ١٩٣ من هذا البحث .

(٧) انظر مثلاً معنى « الخليفة » الديني في مقدمة « ابن خلدون » ص ٢١٨ .

٣ - أن الخلافة تكليف من الله سبحانه وتعالى للإنسان الذي يشرفُ
بقدر اتباعه لمنهج الله سبحانه وتعالى فيها .

٤ - ان الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان ما يراه من مخلوقات في
السموات والأرض وما لا يراه مما هو في علمه جل وعلا ، وجعل يده
مبسوطةً ، وزوّده بما يتناسب ودوره في هذا الكون وأنعم عليه بالعقل^(١)
أكرم خلق الله على الله ، وآتاه من وسائل التفكير والتدبر والمقارنة والاستنباط ،
ومنحه الحواس الظاهرة والخفية ، وخلق في أحسن صورة وأتمها^(٢) ، وأرسل
الرسل وأنزل الكتب^(٣) ، كل ذلك ليقوم بواجبات الخلافة في الأرض .

٥ - ان الخلافة في الأرض محدودة ، تبدأ بهبوط آدم عليه السلام
من الجنة وتنتهي بموت آخر إنسان على وجه الأرض قبل قيام الساعة ، وقد
أوتي كل إنسان فترة من الزمن للخلافة وهي حياته المحصورة بين ميلاده
ووفاته^(٤) .

٦ - أن الأرض هي محلّ الخلافة إلى حين .

٧ - ان الله سبحانه وتعالى كما حدّد للخلافة وقتاً معيناً ، فقد حدّد
لها أهدافاً وغايات عظيمة .

(١) انظر ص ٢١٩ من هذا البحث .

(٢) انظر ص ١٣٢ من هذا البحث .

(٣) انظر ص ٢١٨ من هذا البحث .

(٤) انظر ص ١٠١ وما بعدها من هذا البحث .

ج - أهداف الخلافة وغاياتها :

ان الله سبحانه وتعالى استخلف الانسان على الأرض بكل ما فيها من مخلوقات جمادات أو حيوانات أو نباتات ، وأمره بالإصلاح فيها ونهاه عن الفساد^(١) ، قال تعالى : (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)^(٢) .

وكان سؤال الملائكة لله جل وعلا حين أخبرهم بمشيئته في جعل الإنسان خليفة في الأرض : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)^(٣) دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرهم بسابق علمه الغيب ومشئته أن من بني آدم من سيفعل هذا ، فالملائكة (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)^(٤) وقد حدث أول سفك للدماء وإفساد في الأرض بين ابني آدم قابيل وهابيل^(٥) .

وأفسد الفساد في الأرض نقض عهد الله وميثاقه ، قال تعالى في من نقض عهده : (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)^(٦) .

ومن خلال آيات القرآن الكريم يتبين لنا أن الفجور والفسق وعبادة غير الله إفساد في الأرض . قال لوط عليه السلام : (رب انصرنني على القوم المفسدين)^(٧) . وعن قوم صالح يقول تعالى : (وكان في المدينة

(١) انظر ص ١٢١ من هذا البحث .

(٢) الآية ٢٠٥ من سورة البقرة . (٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء .

(٥) انظر الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة المائدة .

(٦) الآية ٢٧ من سورة البقرة وانظر الآية ٢٥ من سورة الرعد .

(٧) الآية ٣٠ من سورة العنكبوت .

تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون (١).

وكانت دعوة الأنبياء والرسل قولهم : (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) (٢) ، وعن قارون يقول تعالى : (ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (٣) ، ويدعونا تعالى إلى الاعتبار بأحوال الأمم التي نزل بها عذابه وعقابه لما أفسدت في الأرض ، يقول تعالى : (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) (٤) .

وفي خضم الآيات القرآنية الكثيرة التي تحدثت عن الإفساد في الأرض والإصلاح فيها نخرج بنتيجة هي : أن الفساد الحقيقي هو الانحراف عن منهج الله والبعد عن تعاليمه ، ولذلك قالت الملائكة : (ونحن نسيح بحمدك ونقدس لك) (٥) ، وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض) (٦) ، ويصف الله تعالى من انحرف عن سبيله بأنهم : (يفسدون في الأرض ولا يصلحون) (٧) .

وهكذا يمكن إجمال أهداف الخلافة وغاياتها في النقاط التالية :

-
- (١) الآية ٤٨ من سورة النمل .
 - (٢) جزء من الآية ٦٠ من سورة البقرة والآية ٧٤ من سورة الأعراف ، والآية ٨٥ من سورة هود ، والآية ١٨٣ من سورة الشعراء ، والآية ٣٦ من سورة العنكبوت .
 - (٣) الآية ٧٧ من سورة القصص .
 - (٤) الآية ٨٦ من سورة الأعراف وانظر الآية ١٠٣ من السورة نفسها ، والآية ١٤ من سورة النمل .
 - (٥) الآية ٣٠ من سورة البقرة .
 - (٦) الآية ٢٨ من سورة ص .
 - (٧) الآية ٤٨ من سورة النمل .

١ - الإصلاح في الأرض :

وحقيقته الإيمان بالله تعالى رباً لا شريك له في ألوهيته وعبادته ، والقيام بما يفرضه هذا الإيمان من السير على منهج الله وسبيله القويم من الإصلاح في الأرض عقيدة وعبادة وسلوكاً وأسلوب حياة مع النفس ومع الآخرين ومع الأرض ذاتها .

قال الله تعالى عن موسى عليه السلام لما أوصى أخاه بخلافته في قومه : (اخلفني في قومي وأصلح)^(١) ، وعن فرعون يقول تعالى : (أنه كان من المفسدين)^(٢) ، ويقول الرسل لقومهم : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)^(٣) .

٢ - حمل الأمانة :

وقد فسّر بعض العلماء الأمانة في قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)^(٤) بأنها هي : الخلافة في الأرض^(٥) .

وهناك أقوال أخرى في هذه الأمانة ، والذي يترجح لدي أنها : حرية الإنسان في الإيمان أو الكفر ، دون سائر المخلوقات (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)^(٦) ، و (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهون)^(٧) .

(١) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٤ من سورة القصص .

(٣) الآيتان ٥٦ ، ٥٨ من سورة الأعراف . (٤) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٥) انظر مثلاً : القرطبي ٢٥٣/١٤ وما بعدها ، وتفسير سورة الأحزاب ١٥٧

للشيخ أبي الأعلى المودودي نشر المختار الإسلامي ، القاهرة د . ط . د . ت .

(٦) جزء من الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٧) الآية ٤٤ من سورة الروم .

٣ - العمل (١) :

يقول تعالى : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) (٢) ، وقال موسى عليه السلام لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (٣) .

فالعامل هدف من أهداف الخلافة في الأرض فإن كان خيراً فخير وإن شراً فشر .

٤ - المعركة مع إبليس وجنوده (٤) :

وقد بدأت منذ أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، ودخل في معركة ضد آدم وحواء حتى خرجا من الجنة وهبطا إلى الأرض ، فنقل المعركة إلى ذرية آدم عليه السلام من بعده . وستظل محتدمة إلى قيام الساعة .

ولا بد لي هنا - وقبل مغادرة هذه الجزئية من البحث - أن أتوقف قليلاً ، متأملاً في قوله تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون) (٥) وقوله تعالى : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) (٦) وقوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) (٧) . لأستخلص منها ذلك

(١) انظر ص ٢٢٧ من هذا البحث .

(٢) الآية ١٤ من سورة يونس . (٣) الآية ١٢٩ من سورة الأعراف .

(٤) انظر ص ١٣٩ من هذا البحث .

(٥) الآية ١٠ من سورة الأعراف . (٦) الآية ٤١ من سورة الحج .

(٧) الآية ٥٥ من سورة النور .

الهدف الأسمى والغاية العظمى لخلافة الانسان في الأرض ، الذي قرّره
الباريء عز وجل في قوله : (وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون)^(١) ألا وهو
: توحيد الله سبحانه وتعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وما خلق
الله السموات والأرض إلا من أجله وهو عماد الكون كله (وإن من شيء إلا
يسبح بحمده)^(٢) ، به يصلح أمر الدنيا والدين ، وما فضائل الأخلاق
والأعمال إلا تتبع له وأثر من آثاره .

ولا أنسى أن أختتم بقولي : إن هذا يهدم فكرة « خلافة الإنسان عن
الله في الأرض » من أساسها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٣) وانظر كتاب : مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة ،
الصفحات ٢٠٥ وما بعدها للدكتور عابد توفيق الهاشمي ، دار الفرقان ،
عمّان ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، وفيه : القول الحق ، وأن الخلافة
عن غائب والله تعالى حاضر غير غائب ، والجمهور على أنها ليست
خلافة لله ، وآية البقرة ليس فيها دلالة على خلافة الله تعالى .

ثانياً - الابتلاء :

١ - المعنى اللغوي :

هو من قولك : بلوت الرجل بَلَواً وبَلَاءً ، وابتليت ابتلاءً^(١) .

و [بلوته بَلَواً : جربته واختبرته]^(٢) .

[وبلاه يبلوه بَلَواً إذا ابتلاه الله ببلاء]^(٣) .

قال زهير :

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو^(٤)

[أي خير الصنيع الذي يختبر به عباده]^(٥) .

و [أبلاه : أي امتحنه]^(٦) و [بلاه وأبلاه بمعنى]^(٧) [يقال : أبلاه الله بلاءً حسناً]^(٨) .

[والإبلاء : الإنعام والإحسان، وما فيه من بلاء يبين]^(٩) .

(١) انظر في مادة (بلا) مثلاً : لسان العرب ٨٣/١٤ وتهذيب اللغة ٣٩٠/١٥ وترتيب القاموس ٢٦٨/١ .

(٢) الصحاح مادة (بلا) ٢٢٨٥/٦ وتهذيب اللغة مادة (بلا) ٣٩٠/١٥ .

(٣) تهذيب اللغة مادة (بلا) ٣٩٠/١٥ .

(٤) ديوانه ص ٣٦ .

(٥) ديوان الأدب ، القسم الأول ١٠٦/٤ ، والصحاح مادة (بلا) ٢٢٨٥/٦ .

(٦) ديوان الأدب ، القسم الأول ١٢٥/٤ وانظر تاج العروس مادة (بلى) .

٤٤/١٠ .

(٧) ذاته ١١٦/٤ وانظر تهذيب الصحاح مادة (بلا) ٩٣٣/٣ و ٣٩١/١٥ .

(٨) تهذيب الصحاح ٩٣٣/٣ .

(٩) لسان العرب مادة (بلا) ٨٣/٤ .

- ويُقال : [« اللهم لا تبلىنا إلا بالتي هي أحسن » أي لا تمتحننا]^(١) .
- والاسم من ذلك كله : [البَلَوَى ، والبَلِيَّة ، والبَلَوَه - بالكسر - والبلاء]^(٢) . [والبَلَوَى : اسم من بلاه الله يبلوه : إذا امتحن]^(٣) . و [البَلَوَى : البلاء]^(٤) و [البلاء : الاسم من أَبْلَى يُبْلَى ، ومن بلا يَبْلُو]^(٥) .
- [والبلاء : الاختبار ويكون بالخير والشر]^(٦) ، [والأكثر في الخير أَبْلِيته وفي الشر بَلوته وفي الاختبار ابتليته وبَلوته]^(٧) .
- [والتكليف : بلاء لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار ، والبلاء : يكون منحة ويكون محنة]^(٨) . [والتبالي : الاختبار]^(٩) .
- [وأصل الإبتلاء : الاختبار كبلوته بلواً وبلاءً]^(١٠) . ف [ابتلاه : أي جربه]^(١١) [وابتليته : اختبرته وجربته ، وامتحنته واختبرته]^(١٢)

-
- (١) تاج العروس مادة (بلى) ٤٥/١٠ وانظر ديوان الأدب ، القسم الأول ٧٩/٤ .
- (٢) ترتيب القاموس مادة (بلا) ٢٦٨/١ ، ولسان العرب مادة (بلا) ٨٣/١٤ ، وديوان الأدب ، القسم الأول ٤٦/٤ ، وتهذيب اللغة ٣٩٠/١٥ و ٣٩١/١٥ .
- (٣) لسان العرب مادة (بلا) ٨٤/١٤ .
- (٤) ديوان الأدب ، القسم الأول ٦٣/٤ .
- (٥) ذاته ٤٦/٤ .
- (٦) الصحاح مادة (بلا) ٢٢٨٥/٦ ، وتهذيب الصحاح مادة (بلا) ٩٣٣/٣ ، ولسان العرب ٨٣/١٤ .
- (٧) القرطبي ٣٨٧/١ .
- (٨) ترتيب القاموس مادة (بلا) ٢٦٨/١ .
- (٩) الصحاح مادة (بلا) ٢٢٨٥/٦ .
- (١٠) تاج العروس مادة (بلى) ٤٤/١٠ .
- (١١) تهذيب اللغة مادة (بلا) ٣٩١/١٥ .
- (١٢) تاج العروس ، مادة (بلى) ٤٤/١٠ وانظر: لسان العرب مادة (بلا) ٨٣/١٤ وترتيب القاموس مادة (بلا) ٢٦٨/١ ، وتهذيب اللغة مادة (بلا) ٣٩١/١٥ .

[وبلاء الله يبلوه بلواً : إذا ابتلاه الله ببلاء] ^(١) . [وابتلاه الله : امتحنه] ^(٢)
[وابتلاه : اختبره] ^(٣) .

٢ - الابتلاء في القرآن الكريم :

وللراغب الأصفهاني هنا كلام مفيد جداً عن « البلاء » ومعانيه في القرآن الكريم ، ولنفاسته سائبته هنا كاملاً بنصّه ، يقول الراغب :

[بلى : يُقال : بلى الثوب بلى وبلاءً : أي خلق ، ومنه لمن قيل سافر بلاءً سفرٌ ، أي : أبلاه السفر ، وبلّوته : اختبرته ، كأنني أخلقته من كثرة اختباري له ، وقرئ : (هناك نبِلُو كل نفسٍ ما أسلفت) ^(٤) أي : نعرف حقيقة ما عملت ، ولذلك قيل : أبليت فلاناً إذا اختبرته ، وسمي الغمُّ بلاءً من حيث إنه يُبلى الجسم ، قال تعالى : (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) ^(٥) (ولنبلونكم بشيء من الخوف) ^(٦) الآية ، وقال عز وجل : (إن هذا لهو البلاء المبين) ^(٧) وسمي التكليف بلاءً من أوجه :

أحدها : أن التكليف كلّها مشاقٌّ على الأبدان فصارت من هذا الوجه بلاء .

(١) تهذيب اللغة ٣٩٠/١٥ .

(٢) لسان العرب مادة (بلا) ٨٤/١٠ .

(٣) الصحاح ، مادة (بلا) ٢٢٨٥/٦ .

(٤) الآية ٣٠ من سورة يونس ، وقراءة حفص : « تبلو » بالتاء .

(٥) جزء الآيات : ٤٩ من سورة البقرة ، و ١٤١ من سورة الأعراف ، و ٦

إبراهيم .

(٦) الآية ١٥٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية ١٠٦ من سورة الصافات ، ويبدو لي - والله أعلم - أن المقصود في

هذه الآيات هو المعنى الحقيقي للبلاء وهو الاختبار والامتحان لا الغم الذي

ذكره الراغب .

والثاني : أنها اختبارات ، ولهذا قال الله عز وجل : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)^(١) .

والثالث : أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا ، وتارة بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاءً ، فالمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فصارت المنحة أعظم البلاءين ، وبهذا النظر قال عمر : بلينا بالضراء فصبرنا ، وبلينا بالسراء فلم نصبر ، ولهذا قال أمير المؤمنين^(٢) : « من وسّع عليه دنياه^(٣) فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله » ، وقال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)^(٤) (وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً)^(٥) وقوله عز وجل : (وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم)^(٦) راجع إلى الأمرين :

إلى المحنة التي في قوله عز وجل : (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم)^(٧) ، وإلى المنحة التي أنجاهم^(٨) .

وكذلك قوله تعالى : (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مبين)^(٩) راجع إلى الأمرين .

كما وصف كتابه بقوله : (قل هو اللذين آمنوا هدىً وشفاءً)^(١٠) .

(١) الآية ٣١ من سورة محمد .

(٢) يقصد « علي بن أبي طالب رضي الله عنه » والإمام ، وأمير المؤمنين ، إذا أطلقهما « شيعي » فهو يعنيه بهما حتماً .

(٣) هكذا ولعلها : « في دنياه » .

(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ١٧ من سورة الأنفال .

(٦) الآية ٤٩ من سورة البقرة . (٧) الآية ٤٩ من سورة البقرة .

(٨) كذا

(٩) الآية ٣٣ من سورة الدخان . (١٠) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

وإذا قيل : ابتلى فلانُ كذا ، وأبلاه ، فذلك يتضمّن أمرين :

أحدهما : تعرّف حاله والوقوف على ما يُجهل من أمره .

والثاني : ظهور جودته ورداء ته .

وربّما قُصد به الأمران ، وربّما يُقصد به أحدهما ، فإذا قيل في الله تعالى : بلاءُ كذا أو أبلاه ، فليس المرادُ منه إلا ظهور جودته ورداء ته دون التعرّف لحاله والوقوف على ما يُجهل من أمره إذ كان الله علام الغيوب ، وعلى هذا قوله عزّ وجلّ : (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن)^(١) . ويُقال : أبليت فلاناً يميناً إذا عرضت عليه اليمين لتبلوه بها [^(٢)] .

وهذه المعاني التي سردها الراغب للبلاء والابتلاء تقترب جداً من معنى الفتنة ، فإذا كان أصلُ الفتنة : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداء ته [^(٣)] فإنها تأتي بمعنى الاختبار كما في قوله تعالى : (وفتنّاك فتونا)^(٤) [وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يُستعملان فيما يُدفعُ إليه الإنسان من شدة ورخاء ، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً ، وقد قال فيهما : (ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة)^(٥)] وقال تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة)^(٦) [فقد سمّاهم هاهنا فتنة اعتباراً بما ينال الإنسان من الاختبار بهم]^(٨) .

(١) الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٢) المفردات ٦١ - ٦٢ وقد ورد كلمة « بلاء » بجميع مشتقاتها بهذه المعاني

٣٧ مرة في القرآن الكريم .

(٣) المفردات ٣٧١ . (٤) الآية ٤٠ من سورة طه .

(٥) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء . (٦) المفردات ٣٧٢ .

(٧) الآية ٢٨ من سورة الأنفال . (٨) المفردات ٣٧٢ .

وعلى هذا قوله تعالى : (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا
أما وهم لا يفتنون)^(١) أي : [لا يختبرون فيميز خبيثهم من طيبهم]^(٢) ولذلك
قال تعالى في الآية التي تليها : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين
صدقوا وليعلمن الكاذبين)^(٣) .

والفتنة من الله سبحانه وتعالى وحكمة ، ومن الإنسان -بغير أمر الله-
خداع وضلال وتحريش وأذى^(٤) . والإنسان في هذه الدنيا مبتلى وممتحن ،
معرض للبلاء والفتن ، قال الله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في كبد)^(٥) [أي
في شدة وعناء من مكابدة الدنيا]^(٦) قال لبيد بن ربيعة رضي الله عنه يرثي
أخاه « أريد » :

يا عين هلاً بكيت أريد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد^(٧) .

يقول الحسن البصري : [لا أعلم خليفة يكابد من هذا الأمر ما يكابد
هذا الإنسان]^(٨) .

ومرّت جنازة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : [« مستريح
ومُستراحٌ منه » ، قالوا : يا رسول الله ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال
: « العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد
والبلاد والشجر والدواب »]^(٩) .

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة العنكبوت .

(٢) المفردات ٣٧٢ . (٣) الآية ٣ من سورة العنكبوت .

(٤) وردت « الفتنة » بجميع معانيها واشتقاقاتها « ٥٦ » مرة في القرآن
الكريم ، منها « ٣٠ » مرة بمعنى البلاء والاختبار .

(٥) الآية ٤ من سورة البلد .

(٦) القرطبي ٦٢/٢٠ ، وقد ذكر القرطبي تفصيلاً مكابدات الإنسان في هذه
الحياة ، انظره ٦٢/٢٠ - ٦٣ .

(٧) ديوانه ٦٠ . وانظر جمهرة أشعار العرب ١٢٥/٨ ، واللسان « كبد » .

(٨) ذم الدنيا ٢٩ لابن أبي الدنيا .

(٩) صحيح مسلم بشرحه السراج الوهاج ٣١٢/٣ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه يتعوذ من [فتنه الدنيا]^(١) و [من فتنه المحيا]^(٢) . [قال أبو حازم^(٣) : ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألزق به شيء يسوءك]^(٤) .

٣ - أصناف البلاء :

وللبلاء أصناف وأنواع كثيرة ، وجميعها تعود إلى أصليين رئيسين هما :

أ - الابتلاء بالسيئات :

يقول تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات)^(٥) فالاختبار بالحسنات : الخصب والعافية ، وبالسيئات : الجذب والشدائد^(٦) .

و [البلاء يكون حسناً ويكون سيئاً ، وأصله المحنة ، والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ويبلوه البلوى التي يكرهها ليمتحن صبره]^(٧) .

[وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء ، كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن في كبر الامتحان]^(٨) .

(١) انظر مثلاً : البخاري بشرحه فتح الباري : ١٧٦/١١ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٢ .

(٢) ذاته ١٧٦/١١ .

(٣) هو « سلمة بن دينار » مضت ترجمته في ص ١٠٤ من هذا البحث .

(٤) صفة الصفوة ١٦٤/٢ وانظر كلاماً بليغاً للحسن البصري نحو هذا في الحلية ١٨/٨-١٩ ، ودم الدنيا ٦٦ .

(٥) الآية ١٦٨ من سورة الأعراف . (٦) انظر القرطبي ٣١٠/٧ .

(٧) القرطبي ١٧٣/٢ .

(٨) الفوائد ٢٨٦ لابن القيم .

والمؤمنون حقاً هم أكثر الناس تعرضاً لهذا النوع من البلاء ، يقول صلى الله عليه وسلم : [مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتي أجله ، ومثل المنافق كمثل الأرزة المجذبة التي لا يفيئها شيء ، حتى يكون انجعافها مرة واحدة] (١) .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

[أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب (٢) دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة] (٣) .

وفي حديث آخر : [وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم] (٤) .

وبلاء الله للمؤمنين تذكير وتكفير :

أ - فأما التذكير : فإن المؤمن إذا أصيب بمصيبة التجأ إلى الله سبحانه وتعالى وحده يدعوه ويستغفره مما أسلف ، وعاد على نفسه باللوم ، واضعاً نصب عينيه قوله تعالى : (أولا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) (٥) وقوله تعالى : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٦) ، وقوله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) (٧) .

(١) صحيح مسلم ١٥٢/١٧ بشرح النووي .

والخامة : النبات الغض الرطب اللين ، وتفيئها : تميلها .

والمجذبة : الثابتة المنتصبة ، وانجعافها : انقلاعها .

(٢) وفي رواية « على قدر » .

(٣) السلسلة الصحيحة ٦٥/٢ للألباني . حديث رقم ١٤٣

(٤) ذاتها ٦٧/٢ .

(٥) الآية ١٦٥ من سورة آل عمران . (٦) الآية ١٧٩ من سورة النساء .

=

(٧) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

ويقول والرسول صلى الله عليه وسلم : [يا معشر المهاجرين ، خمس إذا ابتليتم بهنّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلاّ سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا ما أنزل الله إلاّ جعل بأسهم بينهم] (١) .

وصدق الله العظيم إذ يقول : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (٢) ، ويقول تعالى : (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) (٣) .

فالذنوب من أسباب البلاء والابتلاء والمصائب ؛ والشدائد تذكر بسوء العمل وقد فهم هذا أجلة الصحابة رضي الله عنهم ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه [أصابه حجر وهو يرمي الجمار فشجّه ، فقال : « ذنبٌ بذنبٍ والباديء أظلم »] (٤) .

ب - وأما التكفير: فقول الله تعالى : (من يعمل سوءاً يُجْزَ به) (٥) ، [وقد بلغت هذه الآية لما نزلت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسددوا ففي كلّ ما يُصَاب به المسلم كفارة حتى

= وانظر مثلاً الآيات والصور التالية : ٤٩ المائدة ، ١٠٠ الأعراف ، ٤٧ القصص ، ٣٦ الروم ، ٤٨ الشورى .

(١) السلسلة الصحيحة ٧/٢ حديث رقم ١٠٦ .

(٢) الآية ٦٣ من سورة النور . (٣) الآية ٤٩ من سورة المائدة .

(٤) الزهد ٥٢٠/١ لهناد . (٥) الآية ١٢٣ من سورة النساء .

النكبة ينكبها والشوكة يشاكها» [١] ، و [قال أبو بكر : يا رسول الله ، صلى الله عليك ، ما أشد هذه الآية (من يعمل سوءاً يجز به) (٢) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر : إن المصيبة في الدنيا جزاء » [٣] .

[والمقصود أن ذنوب المؤمن تتغطى بما يقع له من ألم المرض فهو له كفارة ، والمسلم يُجازى على خطاياها في الدنيا بالمصائب التي تقع له فتكون كفارة لها] (٤) .

وفي صحيح مسلم : [ما من مصيبة يُصاب بها المسلم إلا كُفِّرَ بها عنه حتى الشوكة يُشاكها] (٥) وقد جعل البخاري رحمه الله قوله تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به) (٦) في صدر « كتاب المرضى » يُوحى بأن غالب البلاء الذي يُصاب به المؤمن هو المرض ، ولذلك شواهد من الحديث الشريف ، فقد مات رجل [في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : هنيئاً له مات ولم يبتل بمرض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرضٍ يكفر به عنه من سيئاته ؟ »] (٧) .

وعاد النبي صلى الله عليه وسلم محموماً فأخبره أن الحمى حظ المؤمن من النار (٨) .

-
- (١) انظر البخاري بشرحه فتح الباري ١٠/١٠٣ ، ١٠/١٠٤ ، ١١٠ .
 - (٢) الآية ١٢٣ من سورة النساء .
 - (٣) الزهد ١/٥٢٢ لهناد .
 - (٤) فتح الباري ١٠/١٠٤ .
 - (٥) مسلم ١٢٩/١٦ بشرح النووي وانظر ٢٧/١٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .
 - (٦) الآية ١٢٣ من سورة النساء .
 - (٧) تنوير الحوالك ، شرح موطأ الإمام مالك ٢/٢٢٩ لجلال الدين السيوطي ، طبعة دار الفكر ، د . ط . د . ت .
 - (٨) القرطبي ١١/١٣٨ .

وفي قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها)^(١) يقول مجاهد رحمه الله : [ورود المؤمنين النار هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا ، وهي حظ المؤمن من النار فلا يردّها]^(٢) .

وفي الحديث [إن المؤمن ليشتدّ عليه في وجعه ليحطّ عنه من خطاياّه]^(٣) .

وعن رجلٍ لم يمرض قطُّ يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : [يؤسأ لهذا يموت بخطيئته]^(٤) .

[وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس]^(٥) .

[ومن أخذ الله بمعصية في الدنيا فالله أكرم من أن يعيدها عليه في الآخرة ، ومن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعفو عن عبده في الدنيا ثم يؤاخذه في الآخرة]^(٦) .

والبلاء الذي يصيب المسلمين أفراداً وجماعات إنما هو رحمة من الله تعالى ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : [أمتي أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل]^(٧) .

وفي بعض ما فرضه الله على المسلمين ما يكرهونه ، وفيه الخير لهم ، يقول تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)^(٨) . وفي تفسير القرطبي :

-
- (١) الآية ٧١ من سورة مريم . (٢) القرطبي ١١/١٣٨ .
 (٣) الزهد ١/٤٩٨ لهناد .
 (٤) الزهد ١٧١ للإمام أحمد . (٥) تزكية النفوس ٦٦ .
 (٦) انظر سنن الدارقطني ٢١/٣ حديث ٤٠٣ كتاب الحدود ، وانظر الأمثال والحكم للماوردي ١٠١ .
 (٧) السلسلة الصحيحة ٢/٦٨٤ للألباني .
 (٨) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

[إنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه : إخراج المال ، ومفارقة الوطن والأهل ، والتعرض بالجسد للشجاج ، والجراح ، وقطع الأطراف ، وذهاب النفس ، فكانت كراهيتهم لذلك ، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى .

ومثاله في الدنيا : إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه كقطع عضو وقلع ضرسٍ وفصدٍ وحجامة ابتغاء العافية ودوام الصحة ، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق ^(١) .

والمسلم الحق لا يأمن البلاء والفتن بل يكون متهيئاً لها مؤمناً بقضاء الله ، يقول تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب ^(٢)) .

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : [ما ننتظر من الدنيا إلا كلاً محزناً أو فتنةً تنتظر ^(٣)] .

والذي يأمن البلاء إنما يأمن مكر الله : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ^(٤) ، ولهذا ورد في الأثر : [ما المُبْتَلَى وإن اشتدَّ بلاؤه بأحقَّ من الدعاء من المُعَافَى الذي يأمن البلاء] ^(٥) .

(١) القرطبي ٣٩/٣ .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الحديد ، وانظر الآية ١١ من سورة التغابن .

(٣) الزهد ٦٠١/١ لهناد .

(٤) الآية ٩٩ من سورة الأعراف .

(٥) الأمثال والحكم ١٥١ للماوربي .

ب - الابتلاء بالحسنات :

يقول الشاعر :

قد يُنْعَمُ الله بالبلوى وإن عَظُمَتْ ويبتلى الله بعضَ القومِ بالنَّعمِ^(١)

ويقول حميد بن ثور الهذلي :

قضى الله في بعض المكاره للفتى

برشدٍ وفي بعضِ الهوى ما يحاذره^(٢)

والإبتلاء بالحسنات أشدُّ حالي الابتلاء .

جاء رجل إلى عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه فوجده يعمل في أرضه يحول الماء بمسحاة في يده فتعجب منه وقال : [ما لنا نزهد في الدنيا وترغبون ؟ ونخف في الجهاد وتتأقلون ؟ ! وأنتم سلفنا وخيارنا وأصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ! .

فقال عبد الرحمن : لم يأتنا إلا ما قد جاءكم ، ولم نعلم إلا ما قد علمتم ، ولكننا بالضرأ فصبرنا وبلينا بالسرأ فلم نصبر]^(٣) .

(١) البيت من قصيدة لأبي تمام في مرض إلياس بن أسد ، انظرها في

ديوانه ٢٨٠/٣ بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، مصر (سلسلة ذخائر العرب - ٥ -) ١٩٥٧ م ، د . ط .

(٢) ديوانه ٨٧ . وهو في التذكرة السعدية منسوب لعامر بن الطفيل (!!!) وانظر فيه ٣٧٩ بيتا مثله لبلعاء بن قيس الكناني وهو :

« وقد يكره الإنسان ما فيه رشدَه وتلقى على غير الصواب مراشده »

(٣) ذم الدنيا ٨٠ لابن أبي الدنيا ، وانظر كلاماً مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ص ٢٨٢ من هذا البحث .

والنفس مولعة بحبِّ العاجل ؛ قرأ ابن مسعود رضي الله عنه قول الله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا)^(١) فقال : [أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ ! لأن الدنيا حضرت وعجّلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غُيِّتَ عنّا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل]^(٢) .

ويروي أنس بن مالك رضي الله عنه أن الناس ذكروا الدنيا بحضور أبي موسى الأشعري رضي الله عنه فقال : [يا أنس ما تثر الناس ! ما أبطأ بهم ؟ قلت : الدنيا والشيطان والشهوات . قال : لا ولكن عَجَّلَت الدنيا وغُيِّت الآخرة ، أما والله لو عاينوها ، ما عدلوا ولا ميّلوا]^(٣) .

وقول الله تعالى : (قل أُنَبِّئُكُمْ بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله)^(٤) بعد ذكر زينة الدنيا وشهواتها إنّما هو [تسليّة عن الدنيا وتقويّة لنفوس تاركها]^(٥) .

وقوله تعالى : (ما عندكم ينفدُ وما عند الله باقٍ)^(٦) دليل على أن الدنيا قليل وإن كُثرت وهو بيان للفرق [بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول وما عند الله من مواهب فضله ونعيمه جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد وثبت على العقد]^(٧) .

(١) الآية ١٦ من سورة الأعلى .

(٢) القرطبي ٢٣/٢٠ .

(٣) ذاته ٢٣/٢٠ ، ٢٤ وثبّر : حبس أي : ما الذي صدّهم ومنعهم عن طاعة الله ، وما عدلوا : أي ما ساووا بها شيئاً ، وما ميّلوا : ما شكّوا ولا تردّوا .

(٤) الآية ١٥ من سورة آل عمران .

(٥) القرطبي ٣٧/٤ .

(٦) الآية ٦٦ من سورة النحل .

(٧) القرطبي ١٧٣/١ .

٤ - مجالي الابتلاء :

أ - [إن فتن الدنيا تدعو النفس إلى الهلع ومحبة

البقاء]^(١) ، وحب النفس للعاجل .

يقول تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن

نريد)^(٢) . ويقول تعالى : (ومن يرد ثواب الدنيا نوته منها)^(٣) .

ب - [إن الإرادة في الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة

وأمل]^(٤) .

أ - فأما الشهوة : فهي غريزة وجبلة في الإنسان . يقول

تعالى : (زين للناس حب الشهوات)^(٥) ، وهي في الوقت ذاته حجاب النار ،

يقول صلى الله عليه وسلم : [حُجبت النار بالشهوات]^(٦) وذلك [أن الجنة لا

تُنال إلا بقطع مفاوز المكارهِ وبالصبر عليها ، وأن النار لا يُنجى منها إلا بترك

الشهوات وفطام النفس]^(٧) .

وإذا ما تمالى الإنسان في شهواته من مطعمٍ ومشربٍ ونكاحٍ وغيره

من الملذات وأطلق لرغباته وأهوائه العنان فقد اتخذ منها إلهاً يُعبد ، قال ابن

عباس رضي الله عنهما : [« الهوى إله معبود » وتلا قوله تعالى : (أفرأيت من

اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم)^(٨)]^(٩) .

(١) عون الباري ٤/٤٦٩ .

(٢) الآية ١٨ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٤٥ من سورة آل عمران .

(٤) المفردات ٢٠٦ .

(٥) الآية ١٤ من سورة آل عمران .

(٦) صحيح البخاري ٨/١٨٣ ، أي : كانت الشهوات سبباً للوقوع في النار .

انظر : عمدة القاري ٢٣/٧٧ ، وفتح الباري ١١/٣٢٠ ، وعون الباري ٦/٢٣١ .

(٧) القرطبي ٤/٢٨ .

(٨) الآية ٢٣ من سورة الجاثية .

(٩) البيان والتبيين ١/٢٣٥ ، وانظر القرطبي ١٦/١٦٧ ، ١٦٨ .

[واتباع الشهوات مردٍ وطاعتها مهلكة]^(١) وأعظم الشهوات : شهوة البطن والفرج ، يقول « حاتم طيء » :

وإنك مهما تعطِ بطنك سؤاله وفرجك نالا منتهى الذمّ أجمعاً^(٢)

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : [من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة]^(٣) .

٢ - وأما الحاجة : فلإنسان في هذه الدنيا مطالب وحاجات، ونعمُ الله سبحانه وتعالى تملأ الأرض والعين ، ووجهُ الابتلاء بها في قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ، ثم تلا : (فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)]^(٤) ^(٥) .

[وقال بعض العلماء في قوله تعالى : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)]^(٦) : كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة]^(٧) .

[والاستدراج : هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة]^(٨) .

(١) القرطبي ٢٨/٤ .

(٢) ديوانه ١٨٣ وانظر حماسة عسيلان ٣٤٣/٢ .

(٣) فتح الباري حديث رقم ٦٤٧٤ .

(٤) الآية ٤٤ من سورة الأنعام .

(٥) السلسلة الصحيحة ١٥٦/٥ للألباني وانظر الزهد ١٨ للإمام أحمد ،

والقرطبي ٢٠٩/١ وقول سلمة بن دينار في صفة الصفوة ١٥٧/٢ « إذا

رأيت الله عز وجل يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره » .

(٦) جزء الآية ١٨٢ من سورة الأعراف ، والآية ٤٤ من سورة القلم .

(٧) القرطبي ٢٠٩/١ .

(٨) ذاته ٣٢٩/٧ .

[الابتلاء بالنعم كالابتلاء بالمصائب] ^(١) إلا أنه أشدّ على المسلم وأخوف عليه منه ، يقول صلى الله عليه وسلم : [فوالله ما الفقر أخشى عليكم . ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم ، كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها . فتهلككم كما أهلكهم] ^(٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : [لأننا لفتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء] ^(٣) .

٣ - وأما الأمل ^(٤) : فإن الإنسان إن أعطاه الله الصحة طلب المال وإن أوتي المال طلب البنين وأن أوتيها كلّها طلب طول العمر ، فإن أوتيها طلب العزة والمنعة ... الخ . ومن عاش لا ينقطع له أمل ، والأمل من العبد يقابله الإملاء من الرب وهو بينهما ممّتحنٌ مُبتلى [ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب] ^(٥) .

ج - الشيطان ^(٦) : وهو ذاته فتنة واختبارٌ ، ومن وسائل إغوائه تزوين الأعمال السيئة كما زَيَّن لآدم عليه السلام الأكل من الشجرة المحرّمة ، وقال له : (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) ^(٧) .

وهو يغري ابن آدم في الانغماس في ملذات الفرج والبطن والمال ، ولذلك حذّرنا الله تعالى من فتنته ، بقوله : (يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان) ^(٨) .

(١) الفوائد ٢١٣ لابن القيم .

(٢) ابن ماجه : الفتن ١٣٢٥/٢ حديث رقم ٣٩٩٧ .

(٣) الترغيب ١٤٥/٥ .

(٤) انظر ص ١٦١ من هذا البحث .

(٥) صحيح البخاري ١٦٦/٨ وانظر سنن ابن ماجه حديث رقم ٤٢٣٥ .

(٦) انظر ص من هذا البحث .

(٧) الآية ١٢٠ من سورة طه .

(٨) الآية ٢٧ من سورة الأعراف وانظر قوله تعالى : (قال رب بما أغويتني

لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) الآية ٣٩ من سورة الحجر .

٥ - مواطنُ الابتلاء :

يقول الله سبحانه وتعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث)^(١) .

فالأية تبين أن أعظم مواطن الابتلاء بالحسنات هي : النساء ، والبنون ، والمال ، والخيل المسومة والأنعام ، والحرث .

وكلُّ هذه ممَّا زينهُ الله للإنسان وجعله فتنة وامتحاناً له ، يقول تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(٢) .

وسأبدأ بما بدأ الله به :

أ - النساء^(٣) :

وإنما بدأ الله سبحانه وتعالى [بهنَّ لأن الفتنة بهنَّ أشدَّ]^(٤) [ولكثرة تشوِّف النفوس إليهنَّ ، لأنهنَّ حبايل الشيطان وفتنة الرجال]^(٥) .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ما أدع بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء]^(٦) . ويقول عليه الصلاة والسلام : [إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء]^(٧) .

(١) الآية ١٤ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٧ من سورة الكهف .

(٣) وردت كلمة « النساء » ٥٩ مرة في القرآن الكريم .

(٤) فتح الباري ٢٥٨/١١ . (٥) ذاته ٢٥٨/١١ .

(٦) ابن ماجه : الفتن ١٣٢٥/٢ حديث رقم ٣٩٩٨ .

(٧) صحيح مسلم ٥٥/١٧ بشرح النووي وانظر السلسلة الصحيحة ٦١٣/٢

حديث رقم ٩١١ باختلاف يسير جداً .

أما إن كان المقصود منهنّ الحلال ، والإعفاف ، وكثرة الأولاد فهو مطلوب ، يقول صلى الله عليه وسلم : [الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة] (١) .

ب - المال والبنون :

وإنما قرنتهما بالذكر ، لأن القرآن الكريم - في الغالب الأعم - يذكرهما كذلك في مجال الحديث عن الفتنة والابتلاء (٢) ، يقول تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) (٣) ويقول عز وجل : (أychسبون أنما نمدهم به من مال وينين نسارع لهم في الخيرات ، بل لا يشعرون) (٤) .
ويقول تعالى : [إنما أموالكم وأولادكم فتنة] (٥) .

وقد أخذتُ معنى « المال » من قوله تعالى : (والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) (٦) فقد [ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال ، كل نوع من المال يتموّل به صنف من الناس :
أما الذهب والفضة فيتموّل بها التجار ..

(١) البخاري بشرحه عمدة القاري ٤٨/٢٣ وهناك أحاديث أخرى تحت على

الزواج من المرأة الولود لتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) اقترن ذكر المال والبنين ٧ مرات ، انظر الآيات والسور التالية : ٦

الإسراء ، و ٤٦ الكهف ، و ٥٥ المؤمنون ، و ٨٨ الشعراء ، و ١٤ القلم ، و ١٢ نوح ، و ١٣ المدثر .

واقترن ذكر المال والولد (بجميع تصريفاتهما) ١٥ مرة .

(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٥٥ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية ١٥ من سورة التغابن وانظر الآية ٢٨ من سورة الأنفال .

(٦) الآية ١٤ من سورة آل عمران .

وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك .

وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي .

وأما الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق^(١) .

فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول ، فأما النساء والبنون ففتنة للجمع^(٢) .

والقناطير : [جمع قنطار وهو العقدة الكبيرة من المال]^(٣) .

ويذكر الثعالبي أن أعلى مراتب الغنى هي : القنطرة وهو [أن يملك الرجال القناطير من الذهب والفضة ، ويقال : قنطر الرجل : إذا ملك أربعة آلاف دينار]^(٤) .

والخيل المسومة : قيل هي : الراعية في المروج والمسارح ، وقيل : المعدة للجهاد ، وقيل : المطهمة الحسان ، وقيل : التي سومتها الحسن ، وقيل : المعلمة بشيات الخيل في وجوها^(٥) .

(١) أي : أهل السواد والقرى .

(٢) القرطبي : ٣٦/٤ .

(٣) ذاته ٣٠/٤ ، ٣١ . وقد ذكر الذهب ٨ مرات في القرآن الكريم والفضة ٦ مرات .

(٤) فقه اللغة ٥١ للثعالبي ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . د . ط . د . ت .

(٥) انظر هذه الأقوال وغيرها في القرطبي ٣٣/٤ ، ٣٤ ، وقد ورد ذكر الخيل ٥ مرات في القرآن الكريم في الآيات والسور التالية : ١٤ آل عمران ، و ٦٠ الأنفال ، و ٨ النحل ، و ٦٤ الاسراء ، و ٦ الحشر .

والأنعام: هي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام^(١)، ومفردها: نَعَمٌ وهو [مختصٌ بالإبل لكون الإبل عند العرب أعظم نعمة]^(٢) فالأنعام إذا مأخوذة من النعمة .

والحرثُ : [اسم لكل ما يُحرثُ]^(٣) ويراد به في الآية معنى الفلاحة ، وأصله [إلقاء البذر في الأرض وتهيئها للزرع ، ويُسمى المحروثُ حرثاً]^(٤) .

ويذكر أبو بكر الأنباري أن [المال عند العرب : الإبل ، والغنم ، والفضة : والرقة والورق ، والذهب : النضر والنضير والعقيان]^(٥) .

وقال « ثعلب » : [المال عند العرب أقله ما تجب فيه الزكاة وما نقص من ذلك فلا يقع عليه مال]^(٦) .

وهناك أقوال كثيرة في المال ، ولكن ما يهمنّا الحديث عنه وما نحن بصددده هو : أن المال من أعظم الفتن إن لم يكن أعظمها ، يقول صلى الله عليه وسلم : [إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال]^(٧) .

والإنسان مجبول على حب المال ، يقول تعالى : (وإِنَّهٗ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)^(٨) .

(١) انظر الآيات ١٤٢ - ١٤٤ من سورة الأنعام . وقد ورد ذكر الأنعام ٣٢ مرة في القرآن الكريم ، وذكرت « النعم » مرة واحدة في الآية ٩٥ من سورة المائدة .

(٢) المفردات ٤٩٩ بتصرف يسير . (٣) القرطبي ٣٥/٤ .

(٤) المفردات ١١٢ وقد ورد « الحرث » ١٤ مرة في القرآن الكريم .

(٥) الأمالي ٣٠١/٢ للقالبي . (٦) ذاته ٣٠١/٢ .

(٧) البخاري بشرحه فتح الباري ٢٥٣/١١ وعمدة القاري ٤٥/٢٣ والسلسلة الصحيحة ١٤١/٢ حديث رقم ٥٩٢ .

(٨) الآية ٨ من سورة العاديات .

[وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) ^(١)] فقال :
« تكاثر الأموال : جمعها من غير حقّها ومنعها من حقّها ، وشدّها
في الأوعية » ^(٢) .

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الحرص على المال وجمعه من
غير حقه ومنعه من حقه ، وجعله غايته وهدفه : فقد صير نفسه عبداً له وحقاً
عليه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : [تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة
والخميسة ، إن أعطى رضي وإن لم يُعطَ لم يرضَ] ^(٣) .

فعبد المال هنا : طالبه وخادمه والحريص على جمعه والقائم على حفظه
، وخصّ العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي
لا يجد خلاصاً ^(٤) .

[وفتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر فالسالم منها أقل] ^(٥) ، يقول صلى
الله عليه وسلم : [ما ذئبان ضاريان جائعان في غنم تفرقت ، أحدهما في
أولها والآخر في آخرها ، بأسرع فساداً من امرئ في دينه ، يبتغي شرف
الدنيا ومالها] ^(٦) .

(١) الآية الأولى من سورة التكاثر .

(٢) انظر القرطبي ١٦٩/٢٠ .

(٣) صحيح البخاري ١٦٥/٨ ، ١٦٦ ، وانظر شرحه في عمدة القاري ٤٥/٢٣ ،

وفتح الباري ٢٥٣/١١ . وتعس : التعس : الشرّ والبعد أي بُعداً له ، ودعاءً

عليه بالعثرة . والقطيفة : الدثار المخل وهو الثوب الذي له خمل .

والخميسة : الكساء الأسود المربع .

(٤) انظر عمدة القاري ٤٥/٢٣ .

(٥) التصوّف ١٣١ لابن تيمية .

(٦) صحيح الجامع الصغير ١٤٣/٥ حديث رقم ٥٤٩٦ .

ويقول عليه الصلاة والسلام محدثراً أُمته من فتنة الغنى : [فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم فتَنَافَسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم]^(١) .

وأقبل رجل من البحرين فسَلَّمَ على النبي صلى الله عليه وسلم وفي يده خاتم من ذهب وعليه جبة من حرير فلم يردَّ عليه فذهب فألقاهما ثم سَلَّمَ على النبي صلى الله عليه وسلم فردَّ السلام وقال : [« كان في يدك جمرٌ من نار » فقال : لقد جئت إذاً بجمرٍ كثيرٍ ، قال : « إن ما جئت به ليس بأجزأ عنا من حجارة الحرَّة ، ولكنه متاع الدنيا »]^(٢) .

ولا يستطيع الإنسان فكاكاً من حبِّ المال لأنه غريزة فطره الله عليها ، يقول « عمر بن الخطاب رضي الله عنه » بعد أن قرأ قوله تعالى : (زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)^(٣) الآية : [اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بمازينته لنا ، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقِّه]^(٤) فاخصَّ المال من دون الزينة كلها لأن فتنة المال والغنى مسلطة على غيرها من الزينة^(٥) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : [اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت ، والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقلُّ للحساب]^(٦) ،

(١) البخاري بشرحه عون الباري ٤/٤٨٤ .

(٢) ضعيف الأدب المفرد ٩١ .

وقد أشار العلامة الألباني إلى أن العبارة وردت في الأصول : « بأحد أغنى » وصوبها إلى « بأجزأ عنا » .

(٣) الآية ١٤ من سورة آل عمران .

(٤) البخاري ١٦٧/٨ وانظر عمدة القاري ٢٣/٤٨ .

(٥) انظر فتح الباري ١١/٢٥٨ .

(٦) السلسلة الصحيحة ٢/٤٧١ حديث رقم ٨١٣ .

[ولا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس] (١) إحداها عن [ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه] (١).

وما على الإنسان وقد جُبِلَ على حبِّ المال إلا الإجمال في طلبه (٢)، وألّا يجعل جمعه وادخاره همّه وشُغْلَه الشاغل، فلن ينال إلا ما كتب الله له، يقول صلى الله عليه وسلّم: [من كانت الدنيا همّه؛ فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيّة جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة] (٣).

و [منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا] (٤)، والرزق ابتلاء، والقناعة خير، كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: [اقتنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق بلاءً يبتلى به كلاً، فيبتلى به من بسط له كيف شكره، وشكره لله أداء الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوّله] (٥).

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم المال بأنّه [خضرة حلوة] (٦)

(١) انظر الحديث بتمامه في: صحيح الجامع الصغير ١٤٨/٦ حديث رقم ٧١٧٦.

(٢) انظر ص ٢٠١ من هذا البحث.

(٣) السلسلة الصحيحة ٦٧٠/٢ و ٦٧١ برقم ٩٤٩ و ٩٥٠.

(٤) وفي رواية «وطالب مال» حديث صحيح انظره بتمامه في المستدرک على الصحيحين ٩٢/١ للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، د. ط. د. ت.

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ولم أجد له علّة». وانظر «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» ١٦٢ بتحقيق محمود الأرناؤوط ومحمد بدر الدين قهوجي، مكتبة دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

(٥) حياة الصحابة ٥٩٢/٢.

(٦) صحيح البخاري ١٦٧/٨.

[فشبهه في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المستلذة فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده والحلو كذلك على انفراده ، فاجتماعهما أشد^(١) ، و [لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغي ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب]^(٢) .

[وأصل محبة المال والشرف حب الدنيا ، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى]^(٣) وكل ذلك نقص في العقل وقصور في الإدراك ، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : [ما من أحد إلا وفي عقله نقص عن حلمه وعلمه ، وذلك أنه إذا أنته الدنيا بزيادة في مال ظلّ فرحاً مسروراً ، والليل والنهار دائبان في هدم عمره لا يحزنه ذلك ، ضلّ ضلاله ! ما ينفع مالٌ يزيد وعمرٌ ينقص]^(٤) .

ولا يحسبن الإنسان إذا ما أوتي مالا أن الله يسارع له في الخيرات وإنما ذلك فتنة له واستدراج^(٥) . ولتعلم أيها الإنسان أن لك في المال شركاء ثلاثة :

الأول : القدر ؛ فلا يستأمرك أن يذهب بمالك خيره وشره من هلاك أو موت .

والثاني : الوارث ؛ ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاق مالك وأنت ذميم .

الثالث : إن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن . [إن الله عزوجل يقول : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)^(٦)]^(٧) .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢٦/٧ .

(٢) صحيح البخاري ١٦٦/٨ وانظر صحيح مسلم بشرحه السراج الوهاج ٦٣٤/٣ .

(٣) شرح حديث ما ذهب نسيان جائعان ٥٧ .

(٤) صفة الصفوة ٦٣٨/١ . (٥) انظر القرطبي ١٣١/١٢ .

(٦) الآية ٩٢ من سورة آل عمران .

(٧) من أقوال أبي ذر رضي الله عنه ، انظر صفة الصفوة ١٩١/١ .

ف « من قَدَّمَ من ماله فهو له »^(١) ، وما أخره فهو لوارثه ، وإذا أنفق المال في سبيل الله فتلك التجارة الرباحة ، ونعم المال الصالح للرجل الصالح يؤدى فيه حقوق الله ، ولذلك امتدح النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه فقال : [إن الله بعثني إليكم ، فقلتم كذبت . وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسي وماله]^(٢) وكان أبو بكر رضي الله عنه [يملك يوم أسلم أربعين ألف درهم فكان ينفق منها ويقوي المسلمين]^(٣).

وليس معنى كون المال ابتلاء وفتنة أن يقعد المسلم عن كسبه بطرقه المباحة ، [فإذا كان المال مكتسباً من وجه ما أباح الله ، وتأدت حقوقه ، وتقرَّب فيه إليه بالإنفاق في سبيله ومرضاته ؛ فذلك المال محمود ممدوح كاسبه ومنفقه]^(٤).

وكما نهى القرآن الكريم عن الإسراف في حب المال، نهى عن الإسراف في إنفاقه ودعا إلى القصد والاعتدال في ذلك^(٥).

ويصف القرآن الكريم المبذرين بأنهم إخوان الشياطين ، يقول تعالى : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)^(٦) ، وكذلك المقترين يقول تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً)^(٧).

(١) هذا باب عقده البخاري في صحيحه ، وفيه أحاديث بهذا المعنى ، انظر

صحيح البخاري ١٦٨/٨ وعمدة القاري ٤٩/٢٣ ، وفتح الباري ٢٦٠/١١ .

(٢) صحيح البخاري ٦٨/٥ وانظر سنن ابن ماجه ٣٦/١ حديث رقم ٩٤ .

(٣) صفة الصفوة ٢٤٢/١ . (٤) جامع بيان العلم وفضله ١١ .

(٥) انظر مثلاً الآيات والسور التالية : ١٤١ الأنعام و ٣١ الأعراف ، و ٢٧ و ٢٩ الإسراء ، و ٦٧ الفرقان .

(٦) الآية ٢٧ من سورة الإسراء .

(٧) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .

ويقول تعالى محذراً من الشيطان: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (١) أي [يعدهم أباطيله وترهاته من المال والجاه والرياسة وألا بعث ولا عقاب . ويوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير] (٢) .

فالإسراف في حب المال والإسراف في إنفاقه ، وإنفاق العمر في جمعه كل ذلك مذموم من عمل الشيطان ، يقول تعالى : (وتحبون المال حباً جماً) (٣) .

[ومن الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره قد ورثه وعمل فيه بالحق كان له أجره وعلى الآخر وزره] (٤) .

والله در أبي الدرداء رضي الله عنه إذ يقول : [ويل لكل جماعٍ فاغرٍ فاه كآئه مجنون يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده ، لو يستطيع لوصل الليل بالنهار ، ويله من حساب غليظٍ وعذابٍ شديد] (٥) .

أما الأولاد والبنون فقد سبق القول إن القرآن الكريم يقرنهم بالذكر مع المال في حال الحديث عن الفتنة والابتلاء ، ومن ذلك قوله تعالى : (اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٦) .

(١) الآية ١٢٠ من سورة النساء . (٢) القرطبي ٣٩٥/٥ .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الفجر . (٤) القرطبي ٢٧١/١٥ .

(٥) الحلية ٢١٧/١ وانظر حياة الصحابة ٥١٦/٣ .

(٦) الآية ٢٠ من سورة الحديد ، وقد أفرد البخاري في صحيحه ١٥٨/٨ باباً

صدره بهذه الآية الكريمة ، والعجيب أن «نص» البخاري و«شروحه» =

وفي قصة صاحبي الجنتين ، يذكر الله سبحانه وتعالى افتخار أحدهما على الآخر : (فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً)^(١) فالنفر هنا الأولاد ، وقد فسرتها الآية الأخرى ، قال تعالى : (إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً)^(٢) .

وكان العرب يتفاخرون بكثرة المال والولد ، يقول تعالى : (أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً)^(٣) ، وفي الوليد بن المغيرة المخزومي يقول تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبينين شهوداً)^(٤) .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وجوه الافتتان بالولد لما [قال للأشعث بن قيس : « هل لك من ابنة حمزة من ولد » ؟ قال : نعم ، لي منها غلام ولوددت أن لي به جفنةً من طعامٍ أطعمُها من بقى من بني جبلة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لئن قلت ذلك إنهم لثمرّة القلوب وقرّة الأعين وإنهم مع ذلك لمجينة مبخلة محزنة »]^(٥) .

ومجينة : أي يجعلون آباء هم يجبنون خوفاً من الموت فيصيب أبناء هم اليُتم وآلامه ، ومبخلة : أي يجعلون آباء هم ييخلون فلا ينفقون فيما ينبغي أن ينفق إيثاراً لهم بالمال ، ومحزنة : أي يجعلون آباء هم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه .

= ومنها : عمدة القاري ٣٢/٢٣ ، وفتح الباري ٢٣١/١١ ، قد أجمعت على كسر همزة « أنما » في صدر الآية وهي في جميع القراءات السبع بالفتح « أنما » ولم أجِدْ لذلك تخريجاً .

(١) الآية ٣٤ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٣٩ من سورة الكهف . (٣) الآية ٧٧ من سورة مريم .

(٤) الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة المدثر .

(٥) القرطبي ٣٠/٤ وانظر الزهد ٦٤٠/١ لهناد ، وتخريج الحديث فيه .

وقد عللوا فتنتهم في قوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)^(١)
بالانشغال بهم عن طاعة الله^(٢) ، ويشهد لذلك قول الله تعالى : (يا أيها الذين
آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)^(٣) .

والتكاثر الملهي في قوله تعالى : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)^(٤)
هو في الأموال والأولاد ، يعضده قوله تعالى في سورة الحديد : (وتكاثر
في الأموال والأولاد)^(٥) .

وقد حذر الله تعالى من عاقبة الافتتان بالمال والولد ، وذكر بيوم
الوقوف بين يديه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)^(٦) .

وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ، إلا
من آمن وعمل صالحاً)^(٧) .

ومن دعاء طاووس^(٨) يرحمه الله : [اللهم ارزقني الإيمان والعمل ،
وجنبني المال والولد ، فإنني سمعتُ فيما أوحيت (وما أموالكم ...) الآية]^(٩) .

وقد علق القرطبي على هذا الدعاء فقال : [قلتُ : قولُ طاووس فيه نظر

(١) الآية ١٥ من سورة التغابن .

(٢) انظر عمدة القاري ٤٤/٢٣ .

(٣) الآية ٩ من سورة المنافقون .

(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة التكاثر .

(٥) الآية ٢٠ من سورة الحديد .

(٦) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

(٧) الآية ٣٧ من سورة سبأ .

(٨) انظر ترجمته ص من هذا البحث .

(٩) القرطبي ٣٠٥/١٤ .

والمعنى والله أعلم : جنبني المال والولد المطغيين أو اللذين لا خير فيهما ، فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنعم هذا [(١)] .

٦ - الحكمة من الابتلاء :

لا بدّ من التأكيد على استحضر الحقيقة الكبرى ، حقيقة الهدف من الحياة ذاتها ، التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (٢) . هذه الحقيقة تبين أن حياتنا وموتنا ابتلاء ، بل إن هذه الدنيا كلّها ابتلاء .

ويمكن حصر مفهوم الابتلاء في كلمة واحدة هي : « الزينة » : فكلّ ما على الأرض زينة ، قال تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) (٣) .

والحياة الدنيا زينة (٤) ، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا (٥) ، والنساء وثيابهن وجليهن زينة (٦) ، والممك والأبهاء ومظاهر البذخ زينة (٧) ، واللباس الجميل زينة (٨) .

(١) القرطبي ٣٠٥/١٤ . وانظر كلاماً نحو هذا في القرطبي : ٧٢/٤ و ٨٠/١١ و ٨٢/١٣ و ٣٥٩/١٤ .

(٢) الآية ٢ من سورة الملك .

(٣) الآية ٧ من سورة الكهف . وانظر مثلاً الآية ٢٤ من سورة يونس .

(٤) انظر مثلاً الآيات والسور التالية : ٢١٢ البقرة ، ١٥ هود ، ٢٨ الكهف ، ٦٠ القصص ، ٢٨ الأحزاب ، ٢٠ الحديد .

(٥) انظر مثلاً الآية ٤٦ من سورة الكهف .

(٦) انظر مثلاً الآيات والسور التالية : ١٤ آل عمران ، ١٣١ طه ، ٣١ النور .

(٧) انظر مثلاً الآيات والسور التالية : ٨٨ يونس ، ٢٨ الكهف ، ٥٩ ، ٨٧ طه ، ٧٩ القصص .

(٨) انظر مثلاً الآية ٣١ من سورة الأعراف .

وفتنة الشياطين في التزيين في الأرض^(١) ، بتزيين العمل السيء^(٢) ،
ويستدرج الله سبحانه وتعالى الذين لا يؤمنون بالآخرة والعاصين ، بأن يزين
لهم عملهم^(٣) .

وكل ما يعجب الإنسان ويروق له مما يراه أو يسمعه أو يملكه أو يعمل
فهو بالنسبة له زينة ، ومقياس صلاحه من فساد يعود إلى أحكام الله وتعاليمه
في كتبه وعلى السنة رسله .

وإذا عرفنا أن النساء ، والبنين ، والأموال هي أعظم مواطن الفتنة
والابتلاء ، وهي في الوقت ذاته زينة : تبين لنا أن الزينة هي مدار الابتلاء
وأساسه .

ولكن ما هي حكمة الابتلاء والفتنة ! ؟

لقد ذكر القرآن حكماً وأهدافاً للابتلاء والفتنة :

أ - حكمة الابتلاء :

يقول تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)^(٤) .

ويقول تعالى : (وبلوناكم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)^(٥) .

ويقول تعالى : (ونبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو
أخباركم)^(٦) .

(١) انظر الآية ٣٩ من سورة الحجر .

(٢) انظر مثلاً الآيات والسور التالية : ٤٣ ، ١٢٢ الأنعام ، ٤٨ الأنفال ، ٣٧
التوبة ، ١٢ يونس ، ٣٣ الرعد ، ٢٤ النمل ، ٣٨ العنكبوت ، ٨ فاطر ، ٣٧
غافر ، ٢٥ فصلت ، ١٤ محمد .

(٣) انظر مثلاً الآيات والسور التالية : ١٠.٨ الأنعام ، ٤ النمل ، ٨ فاطر .

(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ١٦٨ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٣١ من سورة محمد .

ويقول تعالى: (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) (١).

ويقول تعالى : (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) (٢) .

ويقول تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) (٣).

ويقول تعالى: (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) (٤).

ويقول تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (٥) .

ويقول تعالى : (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) (٦) .

ويقول تعالى : (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) (٧).

فهذه الآيات البينات ، توضح حكمة الابتلاء وأهدافه ، وتدل على غيرها من الآيات في هذا المعنى .

ب - حكمة الفتنة :

يقول تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) (٨) .

(١) الآية ٤ من سورة محمد .

(٢) الآية ١٦٣ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

(٥) جزء الآية ٧ من سورة هود والآية ٢ من سورة الملك ، وانظر الآية ٧ من

سورة الكهف .

(٦) الآية ١٥٢ من سورة آل عمران .

(٧) الآية ٤٠ من سورة النمل .

(٨) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .

ويقول تعالى : (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (١) .

ويقول تعالى : (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) (٢) .

ويقول تعالى : (وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون) (٣) .

ويقول تعالى : (إن هي إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدي من تشاء) (٤) .

وهذه الآيات الكريمة واضحة الدلالة على حكمة الفتنة وغاياتها ، وهي مثل آيات الابتلاء تدل على غيرها من الآيات الأخر .

والحكمة من الابتلاء بالسراء والضراء ، بشكل عام ، تلخصها الآية الكريمة : (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (٥) ؛ وقد تعددت أقوال كبار المفسرين في مفهوم الحكمة « أيكم أحسن عملاً » فقال قتادة : أيكم أتمّ عقلاً ، وقال الحسن وسفيان الثوري : أيكم أزهد في الدنيا ، وقال الضحاك : أيكم أكثر شكراً لله ، وقال مقاتل : أيكم أتقى لله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أيكم أعمل بطاعة الله عزّ وجلّ (٦) .

(١) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٢٦ من سورة التوبة . (٣) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

(٥) جزء الآية ٧ من سورة هود والآية ٢ من سورة الملك ، وانظر الآية ٧ من سورة الكهف .

(٦) انظر هذه الأقوال وغيرها في القرطبي ٩/٩ .

وقد فهم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام وهم أفضل الخلق وأقربهم صلةً بالله : الحكمة من الابتلاء بالسراء .

فهذا نبي الله سليمان عليه السلام حين ابتلي بالسراء : (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر)^(١) وعن داود عليه السلام يقول تعالى : (وظنّ داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأناب)^(٢)، وعن أيوب عليه السلام يقول تعالى : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد انه أواب)^(٣) .

ويظهر لي والله أعلم - أن الحكمة من الابتلاء بالسراء ليتميز الشاكر من الكافر ، والحكمة من الابتلاء بالضراء ليتميز الصابر من الجازع ، وجماع ذلك كله التقوى في السراء والضراء .

٧ - عدة المؤمن في مواجهة البلاء :

يقول الله تعالى : (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشرّ فيئوس قنوط)^(٤) .

و [الخير هنا : المال والصحة والسلطان والعزّ ، وفي قراءة عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه « لا يسأم الإنسان من دعاء المال » ؛ والشر هنا : الفقر والمرض]^(٥) .

(١) الآية ٤٠ من سورة النمل .

(٢) الآية ٢٤ من سورة ص .

(٣) الآية ٤٤ من سورة ص .

(٤) الآية ٤٩ من سورة فصلت .

(٥) انظر القرطبي ٣٧٢/١٥ .

وقد [خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه ، ويهرب مما يكرهه ويسخطه ، ثم تعبده الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره] (١) .

والمؤمن في هذه الدنيا مبتلى ، وما أحسن تصوير سلمان الفارسي رضي الله عنه لحاله في الدنيا ، إذ يقول : [إنما مثل المؤمن في الدنيا كمثل مريض معه طبيب به الذي يعلم داءه ودواءه فإذا اشتهى ما يضره منعه وقال له : لا تقربه فإنك إن أصبته أهلك ، ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه ، وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما فضل به غيره من العيش فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه حتى يتوفاه فيدخله الجنة] (٢) .

والملائكة الكرام يدعون للمؤمنين ، لما يرون من تعرضهم للبلاء فيقولون : (وقهم السيئات) (٣) . ويقولون : [يا رب ، العبد المؤمن تزوي عنه الدنيا ، ويعرض به البلاء ، قال : فيقول للملائكة : اكشفوا لهم عن ثوابه ، فإذا رأوا ثوابه قالوا : لا يضره ما أصابه من الدنيا ، ويقولون : العبد الكافر يزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا ، قال : فيقول للملائكة : اكشفوا لهم عن عقابه ، فإذا رأوا عقابه قالوا : يا رب لا ينفعه ما أصابه من الدنيا] (٤) .

وثواب المؤمن المعجل في الدنيا هو غفران الخطايا ، يقول صلى الله عليه وسلم : [ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده ، حتى يلقي الله ما عليه خطيئة] (٥) .

(١) انظر القرطبي ٢٩٠/١٨ .

(٢) صفة الصفوة ٥٤٦/١ ، ٥٤٧ ، والحلية ٢٠٧/١ .

(٣) جزء الآية ٩ من سورة غافر .

(٤) الزهد ٤٩١/١ لهناد .

(٥) الزهد ٤٩٠/١ لهناد . وانظر فيه « باب شدة البلاء على المؤمن » ص ٤٨٧ .

والأحاديث التي وردت فيه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : [ما يضرَّ عبداً يصبح على الاسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا]^(١).

ومهما يصب الإنسان من بلاء في ذات الله فهو قليل بالنسبة إلى ما يدخره الله له من أجر في الآخرة ، يقول صلى الله عليه وسلم : [لو أن رجلاً يُجرُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله عز وجل لحقره يوم القيامة]^(٢).

ولكن الضعف الفطري في طبيعة النفس الانسانية يميل بها إلى إيثار السلامة والعافية ؛ والمؤمن يشفق على نفسه من الابتلاء خوفاً من أن يضعف أمامه أو أن يهتك ستره ، كان الفضيل بن عياض رحمه الله إذا قرأ قوله تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم)^(٣) ؛ بكى وقال : [اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا]^(٤).

وكان « مطرف بن عبد الله » يقول : [لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أُبتلى فأصبر]^(٥).

أما إذا وقع البلاء بالمؤمن فليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد ابتلى صفوة خلقه من الأنبياء عليهم السلام^(٦) ، وها هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتعرضون لأقسى أنواع الابتلاء والامتحان ، وذلك [في غزوة

(١) الحلية ١٣٢/١.

(٢) السلسلة الصحيحة حديث رقم ٤٤٧ .

(٣) الآية ٣١ من سورة محمد .

(٤) انظر القرطبي ٢٥٤/١٦ .

(٥) الزهد ٥٣/١ لهناد .

(٦) انظر قصة ابتلاء أيوب عليه السلام في السلسلة الصحيحة ٢٤/١ حديث

الخدق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش ، وأنواع الشدائد ، وكان كما قال الله تعالى : (وبلغت القلوب الحناجر) (١) [(٢)] .

ويقول تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب) (٣) .

وليعلم المؤمن أن الله إذا ما ابتلاه فإنما يريد به خيراً ، ويكاد الابتلاء أن يكون هو السبيل الوحيد لدخول الجنة ، يقول تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (٤) .

وإذا ما حلّ البلاء بالمؤمن فما عليه إلا الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى والاستعانة به والاعتماد عليه في مواجهة البلاء ، ثم اتباع ما أرشد الله ورسوله إليه من وسائل اجتياز مرحلة الابتلاء والمحنة ، ومنها :

أ - الصبر :

والصبر في اللغة (٥) : الحبس ، يقال : قُتِلَ فلانٌ صبراً أي : أُمْسِكَ وَحُبِسَ حَتَّى أُتْلِفَ ؛ وَصَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى الشَّيْءِ : حَبَسْتُهَا .

وهو [الإمساك في ضيق ، وحبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه] (٦) .

(١) الآية ١٠ من سورة الأحزاب .

(٢) القرطبي ٣/٣٣-٣٤ .

(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

(٥) المفردات ٢٧٣ .

(٦) انظر القرطبي ١/٣٧١ .

[والصبر صبران : صبر عن معصية الله فهذا مجاهد ، وصبر على طاعة الله فهذا عابد ، فإذا صبر عن معصية الله وصبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ، وعلامة الرضا : سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبيات]^(١) .

وقد أمر القرآن الكريم بالصبر وأثنى على الصابرين ووعدهم الأجر بغير حساب في مواضع كثيرة^(٢) ، قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة)^(٣) ، وقال عز وجل : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)^(٤) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : [إنه من يستغف يعفّه الله ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ولن تُعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر]^(٥) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [وجدنا خير عيشنا بالصبر]^(٦) ، وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه : [الرضا قليل، والصبر معول المؤمن]^(٧) .

(١) القرطبي ١٧٤/٢ .

(٢) ورد « الصبر » في اثنين ومائة موضع في القرآن الكريم .

(٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة هود .

(٥) البخاري ١٧٨/٨ ، وعمدة القاري ٦٨/٢٣ وفتح الباري ٣.٣/١١ .

(٦) البخاري ١٧٨/٨ وعمدة القاري ٦٧/٢٣ وفتح الباري ٣.٣/١١ والزهد ١٤٦

للإمام أحمد .

(٧) الزهد ٤٨١/١ لهناد .

وثواب الله سبحانه وتعالى للصابرين على البأساء والضراء ، وكذلك الصابرين على الطاعة ، ليس له حدٌ يقول الله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)^(١) ويقول عز وجل : (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون)^(٢) .

وفي الحديث القدسي : [يقول الله تعالى ما لعبدي المؤمن إذا قبضت صفيته من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة]^(٣) .

ب - الصلاة :

وأصلها في اللغة : [الدعاء والتبريك والتمجيد ، يقال : صليت عليه أي دعوت له وزكيت]^(٤) ، وهي : [العبادة المخصوصة ، وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه]^(٥) .

(١) الآية ١٠ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٨٠ من سورة القصص .

وانظر مثلاً في أجر الصبر والصابرين الايات والسور التالية : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٢٤٩ ، البقرة ، ١٦ ، ١٧ آل عمران ، ٢٥ النساء ، ١٣٧ الأعراف ، ٤٦ ، ٦٦ الأنفال ، ١١ ، ١١٥ هود ، ٩٠ يوسف ، ٢٢ ، ٢٤ الرعد ، ٤٢ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١٢٦ النحل ، ٣٤ ، ٣٥ الحج ، ١١١ المؤمنون ، ٧٥ الفرقان ، ٥٤ القصص ، ٥٩ العنكبوت ، ٢٤ السجدة ، ٣٥ الأحزاب ، ٤٣ الشورى ، ١٢ الإنسان .
وانظر القرطبي ٢٤١/١٥ فقيه تفصيل وبيان .

(٣) البخاري ١٦١/٨ وعمدة القاري ٣٨/٢٣ وفتح الباري ٢٤٢/١١ وعون الباري ٥٥٨/٢ و ٢٠٧/٦ . وصفيته : الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الانسان ، واحتسبه : من الاحتساب وهي الأجرة : أي صبر طلباً للأجر من الله تعالى .

(٤) المفردات ٢٨٥ .

(٥) ذاته ٢٨٥ بتصرف يسير .

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالاستعانة بها مع الصبر على مواجهة البلاء، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) (١)، وجعلها مع الصبر أبرز صفات المؤمنين ، قال تعالى : (والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة) (٢) ، وقال تعالى : (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة) (٣) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر أو همّ قام إلى الصلاة ، وكان يقول [أرحنا بها يا بلال] (٤) .

ج - التقوى (٥) :

وهو وصية الله للأولين والآخرين ، قال تعالى : (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) (٦) .

وقد قرن الله تعالى التقوى بالصبر في عدة مواضع في القرآن الكريم (٧) ، قال تعالى : (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (٨) .

-
- (١) الآية ١٥٣ من سورة البقرة وانظر الآية ٤٥ من السورة ذاتها .
 - (٢) الآية ٣٥ من سورة الحج .
 - (٣) الآية ٢٢ من سورة الرعد ، وانظر الآية ١٣٢ من سورة طه ، وقد وردت الصلاة في ٨٧ موضعاً في القرآن الكريم .
 - (٤) انظر مثلاً : مختصر سنن أبي داود ٢٧٧/٧ .
 - (٥) انظر ص ٢٣٧ من هذا البحث .
 - (٦) الآية ١٣١ من سورة النساء .
 - (٧) انظر مثلاً الآيات من سورة آل عمران : ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، والآية ١٠ من سورة الزمر .
 - (٨) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

وعلامات أهل التقوى : [صبر على البلاء ، ورضى بالقضاء ، وشكر للنعماء ، وذلُّ لحكم القرآن]^(١) .

واقتران فضائل الأعمال بالصبر كالصلاة والتقوى والجهاد والتوكل وغيرها ، باعتبارها وسائل معينة على الصبر يشملها جميعاً لفظ « العمل الصالح » ، قال تعالى : (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)^(٢) .

د - الشكر :

وهو [تصور النعمة وإظهارها ، ويزاده الكفر وهو نسيانها وسترها]^(٣) .

وسبق القول : إن الابتلاء نوعان : ابتلاء بالسراء وابتلاء بالضراء ، والصبر يحتملها ؛ وقد يراد به الضراء فقط ويفهم ذلك من خلال السياق ، قال تعالى : (واصبر على ما أصابك)^(٤) .

أما الشكر فلا يطلق إلا على السراء ، قال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام : (شاكراً لأنعمه)^(٥) ، وقال تعالى عن سليمان عليه السلام :

(١) حياة الصحابة ٥٢٧/٣ من أقوال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه .

(٢) الآية ١١ من سورة هود .

(٣) المفردات ٢٦٥ بتصريف يسير، وقد ورد الشكر في ٧٥ موضعاً في القرآن الكريم .

(٤) الآية ١٧ من سورة لقمان .

(٥) الآية ١٢١ من سورة النحل .

(وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) (١).

وقد لا يعرف الانسان الهدف من البلاء ، فتظهر له النعمة في صورة المحنة ، ولكن الله سبحانه وتعالى الذي له الحكم والأمر يقول : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) (٢).

ولا يستطيع الانسان شكر كل نعم الله عليه لأن منها ما يخفى عليه ، مثل النعم الباطنة ، قال تعالى : (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (٣) ، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : [من لم ير أن لله عليه نعمة إلا في الأكل والشرب فقد قلّ فهمه وحضر عذابه] (٤) ، بل إن شرب الماء بغير أذى وخروجه بغير أذى يستوجب شكر الله سبحانه وتعالى (٥) .

والصبر والشكر راحلتا المؤمن يركبهما في السراء والضراء ، يقول عمر رضي الله عنه : [لو أن الصبر والشكر بغيران ما باليت إيهما أركب] (٦) .

(١) الآية ١٩ من سورة النمل .

ونعم الله كثيرة لا يحصرها عد ولا يحدها حد ، انظر بعضها مثلاً في الآيات والسور التالية : ٥٢ ، ٥٦ ، ١٧٢ ، ٢٤٣ البقرة ، ٨٩ المائدة ، ١٠ الأعراف ، ٢٦ الأنفال ، ٣٧ إبراهيم ، ١٤ ، ٧٨ ، ١١٤ النحل ، ٣٦ الحج ، ٧٨ المؤمنون ، ٦٢ الفرقان ، ٧٣ القصص ، ١٧ العنكبوت ، ٤٦ الروم ، ١٢ لقمان ، ٩ السجدة ، ١٥ سبأ ، ١٢ فاطر ، ٣٥ ، ٣٧ يس ، ١٢ الجاثية ، ١٥ الأحقاف ، ٣٥ القمر ، ٣ الإنسان .

(٢) الآية ٦ من سورة المائدة . (٣) الآية ٢٠ من سورة لقمان .

(٤) حياة الصحابة ٥٩٣/٢ .

(٥) انظر حياة الصحابة ٥٩٣/٢ .

(٦) البيان والتبيين ١٢٦/٣ وانظر حياة الصحابة ٥٩١/٢ .

وكان رضي الله عنه يقول : [أو لا يسكت أحدكم ؛ فإن ابتلي صبر ، وإن عوفي شكر]^(١) .

هـ - الإخلاص :

وهو [سر بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله]^(٢) ويصف الحديث القدسي الاخلاص بأنه : [سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادي]^(٣) .

والإخلاص عبادة لله تعالى ، والله سبحانه وتعالى يقول : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)^(٤) ، وهذه [الآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره]^(٥) .

وإذا تجلّد الإنسان تظاهراً بالصبر ، وأعطى تظاهراً بالشكر ، مثلاً ، فإن ذلك فتنة وشرك ، يقول تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين)^(٦) ، [قال الحسن : هذا خاص بالمنافقين جروا على عادتهم في الدنيا]^(٧) .

والإخلاص في الشكر والصبر وسائر العبادات ذلك السر المكنون بين

(١) حياة الصحابة ٥٩٢/٢ .

(٢) القرطبي ١٤٦/٢ .

(٣) ذاته ١٤٦/٢ .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النساء .

(٥) القرطبي ١٨٠/٥ .

(٦) الآية ٢٣ من سورة الأنعام .

(٧) القرطبي ٤٠٢/٦ .

العبد وربّه ، له يوم محدود يظهر فيه المخلص والمنافق ، يوم [يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً]^(١) والعياذ باللّٰه .

قال تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون)^(٢) .

والمؤمن في السراء والضراء في خير كبير ، يعلل ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [عجباً لأمر المؤمن ؛ إن أمره كله خير ؛ وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له]^(٣) .

(١) السلسلة الصحيحة ١٢٤/٢ ، حديث رقم ٥٨٣ وانظر أيضاً رقم ٥٨٤ .

(٢) الآية ٤٢ من سورة القلم .

(٣) صحيح مسلم ١٢٥/١٨ .

منهاج المؤمن في الدنيا

وإذ قد سبق البيان أن الإنسان خليفة في الأرض مكلف بالقيام بمهام هذه الخلافة ، وهو مع ذلك معرض للابتلاء والاختبار ؛ فما هو منهاج المسلم يا ترى في أداء مهمته في الخلافة في الأرض ؟ ! وكيف يجتاز مرحلة الدنيا بسلام مهما واجهته صروف المحن والفتن ؟ !

هذا ما سأحدث عنه بإيجاز شديد ، لأن إيفاء هذا الموضوع بعض حقه يستغرق كتباً ومجلدات وسأكتفي هنا بومضات سريعة تلقي الضوء لمن أراد المزيد من السير في هذا السبيل ؛ فأقول مستعيناً بالله :

لم يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان يعيش هذه الحياة بلا هدف ولا غاية ، فقد أرسل الرسل وأنزل الكتب لتبين له سبيل الهدى وتهديه إلى صراط الله المستقيم ، ووضعت له سنناً ومعالم تدله على المسار الصحيح في هذه الحياة ، وتبين له كيف يعيش ولماذا وإلى أين تنتهي به هذه الحياة ، وأن بعدها حياة أخرى لا موت فيها ، فإمّا نعيم مقيم ، وإمّا عذاب خالد ، والنعيم والعذاب ، والثواب والعقاب كل ذلك رهن بما قدّمت يد الإنسان في حياته الأولى ، هذه الدنيا التي يحياها .

ولكي يعيش الإنسان سعيداً ، ويحشر يوم القيامة في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله ، ويكون من الذين يقولون : (الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبواً من الجنة حيث نشاء)^(١) فعليه أن يسلك في هذه الدنيا النهج القويم والصراط المستقيم ، وهذه بعض معالم هذا النهج :

(١) الآية ٧٤ من سورة الزمر .

١ - **توحيد الله سبحانه وتعالى** : في الإيمان به ، فإنه [من لقي الله تعالى بالإيمان غير شكٍ فيه دخل الجنة]^(١) والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وأن يوحد الله سبحانه وتعالى في الربوبية والألوهية والقصد والطلب ، وأن يؤمن بجميع أسماء الله وصفاته الواردة في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بلا تكيف أو تمثيل أو تحريف أو تشبيه أو تعطيل^(٢) .

ومن التوحيد أن تكون أعماله خالصة لله لا يشوبها رياء ولا سمعة ، وأن يراقب الله سبحانه وتعالى في كل ما يأتي وينذر ، وأن يكون « عبداً » خاضعاً لله سبحانه وتعالى « حراً » فلا تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقنيات الدنيوية ، ولا يكون عبداً للدينار والدرهم ، فإنه كما يقول الشاعر :

* ورق ذوي الأطماع غير مخلد *^(٣)

فحسبه من الغنى الشيع والري على حد قول الشاعر :

* وحسبك من غنى شيع وري *^(٤)

(١) صحيح مسلم بشرحه السراج الوهاج ٨٦/١ .

(٢) للاستزادة في موضوع التوحيد أحيل على كتاب « العقيدة الواسطية » ففيه ما يشفي ويكفي .

(٣) عجز بيت لم أعثر على قائله ، انظر المفردات ١١١ وفيها صفات الحر . وانظر القرطبي ٢٨٠/٦ في تفسير قول الله تعالى : (إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً) الآية ٣٥ من سورة آل عمران .

(٤) عجز بيت لامريء القيس ، والبيت بتمامه :

« فتوسع أهلها أقطاً وسمناً * وحسبك من غنى شيع وري »

انظر ديوانه ص ١٣٧ والأمثال للعسكري ٣٧٩/١ .

وأن يلتزم رضى الله تعالى بالاستسلام له في جميع أموره ،
وعمد التوحيد : (كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)^(١) ؛
وهي : لا إله إلا الله ، يفهمها ويعمل بمقتضاها ويؤدي حقوقها .

٢ - **تقوى الله تعالى**^(٢) : فإن [التقوى تمنع من اتباع الهوى
وتردع عن حب الدنيا]^(٣) ، وهي خير الزاد للآخرة^(٤) .

٣ - **رجاء الله والخوف منه** : وذلك بأن يتمثل سبيل الذين
(يرجون رحمته ويخافون عذابه)^(٥) ، وفي الحديث القدسي : [قال الله عز وجل
: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمين ولا خوفين ؛ إن هو أمني في الدنيا
أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا ؛ أمنت يوم أجمع
فيه عبادي]^(٦) .

وكيف يأمن عذاب الله من يعلم أن إبليس لعن بترك سجدة ، وأخرج
آدم بلقمة ، وحُجِبَ القاتل عن الجنة بملء كف دم ، وقُتِلَ الزاني أشنع القتل
بإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل ، وجُلِدَ الظَّهْر بكلمة قذف وقطرة مسكر ،
وقُطِعَت يد بثلاثة دراهم ، أفيأمن أن يحبس الله في النار بمعصية واحدة من

(١) جزء الآية ٢٤ من سورة إبراهيم .

(٢) انظر ص ١٣٧ من هذا البحث .

(٣) شرح حديث مانتبأان جائعان ٥٧ .

(٤) انظر الآية ١٩٧ من سورة البقرة ، وكلمة لعلي بن أبي طالب رضى الله

عنه في « البيان والتبيين » ١٥٥/٣ .

(٥) جزء الآية ٥٧ من سورة الإسراء .

(٦) السلسلة الصحيحة ٣٧٧/٢ . حديث رقم ٧٤٢ .

معاصيه ! ؟ ! فقد دخلت النار امرأة في هرة^(١) .

فالمؤمن بين الخوف والرجاء ، رجاء لما عند الله باتِّباع أوامره واجتتاب نواهيه ، وخوف من عذابه وعقابه بالابتعاد عن ما يسخطه جلّ وعلا ، فأما أن يرتع في مراتع الذنوب والمعاصي ويرجو السلامة من غضب الله فذلك لا يكون ولن يكون ، يقول صلى الله عليه وسلم : [من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله غالية]^(٢) .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [لو نادى مناد من السماء : يا أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون أنا هو ، ولو نادى مناد من السماء : أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً لرجون أن أكون أنا هو]^(٣) .

٤ - الاستعداد للآخرة : فإن له رباً هو ملاقيه ، وبيتاً هو ساكنه ، [فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه]^(٤) يقول صلى الله عليه وسلم : [الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني]^(٥) .

(١) انظر الفوائد ٨٦ ، ٨٧ لابن القيم .

(٢) السلسلة الصحيحة ٦٧٥/٢ .

(٣) الحلية ٥٣/١ وانظر حياة الصحابة ٩٩/٢ .

(٤) الفوائد ٤٧ لابن القيم .

(٥) انظر تخريج الحديث ص ١٦٨ من هذا البحث .

ودان نفسه : استعبد لها وأذلها لله عز وجل ، انظر الأمالي ٢٩٥/٢ ومجمع

الأمثال ٤٤/٤ للميداني .

ولن يستعد للآخرة وينال عملها بشيء أفضل من الزهد في الدنيا^(١) .

وليحذر أن يكون من الذين يقولون يوم القيامة (يا حسرتنا على ما فرطنا فيها)^(٢) أي في الدنيا من عمل صالح^(٣) والله سبحانه وتعالى يقول : (وقدموا لأنفسكم)^(٤) ، ووعد بالجزاء والثواب فقال : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله)^(٥) ، والانسان كادح إلى ربه^(٦) ، فإن [استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله]^(٧) .

ولا يستكثر من الدنيا ، فإنه أدعى للنقاش في الحساب و [من نوقش الحساب عذب]^(٨) ، يقول الله للمكثرين : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم)^(٩) .

وإذا أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله له أمر دنياه وأخراه ، أما إذا أفسد ما بينه وبين الله وجاهر بالعداوة وأفسد دنياه فكيف يأمل في صلاح آخرته ، يقول « عمرو بن أحمر الباهلي » :

إِذَا ضَيَّعْتَ أَوَّلَ كُلِّ أَمْرٍ أَبَتْ أَعْجَازُهُ إِلَّا التَّوَّاءَ^(١٠)

(١) انظر الزهد ١٥٢ للإمام أحمد ، وفيه كلام لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه حول هذا .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنعام .

(٣) انظر القرطبي ٤١٣/٦ .

(٤) جزء الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

(٥) جزء الآيتين ١١٠ من سورة البقرة و ٢٠ من سورة المزمل .

(٦) انظر الآية ٦ من سورة الانشقاق .

(٧) القرطبي ٢٧١/١٩ .

(٨) البخاري بشرحه عون الباري ٢٩٢/١ .

(٩) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(١٠) ديوانه ٣٩ جمع وتحقيق الدكتور : حسنين عطوان ، نشر مجمع اللغة

العربية ، دمشق ، د . ط . د . ت . وانظر المؤلف والمختلف ٣٧ للآمدي .

وليضع نصب عينيه ذلك اليوم : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) (١) .

٥ - عبادة الله سبحانه وتعالى (٢) : وخير العبادة « ذكر الله »

وهو خير من إنفاق الذهب والورق (٣) ، وخير من الجهاد في سبيل الله (٤) ، وعلى المسلم أن يتتبع المواطن الزمانية والمكانية لقبول العبادات ومضاعفة الأجر فيها ، كالصلاة في جوف الليل ، والصلاة جماعة في المساجد ، وصيام يومي الاثنين والخميس والأيام البيض ، وعشر ذي الحجة ، ويوم عرفات ، وقيام ليلة القدر والعشر الأواخر من رمضان وغيرها مما هو مبسوط في كتب السنة .

والعبادات في جميع صورها هي أمضى سلاح للمسلم ليعيش في معية الله سبحانه وتعالى ، ولتهون عنده متاعب الدنيا وترخص متارف الحياة والمال .

٦ - الاستزادة من الأعمال الصالحة : وذلك بالاجتهاد

في العبادة قدر الطاقة ، يقول صلى الله عليه وسلم : [اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا ، وإن أفضل العمل أدومه وإن قل] (٥) .

(١) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

(٢) انظر معنى العبادة ومدلولها في القرطبي ٢٢٥/٨ - ٢٢٦ .

(٣) الورق : الفضة .

(٤) انظر حديثاً بهذا المعنى في البخاري بشرحه عون الباري ٣١٢/٤ .

(٥) مسند الامام أحمد ٤٠/٨ بتحقيق شاكر ، وصحيح الجامع الصغير =

ومن فضل الله تعالى أن العبد إذا مرض أو سافر كُتِبَ له من العبادة والأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً^(١). ولكل إنسان صحيفة أعمال تكتب فيها حسناته وسيئاته^(٢)، فعلى الإنسان المسلم الاستزادة من العمل الصالح^(٣) ليؤتى يوم القيامة كتابه يمينه، وليملاً صحيفته بالأعمال الصالحة، وإذا ما أحدث ذنباً ومظالم بادر بالتوبة والاستغفار من الذنب والتحلل من أهل المظالم، والله يبدل سيئاته حسنات^(٤)، فمن صدق الله بالاجتهاد في عبادته نفقه صدقه يوم القيامة^(٥)، ودخل الجنة بسلام.

٧ - الجهاد في سبيل الله : لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ،

وهو التجارة الرباحة ، وعقدُ بين الله وبين المؤمنين ، يقول تعالى :
(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون

= ٣٩١/١ حديث رقم ١٢٣٩ ، وانظر القرطبي ٢٠٨/١ وفيه : « قيل : حتى بمعنى الواو ، أي وتملأوا ، وقيل المعنى : لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل » .

(١) انظر حديثاً بهذا المعنى في البخاري بشرحه فتح الباري ١٣٦/٦ .
(٢) انظر الآيتين ١٤ من سورة الاسراء ، و ٢٩ من سورة الجاثية ، وانظر القرطبي ١٧٥/١٦ وصفة الصفوة ٢٣٠/٣ في بيان حقيقة ومعنى هذه الصحيفة .

(٣) انظر حديثاً نبوياً في الارشاد لفضائل الأعمال ، في السلسلة الصحيحة ١١١/٢ وانظر في حسن العمل : الترمذي كتاب الزهد ، حديث رقم ٢٣٣١ .
(٤) انظر الآية ٧٠ من سورة الفرقان ، وحديثاً في البخاري بشرحه فتح الباري ١٠١/٥ .

(٥) انظر القرطبي ٣٧٩/٦ .

في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم] (١) ، ويقول تعالى : (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) (٢) ، وحياة المسلم كلها جهاد ، وجهاده هو حياته وعزه ومجده في الدنيا والآخرة ، (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) (٣) .

وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فضل الجهاد وعظم أجر المجاهدين وثوابهم ومقامهم عند الله سبحانه وتعالى ، ما يجعل نفس المسلم تطير شوقاً ولهفة إلى لقاء الله عز وجل في ساحات الجهاد (٤) .

٨ - التقلل من الدنيا : وذلك هو حقيقة الزهد ، الذي يشير إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : [ازهد في الدنيا يحبك الله] (٥) .

وإذا ما رزقه الله بمالٍ أحسن التصرف فيه بأداء حقّه وإنفاقه في وجوهه ، فإنما هو وديعة عنده ، يقول « لبيد بن ربيعة » رضي الله عنه :
وما المال والأهلون إلا ودائع * ولا بد يوماً أن تُردَّ الودائع (٦).

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة وانظر الآيات ١٠-١٣ من سورة الصف .

(٢) الآية ٧٤ من سورة النساء .

(٣) الآية ٩٥ من سورة النساء .

(٤) انظر بعض هذه الفضائل في البخاري بشرحه عون الباري ١/١٧٦ و ٤/٣١١-٤٩٩ ، والمقام يضيق عن ذكر جزء منها ، واكتفي بالإحالة هنا فقط .

(٥) السلسلة الصحيحة ٦٦١/٢ حديث رقم ٩٤٤ .

(٦) ديوانه ص ٨٩ .

وحول هذا الموضوع تدندن كتبُ الزهد ، يقول « إبراهيم بن يزيد » :
[إنما يهلكُ الناسُ في فضول الكلام وفضول المال] (١) .

٩ - محاربة الشيطان (٢) ونوازع الهوى : فقد توعد الشيطان

بني آدم (وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلنهم ولأمنينهم
ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخذ
الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، يعدمهم ويمنيهم وما
يعدمهم الشيطان إلا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً) (٣) .

فالمؤمنُ يرضي الله سبحانه وتعالى بمعصيته للشيطان واتخاذهُ عدواً
مبيناً ، ويعتصم بالله من نوازعه قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم
طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) (٤) .

١٠ - اعتبار الإنسان بنفسه : بالنظر والتدبر إلى بداية خلقه

وتكوينه في رحم أمه ثم خروجه إلى الحياة ضعيفاً لا يملك من أمره شيئاً ،
ثم تسخير الله سبحانه وتعالى لوالديه اللذين يحيطانه بحنانهما وعطفهما إلى
أن يكبر ، ويرى نعم الله تتوالى عليه ، ثم ينظر إلى ماذا يصير ، وهو في ذلك

(١) البيان والتبيين ١٩٢/١ ، وإبراهيم بن يزيد النخعي اليماني ثم
الكوفي ، الإمام الحافظ الفقيه المحدث ، أحد الأعلام ، انظر ترجمته
ومراجعتها في سير أعلام النبلاء ٥٢٠/٤ .

(٢) انظر ص ١٣٩ من هذا البحث .

(٣) الايات ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ من سورة النساء . وانظر تفسيرها في
القرطبي ٣٨٨/٥ وما بعدها .

(٤) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .

كله ضعيف في أمس الحاجة إلى لطف الله ورحمته ، تعتريه الأمراض ، وتعتوره المصائب والمحن ، يقول الله تعالى في سورة عبس : (قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلاً لما يقض ما أمره ، فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صبينا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضباً ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم) (١) .

فإذا عرف الإنسان حقيقته ومدى ضعفه وضآلته نأى عن الكبر والزهو ؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول : [اللهم احيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنني في زمرة المساكين] (٢) . والمسكنة هنا هي : الإخبات والتواضع .

قال ابن العربي : [كان شيوخنا يستحبون أن ينظر المرء في الآيات الحكيمة التي جمعت هذه الأوصاف العلمية :

كيف يزهو من رجيعة	أبد الظّهر ضجيعة
فهو منه وإليه	وأخوه ورضيعة
وهو يدعو إلى الحش	ش بصغر فيطيعة] (٣) .

(١) الآيات ١٧ - ٣٢ من سورة عبس .

(٢) السلسلة الصحيحة حديث رقم ٣٠٨ .

(٣) أحكام القرآن ٨١٨/٢ لابن العربي ، بتحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م . د . د . ط . وانظر القرطبي ٣٣٤/٧ . ورجيعة : أي العذرة والروث ، والحش : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلاء لما كان من عانتهم التغوط في البساتين .

وهو مع ضعفه وقلة حيلته ، له إله معبود ، وميزان موضوع ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

١١ - زيارة القبور : ليقف الإنسان على نهايته الحتمية ، وهي من أعظم الدواء للقلوب القاسية لأنها تذكرها الموت والآخرة ، وتعين على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها^(١) .

١٢ - ترك الأثر الصالح بعد الموت : يقول تعالى (يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)^(٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : [من سنَّ سنةً حسنةً فعُمِلَ بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً]^(٣) .

ومن فضل الله سبحانه وتعالى أن المؤمن لا ينقطع عمله بعد موته ، يقول عليه الصلاة والسلام : [إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً علمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته]^(٤) .

وتلك الحياة الخالدة في الدنيا التي لا تتأثر بالموت ، وذلك الأجر العظيم الذي يتضاعف ليرفع درجات المؤمن عند الله في الآخرة .

(١) انظر أحاديث عن هذا مثلاً في : سنن ابن ماجه ١/٥٠٠ - ٥٠١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة القيامة .

(٣) سنن ابن ماجه ٢/٧٤ حديث رقم ٢٠٣ وانظر الأحاديث ٢٠٤ - ٢٠٨ .

(٤) ذاته ١/٨٨ حديث رقم ٢٤٢ .

١٣ - أن يأخذ حظه من الدنيا : يقول تعالى : (ولا تنس

نصيبك من الدنيا)^(١) ، ويقول عز وجل : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا)^(٢) . فهذه الآية تضمنت [تناول المباح والشهوات والانتفاع بكل لذيذ من مطعم ومشرب ومنكح وإن بولغ فيه وتنهى في ثمنه]^(٣) ، ولكن ذلك مشروط بتمام الآية : (إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)^(٤) .

والعمل للدنيا إن اقترن بالنية الصالحة عبادة يُثاب عليها المؤمن ، حتى الأكل والشرب وحتى اللقمة يضعها الرجل في فم زوجته والنفقة في رحمها^(٥) ، فإن الله [يعطي العبد على نية الآخرة ما شاء من الدنيا والآخرة ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا]^(٦) .

والعمل للدنيا بشروط هي : أن يكون العمل طيباً ، وأن يستصحب النية الصالحة ، وأن لا يشغل عن عبادة الله ، وأن لا يدخله الهلع والطمع ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [كونوا أوعية الكتاب ، وينابيع العلم ، وسلوا الله رزق يوم بيوم ، ولا يضركم أن لا يُكثِرَ لكم]^(٧) .

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه : [لا ألفين أحدكم جيفة ليل

(١) الآية ٧٧ من سورة القصص .

(٢) الآية ٩٣ من سورة المائدة .

(٣) القرطبي ٢٩٦/٦ .

(٤) الآية ٩٣ من سورة المائدة .

(٥) وردت أحاديث عدة في هذا المعنى ، انظر مثلاً : صحيح البخاري ٤٧/٤ ،

وشرحه فتح الباري ٣٦٣/٥ وانظر صفة الصفوة ٩٩/٣ .

(٦) البيان والتبيين ١٤٧/٣ .

(٧) الزهد ١٤٩ للإمام أحمد .

وقطرب نهار] (١). ووعظ أبو الدرداء رضي الله عنه رجلاً فقال :

[لا تَأْكُلْ إِلَّا طَيِّباً ، وَلَا تَكْسِبْ إِلَّا طَيِّباً ، وَلَا تُدْخِلْ بَيْتَكَ إِلَّا طَيِّباً ،
وَسَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرْزُقُكَ يَوْمًا بِيَوْمٍ] (٢) .

فهذا هو التوكل بمعناه الصحيح ، فعلى الإنسان أن يأخذ
بالأسباب ثم يدع النتائج لله سبحانه ، لا كما فهمه أناسٌ فصار « تواكلاً »
لا توكلًا ، فلا يأخذون بالأسباب ويتمنون على الله أن يخرق لهم العوائد ،
فهذا « أبو زر » رضي الله عنه الذي خرجت الدنيا من قلبه ، فكان مثلاً
للزهد فيها يقول : [اجعل الدنيا مجلسين : مجلساً في طلب الحلال ، ومجلساً
في طلب الآخرة] (٣) .

(١) صفة الصفوة ٤١٤/١ وقطرب هو : دويبة لا تستريح نهارها سعيًا .
فشبه بها الرجل يسعى نهاره في حوائج دنياه ، فإذا أمسى كان تعبًا ،
فينام ليلته حتى يصبح كالجيفة التي لا تتحرك .

(٢) حياة الصحابة ٥١٨/٣ .

(٣) صفة الصفوة ٥٩٢/١ .

قَدْرُ الدُّنْيَا عِنْدَ الْمُؤْمِنِ

لحمد بن الحنفية^(١) كلام بليغ عن قدر الدنيا عند المؤمن . اقتطف منه المقاطع التالية : [من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر]^(٢) [ما الدنيا ما عسى أن تكون ؟ هل هو إلا مركب ركبته أو ثوب لبسته ، أو امرأة أصبتها ! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ولم يصمّمهم عن ذكر الله ما سمعوه بأذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوه بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار]^(٣) [فأنزل الدنيا كمنزلٍ نزلت به وارتحلت منه ، أو كمالٍ أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء]^(٤) . انتهى كلامه رحمه الله .

وإذا كان الكفار كما يقول تعالى : (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)^(٥) ، يعظمون الدنيا ويتهافتون عليها فـ [في الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم ، وتتقلل عندهم وتدق]^(٦)

(١) هو « محمد بن علي بن أبي طالب » نُسب إلى أمه خولة بنت جعفر إحدى سبايا بني حنيفة ، تمييزاً له عن أخويه الحسن والحسين ، سُمِّيَ باسم النبي صلى الله عليه وسلم وتكنّى بكنيته بإذن منه صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد الأبطال الشعراء ، تزعم الكيسانية - إحدى فرق الشيعة - أنّه المهدي وأنه لم يمّت وهو مقيمٌ برضوى ، انظر ترجمته في : صفة الصفوة ٧٧/٢ وحلية الأولياء ١٧٤/٣ ونسب قريش ٤١ - ٤٣ ، والأعلام ٢٧٠/٣ .

(٢) صفة الصفوة ٧٧/٢ .

(٣) ذاته ١٠٨/٢ .

(٤) ذاته ١٠٩/٢ .

(٥) الآية ٧ من سورة الروم .

(٦) أي : الدنيا .

إذا ذكروا الآخرة [(١)] .

[والإنسان لا بدّ له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه ودفع ما يضرّه] (٢) ، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : [ليس من حبك الدنيا التماسك بما يصلحك منها] (٣) ويقول : [من فقهك يا عويمر (٤) ، إصلاح معيشتك] (٥) .

وقال يحيى بن معاذ : [كيف لا أحبّ دنيا قُدر لي فيها قوت ، اكتسبُ بها حياة ؛ أدرك بها طاعة ؛ أنال بها الجنة] (٦) .

أما التحذير من الدنيا فالمقصود به ذلك الاتجاه الذي يجعل من الدنيا منتهى همّ الإنسان وقصده ، [ثمّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال عليّ :

الدنيا دار صدق لمن صدقها (٧) ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزوّد منها ، ومهبط وحي الله ، ومصلّى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا الذي يذمها وقد آذنت ببيئها ونادت بفراقها ؟ ! وشبّهت بسرورها السرور ، وببلائها

(١) القرطبي ٢٥٦/١٧ .

(٢) العبودية ٢٣ لابن تيمية .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١٥ .

(٤) اسم أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٥) جامع بيان العلم وفضله ١٥ .

(٦) تزكية النفوس ١٢٨ .

(٧) يقول الله تعالى : (هذا يوم ينفع الصائقين صدقهم ، الآية ١١٩ من

سورة المائدة ، قال المفسرون : إن المقصود بالصدق : الصدق في الدنيا

أما الآخرة فلا ينفع فيها الصدق ، انظر القرطبي ٣٧٩/٦ .

البلاء ، ترغيباً وترهيباً ، فيا أيها الذايمُ للدنيا ، المخلّلُ نفسه ، متى خدعتك الدنيا ، أم متى استندمت إليك ؟ أبمصارع أبائك في البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك في الثرى ؟ كم مرّضت ببيدك ؟ وكم علّلت بكفيك ؟ تطلّب الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغني عنه دواؤك ، ولا ينفعه بكاؤك ، ولا تنجيه شفقتك ، ولا تشفع فيه طلبتك [(١)] .

فالمؤمن يرى الدنيا فرصة للتزود للآخرة، ويرى العمر فترة اختبار وتذكّر (٢) ؛ يحافظ على كل ساعة فيه فلا يقضيها في ما لا يفيده في دنياه وآخرته ، يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه [انتهزوا هذه الفرص فإنها تمرّ مرّ السحاب ، ولا تطلبوا أثرا بعد عين] (٣) .

وابن آدم ما هو إلا أيام فإذا ذهب بعضها ذهب بعضه ، ولا يزال في هدم عمره من يوم ولدته أمه (٤) .

وبهذا نعرف أن ذم الدنيا ليس راجعاً إلى زمانها الذي هو الليل والنهار ، فإن الله تعالى يقول : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يتذكر أو أراد نشورا) (٥) .

ولذلك [لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد] (٦) .

(١) البيان والتبيين ١٩٠/٢ - ١٩١ ، وعيون الأخبار ٣٢٩/٢ باختلاف يسير جداً في اللفظ .

(٢) انظر مثلاً الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٣) العقد الفريد ٣٣/١ .

(٤) انظر صفة الصفوة ٦٣٨/١ .

(٥) الآية ٦٢ من سورة الفرقان ، وانظر تزكية النفوس ١٢٥ .

(٦) الفوائد ٦٣ لابن القيم .

فالوقت هو رأس مال العبد المؤمن ، بل هو الحياة ، وقد قيل : إن
[إضاعة الوقت أشد من الموت ، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار
الآخرة ، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها] (١) .

والمؤمن يرى نفسه في الدنيا ضعيفا يرتحل عما قريب ، وماله وأهله
ودائع مؤداة (٢) ، ولذلك يتقلل من التوسع في العيش ، وحسبه منه كما قال
بعضهم (٣) :

حسب الفتى من عيشه زاداً يبالي به المحلاً
خبز وماء بارد والظل حين يريد ظلاً

لأن المؤمن يرى نفسه أسيراً في الدنيا يسعى في فكاك رقبتة ، لا
يأمن شيئاً حتى يلقي الله عز وجل (٤) . وهذا هو معنى الحديث : [الدنيا
سجن المؤمن وجنة الكافر] (٥) .

وكفى بالقرآن والموت رادعان [ومن لم يردعه القرآن والموت ثم
تناطحت الجبال بين يديه لم يردع] (٦) . يقول « البرج بن مسهر الطائي » (٧) :

-
- (١) ذاته ٤٧ وانظر ص ٢٢٥ .
(٢) انظر الحلية ١٣٤/١ ، وصفة الصفوة ٤١٨/١ - ٤١٩ ، وتزكية النفوس ١٣١
والمزهر ١٦٣ للإمام أحمد .
(٣) لم ينسبه الجاحظ في البيان والتبيين ١٧٩/٢ وانظر فيه أيضاً شعراً
لطيفاً لأعرابي بهذا المعنى .
(٤) انظر صفة الصفوة ٢٣٥/٣ .
(٥) صحيح مسلم ٩٣/١٨ .
(٦) الزهد ٢١٠ للإمام أحمد .
(٧) مضت ترجمته ص ١٨٤ من هذا البحث .

كفى بالقبور صارماً لورعيتِه ولكنَّ ما أعلنت بادٍ وخافض (١)
والموت يأتِي بلا موعد ، ولكنَّ المؤمن مستعدٌّ له على الدوام ،
ديدنه قول الشاعر :

لا يغررك مساءً ساكنٌ قد يوافي بالمنيات السَّحرُ (٢)
أو قول الآخر :

يا راقِد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا (٣)
وعلى كلِّ ، فالمؤمن يرى أن [لو كانت الدنيا من ذهبٍ يَفْنِي ، والآخرة
من خِزفٍ يَبْقَى ، لكان الواجب أن يُؤثِّر خِزفُ يَبْقَى على ذهبٍ يَفْنِي ، فكيف
والآخرة من ذهبٍ يَبْقَى والدنيا من خِزفٍ يَفْنِي ؟ !!] (٤) .

(١) حماسة (عسيلان) ٣١٢/١ والبيت في معاتبة خليل مجانب .

(٢) البيان والتبيين ١٩٤/٣ .

(٣) ذاته ٢٠٢/٣ .

(٤) انظر القرطبي ٢٤/٢٠ .

حال الكافرين في الدنيا

يقول الله تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً)^(١) .
هذه هي حالهم في الدنيا والآخرة .

وإذا كان الله تعالى يقول في حق الناس عامة : (زين للناس حبّ الشهوات)^(٢) فإنه سبحانه وتعالى يقول في حق الكفار خاصة : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا)^(٣) ، فآمالهم وغاياتهم مقصورة على الدنيا ، يقول تعالى : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا)^(٤) .

وما يعطيهم الله من زينة الدنيا إنما هو مكر من الله تعالى بهم واستدراج ؛ يقول تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وينين نसारح لهم في الخيرات بل لا يشعرون)^(٥) ، ويقول تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين)^(٦) .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، ولكن هل يتنعم الكفار في الدنيا ؟؟؟
والإجابة على هذا السؤال قد تطول نظراً لاختلاف العلماء في ذلك^(٧) .

(١) الآيات ١.٣ - ١.٥ من سورة الكهف .

(٢) الآية ١٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٢١٢ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٢٩ من سورة النجم .

(٥) الآية ٥٦ من سورة المؤمنون .

(٦) الآية ١٧٨ من سورة آل عمران .

(٧) انظر أقوالهم في القرطبي ٤/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

والحق أن الكفار يتمتعون بنعم الدِّفع ، وهي ما زُوِيَ عنهم من الآلام والأسقام ، أما النعم الدينية فهم محرومون منها ، ومن أدلة إنعام الله على الكافرين ، قوله تعالى : (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله)^(١) ، وقوله تعالى : (ونعمةً كانوا فيها فاكهين)^(٢) .

والله تعالى يأمرهم بالشكر ، يقول تعالى : (كلوا من رزق ربكم واشكروا له)^(٣) ، والشكر لا يكون إلا على النعمة ، وقد سمى الله سبحانه وتعالى هذه النعم متاعاً وغروراً^(٤) .

ولا يعنى ذلك أن الكفار لا تعتر بهم المصائب والبلايا والشدائد ، كلا ، إن الله سبحانه وتعالى يقول : (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين)^(٥) وذلك تعجيل العذاب بما قدمت أيهم : (لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق)^(٦) .

وتعجيل النعم تأجيل للعذاب ، يقول تعالى : (نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ)^(٧) ويقول تعالى : (يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة)^(٨) ، فإن أنعم عليهم فالدنيا هي حظهم الوحيد .

أما أعمالهم الحسنة والتي فيها نفع لأنفسهم وللناس وللأرض

(١) الآية ١١٢ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الدخان .

(٣) الآية ١٥ من سورة سبأ .

(٤) انظر ص ٩٣ من هذا البحث .

(٥) الآية ٥٦ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٣٤ من سورة الرعد .

(٧) الآية ٢٤ من سورة لقمان .

(٨) الآية ١٧٦ من سورة آل عمران .

فجزأؤهم معجل في الدنيا أيضاً يرون ثوابها في أنفسهم وأهلهم وأولادهم حتى يخرجوا من الدنيا وليس عندهم خير^(١) . ولا يقبل الله أعمالهم يوم القيامة ، يقول تعالى : (وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً)^(٢) . ويضربُ الله تعالى الأمثال لأعمالهم الحسنة في الدنيا ، يقول تعالى : (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ^(٣) أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته)^(٤) ، ويقول تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنه فوفاه حسابه)^(٥) ويقول تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء)^(٦) .

ويقول أبو ذر رضي الله عنه : [الحمد لله الذي جعلنا من أمة تُغفر لهم السيئات ، ولا تُقبل من غيرهم الحسنات]^(٧) .

ويصف الله سبحانه وتعالى حال الكافرين في الدنيا فيقول عز وجل : (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون)^(٨) . ويقول عنهم :

(١) انظر القرطبي ١٥٠/٢٠ في تفسير قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . و انظر حديثاً بهذا في صحيح مسلم ١٥٠/١٧ .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٣) قيل في الصر : إنه البرد الشديد ، وقيل : النار ، وقيل : الصوت الذي يصحبُ الريح من شدة هبوبها ، وانظر القرطبي ٢٨٢/١٢ في تشبيهه أعمال الكفار .

(٤) الآية ١١٧ من سورة آل عمران ، وانظر الفوائد ٥٣ لابن القيم .

(٥) الآية ٣٩ من سورة النور .

(٦) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٧) البيان والتبيين ٢٨٦/٣ .

(٨) الآية ٥٥ من سورة الأنفال .

(لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ) (١) .

والفرق الظاهر - في هذه الدنيا - بين الكافر والمؤمن هو : أن المؤمن يعلم لماذا خُلِقَ ، وإلى أين ينتهي به المطاف ، ويعرف أن لوجوده حكمة عظيمة ، يقول تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) (٢) ، وهذه الحكمة تتمثل في قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٣) ، ويعيش المؤمن حياته ودينه ويطوعها لعبادة الله ، لذلك كان المؤمن الأوائل يجنون في الدنيا وحشة لا يؤنسهم فيها إلا طاعة الله وذكره (٤) .

ومعرفة الغاية والهدف مرتبط أساساً بمعرفة الخالق الذي عرض (الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) (٥) .

فالمؤمن يقضي حياته ويمضي فيها وفق تصور صحيح كامل لا تزعجه التساؤلات التي لا يجد لها جواباً ، كالتي في قول « امريء القيس » :

أرانا موضعين لأمر غيبٍ ونُسحر بالطعام وبالشراب (٦) .

أما المؤمن فيقرع باللّوم كل من غفل عن حكمة خلقه من المؤمنين أو

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١١٥ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ٥٦ من سورة الذاريات ، وانظر معنى العبادة في المفردات ٣١٩ .

وقد وردت العبادة - بجميع اشتقاقاتها - ٢٧٥ في القرآن الكريم .

(٤) انظر صفة الصفوة ٣/٣٤٢ .

(٥) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب . وانظر معنى « الأمانة » في القرطبي

٢٥٣/١٤ وما بعدها .

(٦) ديوانه ٩٧ وانظر ديوانه ٦٣ بشرح السندوبي ، وفي رواية : « لحتم غيبٍ »

انظر : البيان والتبيين ١/١٨٩ والأمثال والحكم للماوردي ٤٢ .

تكاسل في أداء واجباته نحو ربه ومعبوده ، يُروى : [أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ : (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) (١) ثم يبكي ويقول :

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ وليك نومٌ والردى لك لازمٌ
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازمٌ ولا أنت في النّوام ناجٍ فسالمٌ
تُسَرُّ بما يغنى وتفرح بالمنى كما سُرَّ بالذّات في النوم حالمٌ
وتسعى إلى ما سوف تكره غيبهً كذلك في الدنيا تعيش البهائم] (٢).

وقد اتفق الباحثون من الفلاسفة وأهل الملل والنحل وأصحاب المذاهب وكلّ ذي فكر معتبر في الحياة ؛ على أن بلوغ السعادة أعظم مطلب ينشده الانسان في الحياة ، فأصحاب المال والسلطان يذهبون بعيداً في البحث عن السعادة من خلالهما ويشقون ويكون في الوصول إليهما ، ويكتشفون إذا نالوهما أنهما كانا من أسباب الشقاء والمتاعب والآلام .

ولكن المسلم المؤمن يجد سعادة ويحسّ بمشاعر السرور وطمأنينة القلب وإن لم يكن لديه ما يحبّ من زينة الدنيا من مال أو جاه أو سلطان ، وإن لم ينل لذات الدنيا الجسدية ، بل لو كان جسده يعاني آلاماً عظيمة ، فما السبب ؟

(١) الآيات ٢٠٥ - ٢٠٧ من سورة الشعراء .

(٢) القرطبي ١٤١/١٣ وقد أورد القرطبي البيت الأخير في ٢١١/١ هكذا :

نهارك هائمٌ وليك نائمٌ كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ولم ينسبه هناك كما لم ينسب الأبيات هنا .

البَابُ الثَّانِي

لُتْلُ النَّظَرِ وَالْقُرْبَانِيَّةِ فِي الشَّعْرِ

وفيه ثلاثة فصول :

الأول : المخضرمون

الثاني : عصر النبوة

الثالث : عصر الراشدين

الفصل الأول

المختصر

أولاً : الجاهلية

١ - المعنى اللغوي :

تعقبت كلمة « الجاهلية » في المعاجم والكتب اللغوية ، فوجدت أنها نسبة إلى « الجهل » . وقد ذكرت هذه المراجع معاني عدة للجهل ^(١) ، منها :

أ - نقيض العلم والمعرفة ، فـ [الجهل : خلاف العلم] ^(٢) و [جهله كسمعه - جهلاً وجهالةً : ضد علم] ^(٣) ، وفلاة ، ومفازة : [مجهلٌ - كمقعد - لا أعلام فيها ولا يهتدى فيها إلا بالآرام ؛ قال « مزاحم العقيلي » ^(٤) :

غدت عليه بعدما تمّ خمسها تصلّ وعن قيض بزياء مجهل ^(٥) .

ويقال عن المفازة التي لا أعلام فيها : [ركبته على مجهولها ، قال «سويد بن أبي كاهل » ^(٦) :

-
- (١) انظر مادة « جهل » في جميع المراجع .
 (٢) الصحاح ١٦٦٤/٤ ، ولسان العرب ١٢٩/١١ .
 (٣) تاج العروس ٢٦٨/٧ وانظر كتاب « الأفعال » لابن القطاع ١٥٩/١ .
 (٤) شاعرٌ بدويٌّ مفلقٌ غزلٌ شهد له جرير والفرزدق وذو الرمة بتقديمه عليهم في الشعر . ولعل هذا البيت أشبه أن يكون من قصيدة أورد منها الجاحظ في البيان والتبيين ٢٥٢/٣ و ٩/٤ بيتين . انظر ترجمته في طبقات الشعراء ٧٦٩ وما بعدها والأعلام ٢١١/٧ .
 (٥) تاج العروس ٢٦٨/٧ . وانظر ترتيب القاموس المحيط ٥٤٩/١ .
 (٦) شاعر مخضرم معمر عاش في الجاهلية والاسلام عمراً طويلاً ، قرنه ابن سلام بعنترة ، أشهر شعره قصيدته « العينية » التي قالها في الجاهلية . وهي من أطول القصائد ، حفظ منها الرواة نيفاً ومائة بيت ، وهذا البيت منها . انظر ترجمته في : المفضليات ١٩٠ والشعر والشعراء ١٩٠/١ ، والأعلام ١٤٦/٣ .

فركبناها على مجهولها — بصلاب الأرض فيهن شجع^(١).

ويقال : [فلاة مجهل : لا علم بها ، خلاف معالم]^(٢) ، و [المجاهيل : خلاف المعالم]^(٣) [والمعروف في كلام العرب : جهلت الشيء : إذا لم تعرفه]^(٤) و [يقال : هو يجهل ذلك : أي لا يعرفه]^(٥) .

ب - ضد الخبرة ، وضد العقل ، ويفهم هذا المعنى من سياق شرحهم لكلمة « الجاهل » الواردة في قول الله تعالى : (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف)^(٦) إذ قالوا : [يعني الجاهل بحالهم ولم يرد الجاهل الذي هو : ضد العاقل ، وإنما أراد الذي هو : ضد الخبرة]^(٧) .

ج - الخفة والسّفه ، يقال : [استجهله : استخفه]^(٨) ، وفي أساس البلاغة : [وهو يجهل على قومه : يتسافه عليهم ، قال]^(٩) :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا^(١٠) .

-
- (١) لسان العرب ١٣٠/١١ . وانظر الصحاح ١٦٦٤/٤ .
 (٢) أساس البلاغة ١٠٧ للزمخشري ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م . د . ط . وانظر ديوان الأدب ٢٨٢/١ و ٢٨٥/١ .
 (٣) تاج العروس ٢٦٨/٧ . (٤) لسان العرب ١٢٩/١١ .
 (٥) ذاته ١٣٠/١١ .
 (٦) الآية ٢٧٣ من سورة البقرة .
 (٧) انظر ديوان الأدب ٣٥٨/١ و ٣٩٠/٢ .
 (٨) ترتيب القاموس المحيط ٥٤٩/١ . ووردت بالمعنى الأول والثالث في قصيدة واحدة للبيد رضي الله عنه في ديوانه . انظر ٢٤٩ ، ٢٥٣ .
 (٩) هو عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة ، وهذا البيت آخر بيت فيها . انظر شرح القصائد العشر ٢٨٨ للتبريزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
 (١٠) أساس البلاغة ١٠٧ للزمخشري .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم عن الأبناء : [إنكم لتُجهّلون ...]^(١) [أي تحملون الآباء على الجهل حفظاً لقلوبهم]^(٢) .

وفي الحديث الشريف أيضاً [« من استجهل مؤمناً فعليه إثمه » أي : من حمّله على شيءٍ ليس من خلقه فيغضبه فإنما إثمه على من أحوجه إلى ذلك]^(٣) .

ومنه في « حديث الإفك » [« ولكن اجتهدته الحمية » أي : حملته الأنفة والغضب على الجهل]^(٤) والمعنى الأخير يشير إلى أن الجهل ضدّ الحلم .

٢ - المعنى الاصطلاحي :

ذكر الأدباء والمؤرخون والمفسّرون تعريفاتٍ عدّة لكلمة « الجاهلية » وقد اختلفت ألفاظهم واتفقت معانيهم ، فمن تعريفاتهم للجاهلية أنها :

- [زمن الفترة ولا إسلام]^(٥) .
- [اسم وقع في الاسلام على أهل الشرك ، فقالوا : الجاهلية الجاهلاء]^(٦) .
- وقالوا [كان ذلك في الجاهلية الجاهلاء : وهي القديمة]^(٧) وقيل : [جاهلية جهلاء : تأكيد]^(٨) .

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٢٢/١ .

(٢) ذاته ٣٢٢/١ .

(٣) ذاته ٣٢٢/١ .

(٤) ذاته ٣٢٢/١ .

(٥) لسان العرب ١١/١٣٠ .

(٦) جمهرة اللغة ٢/١١٤ .

(٧) أساس البلاغة ١٠٧ .

(٨) تاج العروس ٧/٢٦٨ ولسان العرب ١١/١٢٩ .

- وعن قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه في قصته المعروفة مع بلال رضي الله عنه : [إنك امرؤ فيك جاهلية]^(١) قالوا : [وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع دينه والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك]^(٢) .

وإلى هذا التعريف الأخير أميل لشموليّته ولاستيوائه جميع معاني الجهل .

وهناك أقوال أخرى بآنها : [الزمان الذي كثر فيه الجهال ، وهي ما قبل الإسلام ، وقيل : أيام الفترة وهي الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا ، وعلى ما قبل الفتح وعلى ما كان بين مولد النبي -صلى الله عليه وسلم - والمبعث]^(٣) .

(١) النهاية في غريب الحديث ٣٢٣/١ .

(٢) ذاته ٣٢٣/١ وانظر لسان العرب ١٣٠/١١ .

(٣) انظر هذه الأقوال وغيرها في بلوغ الأرب للآلوسي ١٥/١ وما بعدها .

٣ - مفهوم الجاهلية :

انقسم الأدباء والباحثون في مفهوم مصطلح « الجاهلية » إلى فريقين :

الفريق الأول : يرى أنها من الجهل الذي هو ضد العلم .

والفريق الثاني : يرى أنها من الجهل الذي هو ضد العلم .

ويستدل القائلون بالرأي الأول أن العرب كانوا على مستوى من الحضارة والثقافة والعلم ، وضربوا لذلك أمثلة بعلم النجوم والأنواء والطب والكتابة والزراعة وغيرها (١) ، وهذا مما يستحيل معه أن يُطلقَ عليهم مسمى الجهل الذي هو ضد العلم ، فالجاهلية إذاً من الجهل الذي هو ضد العلم ، وذلك شائع معروف عن العرب في الجاهلية إذ كانوا يثورون لأنفه الأسباب ، وتقوم الحروب بينهم وتسيل الدماء لأمر بسيط ، ويغلبُ عليهم الخفة والطيش والنزق ، والأخذ بالثأر ، والحمية ، وغير ذلك من الأخلاق والأعمال التي كانت تبعد بهم قليلاً أو كثيراً عن فضيلة العلم .

ومن المتزعمين لهذا الرأي الدكتور « يحيى الجبوري » في كتابه « الجاهلية » (٢) .

أما أصحاب الرأي الثاني ، فيستدلون بما كان عليه حال العرب قبل الإسلام من جاهلية وشر ، وقالوا : [طائفة جاهلية ، وشاعر جاهلي : وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم ، أو عدم اتباع العلم] (٣) .

(١) انظر مثلاً في علومهم : أبجد العلوم « الوشي المرقوم في بيان أحوال

العلوم » ١٧٥/١ فصل « العلوم عند العرب في الجاهلية » تأليف صديق

حسن القنوجي ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٨ م . د . ط .

(٢) انظر هناك استدلالاته ودفاعه عن رأيه ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) بلوغ الأرب ١٦/١ .

ومن مؤيدي هذا الاتجاه ، العلامة السيد « محمود شكري الألوسي »
في كتابه « بلوغ الأرب » (١) .

وسأستعرض بعض ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف عن
الجاهل والجاهلية ، ومن ثم أعرج على مفهوم الجهل الذي كان عليه العرب
مستأنساً بهما ، وبما جاء في الشعر العربي والجاهلي منه خاصة ، لأستبين
حقيقة هذا الجهل ، ولأصل إلى مفهوم واضح ومحدد لمصطلح « الجاهلية » .

أولاً - مفهومها من خلال القرآن الكريم :

وردت كلمة « الجاهلية » في أربعة مواضع من القرآن الكريم (٢) ، كما
وردت كلمة « الجهل » بجميع تصاريفها في أربعة وعشرين موضعاً (٣) . وقد
وصف الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أقوامهم الذين يشركون مع الله غيره
بالجهل (٤) ، قال تعالى : (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) (٥) .

-
- (١) وانظر هناك أدلته الدينية والعقلية والمنطقية ١٥/١ وما بعدها .
(٢) في الآية ١٥٤ من سورة آل عمران والآية ٥٠ من سورة المائدة والآية ٣٣
من سورة الأحزاب والآية ٢٦ من سورة الفتح .
(٣) انظر السور والايات التالية بالإضافة إلى الفقرة السابقة : البقرة ٦٧ ،
٢٧٣ والنساء ١٧ والأنعام ٣٥ ، ٥٤ ، ١١١ والأعراف ١٣٨ ، ١٩٩ وهود ٢٩ ، ٤٦
ويوسف ٣٣ ، ٨٩ والنحل ١١٩ والفرقان ٦٣ والنمل ٥٥ والقصص ٥٥
والأحزاب ٧٢ والزمر ٦٤ والحجرات ٦ .
(٤) انظر مثلاً الآيات ١٣٨ من سورة الأعراف و ٢٩ من سورة هود و ٢٣ من
سورة الأحقاف .
(٥) الآية ٦٤ من سورة الزمر .

ووصف الله تعالى بها المشركين أيضاً ، قال تعالى : (ماكانوا ليؤمنوا
إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)^(١) .

وعن قول الله تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون)^(٢) يقول المفسرون :
[المعنى : أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضع]^(٣)
وهذا جور في الحكم .

أما قوله تعالى : (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)^(٤) فمعناه :
[ظن أهل الجاهلية]^(٥) [أي يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يظن به ،
وظن الجاهلية بدل منه وهو الظن المختص بملّة الجاهلية ، أو ظن أهل
الجاهلية ، وهو ظنهم أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم باطل ، وأنه لا ينصر
ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق]^(٦) .

وقول الله سبحانه وتعالى : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية
حمية الجاهلية)^(٧) فقالوا : إن الحمية هي الأنفة والعصبية لألهتهم ، وعدم
إقرارهم للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن
الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة ، قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا
ويدخلون علينا في منازلنا فنتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا .

(١) الآية ١١١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(٣) القرطبي ٢١٤/٦ وانظر فيه معاني أخرى .

(٤) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

(٥) القرطبي ٢٤٢/٤ .

(٦) فتح القدير ٣٩١/١ للشوكاني ، دار المعرفة ، بيروت د . ط . د . ت .

(٧) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

وأقسموا باللات والعزى لا يدخلونها عليهم فهذه الحمية هي حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم^(١) .

وقول الله عز وجل : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)^(٢) [وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى ، فقيل : ما بين آدم ونوح ، وقيل ما بين نوح وإدريس ، وقيل ما بين نوح وإبراهيم ، وقيل ما بين موسى وعيسى ، وقيل ما بين عيسى ومحمد ، وقال المبرد : الجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء]^(٣) .

[قال ابن عطية : والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقها فأمروا بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم ، وكان أمر النساء دون حجاب وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كنّ عليه ، وليس المعنى أن تمّ جاهلية أخرى .

وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الاسلام ، فقالوا : جاهلي في الشعراء ، وقال ابن عباس في البخاري : سمعت أبي في الجاهلية يقول : وغير هذا]^(٤) .

قال القرطبي : [قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قشف وضنك في الغالب ، وأن التمتع وإظهار الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة ، وهي المراد بالجاهلية الأولى]^(٥) .

(١) انظر هذه المعاني وغيرها في : القرطبي ٢٨٨/١٦ ، ٢٨٩ وفتح القدير ٥٤/٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٣) فتح القدير ٢٧٨/٤ ، وانظر القرطبي ١٧٩/١٤ ، ١٨٠ وفيه أقوال أخرى .

(٤) القرطبي ١٨٠/١٤ .

(٥) ذاته ١٨٠/١٤ .

قال الشوكاني : [ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الاسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل] (١) .

وروى أن عمر بن الخطاب سأل ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين : [هل كانت جاهلية غير واحد ؟ ! فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين : هل سمعت بأولى إلا لها آخره ؟] (٢) .

وابن عباس رضي الله عنهما يرى [أنها تكون جاهلية أخرى] (٣) ويقول ابن العربي : [الذي عندي أنها جاهلية واحدة ، وهي قبل الاسلام ، وإنما وصفت بالأولى لأنها صفتها التي ليس لها نعت غيرها] (٤) .

ثانياً - الحديث الشريف :

وردت كلمة « الجاهلية » في الحديث الشريف في مواضع كثيرة منها (٥) :

١ - في حديث أبي ذر وبلال رضي الله عنهما وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه « إنك امرؤ فيك جاهلية » (٦) .

٢ - في غزوة المريسيع سنة ست من الهجرة حين تداعى (٧) الأنصار

(١) فتح القدير ٢٧٨/٤ . (٢) أحكام القرآن ١٥٣٧/٣ .

(٣) ذاته ١٥٣٧/٣ . والأمر هنا نسبي فالجاهلية لا تنتهي حتى ينتهي الناس ، ولكنها بعد ظهور الإسلام لم تعد عامة فقد تكون في ناس دون ناس أو جهة دون جهة .

(٤) ذاته ١٥٣٧/٣ .

(٥) ذكرت عدة مواضع فقط على سبيل المثال لا الحصر ، وحاولت الاختصار على صحيح البخاري ما أمكن .

(٦) انظر ص ٣٥٢ من هذا البحث . (٧) تداعى : استغاث .

والمهاجرون ، فقال الأنصار : يا للأنصار ، وقال المهاجرون : يا للمهاجرين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم [فما بال دعوى أهل الجاهلية] (١) .

٣ - ذكر البخاري في صحيحه تحت باب « قصة زمزم وجهل العرب » (٢) قول ابن عباس رضي الله عنهما : [إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) - إلى قوله - (قد ضلوا وما كانوا مهتدين)] (٣) .

٤ - تلك المرأة التي حجت مصمته (٤) ، فقال لها أبو بكر رضي الله عنه : [تكلمي فإن هذا لا يحل ، هذا من عمل الجاهلية] (٥) ، ثم سألتها و [قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية ؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم ... الخ] (٦) .

٥ - قال ابن عباس رضي الله عنهما : [سمعت أبي يقول في الجاهلية : « اسقني كأساً دهاقاً »] (٧) .

٦ - قول ابن عمر رضي الله عنه : [كان أهل الجاهلية يتبايعون لحوم الجزور إلى جبل الحبله] (٨) .

(١) انظر الحديث بتمامه في البخاري ٢٠/٥ - ٢١ وشرحه في فتح الباري ٨٩، ٨٨/١٦ .

(٢) في صحيحه ٢٢/٥ .

(٣) صحيح البخاري ٢٢/٥ والآية ١٤ من سورة الأنعام ، والآيات ١٣ فما فوق تحدثت عن بعض أنواع الشراكيات لدى الجاهليين .

(٤) أي ساكنة .

(٥) صحيح البخاري ١٢٧/٥ .

(٦) ذاته ١٢٧/٥ .

(٧) ذاته ١٢٨/٥ والحديث في شرح كلمة « دهاقاً » ومعناها مئوى .

(٨) ذاته ١٢٩/٥ . وحبل الحبله أن تنتج الناقة ما في بطنها ثم تحمل =

٧ - قول [ابن عباس رضي الله عنهما : خلال من خلال الجاهلية :
الطعن في الأنساب والنياحة]^(١) .

٨ - كان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون : فعلت في الجاهلية
كذا ، أو نذرت كذا ^(٢) . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن
وفاء نذر نذره في الجاهلية فقال [أفي نفسك شيء من أمر الجاهلية ؟
قال: لا ، قال : أوف بنذرك]^(٣) .

٩ - جرى المحدثون على عنوان أبواب كتبهم بعبارات مثل : « أيام
الجاهلية » و « القسامة في الجاهلية » وغيرها من هذا القبيل^(٤) .

١٠ - وأخيراً قوله صلى الله عليه وسلم : [والناس معادن خيارهم
في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا]^(٥) .

ثالثاً - الجهل : حقيقته ومفهومه :

يقول الراغب الأصفهاني : [الجهل على ثلاثة أضرب :

الأول : وهو خلو النفس من العلم ، هذا هو الأصل . وقد جعل ذلك

= التي نُتجت وهذا من البيوع المنهي عنها وانظر قول عائشة رضي الله
عنها [كان أهل الجاهلية ... الخ] ١٢٨/٥ .

(١) ذاته ١٣٢/٥ .

(٢) انظر مثلاً : سنن ابن ماجه ٦٨٨/١ .

(٣) ذاته ٦٨٨/١ .

(٤) انظر مثلاً : صحيح البخاري ١٢٦/٥ و ١٢٩ وفتح الباري ٨٧/١٦ وما بعدها
٢٨٩ وما بعدها .

(٥) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٦٩/١٦ - ٧٠ انظره هناك بتمامه
وشرحه .

بعض المتكلمين معني مقتضياً للأفعال الجارية على غير النظام .

والثاني : اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه .

والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه ان يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً [(١)] .

وضرب للثالث مثلاً بمن ترك الصلاة متعمداً .

ويقول الزبيدي : [الجهل على قسمين : بسيط ومركب :

فالبسيط : عدم العلم عما من شأنه أن يعلم .

والمركب : اعتقاد جازم غير مطابق للواقع [(٢)] .

ويرد قائلًا : [وأصحاب الجهل البسيط كالأنعام لفقدهم ما به يمتاز

الإنسان عنها بل هم أضل ؛ لتوجهها نحو كمالاتها [(٣)] .

ويضدها تتميز الأشياء ، فإذا كانت هذه هي حقيقة الجهل ، فما هو

العلم ؟ !

يقول الراغب الأصفهاني : [العلم : إدراك الشيء بحقيقته [(٤)] ويقول

: [والعلم من وجه ضربان : نظري وعملي :

فالنظري : ما إذا علم فقد كمل ، نحو : العلم بموجودات العالم .

والعملي : ما لا يتم إلا بأن يعمل ، كالعلم بالعبادات [(٥)] .

(١) المفردات ١٠٢ .

(٢) تاج العروس ٢٦٨/٧ .

(٣) ذاته ٢٦٨/٧ .

(٤) المفردات ٣٤٣ .

(٥) ذاته ٣٤٣ .

واختلفوا في تفسير الحديث [إن من العلم لجهلاً] ^(١) ؛ فقال ابن منظور: [هو أن يتعلم ما لا يحتاج إليه كالنجوم وعلوم الأوائل ؛ ويدع ما يحتاج إليه من دينه من علم القرآن والسنة] ^(٢) ، وينحوه قال الزبيدي ^(٣) .

[وقيل : هو أن يتكلف العالم القول فيما لا يعلمه فيجهله ذلك] ^(٤) .

وعن الضلال المذكور في قوله تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ^(٥) ؛ يقول الراغب الأصفهاني :

[الضلال : العدول عن الطريق المستقيم وبعاده : الهداية] ^(٦) [وهو

ضريان :

ضلال في العلوم النظرية : كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة ونحوهما] ^(٧) .

[وضلال في العلوم العملية : كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي :

العبادات] ^(٨) .

وعن قول الله تعالى : (يعلمون : ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن

الآخرة هم غافلون) ^(٩) ، يقول المفسرون :

(١) النهاية في غريب الحديث ٣٢٢/١ .

(٢) لسان العرب ١١/١٣٠ مادة « جهل » .

(٣) انظر تاج العروس ٧/٢٦٨ .

(٤) النهاية في غريب الحديث ٣٢٢/١ .

(٥) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

(٦) المفردات ٢٣٣ .

(٧) ذاته ٢٣٣ .

(٨) ذاته ٢٣٣ .

(٩) الآية ٧ من سورة الروم .

[أي يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملذاتها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية] (١) .

وهكذا ومن خلال إجماع اللغويين على أن الجهل نقيض العلم ومن خلال المعنى الاصطلاحي للجاهلية بأنها زمن الشرك وأنها الحال التي كانت عليها العرب من الجهل بالله وشرائع دينه ، ومن وصف الله تعالى ورسله للمشركين بالجهل ، وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم في عهد النبوة ، وكذلك وصف أصحاب الجهل بأنهم كالأنعام أو أضلّ مطابقة لقوله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون) (٢) وقوله تعالى : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً) (٣) .

وكذلك ما روي أن المقصود في الحديث « إن من العلم لجهلاً » هو العلوم الدنيوية ، وأن الضلال والجهل كل الجهل هو عدم معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة ونحوهما .

من خلال ذلك كله أستطيع أم أجزم بأن « الجاهلية » من الجهل ضد العلم قولاً واحداً (٤) .

وبالإضافة إلى الأدلة السابقة التي تقطع بصحة ما أميل إليه وأرجحه ، أزيد فأبرهن وأقول :

أولاً - إن مصطلح « الجاهلية » مصطلح ديني قبل أن يكون مصطلحاً أدبياً أو تاريخياً أو اجتماعياً .

ثانياً - أن المعنى الأصلي للجهل هو نقيض العلم ، وهذا ما أجمعت

(١) فتح القدير ٢١٥/٤ وانظر القرطبي ٨/١٤ .

(٢) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٤٤ من سورة الفرقان .

(٤) انظر مثلاً : ما قاله « جعفر بن أبي طالب » رضي الله عنه أمام

النجاشي وكيف وصف الجاهلية والجاهليين . نهاية الأرب ٢٤٨/١٦ .

والسيرة ٢٩٠/١ .

عليه كتب اللغة ، وأن الجهل الذي هو نقيض الحلم معنى ثانوي .

ثالثاً - يقول الله تعالى : (فاعلم انه لا إله إلا الله)^(١) فهذا هو العلم الحقيقي بدليل أن القرآن الكريم يصف الجاحدين لهذه الحقيقة بأنهم « لا يعلمون » يقول تعالى : (أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون)^(٢) ويصف الجاهليين بقوله عز وجل : (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)^(٣) ، ويقول عز وجل : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)^(٤) تمييزاً للمؤمنين الموحدين عن المشركين الجاهليين^(٥) .

رابعاً - بوب البخاري لقول الله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله)^(٦) فقال : [باب : العلم قبل القول والعمل]^(٧) .

خامساً - إن الاسلام والتوحيد هو العلم وهو ما بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، يقول عليه الصلاة والسلام : [مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث ... الخ]^(٨) .

سادساً - إن حال العرب قبل الاسلام وجهلهم بالله وشرائع دينه ، بل وجهلهم بشئون حياتهم ومصيرهم بعد الموت خير دليل على ما نقول^(٩) .

(١) الآية ١٩ من سورة محمد .

(٢) الآية ٦١ من سورة النمل ، والآيات في هذا المعنى تستعصى على الحصر .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة المائدة . (٤) الآية ٩ من سورة الزمر .

(٥) انظر فتح القدير ٤٥٣/٤ . (٦) الآية ١٩ من سورة محمد .

(٧) صحيح البخاري ٤٥/١ .

(٨) ذاته ٥١/١ والمثل هنا : الصفة العجيبة لا القول السائر ، والهدى : الدلالة والرشاد ، والغيث : المطر .

(٩) في الطبري ٣٩٤/٢ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أول جمعة جمعها بالمدينة ، مبيناً أن الله بعثه [على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس] .

فهذا لبيد بن ربيعة رضي الله عنه ، يقول في الجاهلية - بعد أن عدد
الملوك الذين ذهب بهم الموت - معتبراً بحاله وحالهم :

فإن تسألينا: فيم نحن ؟ فإننا عسافير من هذا الأنام المسحر^(١)
وقارنه بقول « امريء القيس » :

أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام وبالشراب^(٢)
وتأمل أيضاً قول « لبيد بن ربيعة » رضي الله عنه :

وإنا قد يرى ما نحن فيه ونُسحر بالشراب وبالطعام
كما سُحِرَتْ به إِرْمٌ وعَادٌ فأضحوا مثل أحلام المنام^(٣)
وانظر كم هو مطابق لقول « زهير بن أبي سلمى » حكيم الجاهلية :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالشراب وبالطعام
كما سُحِرَتْ به إِرْمٌ وعَادٌ فأضحوا مثل أحلام المنام^(٤)
وانظر إلى مدى الحيرة التي عاشوا وغبش التصوير الذي عانوا ،
فهؤلاء عقلاء العرب وحكماؤهم فما بالك بعامتهم وسفهائهم .

ويوجز هذه الحيرة وهذا الجهل وعدم معرفة غاية حياة الإنسان
في الجاهلية « عروة بن الورد » ، إذ يجبهنا بهذا السؤال الغارق في الحيرة
والجهل :

فما آخر العيش الذي أتنظر^(٥) ؟

(١) ديوانه ٥٦ .

(٢) ديوانه ٩٧ وموضعين : من الوضع وهو ضرب من السير .

(٣) ديوانه ٢٠٩ .

(٤) ديوانه ١٠٠ (دار بيروت / ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م ، د . ط .) .

(٥) ديوانه ٧٩ بتحقيق الدكتور عبدالمعين الملوحي ، وزارة الثقافة والإرشاد

القومي ، دمشق ، ١٩٦٦ م ، د . ط .

لقد كانوا يرون الحياة عبثاً لا هدف منها ولا غاية ولا معنى إلا التمتع واللذة ؛ يقول « مجمع بن هلال بن مالك التيمي »^(١) :

[أَنْ أُمْسِ شَيْخاً قَدْ كَبُرَتْ فُطَالْمَا عَمَرْتُ وَلَكِنْ لَا أَرَى الْعَمْرَ يَنْفَعُ !!!
مَضَتْ مِائَةٌ مِنْ مَوْلَدِي فَنَسِيَتْهُ وَخَمْسَ تَبَاعٍ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَرْبَعُ
وَخَيْلَ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدْ وَزَعَتْهَا لَهَا سَبِيلٌ فِيهَا الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ
شَهِدْتُ وَغَنِمْتُ قَدْ حَوَيْتُ وَلَذَّةً

أَتَيْتُ ، وَمَاذَا الْعَيْشُ إِلَّا التَّمَتُّعُ !!!][^(٢).

ولم تقتصر الحيرة والتساؤل والجهل على الوثنيين من العرب ، بل إن الحنفاء منهم أيضاً كانوا يشعرون بحيرة أصعب وأعمق ، إذ كانوا يعرفون الله حق معرفته ، ويوحدونه بالعبادة ولكنهم لا يعرفون كيف يعبدونه ، وقد جسد هذه الحيرة « زيد بن عمرو بن نفيل » في قوله : [اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك سجدت إليه ، ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحته]^(٣).

وهكذا فإن « الجاهلية » من الجهل ضد العلم ، وأما الفخر والتكبر والغضب والطيش والنزق والسفه الذي هو من الجهل نقيض الحلم فلا يدعو أن تكون ثمرة من ثمار الجهل بالله ودينه وحصيلة مرة من التعاسة والشقاء لفقدان الهدف والغاية من الحياة .

وللأسف الشديد فقد انساق كثير من الكتاب والأدباء والباحثين

(١) من بني تميم الله بن ثعلبة ، شاعر فارسي جاهلي من المعمرين ، انظر ترجمته في حماسة عسيلان ٣٧٢/١ ومعجم الشعراء ٤٦٩ والمعمرون ٤١ ، والخزانة ٤٠٧/١ ، والأعلام ٢٨٠/٥ وموسوعة الشعر العربي ٤٠٧/٣ .

(٢) معجم الشعراء ٤٦٩ وانظر حماسة عسيلان ٣٧٢/١ .

(٣) المحبر ١٧١ .

المحدثين وراء المستشرقين ^(١) الذين يقولون إن « الجاهلية » من الجهل ضدّ الحلم لغاية في أنفسهم ، وهذا الانسياق إما أن يكون مجرد تقليد وترديد لأقوالهم ، وإما أنه صادف هوى في نفوس بعضهم إبان عنفوان فكرة « القومية العربية » ^(٢) .

وفي غمرة انجرافهم وراء هذه الفكرة أساءوا إلى عرب الجاهلية من حيث أرادوا أن يحسنوا إليهم ، ذلك أن العرب كانوا يتمدحون بالحلم ويجعلونه من صفات السيادة والفروسية يقول « خفاف بن مالك » :

نريح فضول الحلم حول بيوتنا إذا الحلماء عنهم الحلم أعزبوا ^(٣)

أما الجهل نقيض العلم فهو مفهوم راسخ وقديم ، يفصح عنه « عمرو بن الأهتم » في قوله :

إذا ما قتلت الشيء علماً فقل به وإياك والأمر الذي أنت جاهله ^(٤)

(١) انظر مثلاً مغالطات المشتشرق « جولدسيهر » في دائرة المعارف الإسلامية ٢٦٥/٦ مادة « جهل » .

(٢) لاحظت أن أغلب القائلين بهذا الرأي أو المفهوم ، ألفوا كتبهم في أوج ازدهار هذه الفكرة ؛ والكاتب والمؤلف لا بدّ وأن يتأثر بما يدور حوله ، أو على الأقل يتعرّض لضغوط نفسية تجعله يقول أو يكتب ما يمكن أن يتبين له خطؤه فيما بعد ، انظر مثلاً كتاب « الجاهلية » للدكتور « يحيى الجبوري » تجده خير مثال لما ذكرت ، وفي الحديث عن حياة العرب الدينية في الجاهلية ، فيما يأتي من البحث مصداق ما ذهبت إليه .

(٣) المؤلف والمختلف ١٠٨ للآمدي ، وفي لباب الآداب ٣٥٧ لأسامة بن منقذ « أغربوا » من : أغرب إبله : أبعد بها وبيّتها في المرعى ولم يردّها .

(٤) الأمثال والحكم ١٤٤ للماوردي وهي مما لم يحتوّه ديوانه بتحقيق الدكتور سعود محمد عبد الجابر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

وهذا هو المفهوم الذي جعل من « الحارث بن هشام » « أبا الحكم » في الجاهلية ، و « أبا جهل » في الاسلام (١) .

ولعله أيضاً مفهوم « صخر الغي الهذلي » حين يقول عن خصمه :

ألا قولاً لعبد الجهل إن الصِّحَّة لا تحالبها التُّلوث (٢) .

ولا أنسى أن أشير إلى أن القائلين بأن مفهوم « الجاهلية » منحصر في عرب الجزيرة العربية قبل الاسلام (٣) ، أو أنه مختص بطائفة دون أخرى ، أو قوم دون سواهم ؛ قد جانبهم الصواب فإن هذا المفهوم قد يطلق على فرد بعينه كما في حديث أبي ذر السابق ذكره ، أو على مجتمع معين ، ولا يلزم أن يكون هذا المجتمع عربياً أم أعجمياً وقد فصل القول في هذا وأجاد العلامة السيد « محمد شكري الألوسي » (٤) .

وفي الإمامة السريعة بحالة العرب الدينية قبل الاسلام سيتضح ما كانوا عليه من جهل مطبق في شئون دينهم ودنياهم .

(١) انظر جمهرة اللغة ١١٤/٢ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٦٣/١ وعبد الجهل : أي يقوده وهو عبده ، والتلوث : ناقة يحسمون أخلافها إذا كانت غزيرة حسموا واحداً ليبقى شحمها .

(٣) انظر مثلاً : القاموس الاسلامي ٥٦٨/١ .

(٤) انظر بلوغ الأرب ١٥/١ وما بعدها والأدلة والحجج التي ساقها هناك . « نعم [لا جاهلية بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة .

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين ، وفي كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية » وقال لأبي ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ومُحوه [٢٣١/١ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ، دار المسلم للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الخامسة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

ثانياً - حالة العرب الدينيّة قبل الإسلام :

وسأبحثها من خلال ما ذكرته كتب التاريخ والأدب وما جاء في القرآن الكريم .

١ - كتب التاريخ والأدب :

وسأجمل ما ذكرته هذه المصادر من خلال النقاط التالية :

أ - بداية الإنحراف :

كان العرب على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تدل على ذلك تلك البقايا الموروثة من هذا الدين التي تمسك بها العرب ، فقد [كانت العرب تحرم أربعة أشهر من السنة ، كما كان بأيديهم من إرث إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام] (١) .

ومن شعائر إبراهيم عليه السلام التي كان عليها العرب وأقرّها الاسلام أنهم كانوا يحرمون الطيب والنساء على المحرم ، ثم يحلّ له إذا أتم حجّه ، يقول « خفاف بن ندبة » :

وأبدى شهور الحج منها محاسناً

ووجهاً متى يحلل له الطيب يشرق (٢)

ويقول « النابغة الذبياني :

حياك ربّي فإنّا لا يحلّ لنا لهو النساء وإن الدين قد عزمنا (٣) .

(١) طبقات ابن سلام ٧٣/١ .

(٢) ديوانه ٢٩ .

(٣) ديوانه ٦٢ وحيّاك ربّي : تحية على جهة الإعراض عنها والدين : الحج

وعزمنا : قويّت نيّتنا عليه .

وكانوا يحجّون إلى البيت ويعتَمرون ويطوفون ويسعون بين الصفا والمروة ويلبّون ويقفون بعرفات^(١) . وعن أسباب انحراف العرب عن دين إبراهيم عليه السلام وعبادتهم للأصنام والأوثان وغيرها تكاد مصادر التاريخ تجمع على ما ذكره ابن الكلبي في كتابه «الأصنام»^(٢) الذي ذكر روايتين عن ذلك ، تقول الأولى : أن بني إسماعيل عليه السلام لما تكاثروا بمكة حتى ضاقت بهم ظعن بعضهم منها فكان لا يظعن ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطاقوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصباية بالحرم وحباً له ، فأدى بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم^(٣) .

وتقول الرواية الأخرى : إن [أول من غير دين إسماعيل عليه السلام^(٤) ، فنصب الأوثان ، وسبب السائبية ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية ؛ عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة]^(٥) .

ونذكر في موضع آخر بداية عبادة الصور والتماثيل من لدن آدم ونوح عليهما السلام^(٦) وفي صحيح البخاري يذكر «ابن عباس» رضي الله عنهما أن ، وداً ، وسُواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً [أسماء رجال صالحين من قوح

(١) وانظر ما بقي في العرب من سنن إبراهيم عليه السلام : المحبر لابن حبيب

٣٠٩ - ٣٤٠ و ١٨١ و ٢٣٦ و ٢٣٧ . وبلوغ الأرب ٢/٢٨٦ والأصنام ص ٦ .

(٢) الأصنام ٦ - ٨ و ٥٠ - ٥٣ .

(٣) الأصنام ص ٦ (بتصرف) .

(٤) إنما هو دين إبراهيم الخليل عليه السلام

(٥) الأصنام ص ٨ .

(٦) ذاته ٥٠ - ٥٣ .

نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، فلم تُعبدْ حتى إذا هلك أولئك وتَسَخَّ العلم عُبِدَتْ ^(١) . وهذا يعني أن الشرك بدأ بالغلو في الصالحين من قوم نوح ، ثم استمرَّ العرب عبادة الأوثان من باب الغلو أيضاً في حجارة الحرم ، ثم جاء « عمرو بن لحي » فأسس الشرك ووطده وقننه - إن صح التعبير - وبعض الباحثين المحدثين لا يستبعد أن تكون عبادة الأصنام والأوثان عند العرب في الجاهلية بقايا « طوطمية » ^(٢) . وهذه اجتهادات لا تعتمد أو تستند على دليل ، وحسبنا ما جاء في الصحيح من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

ب - مظاهر الشرك والانحراف :

تعددت هذه المظاهر . وتمثلت في توجّهات العرب الدينية فكان منهم :

١ - من عبد الأصنام والأوثان والأنصاب ^(٣) وغيرها يقول ابن الكلبي [واستهترت العرب في عبادة الأصنام : فمنهم من اتخذ بيتاً . ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت نصب حجراً أمام

(١) صحيح البخاري ٢٨١/٦ (كتاب التفسير) .

(٢) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي ١٦٥/١ لأحمد شلبي ، والديانات والعقائد ٥٠/٤ ، والموسوعة العربية الميسرة ١١٦٦ ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

(٣) الصنم : ما كان على صورة إنسان من معدن أو خشب ، والوثن : ما كان على صورة إنسان من حجر ، والنصب : صخرة ليست على صورة إنسان ، وهناك أقوال أخرى فيها . وانظر الأصنام ص ٥٣ .

الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأنصاب ^(١) . وقد تفتنوا في تصوير أصنامهم وأوثانهم بشتى الأشكال يصنعونها من ذهب أو حجر أو خشب ، وكثرت الأصنام حتى يروى أنه في فتح مكة كان حول الكعبة نحو ثلاثمائة وستين صنماً ، فما أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى صنم في وجهه إلا وقع لقفاه ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه ، [فقال في ذلك « راشد بن عبدالله السلمي » ^(٢) :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا يأبى الإله عليك والاسلامُ
أوما رأيت محمداً وقبيلاه بالفتح ؛ حين تكسر الأصنام
لرأيت نور الله أضحى ساطعاً والشرك يغشى وجهه الإظلام ^(٣)
وقال في ذلك أيضاً « تميم بن أسعد الخزاعي » ^(٤) :

(١) الأصنام ٣٣ .

(٢) نقل ابن حجر في الإصابة ٤٩٥/١ عن المرزباني قوله في معجم الشعراء - مما لم يصلنا منه - : « كان اسمه « غويّاً » فسماه النبي صلى الله عليه وسلم « راشداً » وهو صاحب البيت المشهور ، وهو هذا :
فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر .
ونقل عنه أيضاً أنه كسر صنم سواع . « قيل إنه كان عند الصنم يوماً إذ أقبل ثعلب فرفع إحدى رجليه فبال على الصنم فأنشد :
أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب
ثم كسر الصنم وأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له : أنت راشد بن عبدالله . ولم أجد له ترجمة فيما بين يديّ من مراجع سوى ما ذكرت .

(٣) الأصنام ٣٠ .

(٤) شاعر مخضرم أسلم قبل فتح مكة . انظر الإصابة ١٨٣/١ .

وفي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقاب (١).

وقد ذكر ابن الكلبي طائفة من هذه الأصنام والأوثان ومنها (٢) :

اللات ، والعزى ، ومناة ، وهبل ، وإساف ، ونائلة ، وسواع ، وذو الخلعة ، وذو الشرى ، وسعد ، وذو الكفين ، ونهم وعائم ، وسعير ، والفلس ، واليعسوب ، وباجر ، ورضى ، ومناف ، والأشهل ، والأسحم ، وغيرها .

وذكر أن [أول من اتخذ تلك الأصنام هذيل بن مدركة : اتخذوا سواعا] (٣) وفيها قال رجل من العرب :

[تراهم حول قيلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع

تظل جنباه صرعى لديه عتائر من ذخائر كل راع] (٤) .

وكانت كل قبيلة من العرب تعظم أصنامها وأوثانها [وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وكان أعظمها عندهم : هبل وهو الذي يقول له أبو سفيان بن حرب - رضي الله عنه - حين ظفر يوم « أحد » : أعل هبل ، أي : علا دينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلى وأجل] (٥) .

وقد اجتمعت العرب قاطبة على تعظيم بعض الأصنام مثل : اللات ،

(١) سيرة ابن هشام ٣٧/٤ .

(٢) انظر الأصنام ص ٦ وما بعدها وقد ذكر المحقق أحمد زكي باشا هذه الأصنام والأوثان وغيرها في نهاية كتاب الأصنام ورتبها ترتيباً أبجدياً . وانظر الأديان في القرآن ص ٥٤ وما بعدها .

(٣) الأصنام ٦ .

(٤) ذاته ٥٧ .

(٥) ذاته ٢٧ ، ٢٨ .

والعزى ، ومناة^(١) . وقد كان العرب يذكرون الأصنام في أشعارهم ، من ذلك قول « بشر بن أبي خازم الأسدي »^(٢) في « إساف » :

عليه الطير ما يدنون منه مقامات العوارك من إساف^(٣) .

[وكانت للعرب حجارة غبر منصوبة يطوفون بها ويعتزون عندها . يسمونها : الأنصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار]^(٤) ، يقول « عمرو بن جابر الحارثي ثم الكعبي » في الأنصاب :

حلفت عطيفاً لا تنهه سربها وحلفت بالأنصاب ألا يرعدها^(٥) .

[فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بهدمها]^(٦) .

٢ - منهم من عبد الجن ، [فإن الرجل كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه]^(٧) .

(١) اللات : اسم صنم لثقيف ، والعزى : شجرة كانت تعبد وقربها صنم منصوب ، ومناة : صنم لهذيل وخزاعة كان منصوباً على ساحل البحر الأحمر بقديد .

(٢) شاعر جاهلي فحل من الشجعان ، انظر ترجمته في ديوانه بتحقيق الدكتور عزة حسن ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠ م ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، د . ط . وانظر الأصنام ٢٩ .

(٣) ملحقات ديوانه ٢٣٣ وعليه الطير : أي حوله ، والعوارك : جمع عارك : المرأة الحائض .

(٤) الأصنام ٤٢ .

(٥) ذاته ٤٢ .

(٦) ذاته ٥٨ .

(٧) بلوغ الأرب ٢/٢٣٢ وسيد الوادي : كبير الجن .

ومن خوفهم من الجن كانوا يظنون أن أصوات الرياح الشديدة أصوات الجن ، قال « المثقب العبدى » :

في لا حب تعزف جنائنه منفهق القفرة كالبرجد (١)

وقال « بشر بن أبي خازم الأسدي :

وخرق تعزف الجنان فيه فيافيه يطير بها السهام (٢)

وقال « الأعشى الأكبر » :

ويهما ، تعزف جنانها مناهلها أجنادُ سدوم (٣)

وقال « أمية بن أبي الصلت » يتبرأ من عبادة الجن :

حنانك إن الجن كانت رجاء هم وأنت إلهي ربنا ورجائنا (٤) .

٣ - ومنهم من عبد الملائكة (٥) ويقولون إن الملائكة بنات الله تعالى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٤ - ومنهم من عبد الشمس [وهم عرب حمير قبل أن يتهودوا] (٦) .

(١) ديوانه ٣١ وانظر ص ٥٠ طبعة جامعة الدول العربية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
ولاحظ : الطريق البيّن ، وتعزف : تصوّت ، وجنّانه : الجن ، ومنفهق :
واسع ، والبرجد : كساء من صوف أحمر فيه خطوط .

(٢) ديوانه ٢٠٣ . وخرق : القلاة الواسعة ، وفيافيه : جمع فيفاه ، وهي :
المقازة الواسعة لا ماء فيها .

(٣) ديوانه ٣٧ . ويهما : عمياء مطموسة المسالك ، وأجنات : راكدات ،
وسدوم : سدم الماء : تغيير لطول عهده وطحلب ، ووقع فيه التراب وغيره
حتى اندفن .

(٤) ديوانه ٥٣٨ .

(٥) انظر في ذلك بلوغ الأرب للآلوسي ٢/٢٣٢ .

(٦) داته ٢/٢٣٧ ، ٢٣٨ .

٥ - ومنهم من عبد النار ، [وهم أشتات من العرب وكان ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس] ^(١) ، وكانوا يستمطرون بالنار [وكان باليمن فيما زعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم] ^(٢) ، قال « أفنون التغلبي » ^(٣) :

[لو أنني كنت من عاد ومن إرم

ربيت فيهم ولقمان ومن جدن

لما فدوا بأخيهم من مهولة

أخا السكون ولا جاروا على السنن] ^(٤) .

٦ - ومنهم من عبد الكواكب [وهم طائفة من تميم عبدوا « الدبران » من النجوم] ^(٥) وعبدوا نجم « الشعري » يقول تعالى : (وأنه هورب الشعري) ^(٦) .

٧ - ومنهم من عبد الشمس والقمر ^(٧) .

(١) ذاته ٢٣٣/٢ .

(٢) انظر تاريخ الطبري ٩٦/٢ .

(٣) هو صريم بن معشر بن ذهل بن تميم ، وأفنون لقب له بأبيات قالها ،

شاعر جاهلي يمانى الأصل ، مات في بادية الشام ، انظر ترجمته في

المفضليات ٢٦٠ والبيان والتبيين ٩٠/١ ، ١٩١ ، والشعر والشعراء ٤١٩/١

والأعلام ٢٠٤/٣ .

(٤) المفضليات ٢٦٢ .

(٥) بلوغ الأرب ٢٣٩/٢ .

(٦) الآية ٤٩ من سورة النجم .

(٧) انظر في ذلك بلوغ الأرب ٢١٥/٢ .

٨ - ومنهم من عبد الشجر. وقد كانت « العزى » شجرة بنخلة^(١)، وفي غزوة « خيبر » قال حديثو العهد بالجاهلية :: [اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط]^(٢).

و [كان الرجل في الجاهلية يأخذ لحاء شجر الحرم ، فيجعل منه قلادة في عنقه ويديه فيأمن بذلك]^(٣) وعليه قول « حذيفة بن أنس »^(٤) :

أَلَمْ تَقْتُلُوا الْحَرْجِينَ إِذَا أَعُورَا لَكُمْ

يُمِرَّانِ فِي الْأَيْدِي اللَّحَاءِ الْمَضْفَرَا^(٥)

٩ - ومنهم من عبد الحيوان ، فالخيل عبوه بأسبذ بالبحرين^(٦).

(١) انظر المحبر ٣١٥ .

(٢) الحديث بتمامه في صحيح الترمذي ٢٧/٩ ، ٢٨ (كتاب الفتن) الطبعة الأولى ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م ، مطبعة الصاوي ، مصر .

وهذا الحديث في غزوة « خيبر » وهناك أحاديث أخرى نحو في غزوة « حنين » انظر مثلاً : فتح المجيد ١٣٧ ومابعدهما بتحقيق محمد حامد الفقي ، طبعة أنصار السنة المحمدية ، لاهور باكستان ، د . د . ت .

(٣) شرح أشعار الهذليين ٥٥٥/٢ للسكري .

(٤) لم أجد لحذيفة هذا ما أترجم له فيما تحت يدي من مراجع ، سوى ما في شرح أشعار الهذليين ٥٤٧/٢ ومابعدها من أخبار وأشعار .

(٥) شرح أشعار الهذليين ٥٥٥/٢ للسكري ، والحرّجين : رجلان كان يقال لأحدهما « جرح » ، وأعورا لكم : بدت لكم عورتكما أي امكنتكم منهما الغرة والعورة ، ويمران : أي يفتلان في أيديهما من لحاء شجر الحرم لتكون لهما بذلك حرمة .

(٦) انظر فتوح البلدان ٩٥ للبلاذري .

١٠ - ومنهم الزنادقة ، أو المجوس ، أو الثنوية ، يقول ابن قتيبة في « المعارف » [وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة]^(١) ويعقب عليه العلامة الألوسي بقوله : [والذي يظهر لي أن مراد « ابن قتيبة » من الزندقة التي نسبها إلى بعض العرب ؛ اعتقاد الثنوية ، أو القائل بالنور والظلمة بمقتضى قوله : أخذوها من الحيرة]^(٢) .

و [قبائل من بني تميم عرفت المجوسية]^(٣) [ومنهم زرار بن عدس وابنه حاجب]^(٤) .

[ولم يكن شيء يضايقهم في المجوسية سوى زواج البنات ، لأن المجوسية انقلبت وثنية كوثنية العرب]^(٥) .

١١ - ومنهم الصابئة ، [وهم من يعتقدون في الأنواع اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء]^(٦) .

وقد أسهب العلامة الألوسي في بيان هذه النحلة ، وقسم الصابئة إلى صابئة حنفاء ، وصابئة مشركين ، وصابئة فلاسفة .. الخ^(٧) .

(١) المعارف ٦٢١ وفي المجد ١٦١ ذكر ابن حبيب جملة من زنادقة قريش وقال

: « تعلّموا الزندقة من نصارى الحيرة فلم يسلم منهم غير أبي سفيان .

(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٢٩ وقد شرح الألوسي معتقدات الثنوية شرحاً وافياً انظر ٢/٢٢٩ ومابعداها .

(٣) الديانات والعقائد ٤/٥٠ لأحمد عبد الغفور عطار .

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٤٢٧ للحوافي .

(٥) الديانات والعقائد ٤/٥١ .

(٦) بلوغ الأرب ٢/٢٢٣ .

(٧) انظر بلوغ الأرب ٢/٢٢٣ ومابعداها .

١٢ - ومنهم الدهريون [وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا : الطبع المحيي والدهر المفني]^(١) [ويرون أن العالم لا يخرب ولا يبيد وإلا لكان مخلوقاً مبتدعاً]^(٢) .

ومن الدهريين القائل^(٣) :

[منع البقاء تقلبُ الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي
 وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس
 تجري على كبد السماء كما يجري حمام الموت في النفس
 اليوم أعلم ما يجيء به ومضى بفصل قضائه أمس]^(٤) .
 و « المسجاح بن سباع »^(٥) إذ يقول :

(١) ذاته ٢٢٠/٢ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٤٣٢ .

(٣) هو القمقام بن العباهل بن نبي سحيم وهو تبع الثاني أو الثالث ملك حضرموت واليمن - عند المرزباني في معجم الشعراء ٣٣٢ وهو عند الجاحظ في البيان والتبيين ٣٤٢/٣ والحيوان ٨٨/٣ أسقف نجران ، ونُسبَ في العقد الفريد ١٢٢/٢ إلى عابد نجران ، وانظر خبراً متعلقاً به في ذيل الأمالي ٢٩ وانظر ص ٥٣-٥٤ وص ١٧٦ من هذا البحث .

(٤) بلوغ الأرب ٢٢٢/٢ ، ٢٢٣ ، ومعجم الشعراء ٣٣٩ ، والبيان والتبيين ٣٤٣/٣ ، والعقد الفريد ١٢٢/٢ ، بتقديم وتأخير واختلاف في الرواية واللفظ .

(٥) لم أجد في ترجمته سوى أنه شاعر جاهلي من المعمرين عاش حتى هرم وملّ الحياة . انظر مراجع ترجمته في تخريج أبياته في الهامش التالي ، وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٢٧٢/٢ بيتين في رثاء همام ومنصور ابني المسجاح ، فلعلّه هو .

[لقد طوّفت في الآفاق حتى بليتُ ، وقد أنى لي لو أبيدُ
وأفناني ، ولا يفنى نهار وليل كلما يمضي يعودُ
وشهر مستهلُّ بعد شهرٍ وحولُ بعده حولٌ جديدُ
ومفقود عزيز الفقد تأتي منيته ومأمولٌ وليدُ] (١)
ومن الدهريين من يقول بوجود « الإله » وجحود البعث (٢)، يقول
« ابن الزبيري » (٣) :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو (٤)
وفي رثاء كفار قريش يوم « بدر » يقول « شداد بن الأسود بن عبد
شمس » :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام (٥)
وكانوا - إذ ينسبون جميع الحوادث وتصريف الأمور إلى الدهر -

(١) معجم الشعراء ٤٦٩ للمرزباني وحماسة عسيلان ٤٩٩/١ والعمرون ٩٥
للسجستاني .

(٢) الديانات والعقائد ٧٣/٤ .

(٣) شاعر مخضرم من مقدمي شعراء قريش ، وأشدّهم عداوة للمسلمين ،
أسلم في الفتح ، انظر ترجمته في ديوانه ، صنعة الدكتور يحيى
الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٤) بلوغ الأرب ١٩٨/٢ وهذا مما لم يحوه ديوانه .

(٥) ذاته ١٩٨/٢ . والصدى : الطائر الذي يطير بالليل . والهام : جمع هامة
وهي جمجمة الرأس .

يحسّون بعجزهم وضعفهم المتناهي حياله وليس لهم إلا التسليم^(١)، يقول قائلهم^(٢) :

[ومن يبق مالاّ عدة وصيانةً فلا البخل مبقيه ولا الدهر وافرّه]

ومن يك ذا عود صليب يعده ليكسر عود الدهر فالدهر كاسره^(٣).

وهناك ظاهرة محيرة لم أجد - من خلال بحثي فيما توافر لديّ من مراجع - من فسرها وفك رموزها ذلك أن طائفة من شعراء الجاهلية نجدهم يؤمنون بالله ، ويؤمنون بالبعث والجزاء ، بعد الموت ، وهم إلى ذلك - في بعض أشعارهم - ينسبون إلى الدهر التصرف في الأحوال والأفعال ، فهل هم دهيون ؟ أم حنفاء ؟ أم مشركون ؟

والعجيب أننا نجد من ينسب البعث ذاته إلى الدهر ، في تصوّر مظلّم مغبشٍ للدهر والبعث ، فهذه « صفية بنت ثعلبة - الحجيّة - »^(٤) تصف الدهر بأنه خوّان ، وأنه بعد مماتها سيدعوها لينال هو جزاءه ويُدان بما اقترفه ، تقول صفية :

[والدهر يأتني بالقصاري باقيا واعلم - فديتك - أنّه خوّانُ]

ولسوف يدعوني غداً فأجيبه ولسوف تُقضى فرصةٌ ويُدانُ^(٥).

(١) الاستشهاد لهذا قد يستغرق جزءاً كبيراً من الشعر الجاهلي ، ولجُرد التمثيل : انظر ما يقوله : النابغة الذبياني في ديوانه ٦٧ وعمره بنت مرداس - أخت العباس - في حماسة عسيلان ٥٤٦/١ وأبياتاً أخرى غير منسوبة ٤٣٢/١. والأضبط بن قريع السعدي في الأمثال والحكم للماوردي ١٠٨.

(٢) لم أهدد إلى قائلهما .

(٣) البيان والتبيين ٩١/٤ وانظر الأمثال والحكم للماوردي ١٩٠.

(٤) تقدمت ترجمتها ص ٣١ من هذا البحث .

(٥) موسوعة الشعر العربي ٥٠٢/٤ .

فمن الشعراء الذين خلطوا في شعرهم بين الإيمان بالبعث ، والاعتقاد
بأن الدهر هو الذي يصرف الأحوال من خير وشر ؛ « زهير بن أبي سلمى » .
ولعل أبرز ما يُساق ضمن الإشارة إلى إيمان بعض الجاهليين بالبعث
قوله :

[فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤجل فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يُعجل فينقم]^(١).
ولا نعدم أن نجد في شعره ما يندرج ضمن معتقدات الدهريين كقوله في رثاء
«هرم بن سنان» :

[فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرميني ولا أرمي
لو كان لي قرناً أناضله ما طاش عند حفيظةٍ سهمي
أو كان يعطي النصف قلت له أحرزت قسمك قاله عن قسمي
يا دهرُ قد أكثرت فجعتنا بسرأتنا وقرعت في العظم
وسلبتنا ما لست معقبه يا دهرُ ما أنصفت في الحكم]^(٢).
وقارن هذا بقوله :

بدا لي أن الناس تقنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا^(٣)
وقوله بعد ذلك :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا
وإلا السماء والبلاد وربنا وأيامنا معدودةً والليالي^(٤)

(١) ديوانه ٢٦ .

(٢) ديوانه ٢٨٢ .

(٣) ديوانه ٢٠٧ .

(٤) ديوانه ٢٠٩ .

وقوله في القصيدة ذاتها :

بدا لي أن الله حق فزادني إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا (١)
وقوله أيضاً :

ألم تر أن الله أهلك تبعاً وأهلك لقمان بن عاد وعاديا (٢)
فأني تناقض هذا ؟ ! .

وإذا كان بعض العرب في الجاهلية آمنوا بالله ويأمنه هو المدبر
المصرف للأمور ، في مثل قول « قيس بن الخطيم » :

يحب المرء أن يلقي مناه ويأبى الله إلا ما يشاء (٣)
أو قول « يزيد بن ذرح السكوني » (٤) :

ألا هل أتاها والحوادث جمة ومهما يرده الله يُمْضُ وَيُفْعَلُ (٥)
وآمنوا بالبعث والجزاء كما في قول « علاّف بن شهاب التميمي » (٦) :

(١) ديوانه ٢٠٨ .

(٢) ديوانه ٢٠٩ ، وعاديا : أبو السموءل .

(٣) ديوانه ٩٨ وفي رواية « يود المرء » و « يريد المرء » و « أن يعطى » و
« أن يؤتى » .

(٤) شاعر جاهلي ، أحد بني سوم بني عدي بن أشرس بن شبيب بن السكون
، لم أجد له ذكراً سوى ما في المؤتلف والمختلف للآمدي ١٢٠ وانظر معجم
الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٣٧٢ .

(٥) المؤتلف والمختلف ١٢٠ للآمدي .

(٦) في اسمه خلط شديد ، فهكذا جاء اسمه عند العلامة الألوسي في بلوغ
الأرب ٢٧٦/٢ ، أما الحوفي في كتابه الحياة العربية من الشعر الجاهلي
٣٩٧ فسمّاه « الفلاق » بالفاء . وهو في أصل المحبر ١٨٣ « الغلاق بن =

[ولقد حضرت الخصم يوم رفاة فأخذت منه خطة المغتال
وعلمت أن الله جاز عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال] (١).
إلا أن فكرة البعث كانت عندهم مشوشة يشوبها الكثير من الغموض ،
فإذا مات أحدهم شدوا عند قبره ناقته [حتى تموت ، كانوا يقولون : صاحبها

= لأي بن عوافة بن سعد بن زيد مناة « بالعين المعجمة . وقد أخطأت
المحققة فصحتته في المطبوعة إلى « الغلاق » بالعين المهملة اعتماداً على
ما ورد في الاشتقاق لابن دريد ٢٥٨ .

وفي الإكمال ٣١/٧ لابن ماكولا « علاّق بن شهاب » .
والصواب في اسمه هو : « الغلاق بن شهاب بن لأي بن عوافة بن سعد بن
زيد مناة » كما هو في أصل المحبر ، وقد حصل خلط في نسبه في الإكمال
٣١/٧ وهامش المغربية منه .

وفي « المشتبه في أسماء الرجال » لابن قايماز ٤٧٩/٢ :
« يكون غلاق هذا فعلاً من غلق الدهر فهو غلاق ، كعلم فهو علام ، وسلم
فهو سلام » . و « الغلاق » سيد من سادات الجاهلية المقدمين ، وكان قائداً
من قواد النعمان بن المنذر الأكبر أو عمرو بن هند ، وقد أرسل للصلح
بين بكر بن وائل وتغلب ، فقال في ذلك « طرفة بن العبد » :
فسعى الغلاق بينهم سعي خب كاذب شيمه

ديوانه ١٥٢ .

ولعل بيتي « الغلاق » محل الاستشهاد هنا من قصيدة يردّ بهما على
« طرفة » . والغلاق آخر من أفاض بالعرب في الموسم في الجاهلية واتصل
بالاسلام .

انظر ترجمته في : المحبر ١٨٣ والاشتقاق ٢٥٨ والإكمال ٣١/٧ وديوان
طرفة ١٤٨ ، وبلوغ الأرب ٢٧٦/٢ . ومعجم قبائل العرب ٨٥٢/٢ لعمر رضا
كحالة .

(١) بلوغ الأرب ٢٣٤/٢ .

يحشر عليها ، ومن لم يفعل له ذلك حشر راجلاً وهذا مذهب من يقول بالبعث من العرب وهم الأقل [(١)] .

قال « جريبة بن الأشيم الفقعسي » (٢) طالباً من ابنه أن يحبس ناقته على قبره ليركبها يوم الحشر :

[يا سعد إما أهلكنّ فإنتي أوصيك إن أخوا الوصاة الأقربُ

لا تتركنّ أباك يعثر راجلاً في الحشر يُصرع لليدين وينكبُّ

واحمل أباك على بعير صالح وتقي الخطيئة إنه هو أصوبُ

ولعلّ لي مما تركتُ مطيئةً في القبر أركبها إذا قيل : اركبوا [(٣)] .

وشبيه بهذه الصورة الطريفة للحشر والتدافع فيه ، قول « عمرو بن

زيد » (٤) يوصي ابنه كذلك أن يبلو ناقته :

[أبني زدني إذا فارقتني في القبر راحلة برجل قاتر

للبعث أركبها إذا قيل اظعنوا متوثقين معاً لحشر الحاشر

من لا يوافيه على عشراته فالخلق بين مدّفع أو عائر [(٥)] .

كبرائة

(١) ترتيب القاموس المحيط ٢٦٨/١ مادة « بلى » وحاشيتها .

(٢) هو جريبة بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن دثار بن فقّيس بن طريف ، وهو جد مطير بن الأشيم .

شاعر مخضرم كان أحد شياطين بني أسد وشعرائها ، وممن آمن بالبعث في الجاهلية ، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه .

انظر ترجمته في المؤلف ٧٧ والمحبر ٣٢٣ واللباب ٢/٢١٩ ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٦٧ والأعلام ٢/١١٨ والإصابة ١/٢٦٠ .

(٣) المحبر ٣٢٣ .

(٤) هو عمرو بن زيد بن المتمنى بن عبدالله بن الشجب بن عبيد ودّ الكلبى

جاهلي ، لم أعثر له على ترجمة سوى هذا . انظر معجم الشعراء ٢٣٨ للمرزباني والمحبر ٣٢٤ .

(٥) المحبر ٣٢٤ .

ج - موقف الجاهلي من معتقداته :

فيما سبق تبين لنا كثرة الأصنام والأوثان عند العرب ، فقد كان لكل قبيلة بل لكل فرد صنم أو وثن يعبد من دون الله ، ناهيك عن عبدة الشمس والقمر والكواكب والنار والحيوان والشجر وغيرها ، وقد تنوعت وتعددت آلهة العرب ومعبوداتهم تنوع وتعدد مشاربهم ونزعاتهم [فلما بعث الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأتاهم بتوحيده وعبادته وحده لا شريك له قالوا : « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا الشيء عجاب » (١)] (٢) .

وكان العربي - عموماً - شديد التمسك بمعتقده ، مخلصاً لآلهته التي عبدها من دون الله ؛ ومما يدل على مدى هذا الإخلاص المتفاني ، أن الاسلام لما جاء ينهى عن عبادة العزى [اشتد ذلك على قريش . ومرض أبو أحيحة وهو « سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف » (٣) مرضه الذي مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكي ، فقال : « ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه » قال : « لا . ولكنما أخاف أن لا تُعبد العزى بعدي » قال أبو لهب : « والله ما عُبدت حياتك - لأجلك - ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك » فقال أبو أحيحة : « الآن علمت أن لي خليفة » . وأعجبه شدة نصبه في عبادتها » [(٤)] .

ومرّ بنا تصوير الموقف المهيب في خضوع هذيل لصنمهم سواع ،

(١) الآية ٥ من سورة « ص » .

(٢) الأصنام ٣٣ .

(٣) من وجوه قريش وساداتها أدرك الاسلام ولم يسلم ، انظر الإصابة ترجمة برقم ٣٧٥٩ ، ونسب قريش ١٧٦ والبيان والتبيين ٩٧/٣ ، والأعلام ٩٦/٣ .

(٤) الأصنام ٢٣ .

والطقوس الدينية التي يؤدونها عنده ، في قول الشاعر :

[تراهم حول قيلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع
تظلّ جنباه صرعى لديه عتائر من نخائر كل راع]^(١) .
فهذه حال عامة العرب مع معبوداتها تخضع لها وتخضع ، ولكن فئة
منهم لم تول هذه الآلهة اهتماماً ، وثارت عليها لعدة دواع منها :

أولاً : السخرية من بعض خرافاتهم وضلالاتهم التي لا تليق بأدنى
مدرجات العقل الإنساني المجرد ، كما في قول « الورل الطائي »^(٢) متعجباً
وساخراً من الاستمطار بالنار بحرق الأبقار وجعلها وسيلة إلى الله تعالى :

[لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعُشر
أجاعل أنت بيقوراً مسلعةً ذريعة لك بين الله والمطر ؟]^(٣) .

ثانياً : الحفاظ على الحياة والبقاء ، إذ يذكرون أنّ « بني حنيفة »
صنعوا صنماً من الحيس^(٤) ، فلما جاعوا أكلوه ، فقال قائل^(٥) :

[أكلت حنيفة ربّها زمن التّقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربّهم سوء العواقب والتّباعة]^(٦) .

فلو لم يجوعوا لم يأكلوه ، وهذا من أوضح الشواهد على جهل العرب

(١) الأصنام ٥٧ .

(٢) لم أقف على ترجمته فيما بين يدي من مراجع .

(٣) الحيوان ١٥٠/٤ .

(٤) تمر يُخلطُ بالسمن وأقط فيعجن عجناً شديداً ، ربما جعل فيه سويق .

(٥) لم أستدل عليه .

(٦) المعارف ٦٢١ وفيه أيضاً قول الشاعر :

أكلت حنيفة ربها من جو ع قديم بها ومن إعواز

قبل الاسلام .

ثالثاً : ضعف نزعة التدين لدى بعضهم ، فمن ذلك أن رجلاً من العرب قُتِلَ أبوه فأراد الطلب بثأره ، فاستقسم عند « ذي الخلصة » بالأزلام فأتى السهم بنهيه عن ذلك فقال :

[لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً

لم تنه عن قتلِ العُدّةِ زوراً]^(١) .

وجاء رجل بإبله ليتبرك بصنم « سعد »^(٢) فنفرت إبله في كل وجه وتفرقت عليه ، فتناول حجراً ورماه به ، وقال : « لا بارك الله فيك إلها ، أنفرت إبلي » وانصرف وهو يقول :

[أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعدٍ

وهل سعدٌ إلا صخرة بتتوفةٍ من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد]^(٣) .

رابعاً : الاهتداء إلى نور الله - خاصة بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم - ومن ذلك أن سادن « نُهم » صنم « مزينة » لما [سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ثار إلى الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبتُ إلى نُهمٍ لأذبح عنده عتيرة نسكٍ كالذي كنتُ أفعلُ

(١) القصة والأبيات في السيرة ٩٠/١ والأصنام ٣٥ ومن الناس من ينحلها

أمرأ القيس بن حجر الكندي « كما نصّ على ذلك ابن هشام والكلبي ، وانظر ملحقات ديوان امرئ القيس ، ص ٤٦٠ ، ويذكر ابن الكلبي أن امرأ القيس أول من خفر « ذا الخلصة » . انظر الأصنام ٤٧ .

(٢) هو صنم لمالك ومليكان ابني كنانة بساحل « جدّة » وكان صخرة طويلة . انظر الأصنام ٣٧ .

(٣) الأصنام ٣٧ بتصرف يسير .

فقلت لنفسي حين راجعت عقلها أهذا إله ؟ أيكم ليس يعقلُ
 أبيتُ فديني اليوم دين محمدٍ إله السماء الماجدُ المتفضلُ^(١).
 فهل هذه النماذج القليلة^(٢) في خضم الخرافات والضلالات والشرك
 مدعاة إلى القول بأن العرب كانوا موحدّين ؟ ! هذا ما سألّسه في ما يلي :

د - هل كان العربُ موحدّين ؟

استدلّ القائلون بذلك بأن العرب كانوا يذكرون الله في شعرهم ،
 ويقسمون به ويرون أنه أكبر من آلهتهم ، كما في قول « أوس بن حجر » :
 وباللات والعزّى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر^(٣) .
 ويرون بأن العربي أول من نطق باسم الله خالق السموات
 والأرض^(٤) .

-
- (١) الأصنام ٤٠ .
 (٢) ومنها طائفة الحنفاء وسيأتي ذكرهم .
 (٣) ديوانه ٣٦ بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم دار صادر / بيروت
 الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ولئن أقسم الأعشى الأكبر في شعره
 بالكعبة وبربها في ديوانه ٦٣ ، ١٢٣ ، وبالذي حجت قريش قطينه ص
 ١٩١ وبرب الساجدين في العشى ١٧٧ وبمن جعل الأهله مواقيت ٣١ ، فقد
 أقسم بالنجوم ١٨٧ وبناقوس التصارى ١٧٧ .
 ومع ذلك فهو يصف الله سبحانه وتعالى بأنه : يعلم السرّ ٤٩ ويُنقِرُ
 إليه بالعمل الصالح ١١١ ، ١١٧ ، وأنه هو الرحمن ١٢٣ مفرّج الكرب ٢٣٧ .
 وهكذا نجد الخلط بين الوثنية والشرك وبين ذكر الله والقسم به ، وهكذا
 سائر أشعار الجاهليين حاشاء الحنفاء منهم .
 (٤) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام ١٦ .

ويقولون : إن الشعر الجاهليّ يثبت أن الله سبحانه وتعالى :

١ - الخالق : يقول « قيس بن الخطيم » :

قضى لها الله حين يخلقها الـ خالق ألا يكنها سدفاً^(١) .

ويقول « نابغة بني ذبيان » يصف النعمان :

وربّ عليه الله أحسن صنعهِ وكان له على البرية ناصراً^(٢) .

٢ - عالم الغيب : يقول « قيس بن الحدّادية »^(٣) :

[قالت وعيناها تفيضان عبرةً بنفسي بين لي متى أنت راجعُ

فقلت لها والله يدري مسافر إذا أضمرت الأرض ما الله صانعُ]^(٤) .

٣ - الوارث الباقي : يقول « الممرّق العبدى » :

هوّن عليك ولا تولّع بإشفاق فإنما ما لنا للوارث الباقي^(٥) .

(١) ديوانه ٥٦ والسدفاً : الظلمة ، يقول : إذا كانت في ظلمة أبصرت ولم تسترها الظلمة .

(٢) ديوانه ٧١ وانظر ٧٣ وربّ : أتم وأصلح .

(٣) هو قيس بن منقذ بن عمرو من بني سلول بن كعب ، والحدّادية : أمّه ، شاعر جاهلي فاتك صعلوك خليع ، قُتِلَ في غارة لبني مزينة ، انظر ترجمته في : من نسب إلى أمه من الشعراء في نواذر المخطوطات ٦٨/١ ومعجم الشعراء ٣٢٥ للمرزباني والأعلام ٣٠٩/٥ وموسوعة الشعر العربي ٣٥٣/٤ .

(٤) معجم الشعراء ٣٢٥ ويروى البيت الثاني هكذا :

فقلت لها والله ما من مسافر يحيط بعلم الله ما الله صانعُ

وانظر ديوان زهير ٢٦ وديوان طرفة ٢٣٨ وديوان لبيد ٢٥٦ وديوان حاتم ١٨٤ وديوان أحيحة بتحقيق الدكتور حسن محمد باجودة .

(٥) الفضليات ٣٠٠ وقد يفهم منه أيضاً إنفاق المال الذي سيؤول حتماً إلى الورثة .

٤ - المعطي المانع : يقول « طرفة » :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد^(١) .

ويقول « حراز بن عمرو »^(٢) بعد أن فخر بإياله ووصفها :

حيانا بها جدنا وإياله وضرب لنا خِذْمُ صائب^(٣) .

٥ - له المشيئة والتدبير : يقول « قيس بن الخطيم » :

يحب المرء أن يلقي مناه ويأبى الله إلا ما يشاء^(٤) .

٦ - الحكم العدل : يقول « النابغة الذبياني » :

أبى الله إلا عدله ووفاءه

فلا النكر معروف ولا العرف ضائع^(٥) .

٧ - الناصر : يقول « أبو قيس بن الأسلت » :

وأحرزنا المغانم واستبحنا حمى الأعداء والله المعين^(٦) .

(١) ديوانه ٥٨ .

(٢) شاعر جاهلي رثى زيد القوارس ، لم أقف له على ترجمة وانظر حماسه عسيلان ١/ ٥٠٠ .

(٣) حماسه عسيلان ٣١٨/٢ وجدنا : حظنا ، وخذم : الخدم : القطع .

(٤) ديوانه ٩٨ وفي رواية : « يريد المرء أن يعطي » و « أن يؤتى » .

(٥) ديوانه ٣٩ هذا إذا عاد الضمير إلى لفظ الجلالة وانظر شرح البيت في الديوان .

(٦) ديوانه ٩١ دراسة وجمع وتحقيق الدكتور حسن محمد باجودة دار التراث القاهرة د . ط . د . ت .

- ٨ - **الواقى من الشرور والمخاوف** : يقول « أفنون التغلبي » :
- لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقى إذا هو لم يجعل له الله واقياً^(١).
- ٩ - **مقسم الحظوظ والأخلاق** : يقول « لبيد بن ربيعة رضي الله عنه » في الجاهلية :
- فاقتع بما قسم المليكُ فإنما قسم الخلائق بيننا علامها^(٢).
- ١٠ - **لا يخيب سائله** : يقول « عبيد بن الأبرص » :
- من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب^(٣).
- ١١ - **يثيب على العمل الصالح** : يقول « أبو قيس بن الأسلت » :
- أسرتُ مخلداً فعفوتُ عنه وعند الله صالحُ ما أتيتُ^(٤).
- ١٢ - **مستحق الحمد** .^(٥)
- ١٣ - **له حق على العباد** : يقول « عمرو بن الإطنابة » :
- إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم السائل^(٦).
- ١٤ - **أهل التقوى** : يقول « لبيد بن ربيعة » رضي الله عنه :
- إن تقوى ربنا خير نفل ويأذن الله ريثي وعجل^(٧).

(١) المفضليات ٢٦١ .

(٢) ديوانه ٣٢٠ .

(٣) ديوانه ٢٦ .

(٤) ديوانه ٧١ . وفي الإصابة - باب الكنى - ٩٣٥ « أجرت ... ودفعت ... » .

(٥) انظر مثلاً : ديوان النابغة ٥٢ وديوان قيس بن الخطيم ١١٥ .

(٦) معجم الشعراء ٢٠٤ وحماسة عسيلان ٢٩٤/٢ (النائل) .

(٧) ديوانه ١٧٤ .

ويقول « المتلمس » :

واعلم علمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ وتقوى الله من خير العتاد^(١).

هذه الأدلة وغيرها^(٢) ساقها كثير من الباحثين المحدثين ليصلوا إلى النتيجة التي توخوها واقتنعوا بها ، ويحاولون إقناع الآخرين بها ، وقد أفصح عنها بجلاء الدكتور « يحيى الجبوري » في كتابه « الجاهلية » إذ قال :
[وناقشت مفهوم الشرك الذي يُطلق على أهل ذلك العصر ، وتوصلتُ إلى أن الشرك يُفهم من تقديس معبودات مع الله سبحانه على أنها وسائل يتخذونها لتشفع لهم عند ربهم لا على أنها شريكة في ملك الله أو أنها خالقة مدبرة .

وأن العرب كانوا على دين إبراهيم دين التوحيد ، وهم بعد يؤمنون بالله الواحد القادر الخالق الرازق ، بيده أمر كل شيء]^(٣) .
أما الدكتور « أحمد شلبي » فيرى أن عبادة الأصنام لم تكن جدية ، ولم تكن ذاتية وإنما هي وسيلة للتقرب إلى الله^(٤) .

(١) ديوانه ١٧٢ .

وقد أشاد الجاهليّون بفضيلة « التقوى » وتمدّحوا بها ، قال « الأعشى » :
جماع الهوى في الرشداً أدنى إلى التقى
وترك الهوى في الغي أنجى وأوفق

ديوانه ٢٢١ . وقال « زهير » يمدح « هرم بن سنان » :

ومن ضريبته التقوى ويعصمه من سيء العثرات الله والرحم

ديوانه ١٢٦ وانظر أيضاً فيه وصفه لمدوحه بأنه « تقي نقي » ص ٢١٩ .

(٢) ها هنا أدلة سقتها من عندي حتى لا يبقى لاحتج دليل ، وانظر غيرها في

: الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي ٤١٠ - ٤٢١ .

(٣) الجاهلية ٩ (المقدمة) .

(٤) انظر موسوعة التاريخ الاسلامي ١/١٧١ - ١٧٢ .

ويعرف الدكتور « عمر فروخ » البدويّ الجاهليّ بأنه موحد ، وأن أكثر أهل الجاهلية كانوا على الفطرة : كانوا يسلكون في الحياة مسلكاً مؤمناً بالله وبقيمة العمل الصالح من غير أن يكون لهم نظام مخصوص في العبادة إلا فيما يتعلق بالحج ، ويقول في اعتذارهم حين قالوا : (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (١) : لا نقبل بأعذارهم ، ولكنها ذات قيمة لعدم ظهور أثر الأوثان في شعرهم (٢) ، وأخذ يعال شركهم وينتحل الأعذار لهم ، ليقول أخيراً : إن الأوثان كانت طائفة وقليلة في بلاد العرب ، وأيا كان الاسم المعبد للأصنام فإن الجاهليين لم يولوا الأصنام والأوثان الاهتمام الذي كان لها عند الأقدمين (٣) .

وأسارع إلى الردّ قبل نقض هذه الفكرة من أساسها - فأقول - تعليقاً على الفقرة الأخيرة من كلام الدكتور « عمر فروخ » - رحمه الله وغفر له - : أيّ اهتمام أكثر من أن يضع المرء حياة ابنه وفلذة كبده وأحبّ أولاده إليه - مع ما عرف عن العرب من ولهم الشديّد بالأولاد - رهن إشارة من صنم أو وثن (٤) ؟ ! .

(١) الآية ٣ من سورة الزمر .

(٢) انظر سبب عدم ظهور الأوثان في شعرهم ما يأتي من بحث في الشعر الجاهلي وهل هو مرجع للدين ؟ !

(٣) انظر هذه الأقوال وغيرها في كتابيه : تاريخ الأدب العربي ٦٠/١ - ٦١ ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨١م ؛ وتاريخ الجاهلية ١٥٨ - ١٦٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م د . ط .

(٤) انظر قصة عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم في : تهذيب السيرة ٢٤ وقوله عليه الصلوة والسلام : « أنا ابن الذبيحين » انظر فتح الباري ٣٧٨/١٢ ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة حديث رقم ٣٣١ .

وهذا أحد (القوميين) العرب . في كتابه « أدب ما قبل الإسلام » =

والردّ على هؤلاء - بحمد الله - سهل ميسور ، ولكن الاستقصاء فيه يستدعي الإطالة التي أفرّ منها ، وسأقتصر على ما ذكره كل من العلامة « محمود شكري الألوسي » والأستاذ « أحمد عبد الغفور عطار » ، وسأستشهد بآية واحدة فقط من القرآن الكريم وتفسيرها .

يقول « العلامة الألوسي » عن موحدَي الربوبية من الجاهليين : [وهم الذين أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وحجّوا إليها ونحروا لها وقربوا القرابين ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلّوا وحرّموا ، وهم الدهماء من العرب ، هو الذي يسمّى : توحيد الربوبية ؛ وهو الذي أقرت به الكفار جميعهم ولم يخالف أحد منهم في هذا الأصل إلاّ الثنوية وبعض المجوس] (١) .

ويعرّف الموحدين التوحيد الحقّ ، فيقول : [وهم من استبصر ببصيرته فاعترف بوجود الله وتوحيده ، ولم يدرك دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل بقي على أصل فطرته ، ونظر بعين بصيرته ، فلم يغيّر ولم يبدّل ، وهم البقايا ممن كان على عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام] (٢) .

ويردّ على من يقول بأن العرب موحدون أبلغ ردّ ، فيقول : [وكيف هذا ؟ ! والقرآن ، بل وسائر الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها مصرّحة

= تحرّجاً من ذكر اسم « الجاهلية » يقول : « وأما حياتهم الدينية فقد كان الغالب فيها عبادة الأصنام والأوثان » انظر مقدمة الكتاب ، تأليف محمد عثمان علي ، المؤسسة العالمية للدراسات والنشر والتوزيع ، ليبيا ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(١) بلوغ الأرب ١٩٧/٢ وانظر كتابه « بلوغ الأماني » في الردّ على النبهاني ١٦/١ وما بعدها ، المطبعة العربية ، لاهور ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ففيه كنوز من المعارف في هذا الباب .

(٢) بلوغ الأرب ١٩٦/٢ .

بيطلان هذا الدين وكفر أهله ، وأنهم أعداء الله تعالى ورسله وأنهم أولياء الشيطان وعباده ، وأنهم أهل النار الذين لا يخرجون منها ، وهم الذين حطت بهم المثلاث ونزلت بهم العقوبات ، وأن الله سبحانه بريء منهم هو وجميع رسله وملائكته ، وأنه سبحانه لا يغفر لهم عملاً ؛ وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف ، وقد أباح الله لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبنائهم ، وأمرهم بتطهير الأرض منهم حيث وجدوا ، وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة ، فهؤلاء في شق ورسل الله في شق [(١)] .

ويقول عن الحمس والحلة (٢) إنهم مشركون بلا شك (٣) .

أما الأستاذ « أحمد عبد الغفور عطار » فيقول : [ولا يجوز أن يكون العرب موحدين على ملة إبراهيم فيأتيهم « عمرو بن لحي » بما ينقلهم فجأة من التوحيد إلى الشرك ، ومن الإيمان الديني الصحيح إلى الوثنية الهوجاء !!] (٤) .

وفي تفسير قول الله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (٥) يقول الشوكاني : [أي وما يصدق ويقر أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرازق المحيي المميت « إلا وهم مشركون » بالله يعبدون معه غيره

(١) ذاته ٢١٨/٢ .

(٢) انظر عن الحمس والحلة : المحبر ١٧٨ وما بعدها و ٢٣٦ والمنمق ١٤٣ . وحاشية ديوان سلامة جندل ١١٩ وبلوغ الأرب ١٩٧/٢ ومقدمة ديوان لبید ٣٠ وما بعدها .

(٣) بلوغ الأرب ١٩٧/٢ .

(٤) الديانات والعقائد ٣١/٤ .

(٥) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .

كما كانت تفعله الجاهلية [(١)] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون به] (٢) .

وقال الحسن ومجاهد وعامر الشعبي وأكثر المفسرين : [نزلت في قوم أقرؤا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان] (٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك] (٤) .

وهذه تلبية « نزار » التي ذكرها الكلبي (٥) ، ثم ذكر الآية وقال : [أي ما يوحدونني بمعرفة حقي ، إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي] (٦) .

وأتساءل أخيراً : إذا كان العرب موحدين فلماذا إذاً كان عداؤهم المقيت لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، دعوة التوحيد ؟ ولماذا نشبت المعارك واحتدم القتال في ساحات الوغى وتطايرت الرؤوس وخضبت رمال الصحراء بالدماء ، وقتل الأب ابنه و الابن أباه ؟ هل كل ذلك من أجل معتقدات غير راسخة وغير جدية ؟ أم من أجل أصنام لم يلقوا لها بالاً ؟ !

(١) فتح القدير ٥٩/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٩٤/٣ .

(٣) القرطبي ٢٧٢/٩ .

(٤) ذاته ٢٧٢/٩ .

(٥) الأصنام ٧ ، وانظر عن هذه التلبية ما جاء في صحيح مسلم ٨٤٣/٢

(كتاب الحج) باب التلبية حديث رقم ١١٨٥ وأنهم كانوا مشركين ، وانظر

المجد ٣١١ وما بعدها : صوراً متعددة لتلبيات القبائل .

(٦) الأصنام ٧ .

نعم ! كان في العرب تدين وبقايا من دين إبراهيم عليه السلام ،
ولكنه تدين منحرف ضالّ أشرك مع الله غيره في عبادته ووجدانيته (١) .
وعمّ الشرك وطمّ في بلاد العرب ، ولم يبق على التوحيد إلا رجال
معدودون ؛ هم « الحنفاء » فمن هم هؤلاء المضيئون في دياجير الظلم ؟ !

هـ - الحنفاء :

١ - تعريفهم : والحنفاء جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام
دين الله ، أو تفاؤلاً كالسليم (٢) ، [وما كان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون
: نحن حنفاء على دين إبراهيم] (٣) .

[وقال الأخفش : وكان في الجاهلية يُقال : من اختن وحج البيت ،
قيل له : حنيف] (٤) .

وأبسط تعريف للحنفاء في الجاهلية يتضح من قول أحدهم وهو « زيد
بن عمرو بن نفيل » : [يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم
أحد على دين إبراهيم غيري] (٥) .

(١) انظر الأصنام ١٣٦ وانظر آثار هذا التدين المنحرف مثلاً في قصيدة
« عوف بن الأحوص » في المفضليات ١٧٤ وانظر المحبر ٣١٩ وديوان قيس
بن الخطيم ٦٠ ، ٦١ ، ١١٥ ومقدمة ديوان لبيد ٣١ .

(٢) انظر المحبر ١٧١ - ١٧٢ ومعاجم اللغة مادة « حنف » ودائرة المعارف
الاسلامية ١٢٤/٨ وما بعدها .

(٣) اللسان ٥٦/٩ مادة « حنف » .

(٤) تاج العروس ٧٧/٦ مادة « حنف » .

(٥) الأصنام ٢٢ ، وبلوغ الأرب ٢٤٤/٢ .

وإذا فالحنفاء هم : من بقي على دين إبراهيم عليه السلام وآمن بالبعث ومال عن عبادة غير الله . وقد ذكر الألوسي طائفة منهم مثل : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأمّية بن أبي الصلت ، وكعب بن لؤي وعثمان بن الحويرث ، وسويد بن عامر المصطلق وأسعد أبوكرب الحميري ، ووكيع بن سلمة الإيادي ، وعلاف - غلاق - بن شهاب التيمي ، وغيرهم (١) .

ومن أقدم الحنفاء كعب بن لؤي ، يذكر المرزباني أن بين موته وبين القيل عشرين وخمسمائة سنة ، وأورد قصيدة له يبشر فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم ومنها :

[على غفلة يأتي النبي محمد فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم قال : وأيم الله لو كنت فيها ذا سمع وبصرٍ ويدٍ ورجلٍ لتنصبتُ فيها تنصبّ الجمل ، ولأرقلت فيها إرقال الفحل ، ثم قال :

يا ليتني شاهد فجواء دعوته حين العشيرة تبغي الحق خذلانا (٢) .

(١) انظر أخبار الحنفاء بالتفصيل في ٢/٢٤٤ وما بعدها و ٢/٢٥٣ وما بعدها ، وموسوعة تاريخ الاسلام ١/١٦٨ - ١٦٩ لأحمد شلبي ، والمخبر

١٧١ وقد نص ابن حبيب على تحنّف زيد ونصرانية سائر أصحابه .

(٢) معجم الشعراء ٣٤١ وهاهنا سؤال : إذا كانت هذه الأبيات صحيحة ،

والمدة الموعلة في القدم في قولها ثابتة ؛ فما رأي القائلين بأن

أقصى تاريخ للعرب والشعر العربي قرن ونصف أو قرنان قبل البعثة

النبوية ؟ أم أن الأمر بحاجة إلى بحث وإعادة نظر ؟ !!

وانظر المعارف لابن قتيبة ٦٠ إذ ذكر أبياتاً مماثلة لهذه في الإيمان بالنبي

صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بستمائة سنة - « أسعد أبي كرب

الحميري » .

٢ - **طلبهم للدين** : يروون [أن أمية^(١) مرّ يزيد بن عمرو بن نفيل أخي عدي بن كعب^(٢) ، وكان قد طلب الدين في الجاهلية هو وورقة بن نوفل . فقال له أمية : يا باغي الخير ، هل وجدت ؟ قال : لا ، قال : لم أوتَ من طلب^(٣) ، قال : أبى علماء أهل الكتاب أنه^(٤) منا أو منكم أو من أهل فلسطين]^(٥) . وغالب الحنفاء كانوا ينتظرون مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ويرحلون في طلب الدين إلى العراق والشام واليمن وغيرها^(٦) .

٣ - **موقفهم من قومهم** :

وكان الحنفاء لا يفتأون يدعون قومهم إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان ، ومعتقداتهم الباطلة ويدعونهم إلى عبادة الله الواحد الأحد .
ومنهم نفر من قريش : [زيد^(٧) وورقة وعثمان بن الحرث^(٨) ، وعبيد الله بن جحش : خالفوا قريشاً وقالوا لهم : إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام ، ولا يأكلون ذبائهم]^(٩) .
وكان « المتلمس بن أمية الكناني »^(١٠) ، [يخطب بفناء الكعبة ويقول :

-
- (١) ابن أبي الصلت .
 - (٢) أي أنه من بني عدي بن كعب بن لؤي بن غالب .
 - (٣) أي لم أوتَ من ترك الطلب أو من تقصير فيه .
 - (٤) أي النبي الذي كانوا يستشرفون مبعثه .
 - (٥) طبقات ابن سلام ٢٦٣/١ .
 - (٦) انظر في ذلك المراجع في الهامش رقم (١) من الصفحة السابقة .
 - (٧) ابن عمرو بن نفيل .
 - (٨) وقيل : الحارث أو الحويرث .
 - (٩) بلوغ الأرب ٢٤٨/٢ وانظر أيضاً ٢٤٧/٢ - ٢٥٢ في دعوتهم لقومهم .
 - (١٠) كذا !!! ولم أجد أحداً اسمه « المتلمس بن أمية » ، ولعلّه خطأ مطبعي =

أطيعوني ترشدوا ، قالوا : ما ذاك ؟ قال : إنكم قد تفردتم بآلهة شتى وإني لأعلم ما الله راضٍ به ، وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وإنه ليحبُّ أن يُعبد وحده ، فتفرقت عنه العرب [١] .

ويقول « قس بن ساعدة الإيادي » لقومه : [يا معشر إياد ، أين تمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذي لم يشكر ؟ والظلم الذي لم ينكر ؟ أقسم قس قسما بالله ، إن لله لدينا هو أَرْضَى لكم من دينكم هذا] [٢] .

وكان يغشى الأنديّة والأسواق لدعوة الناس إلى التوحيد [٣] .

= أو زلة قلم . وإنما هو « القلمس » قطعاً ، والقلمس : الشريف ، واحد القلامسة ، وهم نساء الشهور من كنانة وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم .

وأول من نساء الشهور في الجاهلية : القلمس « حذيفة بن عبدنهم » وآخر قلمس هو « جنادة بن عوف بن أمية » وقد أدرك الإسلام .

والمقصود هنا هو القلمس بن أمية الكثاني ، أي « عوف بن أمية » والله أعلم .

وانظر في ترجمة القلمس والقلامسة : تفسير القرطبي ١٣٧/٨ ولسان العرب ، وتاج العروس مادتي (نساء ، قلس) والمحبر ١٥٦ ، ١٥٧ وجمهرة النسب لابن حزم ٤٩٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ٢٥٠ وموسوعة الشعر العربي ٢٠٥/٤ والأعلام ٩٧/٨ و ٢٠٣/٥ .

(١) بلوغ الأرب ٢٧٧/٢ وانظر قصة الأدب في الحجاز ٢٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٩/١ .

(٣) انظر مثلاً : خطبة « قس بن ساعدة الإيادي » في سوق عكاظ ، في بلوغ الأرب ٢٤٥/٢ - ٢٤٦ وانظر شرفها ، وما قاله الجاحظ فيها . البيان والتبيين ٥٢/١ وانظر ص ٢١٨ من هذا البحث ، وبعضاً من الخطبة في البيان والتبيين أيضاً ٣٠٩/١ .

٢ - توجههم الديني ودعوتهم في شعرهم :

أورد « ابن قتيبة » في المعارف (١)، والآلوسي في بلوغ الأرب (٢)، طائفة من أشعارهم التي تبين دعوتهم إلى التوحيد وإيمانهم بالله رباً لا شريك له ؛ ولعل أشهر هذه الأشعار ، قول « قس بن ساعدة الإيادي » :

[في الذاهبين الأولي من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر
أيقنت أنني لا محال لة حيث صار القوم صائر] (٣) .

و « أبو قيس صيرمة بن أبي أنس » : [وهو من بني النجار ، وكان ترهب فلبس المسوح ، وفارق الأوثان ، وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذ مسجداً لا يدخل عليه طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب إبراهيم] (٤) .

و [هو القائل في الجاهلية :

سبحوا لله شرق كل صباح طلعت شمسهِ وكل هلال
يا بني الأرحام لا تقطعوها وصلوها قصيرة من طوال

(١) انظر ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) انظر ٢٤٤/٢ وما بعدها .

(٣) البيان والتبيين ٣٠٩/١ وبلوغ الأرب ٢٤٥/٢-٢٤٦ مع اختلاف يسير .

(٤) المعارف ٦١ وفيه : فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم

وحسن إسلامه ، وقال أشعاراً في مدحه صلى الله عليه وسلم ، أورد منها

« ابن قتيبة » قصيدة واحدة ..

يا بني التخوم^(١) لا تظلموها إن ظلم التخوم^(١) ذو عقال^(٢) [٣].

ويقول « زيد بن عمرو بن نفيل » :

[تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابتنيها ولا صنمي بني غنم أزور

ولا هبلا أزور وكان رباً لنا في الدهر إذ حلمي صغير^(٤)] .

ولو ذهبت أستقصي ما قاله الحنفاء من أشعار لاستفرغت صفحات كثيرة ، ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق^(٥) .

ولكني توقفت أمام أمرين :

الأول : أن ابن حبيب في المحبر^(٦) نصّ على تحنف زيد بن عمرو بن نفيل ونصرانية سائر أصحابه . وقد كفاني مؤنة الرد الأستاذ « أحمد عبد الغفور عطار » ، إذ يقول :

[وإذا كان الحنفاء من العرب على بعض روايات الإخباريين قد تحرروا من الوثنية وأعجبوا بالنصرانية واستمالتهم محتوياتها من ناحية العقيدة ، فإن الواقع ليس كذلك ، فالحنفاء قد خرجوا على الوثنية ، وكانوا على معرفة

(١) وفي رواية : النجوم .

(٢) وفي رواية « داء عضال » . (٣) المعارف ٦٢ .

(٤) الأصنام ٢٢ . وفي فتح الباري ١٠٨/٧ أن « زيدا » أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه .

(٥) للأخ الدكتور « حبيب حنش الزهراني » رسالة ماجستير عن أدب الحنيفية في العصر الجاهلي . استوعب فيها معظم شعرهم . قدمها لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

(٦) ١٧١ - ١٧٢ .

ثاقبة بالكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ، ولكنهم لم يؤمنوا بما جاء فيه مما لا يتفق مع ما اعتقد الحنفاء وذهبوا إليه ، فهم لم يكونوا مؤمنين بتأليه المسيح، ولم يكونوا مؤمنين بما جاء في الإنجيل من تجسيد الله - سبحانه وتعالى - ومن نسبة النقائص إليه - جل وعلا - فكانوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إن الحنفاء اتجهوا إلى الله وحده ، وآمنوا بالوحدانية ، فهم أصلحوا عقيدتهم باعتقاد التوحيد ، وكفروا بما سواه ، سواء كان المعبود من قبل غيرهم بشراً أم ملائكة أم جماداً ، أم نباتاً ، أم غير ذلك [(١)] .

أما الأمر الثاني فهو : ما مدى تأثر شعر « أمية بن أبي الصلت » بالقرآن الكريم ؟ وهل كان أمية حنيفياً ، أم نصرانياً ، أم يهودياً ؟ !

إننا نجد في شعر « أمية بن أبي الصلت » - مما يميل « السطلي » محقق ديوانه إلى توثيقه - قوله :

ألا كل شيءٍ هالكٌ غير ربنا والله ميراث الذي كان فانيا (٢)

فهل تراه متأثر بقول الله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) (٣) وقوله تعالى : (والله ميراث السموات والأرض) (٤) وقوله تعالى (كل من عليها فان) (٥) ؟؟؟

إن السطلي يرى أنه في هذا البيت بالذات قد تأثر بما ورد في التوراة ، وذكر نصوصاً بهذا المعنى فيها (٦) .

(١) الديانات والعقائد ٧١ - ٧٢ .

(٢) ديوانه ٥٢٨ .

(٣) الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٤) جزء الآيتين ١٨٠ من سورة آل عمران و ١٠ من سورة الحديد .

(٥) الآية ٢٦ من سورة الرحمن .

(٦) انظر مقدمة الديوان ١٨٤ .

ويقول صاحب « شعراء الجاهلية » الموسوم بـ « شعراء النصرانية في الجاهلية » عن أمية : [وقد قرأ الكتب ، واتصل بالقدسين ، ولبس المسوح ، وتبسك ، وجرم الخمر ، ونبذ الأوثان] (١) .

فالسطلّي يقول إنه تأثر بالتوراة فهل كان يهودياً ؟ ولويس اليسوعي يقول إنه اتصل بالقدسين ولبس المسوح ، فهل كان راهباً نصرانياً ؟

إن المسألة سهلة جداً ، يبسطها ابن سلام عن أمية إذ يقول : [وكان أمية كثير العجائب يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء وكان قد شام أهل الكتاب] (٢) .

وفي نظري - والله أعلم - أن ما ذكره ابن سلام عنه يعود إلى ما يأتي :

أولاً : طمعه بالنبوة (٣) ، فقد كان أحد المتألهين في أشعارهم (٤) ، وكان يعلم من خلال الكتب والرهبان أن هناك نبياً قد دنا مبعثه ، فوسوست له نفسه أنه هو .

ثانياً : جهل معظم العرب بالقراءة بله قراءة ما في الكتب السابقة ، جعله يتفاخر ويتعاطف في شعره باقتباس نصوص منها .

ثالثاً : أن أمية لم يتهود ولم يتنصر - كعادة العرب - الذين لم يستسيغوا تحريفات هاتين الديانتين ، وقد نصّ أمية على تحنّفه في قوله :

-
- (١) شعراء النصرانية ٢١٩ .
 (٢) طبقات الشعراء ٢٦٢/١ - ٢٦٣ .
 (٣) انظر مقدمة الديوان ص ٥٠ .
 (٤) انظر طبقات ابن سلام ٤١/١ .

كل دين يوم القيامة عند مد الله إلا دين الحنيفة زور^(١)

وفي حيرته واستشرافه للنبي المنتظر ، في قوله :

[الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربّي ومسانا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا

ألا رسول لنا منّا فيخبرنا ما بعد غاييتنا من رأس مجرانا]^(٢)

وكأنه يوحي للسامعين بأنه يعلم ما لا يعلمون وأنه ربما كان هذا النبي

المنتظر !!

أمّا مسألة تأثره في شعره بالقرآن الكريم فهو أمر مرفوض تماماً

للأسباب التالية :

أولاً : إن هذا ما تذرعه به كثير من المستشرقين للقدح في نبوته

صلى الله عليه وسلم وأميته ، وفي القرآن الكريم ورفض الوحي ، فقالوا :

إن هذا دليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبتدع شيئا ، وأن

القرآن الكريم لم يقل جديداً ، وأن شعر الحنفاء من مصادر القرآن الكريم^(٣) .

(١) ديوانه ٣٩٣ وقد عدّه السطلي من الحنفاء انظر ص ٥٢ وما بعدها في

مقدمة الديوان وعندى أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانياً ولا حنيفياً وإنما
كان يخطط خبط عشواء على غير بصيرة ولا هدى ، أهلكه ضلاله ، وقضى
عليه حسده ، ومات كافراً .

وانظر قصة عجيبة عن طائرین شقا صدره ، في مرض موته في طبقات

ابن سلام ٢٦٦/١ .

(٢) ديوانه ٥١٧ .

(٣) انظر في هذا : ما نقله السطلي في مقدمة الديوان ٢٩٣ وما بعدها عن

بعض المستشرقين مثل : نيكلسون ، وكليمان هوار ، وبور ، وانظر كتاب

« في الألب الجاهلي » للدكتور طه حسين ١٤٢ ، ١٤٣ بغض النظر =

ثانياً : لا يُعقل أن يتأثر أمية بالقرآن الكريم ، وهو جاحد بنبوته صلى الله عليه وسلم وبما أتى به ، فإن فعل فقد أقر بالنبوة تبعاً ، وهذا ما لا يتفق وشخصية أمية المتعالية المتعظمة .

ثالثاً : إن ورد في شعر أمية ما يتفق مع معاني القرآن الكريم ، فليس ذلك بدعاً من القول ، إذ قد سبقه إلى ذلك كثير من الشعراء الجاهليين ، فبيته مثلاً - موضع التساؤل - قد سبقه إلى مثلها « عدي بن زيد » فمما أثبتته له « ابن سلام » قوله :

ليس شيء على المنون بياق غير وجه المسيح الخلاق (١) .

فهل تأثر « عدي بن زيد » بالقرآن الكريم في بيته هذا ؟ !

رابعاً : إن جميع الكتب السماوية وحي من الله تعالى تتفق في المقصد وتختلف في الشرائع ، قال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً) (٢) .

فإذا سقط في شعر أمية ما يوافق التوراة مثلاً ، وجاء به الذكر العزيز ، فإنه حتماً تأثر بالتوراة لا بالقرآن الكريم .

خامساً : إن كثيراً من شعر أمية منحول ، وديوانه مشحونٌ شحناً بما نُحِلَ عليه ، فلماذا لا يُصَفَى شعره حتى يبقى منه ما يميل الظنُّ بنسبته

= عما يهدف إليه من هدم شعر أمية بل شعر الجاهلية كله . وانظر الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٨٧/٥ لجواد علي .

(١) طبقات الشعراء ١٤١/١ . وانظر كذلك قول « عبيد بن الأبرص » :

وليفنين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجهه المعبودا

ديوانه ٧٠ .

(٢) الآية ١٦٣ من سورة النساء .

إليه على الأقل .

والقلب لا يطمئن - أبداً - إلى شعره الذي تردُّ فيه ألفاظ تفرّد
بذكرها القرآن الكريم ، مثل : التغابن ، وفار التنوير ، وجرز ، وغيرها^(١) .
وموضوع تأثر الحنفاء بكتب النصارى واليهود ، يقودنا إلى حديث
خاطفٍ عن اليهود والنصارى .

و - اليهود والنصارى :

ليس البحث عنهم - فيما يتصل بحياة العرب الدينية في الجاهلية -
بذي فائدة تذكر ، اللهم إلا ما سبق ذكره عن تأثر الحنفاء بكتبهم ، أو عن
بعض العرب ممن [اتبع من بقيت شريعته ولم تُنسخ ملّته كعيسى ابن مريم ،
وهذا الصنف نزر يسير لم يكونوا إلا عدداً معلوماً في كلّ عصر إلى زمن
البعثة المحمدية]^(٢) على صاحبها صلوات الله وسلامه .

أما اليهود فقد كانوا في حمير وبني كنانة وكندة وبني الحارث بن
كعب^(٣) .

وكانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة ، والعباد في
الحيرة ، وبني تغلب ونجران^(٤) ، حيث كانت مذبحاة الأخدود التي ذكرها

(١) انظر ما ذكره منها الدكتور « الحوفي » في كتابه : الحياة العربية من

الشعر الجاهلي ٤٠٦ وما بعدها حتى إنه خرج من ذلك بقوله :

« وأرجّح أنه تأثر بالقرآن الكريم في بعض شعره ، لأن الفكرة واحدة ،
وبعض التعابير مشتركة » وأخذ يستدلّ ببعض شعره - سامحه الله - .

(٢) بلوغ الأرب ١٩٦/٢ .

(٣) ذاته انظر ٢٤٠/٢ - ٢٤١ .

(٤) ذاته انظر ٢٤١/٢ - ٢٤٤ .

القرآن الكريم (١)، حوالي سنة ٥٢٢ م وكان وقودها النصارى حيث سيطرت النصرانية على جنوب الجزيرة بعد ذلك ثم الفرس ، وكان آخر ملك يهودي الديانة في جنوب الجزيرة هو « نوناس » الذي حكم من سنة ٥١٠ م إلى سنة ٥٢٥ م كما يرجح بعض الباحثين (٢).

وكان اليهود أيضاً في المدينة المنورة وخيبر ، وفدك ووادي القرى ، وتيماء ، وعموماً فقد كان شمال الحجاز معروفاً لليهود (٣).

وتذكر المصادر طرفاً من الروايات التي تذكر سبب تنصّر بعض العرب (٤)؛ من ذلك ما روي أن رجلاً استاق (٥) ناقةً أُهديت لـ « الفلّس » صنم طيء ، فارتاع « عديّ بن حاتم » رضي الله عنه لذلك وانتظر أن يصيب الرجل شيء فلم يصبه شيء ، فرفض عديّ عبادته وعبادة الأصنام ، وتنصّر فلم يزل منتصراً حتى جاء الله بالاسلام فأسلم (٦).

ويذكرون أن إياداً كانت تعبد صنماً يدعى « ذا الكعبين » أو « الكعبات » ، ولكنهم لما اختلطوا بالنصارى في الحيرة والشام اعتنقوا النصرانية ، ثم

(١) في سورة البروج الآيات ٤ - ١٠ .

(٢) انظر : الديانات والعقائد ٦٧/٤ وما بعدها .

(٣) الديانات والعقائد ٥٣/٤ (بتصرف) .

(٤) أما اليهودية فقد فرضت فرضاً كما سبق في قصة أصحاب الأخدود ، وذلك لأن أحبار اليهود حولوا اليهودية إلى دين مغلّق .

(٥) أي نهبها مع علمه أنها صارت وقفاً على الصنم .

(٦) انظر القصة بتمامها في الأصنام ٥٩ - ٦١ وهذا يدل على أن العرب الذين تنصّروا إنما كان تنصرهم هرباً من الوثنية لا حباً في النصرانية المحرّفة أو تعمقاً فيها ، فلو درسوها بعناية لقرّوا منها إلى غيرها .

اعتنقوا الإسلام (١).

ومن شعراء الجاهلية المقطوع بنصرانيتهم « عدي بن زيد » ، حيث نجد في شعره طقوس النصرانية المحرّفة وخرافات (٢) .

كما أننا نجد عند الشعراء ممن لم يتهود أو يتنصر وصفاً للرهبان ومصاييحهم ، وقرع النواقيس ، ومن عجيب وصفهم ، قول « لبيد بن ربيعة » رضي الله عنه ، يصف رجلاً يطلب أكسية رقاقاً توضع على ظهر البعير تحت الرجل ، ويتحسسها بيديه ، وهو لا يحس بها من غلبة النوم عليه :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المصل (٣)

وقد يستتبع هذا أن يُوصم الشاعر باليهودية أو النصرانية كما فعل لويس اليسوعي في كتابه « شعراء النصرانية » إذ كاد يستغرق شعراء الجاهلية ويُدرجهم في النصرانية متسقطاً لكلمة ما قد تنبؤ من شاعر وثني أو حنفي يذكر فيها الله سبحانه وتعالى أو أي من أسمائه عز وجل ، أو ذكر الرهبان والنواقيس .. الخ فما إن يقتنصها حتى يجعلها من أوثق الأدلة على نصرانيتها غير واضح في حسابه صحة الشعر ونسبته إلى صاحبه من عدمها والله في خلقه شؤون .

من ذلك تأكيده على نصرانية « سلامة بن جندل » حين قال :

(١) انظر مقدمة ديوان لقيط .

وهذا دليل آخر على عزوف العرب عن النصرانية وغيرها ، فإن أشهر حنفاء الجاهلية ؛ « قس بن ساعدة » من إياد التي تنصّرت .

(٢) انظر مثلاً ما ذكر « عدي بن زيد » عن قصة آدم عليه السلام والحياة التي أغوته على حدّ زعمه ، الحيوان للجاحظ ١٩٧/٤ .

(٣) ديوانه ١٨٣ .

[عجّلتُم علينا حجّتين عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويُطلق

هو الكاسر العظم الأمين وما يشأ من الأمر يجمع بينه ويفرق] (١).

وقد ردّ عليه « فؤاد سزكين » بأن [ورود كلمة « الرحمن » في هذه القصيدة ، وكلمة « الله » في قصيدة أخرى ، لا يقيم دليلاً على صحة النسبة ، كما لا يقيم دليلاً على كونها منحولة ، وليس في هذا دليل على كون سلامة مسيحياً (٢)] (٣) .

وممن نصرهم لويس شيخو « الأعشى » ولكن المحقق الدكتور « محمد محمد حسين » أثبت بطلان ادعائه (٤) وقُلّ هذا عن « حميد بن ثور الهلالي » في قوله يصف نساءً على سفر وسجود الجمال لهنّ ليركبنها :

[فلما لوين على معصم وكفّ خضيب وأسوارها

فضول أزمّتها أسجدت سجود النصارى لأخبارها] (٥) .

وقد كان بعض الشعراء في الجاهلية يطلعون على كتب النصارى ويخالطونهم ، ولكن هذا أيضاً ليس دليلاً على تنصرهم ، يقول « النابغة الجدي » رضي الله عنه :

الجدي

(١) ديوانه ١٨٤ والأمين : القويّ ، وهو يردّ النصر إلى الذي يصرف الأمور .

(٢) الصواب أن يقول « نصرانيا » فليس هناك دين اسمه « المسيحية » .

(٣) تاريخ التراث العربي الجزء الثاني ، المجلد الثاني ، ١٤٨ ، وانظر بلاشير

. ٢٥٧

(٤) انظر مقدمة ديوان الأعشى ص « ت » وقد ذكر المحقق بعض المواضع في

ديوانه التي فيها ذكر للرهبان ومدح بعضهم ، والتشبيهات والصور

لطقوسهم وغيرها في الصفحات ٥٣ ، ٦٩ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٧٧ ، ٣٦٥ .

(٥) ديوانه ٩٦ .

وطوّفت في الرهبان أعبر دينهم وسيّرت في الأحبار ما لم تُسيّر^(١).

ز : قدرة الشعر الجاهلي على تصوير الحياة الدينية للجاهليين :

وبمعنى آخر : هل يمكن الاعتماد على الشعر الجاهلي للوقوف على صورة حقيقية واضحة لحياة العرب الدينية ومعتقداتهم في الجاهلية ؟ !

لم أجد من ناقش هذا الأمر بتفصيل واستفاضة كما فعل الدكتور «أحمد محمد الحوفي» في كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلي »^(٢).

وسأوجز مناقشته لهذا الأمر كالآتي :

مهد الدكتور للموضوع بأن الشعر حالة فنية وجدانية ، لا ننتظر منها التفصيل في دقائق الحياة الدينية وضرب لذلك مثلاً بالآلاف الشعراء في العصور الإسلامية المتعاقبة فليس بينهم شعراء دينيون إلا قلة قليلة ، ثم إنه يكفينا في الجاهلية شاعر واحد مثل « أمية بن أبي الصلت » اتسم شعره بالطابع الديني . ثم إن الكثرة الكثيرة من الشعراء المسلمين في العصور الإسلامية يصعب على الباحث أن يستشف عقائدهم من خلال قصائدهم مثل : المتنبي ، والبحتري ، وابن الرومي .

وذكر الأسباب التي اعتمدها « طه حسين » في رفض الشعر الجاهلي . وأقواها - في نظر « طه حسين » - أن القرآن الكريم يتحدث

(١) ديوانه ٣٦ .

وأعبر : من العابر الذي ينظر إلى الكتاب فيعبره ، أي يعتبر بعضه ببعض حتى يقع عليه فهمه . وسيّرت : من سير سيرة إذا حدث أحاديث الأوائل.

(٢) ص ٣٧٠ - ٣٨٠ .

بالتفصيل عن عقائد وديانات لا نجدها في شعر فحول الجاهلية أمثال : امرئ القيس وطرفة وغيرهم .

وقد ناقش الدكتور « الحوفي » هذا الرأي ، متعللاً بضياغ الكثير من شعر الجاهلية ، وكذلك تناسى كثير من الناس هذا النوع من الشعر بعد إسلامهم .

وكذلك من انصرف من العرب إلى اليهودية غص عن شعره ، وأقبل على دينه الجديد .

ثم إن العرب لم يحفلوا بالدين شأئهم شأن الشعراء الذين كلفوا بشهواتهم وحروبهم وغزواتهم ولم يولوا الدين اهتماماً كبيراً .

ويصل الدكتور بعد هذا إلى أن ما بقي من الشعر الجاهلي يصور الحياة الدينية وضرب لذلك الأمثال والشواهد . مؤكداً ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي .

ولا أوافق الدكتور « الحوفي » على بعض ما ذهب إليه ، بالرغم من الجهد الواضح الذي بذله لاثبات وجهة نظره ، ولكن هذا لا يعني بالمقابل موافقتي لـ « طه حسين » فيما ذهب إليه .

والحق أن العربي كان أنانياً مفرطاً في حب الذات وتلك طبيعته ، صور جميع أنماط سلوكه في حربه وسلمه وفرحه وحزنه ، وركوبه ، ومشيه ، وسفره ، وعودته ، و ... الخ ، تفاصيل دقيقة جداً وكأنها عين مصور فنان ؛ أفيعجز عن تصوير خلجات نفسه أمام آلهته ؟ !

إن الشعر الوثني قد اندحر وانطمس بيزوغ فجر التوحيد الذي بدد ظلامه في نفوس العرب فلم يعد لتلك السخافات والضلالات أثر في ذاكرتهم ، فقد انسلخوا من حياتهم القديمة انسلاخاً وجدانياً ونعموا بالحياة في ظل دين الله دين الحق والفضيلة . فأتى لهم أن يتذكروا ذلك الجانب الكئيب المظلم من

شعرهم ؟ !

ثم إن شعر « أمية بن أبي الصلت » يمثل الجانب المشرق من تدين العرب وهو « التحنف » فلا يصح الاحتجاج به .

٢ - حالة العرب الدينية في الجاهلية من خلال القرآن الكريم :

إن العبارة التي ختم بها الدكتور « طه حسين » كتابه « في الأدب الجاهلي » والتي تقول : [فأما تاريخ الأدب حقاً ، التاريخ الذي يمكن أن يُدرس في ثقة واطمئنان ، وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول ، فإنما يبتدئ بالقرآن]^(١) الكريم .

هذه العبارة تحمل في طياتها نسفاً للأدب الجاهلي من جنوره ، متذرة بالقرآن الكريم لذر الرماد في العيون ؛ وجعل القرآن الكريم مصدراً من مصادر التاريخ الأدبي - أستغفر الله - .

إن هذه العبارة وأمثالها التي تجعل من القرآن الكريم : أصدق ، وخير ، وأقدم ، مرجع في دراسة حالة العرب الدينية^(٢) ؛ فيها سوء أدب مع كتاب الله تعالى الذي تعبدنا بتلاوته وتدبر آياته والعمل بأحكامه ، والتسليم له تسليماً مطلقاً ، ثم إن القرآن الكريم وحي إلهي لا كتاب بشري ، فيجب علينا - ديناً - أن ننزله منزلته ونحيطه بما هو أهله من التقديس والتعظيم ، لا أن نجعل منه مرجعاً في التاريخ الأدبي وما شابه ذلك - استغفر الله - !!!

إن القرآن الكريم حين يتطرق إلى حالة العرب الدينية في الجاهلية ،

(١) في الأدب الجاهلي ٣٣٣ طه حسين ، دار المعارف بمصر . د . د . ط . د . ت .

(٢) انظر مثلاً ما قاله الدكتور : عبد الحفيظ السطلي في مقدمة ديوان أمية

بن أبي الصلت ١٢ .

لا يذكر القبائل ومعبوداتها ولا أماكن أصنامها وأوثانها ، ولا يصف هذه المعبودات ممّ تصنع ؟ وأين توضع ؟ وكيف تُعبد ؟ ... الخ كلاً ! إنه يسوق الحجج والبراهين القاطعة على أحقية الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له بالعبادة .

ويعنى آخر فإن القرآن الكريم حين يأتي على مظاهر الانحراف في عقيدة العرب إنما يسردها لينقضها ويستأصل جذور الشرك ، ويقيم معالم التوحيد .

والقرآن الكريم قد تمحّض لتوحيد الله سبحانه وتعالى ، في ألوهيته ، وربوبيته ، وأسمائه وصفاته ، وأحكامه ، وأوامره ، ونواهيه .

وإذا ما استطردت في قضية مناقشة القرآن الكريم للتوحيد والشرك فمعنى هذا أنه يجب عليّ إثبات ما بين الدفتين من أول حرف في القرآن الكريم إلى آخر حرف منه^(١) .

وسأقتصر هنا على محاولة الاستدلال من خلال آيات القرآن الكريم على بعض معتقدات العرب وأديانهم في الجاهلية :

أولاً - من حيث المعبودات بصورة عامة :

أ - عبادة العرب أكثر من إله قال تعالى : (واتخذوا من بونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون)^(٢) .

(١) كتب التوحيد كلها ، مرجع في هذا ، وأحيل على كتاب « مقومات التصور الاسلامي » لسيد قطب - رحمه الله - فقد بسط الكلام في هذا الموضوع بسطاً شاملاً ومفيداً .

(٢) الآية ٣ من سورة الفرقان ، وانظر مثلاً الآيات والسور التالية : ١٩ ، ١٧٤ الأنعام ، ١٣٨ الأعراف ، ٤٢ الإسراء ، ١٥ الكهف ، ٨١ مريم ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٩٩ الأنبياء ، ٤٢ الفرقان ، ٢٣ ، ٧٤ يس ، ٣٦ ، ٨٦ الصافات ، ٦ ص ٢٣ ، نوح .

ب - كان في العرب « ثنوية » ، قال تعالى : (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد)^(١) .

ج - الاعتراف بالله وإنكار البعث ، قال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)^(٢) .

د - الدهريون الذين ينكرون الإله والبعث قال تعالى : (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين)^(٣) .

هـ - كثير من العرب عبد الجن ، قال تعالى : (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)^(٤) .

[وكانت « بنو مليح » من خزاعة - رهط « طلحة الطلحات » - يعبدون الجن . وفيهم نزلت (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم)]^(٥) .

ويقول « ابن مسعود » رضي الله عنه في قوله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى الله الوسيلة)^(٦) : [نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس كانوا يعبدونهم لا يشعرون]^(٧) .

(١) الآية ٥١ من سورة النحل .

(٢) الآية ٣٨ من سورة النحل .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الأنعام وانظر في إنكار البعث الآيات والصور التالية : ٧ هود ، ٤٩ ، ٩٨ الرساء ، ٣٧ ، ٨٢ المؤمنون ، ٤٧ الواقعة ، ٧ التغابن ، ٧ الجن .

(٤) الآية ٤١ من سورة سبأ ، وانظر الآيات والصور التالية ١٠٠ ، ١٢٨ الأنعام ، ٦ الجن .

(٥) الأصنام ٣٤ .

(٦) الآية ٥٧ من سورة الإسراء .

(٧) صحيح مسلم ١٦٤/١٨ .

وقيل : [فأسلم النفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم]^(١) .

و - ومنهم من عبد الملائكة ، قال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)^(٢) .

وكانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، قال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً)^(٣) ، وقال تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً)^(٤) وقال عز وجل : (ألكم الذكر وله الأنثى)^(٥) ، ذلك أن العرب كانوا يفضلون الذكور على الإناث ، قال تعالى : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)^(٦) .

ز - ومنهم من عبد الشمس والقمر والنجوم : قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)^(٧) .

وقال تعالى : (وأنه هورب الشعري)^(٨) .

(١) ذاته ١٦٤/١٨ وانظر بلوغ الأرب ٢٣٣/٢ .

(٢) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة سبأ .

(٣) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

(٤) الآية ٤٠ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٢١ من سورة النجم وانظر الايات والصور التالية : ١١٧ من سورة

النساء ، ٥٧ النحل ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ الصافات ، ١٦ الزخرف ، ٣٩ الطور

٢٧ النجم .

(٦) الآية ٥٨ من سورة النحل .

(٧) الآية ٣٧ من سورة فصلت .

(٨) الآية ٤٩ من سورة النجم . وانظر على سبيل الاستدلال على عبادة

العرب للشمس والقمر والنجوم الايات والصور التالية : ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٦

الأنعام ، ٥٤ الأعراف ، ٥ يونس ، ٢ الرعد ، ١٢ النحل ، ٣٣ الأنبياء ، =

ح - ومنهم من عبد الشجر ، قال تعالى : (أفرايتم اللات والعزى)^(١) . والعزى : شجيرات ، وهي أعظم الأصنام عند قريش^(٢) .

ط - وكان منهم الصابئة والمجوس^(٣) ، قال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة)^(٤) .

ثانياً - أهل الكتاب^(٥):

وهم اليهود والنصارى ، وقد ذكر القرآن الكريم أنهم حرفوا الكتب المنزلة^(٦) .

وادّعى كل فريق أن الحق معه (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء)^(٧) .

هذا التحريف في الكتب أدى إلى الانحراف في العقيدة . قال تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله)^(٨) .

== ١٨ الحج ، ٢٤ النمل ، ٦١ العنكبوت ، ٦٠ الصافات .

(١) الآية ١٩ من سورة النجم .

(٢) انظر خبرها والشعر الذي قيل فيها في كتاب الأصنام ٢٥-٢٦ للكلبي ، وانظر المحبر ٣١٥ .

(٣) انظر ما ورد عن الصابئة والمجوس ، ص من هذا البحث .

(٤) الآية ١٧ من سورة الحج ، وهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها المجوس ، أما الصابئون فذكروا أيضاً في الآية ٦٢ من سورة البقرة والآية ٦٩ من سورة المائدة .

(٥) وردت كلمة (أهل الكتاب) ٣١ مرة في القرآن الكريم و (أهل الإنجيل) مرة واحدة في الآية ٤٧ من سورة المائدة .

(٦) انظر الآيات والصور التالية ٧٥ البقرة ، ٤٦ النساء ، ١٣ ، ٤١ المائدة .

(٧) الآية ١١٣ من سورة البقرة . (٨) الآية ٣ من سورة التوبة .

وقد رد القرآن الكريم رداً عنيفاً على من ادعى أن لله ولداً ، قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذاً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدّهم عدداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فردا) (١) .

وهذا ينسحب على المشركين الذين قالوا إن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكثيرة هي المواضع التي ذكر الله فيها انحراف اليهود والنصارى عن دينهم إلى الشرك والوثنية ، واقرأ إن شئت السور الست الطوال وسورة التوبة .

وقد حكم الله على اليهود بأنهم أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا ، قال تعالى : (لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (٢) .

وقال عن النصارى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) (٣) وقال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) (٤) .

وقد جمع الله ذكر أهل الكتاب والمشركين في قوله تعالى : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شرّ البرية) (٥) .

ومن آخر ما أنزل في شأن أهل الكتاب جميعاً ، قول الله تعالى :

(١) الآيات ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .

(٢) الآية ٨٢ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٧٢ من سورة المائدة . وانظر الآية ١١٦ من سورة المائدة .

(٥) الآية ٦ من سورة البينة .

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١) .

ثالثاً - خرافات أخرى :

إن الله سبحانه وتعالى يصف الشرك بأنه ظلم (٢) ، وإثم عظيم (٣) ، وضلال بعيد (٤) ، ومحبط للعمل (٥) ، ويصف المشركين بأنهم نجس (٦) ، ويذكر بأنه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك فإنه لا يغفره (٧) .

ومن العقائد والخرافات الشركية ، ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى : (وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون ، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، وقالوا هذه أنعام ، حرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حُرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ،

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٣) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٤) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٥) الآية ٦٥ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٢٨ من سورة التوبة .

(٧) الآيتان ٤٨ و ١١٦ من سورة النساء .

سيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين (١) .

هذه الآيات التي قال فيها « ابن عباس » رضي الله عنهما : [إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام] (٢) .

فالآيات تتحدث عن العرب وأنهم يعوّضون ما يعطونه الله من حق الضيف ، ولا يعوّضون ما يعطونه للضيف من حق الله ، وأنهم إذا ذبحوا ما لله ذكروا اسم الأوثان عليه ، وإذا ذبحوا ما للأوثان لم يذكروا اسم الله عليه .

وكذلك تحدثت الآيات عن الوأد ، وقتل الأولاد خشية الفقر ، أو وفاء بنذر ، وانقياد المشركين وراء من بدل دين إبراهيم عليه السلام وشكك في دينه ولبس عليهم أمرهم .

وكذلك ما كانوا يفعلونه من تخصيص بعض الأنعام والحرث لسدنة الأصنام وتحريمها على غيرهم ، وأيضاً تحريمهم لبن الأنعام على الإناث دون الذكور ، ثم إن مات منها شيء أكله الرجال والنساء (٣) .

وهذه الأنعام المحجورة هي التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة ، في قوله عز وجل : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) (٤) .

[فالبحيرة : هي التي يُمنع درّها للطواغيث فلا يحتلبها أحد من الناس ، وأما السائبة فهي التي كانوا يسيّبونها لآلهتهم] (٥) وهي [الناقة إذا

(١) الآيات ١٣٦ - ١٤٠ من سورة الأنعام .

(٢) صحيح البخاري ٢٢/٥ .

(٣) انظر تفسير الآيات في القرطبي ٨٩/٧ وما بعدها .

(٤) الآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(٥) تفسير القرطبي ٦/٣٣٥ ، ٣٣٦ .

تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر ، لم يُركب ظهرها ولم يُجرّ وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نُتجت بعد ذلك من أنثى شُقَّت أذنّها ، وخُلّي سبيلها مع أمّها]^(١) ، [وأما الوصيلة والحام ، فقال « ابن وهب » قال « مالك » : كان أهل الجاهلية يعتقدون الإبل والغنم ويسميّونها : فأما الحام من الإبل : كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيّوه ؛ أما الوصيلة فمن الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيّوها]^(٢) .

رابعاً - بعض أصنامهم :

ذكر القرآن الكريم خرافات العرب وسخفها وجهالاتها وكفرها [وكانت الحكمة في ذلك - والله أعلم - أن قضاءه قد سبق ، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة]^(٣) .

ومن هذا القبيل ذكر الأصنام ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في « ذي الخلصة » : [لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء « دوس » على « ذي الخلصة » و « ذو الخلصة » طاغية « دوس » التي كانوا يعبدون في الجاهلية]^(٤) .

وقد ورد في القرآن الكريم أسماء بعض الأصنام والأوثان التي كانت العرب تعبدّها في جاهليّتها من دون الله ، ومنها : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، قال تعالى : (وقالوا : لا تذرن آلهمكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً)^(٥) .

(١) ذاته ٣٣٦/٦ .

(٢) ذاته ٣٣٦/٦ ، ٣٣٧ وانظر فيه ٣٣٥/٦ - ٣٣٧ أقوالاً أخرى في معاني

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

(٣) القرطبي ٩٠/٧ .

(٤) صحيح البخاري ١٠٥/٩ .

(٥) الآية ٢٣ من سورة نوح .

وكذلك : اللات ، والعزى ، ومناة . قال تعالى : (إفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) (١) .

وذكر تعالى الأنصاب في قوله عز وجل : (كأنهم إلى نصب يوفضون) (٢) .

وختاماً : إذا ما تمعنّا في ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن التوحيد والشرك في كتابه الكريم نصل إلى الحقيقة الخالدة وهي : ان الشرك ناتج عن الجهل بالله سبحانه وتعالى فالجاهلية إذن : [هي حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله] (٣) وهي [مقابل معرفة الله] (٤) .

ولهذا خاطب الله نبيه الكريم بقوله تعالى : (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) (٥) .

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة النجم .

(٢) الآية ٤٣ من سورة المعارج .

(٣) جاهلية القرن العشرين للشيخ محمد قطب ، دار الشروق ، القاهرة بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، د . ط .

(٤) ذاته ٧ وأحيل على مقدمة الكتاب - خاصة - فقيه فائدة كبيرة في هذا المعنى .

(٥) الآية ٦٤ من سورة الزمر .

ثالثاً - نظرة الجاهليين إلى الدنيا

لا يعرف ما كابده العرب في جاهليتهم وقاسوه إلا من جرب العيش في الصحراء وجال في أرض الجزيرة العربية الموحشة ووديانها الجرداء ، المهولة جبالها ، تتراعى أمام عينيه أطراف الصحراء وكأنها بلا نهاية وتقف الجبال الراسخات وكأنها عالم من الرهبة يغزو قلب الإنسان وخياله ليحس بمدى ضآلته وضعفه أمام شموخ الجبال وامتداد الصحراء ووحشة المقاوز .

ولقد أثرت طبيعة الجزيرة في نفس العربي فكان جريئاً شجاعاً أنانياً متوحشاً :

يرى الوحشة والأنس الأنيس ويهتدي

بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (١)

وفي عالم البقاء والسيادة فيه للأقوى كان الظالم ممدحاً :

جريء متى يُظلم يُعاقب بظلمه سريعاً وإلا يُبد بالظلم يظلم (٢).

في هذه البيئة الموبوءة بالشر التي :

لا يهتدي لسبيل الخير مصلحها ولا يضلّ سبيل الغي ساريها (٣).

(١) ديوان « تأبط شراً » ص ١٥٦ . جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكِر ، دار

الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

وانظر : حماسة عسيلان ٧٦/١ ، وفي الحيوان ٢٥٦/٦ ، والأُمالي ١٣٨/٢ :

« يرى الإنسان وحشي الفلاة » . وأم النجوم : المجرة : لأنها مجتمع النجوم .

وقيل : الشمس ، وقيل : الثريا .

(٢) ديوان زهير ٨٤ .

(٣) معجم الشعراء ٣٦٠ لمالك بن خياط بن مالك بن أقيش العكلي ، وهو

شاعر جاهلي .

يعيش المرء فيها فاقداً للأمن ؛ لا بد أن يكون شريراً :

رأيتك ذا شرّ وفي الشرّ منقَعاً

إذا كنت في أرض بها الشرّ شامل^(١).

لقد عانى العرب في هذه الجزيرة الواسعة الأرجاء ، شظف العيش
وشدة الحياة ، يقول « ذو الخرق الطهوي »^(٢) بعد أن ذكر صبرهم على ما
يكابدونه :

إنا إذا حطمة حُتّت لنا ورقاً نمارس العيش حتى ينبث الورق^(٣).

وما بين كرّ وفرّ ونهبٍ وسلبٍ ، وقتلٍ وثأرٍ ، وحلٍّ وارتحال عاش العربي ،
وكان ديدنه :

ألم تر أن الأرض رحبٌ فسيحة فهل تعجزني بقعة من بقاعها^(٤).

وأكثر الترحال والتجوال ، حتى لو نطقت راحلته لقات ما قالت ناقة
« المتقّب العبدى » :

(١) ديوان سلامة بن جندل ٢٤٦ . ومتقعا : دائماً مكثك فيه ، أي غارقا فيه
تجترحه دائماً .

(٢) « ذو الخرق » لقب ثلاثة شعراء كلهم من « بني طهية » . وقائل هذا
البيت من أبيات له هو « خليفة بن عامر بن حميري » ولقب بـ « ذي
الخرق » بها وكان من فرسان قومه . انظر ترجمته في المؤتلف ١٠٩ ، ١١٠ .
والأصمعيات ١٢٤ .

(٣) المؤتلف والمختلف ١١٠ وفي الأصمعيات ١٢٤ « نمارس العود » وحطمة
-يفتح الحاء وضمها - : السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء ، وحتّ الورق
: قشره ، ونمارس : الممارسة : شدة العلاج .

(٤) حماسة (عسيلان) ١٢١/١ لإياس بن قبيصة الطائي .

[تقول إذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حلّ وارتحال أما يبقى عليّ وما يقيني] (١).
وكان منتهى أمل العربي في العيش أن يقول :
والمرء ساعٍ لشيءٍ ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل (٢).
أو يقول :
وما العيش إلا نومة وتشرق وتمر كأكباد الجراد وماء (٣).
أو يتظرف ويقول :
لولا ثلاثُ هنَّ عيشُ الدهرِ الماء والنومُ وأم عمرو
لما خشيتُ من مضيقِ القبرِ (٤)

وتلفت العربي حوله فرأى السماء بنجومها وشمسها وقمرها وكرهما
على مرّ الأيام والليالي ، ورأى الأرض بوهادها وجبالها وصحرائها ووحشتها
وأنسها ، ورأى مظاهر الحياة ، من فقرٍ وغنى وسعادة وشقاء ، وقوةٍ وضعفٍ ،
وحزنٍ وسرور ، وموتٍ وحياة ؛ فوجد نفسه قاصر الحول والطول ، مكتفٍ

(١) ديوانه ١٩٥ ودرأت : مددته وشدتُ به رحله ، والوضين : للرجل بمنزلة
الحزام للسرّج ، ودينه : دأبه وعادته .

(٢) المفضليات ١٤٢ وفي البيان والتبيين ١/٢٤٠ - ٢٤١ أن عمر رضي الله
عنه لما أنشد مفضليّة « عبدة بن الطبيب » ومنها هذا البيت تعجّب
من حسن ما قسم وفصل ، وفي العقد الفريد ١١٤/٦ أنه قال : « على هذا
بنيت الدنيا » وهذا يدلّ على أن العيش معنّى أو مفهوم من مفاهيم
« الدنيا » .

(٣) حماسة عسيلان ٤٤٥/٢ والبيان والتبيين ١٧٩/٢ وفيه : كأخفاف الجراد .

(٤) البيان والتبيين ١٩٦/٢ .

اليدى أمام تقلبات الحياة فلم يجد بداً له من التسليم والرضى :

دعينا من الإشفاق أو قديمي لنا من الحدثان والمنية راقيا (١).

وكان وقوفه على الأطلال وبكاؤه عليها مفصلاً عن مكنونات نفسه وشعوره بغلبة الزمان وتصرف أحواله لإقدامه وشجاعته ، وقهره لإرادته ، وهو بكاء على نفسه إذ سيحول يوماً ما إلى ذكرى وأثر من الآثار .

فكانت الحياة لديه مجرد خيال لا هدف منها ولا غاية إلا الموت الذي

لا يعود غائبه :

[والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب] (٢).

لذلك حرص على أن يترك شيئاً يُذكر فيه بعد مماته :

يكفيه إن متنا أن يُسبَّ بنا وهو إذا ذكر الأباء يكفيننا (٣).

هذا الهدف بذاته الذي يسعى إليه العربي يدل على مدى ما كان يعانيه من جهلٍ مخيمٍ مطبق في نظرته للعالم ، وما يؤول إليه ، وذلك ديدن من

(١) ديوان سلامة بن جندل ٢٠٠ بتحقيق فخر الدين قباوة ؛ المكتبة العربية ،

حلب ، الطبعة الأولى ٢٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ والشطر الثاني مكسور ، وقد جاء بالرواية ذاتها في كتاب : سلامة بن جندل ، الشاعر الفارسي ١٠٨ للدكتور فخر الدين قباوة ، المكتبة العربية ، حلب ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م ، ولم يفتن محقق الكتابين اللذين يكادان أن يكونا نسخة واحدة مع بعض الإضافات ؛ إلى هذا الخلل في البيت ، ولعل صواب روايته ، مثلاً : * من الحدثان حصناً والمنية راقيا * .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ٢٦ .

(٣) حماسة عسيلان ٧٨/١ لبشامة بن حزن النهشلي ، في قصيدته المشهورة ، وفيها نظرات خاصة إلى الحياة والموت .

لم يحيى على بينة من الله ولا هدى ولا كتاب منير^(١) .

١ - مفهوم الجاهليين لكلمة « الدنيا » :

كلمة « الدنيا » نادرة الورد جداً في الشعر الجاهلي ، وفي المرات القليلة التي وردت فيها لم تسعفنا بمفهوم متكامل للدنيا بمعانيها التي استقصيتها في بداية البحث^(٢) .

فمثلاً : عند ما يرثي « المتلمس » نفسه يقول :

[خليلي إماماً مت يوماً وَزُحِرَتْ منايكما فيما يزحزحه الدهرُ

فمراً على قبري فقوماً فسَلِّما وقولا : سقاك الغيثُ والقطرُ يا قبر

كأنَّ الذي غيَّبَ لم يله ساعة من الدهر ، والدنيا له ورق نضِرُ^(٣)

فمفهوم الدنيا عنده هنا مائع يسمح لكل الاحتمالات مثل : العيش ، والسعادة ، والأرض ، والحال التي كان عليها ... الخ

أما قول « ذي الأصبع العدواني » :

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عني سوف يغنيني^(٤)

(١) إن النزعة التأملية في الحياة والموت - بمعنى محاولة إدراك كنه الغاية والهدف - تكاد تكون معدومة لدى الشاعر الجاهلي ، اللهم إلا عتد طائفة قليلة جداً من النصاري واليهود ، وقد برز في هذا الجانب « عدي بن زيد » النصراني ، و « السموأل » اليهودي ، وسيأتي ذكر السموأل فيما بعد ، أما عدي فغالب شعره من هذا القبيل .

(٢) انظر ص ٣١ وما بعدها من هذا البحث .

(٣) ديوانه ٢٥٦ وغيب بقاء الخطاب : يعني القبر .

(٤) المفضليات ١٦٢ وقد مضت ترجمة « ذي الأصبع » ص ٥٥ من هذا البحث .

فينصرف مفهومها : إلى المال والجاه ، من غنى وفقْر ، وعزة وخفض .

وقول « أُمّية بن أبي الصلت » - إن صح أنّه له - (١) :

فكلّ معمر لا بدّ يوماً وذِي دنيا يصير إلى زوال (٢)

فمفهومها قطعاً : مرحلة الحياة من الولادة إلى الموت .

وقد وجدتُ معنى في غاية النَّفَاسَة للدنيا ، في شعر « لقيط بن يعمر

الإيادي » لم أجده في سائر الشعر الجاهلي ؛ الذي تهياً لي الاطلاع عليه .

ففي قصيدته التي يحذّر فيها قومه غزو « فارس » لهم ، يقول لهم

منذراً بأن ليست للفرس همة إلا أن يستأصلوهم :

لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون بيضتكم ريباً ولا شبعاً (٣)

وبالمقابل يعيّر قومه بالانشغال بالحرث والزرع والأموال فيقول :

وأنتم تحرثون الأرض عن سفهٍ في كل معتمل تبغون مزدرعاً

وتُلقِحونَ حِيالَ الشَّوْلِ أَوْنَـةً وتُنتِجونَ بدار القلعة الربعا (٤).

ثمّ يقول - بعد أن ذكر ما يتلهّون به من أمور عيشهم وحياتهم عن

الحرب - :

(١) انظر ما سبق من غلبة النحل على شعره ص من هذا البحث .

(٢) ديوانه ٤٤٨ .

(٣) ديوانه ٤١ وبيضتكم : أصلكم .

(٤) ديوانه ٤٢ والسفه : الغفلة ، ومزدرعاً : من الازدراع ، وحيال الشَّوْلِ :

الشول : إناث الإبل ، قد شولت أجفانها أي : جفت ، وحيالها : ما حال

منها فلم تحمل . وأَوْنَـة : أحياناً ، ودار القلعة : الدار التي تريد أن تنتقل

عنها ، والربع : الفصيل الذي ينتج في الربيع .

فلا تغرّنكم دنيا ولا طمعٌ لن تنعشوا بزما ع ذلك الطمعا (١)

فجعل الحرث والزراعة والرعي ، والاهتمام بالأموال ، واستصلاح أمور العيش ، وطلب التنعم فيه ، وجميع ما يصرفهم عن الاستعداد للقاء عدوهم أو التحصن منه ، انشغالاً بالدنيا وغروراً بها وطمعاً يورث الندامة .

وهذا المعنى أو المفهوم الذي قصد إليه الشاعر قريب جداً ، بل هو المعنى ذاته الذي نجده في صدر الرسالة ، وتعمق أكثر عند « الزهاد » .

والألفاظ الواردة في البيت مثل : « تغرّنكم » و « طمع » التي لازمت وصف الدنيا في القرآن الكريم وشعر الزهد ، عادة ، مما يجعلني أزعّم أن لا نظير لها مطلقاً في الشعر الجاهلي . وهو معنى ومفهوم سابق لعصره غير متداول عند الجاهليين .

(١) ديوانه ٤٦ وفي رواية « أن تنعشوا » ، وتنعشوا : تجبروا وتحبوا ، وزما ع : التهيؤ للحرب .

٢ - الملامح الرئيسة لنظرة الجاهليين للعالم

من خلال مطالعاتي في الشعر الجاهلي ، خرجتُ بحصيلة ثرة من الشعر حول نظرتهم إلى الدنيا ولكني وجدتهم يركزون على أمور دون غيرها ، وإن هم ذكروا غيرها فمن باب الاستطراد ، وهذه المواضيع والأمور التي أكثرها من ذكرها تعطينا ملامح واضحة عن نظرتهم إلى الدنيا . وسأحاول من خلال ذكر هذه الملامح أن أقتصر في الاستشهاد لشاعر أو شاعرين ، لأن الاسترسال في ذلك يجعل من هذا الموضوع كتاباً بحد ذاته ، فمن هذه الملامح ما يلي :

أ - الدهر :

وسبق الكلام عن الدهر والدهريين في الحديث عن حالة العرب الدينية في الجاهلية^(١) .

وكانوا يرون أيامهم ولياليهم تسير سراعاً :

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهباً وأن غداً للناظرين قريبٌ^(٢)

يعلمون ما كان ولا يعلمون ما سيكون^(٣) ، إلا ما يبتلون به من ضعف وشيخوخة وموت ، وينسبون ذلك للدهر [ومما يروى من قديم الشعر قول « بويد بن زيد بن نهد » قال حين حضره الموت :

(١) انظر ص ٣٦٨ وما بعدها من هذا البحث .

(٢) الأمثال والحكم للماوربي ٤١ ، وقد نسبه الميداني في مجمع الأمثال

١٢٣/١ لقراد بن أجدع .

(٣) انظر ديوان زهير ٨٦ .

اليوم يُبنى لدويد بيته لو كان الدهر بلّى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته يا ربّ نهب صالح حويته
وربّ غيل حسن لويته ومعصم مخضبّ ثنيته
وقال أيضاً :

ألقى عليّ الدهر رجلاً ويدا

والدهر ما أصلح يوماً أفسدا

يصلحه اليوم ويفسده غدا [(١)] .

وكانوا يتحدثون عن صروف الدهر (٢) ، وأنها تجري بالأجل (٣) ، ولا
تبقى إنساناً على حال (٤) ، تفرّق الناس بعد اجتماعهم (٥) ، والعمر موصول
بدوران الشمس والقمر :

عمري مع الدهر موصول بآخره وإنما فضله بالشمس والقمر (٦) .

(١) طبقات ابن سلام ٣١/١ - ٣٢ والمؤتلف والمختلف ١١٤ للآمدي ، وصالح :

كثير ، والغيل : الساعد الحسن الممتليء .

(٢) انظر مثلاً ديوان النابغة الذبياني ١٢٥ ، ١٤٩ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ، وملحقات
ديوانه ٢٣٢ .

(٣) انظر رثاء امرأة من بني الحارث لفارس من قومها : حماسة عسيلان
٥٥٢/١ ، ومعجم الشعراء ٢١٦ .

(٤) في أبيات للفقد الزماني : حماسة عسيلان ٢٨٢/١ ، وأبيات « لبيّس بن
عبد الحارث اليربوعي » في المؤتلف والمختلف ٦٤ للآمدي .

(٥) انظر الأمالي ٥٥/٢ - ٥٦ .

(٦) من قصيدة دهريّة لدريد بن الصمة في موسوعة الشعر العربي ٥٨٧/١ ،
ولم أجدها في ديوانه .

وتغنى بعد فقر ، وتفقر بعد غنى^(١) ، وتذل بعد عز ، وتخضع بعد رفعة^(٢) ، وفيها تجارب وعظات^(٣) ، وهي غرورة ، والدهر خائن^(٤) ، تدور بهم أيامه إلى المجهول^(٥) ، ولكنهم يظهرون صبراً وتجلداً أمام نوائبه^(٦) .

وقد يسأمون من كرّ الليل والنهار وطول العمر ، ومن الحياة ذاتها^(٧) .

ولنأخذ مثلاً على هذا الملمح من نظرة الجاهليين للدنيا : الأعشى الأكبر ، والأسود بن يعفر ، فهذا الأعشى يذكر أن الإنسان ما يطول عمره إلا للعناء والشقاء مستهدفاً للأمراض والأحزان والبلاء والناس ما بين دافن ومدفون ، والآخر يعيش في فقره بين الأحياء ، والموت حتم لا مفر منه ، لا تدفعه الرحلة في أرجاء البلاد ، والمرء رهينة للموت ، وله في الملوك الذي أتى عليهم الموت ، وفي الشيخوخة بعد الشباب عبرة ، يقول الأعشى عن الدهر وتقلباته ونكباته ، وعن تفاهة الدنيا :

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء إلا عناءً معنً
يظل رجيماً لريب المنو ن والسقم في أهله والحنن

-
- (١) انظر معجم الشعراء ٢١٤ .
 (٢) انظر مثلاً ديوان امرئ القيس ١٤٣ .
 (٣) انظر مثلاً : المؤتلف والمختلف ١١٧ للآمدي وديوان تأبط شراً ٨٧ والأمثال والحكم للماوردي ١٧٧ .
 (٤) انظر مثلاً : أبياتاً لعمرو بن حلزة في معجم الشعراء ٢٠٣ .
 (٥) انظر حماسة عسيلان ٥٨٢/١ .
 (٦) انظر مثلاً في عدم الخضوع للدهر ما قاله « مصرف بن الأعلم بن خويلد » في معجم الشعراء ٣٩٠ للمرزباني .
 (٧) انظر مثلاً ديوان زهير ٣٤ ، وأبياتاً « للمستوغر بن ربيعة » في طبقات ابن سلام ٣٣/١ .

وهالك أهل يجنونه كآخر في قفرة لم يجن
وما إن أرى الدهر في صرفه يغادر من شارخ أو يقن
فهل يمنعني ارتياد البلا د من حذر الموت أن يأتين
أليس أخو الموت مستوثقا علي وإن قلت قد أنسان
علي رقيب له حافظ فقل في امريء غلق مرتهن^(١).

وبعد أن ذكر الملوك الذين أفناهم الدهر ولحقهم الفناء^(٢)، قال :
وعهد الشباب ولذاته فإن يك ذلك قد نتدن^(٣)
وينحو نحو الأعشى الأسود بن يعفر في قوله :

[أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتعوا بالأهل والأولاد ؟ !
فاذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلئ ونفاد^(٤) .
وقد ربط بين الدهر والموت في قوله :

[ألا هل لهذا الدهر من متعلل سوى الناس مهما شاء بالناس يفعل
فما زال مدلولاً علي مسلطاً ببوسى ويغشاني بناب وكلكل^(٥) .
واستمر كالأعشى يعدد الأمم والملوك السالفة الذين أتى عليهم الدهر .

(١) ديوانه ١٥ ومعن : اسم فاعل من عنى - بتشديد النون - : أي أتعب وأشقى . ويجنونه : يدفنونه ، وصرفه : نوائبه ، وشارخ : الشباب ، ويقن : الشيخ الكبير البالي ، أنسان : أخر وأجل .

(٢) وانظر في ذلك أيضاً ديوانه ص ٢١٧ و ٢٨١ .

(٣) ديوانه ١٥ وتدن : نتعم وتترف .

(٤) ديوانه ٢٨ .

(٥) ديوانه ٥٦ .

ب - الموت (١) :

وكانت نظرتهم إلى الموت ترتبط بالدهر ، فدوران الشمس والقمر ،
وتعاقب الليل والنهار ، وكرّ الأيام والليالي مؤذنة بدنوّ الأجل ، ومذكّرة بحياة
الإنسان المحدودة ، وأن الموت لا مفرّ منه ؛ يقول « قيس بن الخطيم » :

يُحِبُّ المرء ما تعدّ الليالي وكان فناؤهنّ له فناء
كذاك الدهر يصرف حالتيه ويعقب طلعة الصبح المساء (٢) .
ويقول « طرفة بن العبد » :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لك الطول المرخى وثنيه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقذ
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينقذ (٣) .
وفيها يقول :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد (٤)
ويقول « أبو قلابة الهذلي » (٥) :

(١) انظر الحديث عن الموت - ضمن المقومات الكبرى للدنيا ص من هذا البحث .

(٢) من المنسوب له في ديوانه ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) ديوانه ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) ديوانه ٦٦ .

(٥) هو « عويمر بن الحارث » أو « الحارث بن صعصعة » جاهلي حجازي قديم ، أقدم من قال الشعر في هذيل ، وهو عمّ « المتنخل الهذلي » وكان =

[إن الرشاد وإن الغي في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان

لا تأمن وإن أصبحت في حرم إن المنايا بجني كل إنسان]^(١).

ووقفوا أمام حقيقة الموت ، وليس لهم إلا الاستسلام لبطشه ورهبته
وحتميته^(٢) ، لا يمكن الفرار منه ، ولا التوقي ، ولا الحذر ، يقول « ابن الذئبة
ربيعة بن عبدياليل الثقفي »^(٣) :

[إنمنية بالفتيان ذاهبة

ولو تقوها بأسيا ف وأدراع

بيننا الفتى بيتي من عيشه سدا

إذ حان يوما فنادى باسمه الداعي]^(٤).

= سيد بني لحيان ، وبني لحيان شوكة هذيل ، ولد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل ابنته قلابة بنت أبي قلابة . انظر : معجم الشعراء ٢٤٥ ، ٢٤٦ للمرزباني وموسوعة الشعر العربي ١٩/٤ .

(١) شرح أشعار الهذليين ٧١٣/٢ وعن ربط الزمان والدهر بالموت انظر مثلاً : المفضليات ٣٠٠ البيت الأول للممزق العبدي وديوان ابن عمرو بن معدي كرب ١٨١ صنعة هاشم الطعان ، وزارة الثقافة والاعلام ، سلسلة كتب التراث . د . د . ط . د . ت . والأصمعيات ١٨٧ البيت ٢٣ لأبي ذؤاد الريادي .

(٢) انظر مثلاً : الأصمعيات ١٠١ قصيدة لسعدى بنت الشمردل الجهنية في رثاء أخيها ؛ والأصمعيات أيضاً ١٢٦ قصيدة لشمر بن عمرو الحنفي ، ومعجم الشعر ٢٥٢ أبياتا لسعدى بن الرعلاء الغساني ، وديوان النابغة الذبياني ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، وزيادات ديوانه ٢٢٧ وديوان الأسود بن يعفر ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) الذئبة أمه ، وهو شاعر فارسي جاهلي ، انظر المؤلف ١٢ للآمدي .

(٤) المؤلف والمختلف ١٢٠ وانظر ١١ شعراً لخنساء بنت أبي سلمى (أخت زهير) و ٤٧ بيتاً للأشعر بن أدد .

وكسائر بني البشر كانوا يتمنون الخلد لو يستطيعونه ، ولكن الموت
يقضي على هذه الأمانى يقول « النابغة الذبياني » :

ونحن نرجي الخلد إن فاز قدحنا

ونرهبُ قدح الموت إن جاء قامرا (١)

ولرهبتهم من الموت ، وإدراكهم أنه حقيقة مؤلمة لا بدّ منها ، تطابقت
تعبيراتهم أو كادت عن هذه الحقيقة المفزعة ، انظر مثلاً إلى الشطر الأول من
قول « الحارث بن عباد » (٢) :

كل شيء مصيره للزوال غير ربّي وصالح الأعمال

وترى الناس ينظرون جميعاً ليس فيهم لذاك بعض احتيال (٣) .

والشطر الثاني من قول الأعشى :

ذاك عيش شهدته ثم ولّى كلّ عيش مصيره للزوال (٤) .

وقد عبّر عن مسار الحياة ، ومآل الدنيا والناس عند الجاهليين « البرج
ابن مسهر الطائي » (٥) في قوله :

(١) ديوانه ٦٨ كأنه يقامر بالمنيّة ، وهذا مثل ، يقال « فاز قدحه » أي
غلب وقمر .

(٢) والحارث من سادات العرب وفرسانها المعدودين وشعرائها النابهين .
انظر ترجمته في الأعلام ١٥٦/٢ والأصمعيّات ٧٠ وموسوعة الشعر
العربي ١٠٩/٣ ، وشعر النصرانية (الجاهلية) ٢٧٠ .

(٣) شعراء النصرانية (الجاهلية) ٢٧٢ .

(٤) البيت الأخير من سمط الأعشى في جمهرة أشعار العرب ٣٤٤/١ وهو مما
ليس في ديوانه .

(٥) تقدمت ترجمته ص ١٨٤ من هذا البحث .

نطوِّف ما نطوِّف ثم يأوي نورو الأموال منّا والعديمُ
إلى حفرٍ أسافلهنَّ جوفُ وأعلاهنَّ صفّاح مقيمٌ (١) .
ويشاركه النظرة بشيء من الفرع والأسف والتأمل «الزيرقان بن
بدر» (٢) في قوله :

فإنّما الناس يا لله أمهم أكائل الطير أو حشو لأرجام
هم يهلكون ويبقى بعدما صنعوا كأن آثارهم خطّت بأقلام (٣) .
ولعلّ « المرقش الأكبر » في استهائته بالحياة ، يقصد الموت في قوله :
ليس على طول الحياة ندمٌ ومن وراء المرء ما يعلم (٤) .
ولخوفهم من الموت كانوا يخوفون به غيرهم ؛ يقول « رويشد بن كثير
الطائي » (٥) مهدياً بني أسد في شيء من المبالغة والتهويل :
ياأيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسدٍ ما هذه الصوت ؟
وقل لهم: بادروا بالعتز والتمسوا قولاً يبرئكم إنّي أنا الموت (٦) .

-
- (١) حماسة عسيلان ٣٥/٢ .
(٢) مضت ترجمته ص ١٦٠ من هذا البحث .
(٣) ديوانه ٥٢ دراسة وتحقيق الدكتور سعود محمد عبد الجابر ، مؤسسة
الرسالة ، بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، الطبعة الأولى ، وانظر : البيان
والتبيين ١٧٩/٣ ، واکائل : جمع أكيلة ، وهي الفريسة ، والآجام : الحجارة
التي تُنصب على القبر ، وعنّى بها القبر .
(٤) معجم الشعراء ٢٠١ والمفضليات ٢٣٩ .
(٥) لم أقف له على ترجمة .
(٦) حماسة عسيلان ١٠٢/١ .

ويبدو أن طبيعة حياة الصعاليك جعلتهم لا يأبهون بالموت ، يقول
«الشنقري» :

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ولم تُذرِ خالاتي الدموع وعمّتي (١)
والعربيّ الجاهلي وإن كان يرهّب الموت ويخافه ويستسلم له ، على حدّ
قول « زيان بن سيّار المري » (٢) :

خُلِقْنَا أَنْفُسًا وَبَنِي نَفُوسٍ وَلَسْنَا بِالسَّلَامِ وَلَا الْحَدِيدِ (٣)
بل ويفر (٤) من الموت في ساحات الوغى حباً في الحياة واستزادة
منها (٥) ، ويجاهر بذلك ، كما في قول فارس الجاهلية والاسلام « عمرو بن
معديكرب » :

ولقد أجمع رجلي بها حذر الموت وإنّي لفروز
ولقد أعطقها كارهة حين للنفس من الموت هزير (٦).

-
- (١) المفضليات ١١٢ وانظر مثله لتأبّط شراً في ديوانه ١١٨ .
(٢) شاعر جاهلي من أهل الفروسية ، صاحب فخر وفروسية وحكم ، كانت
بينه وبين « النابغة الذبياني » مودة ومصافاة ومصاهرة ، وكذلك كانت
بينه وبين « الحادرة » أيضاً صداقة انقلبّت عداوة ، انظر : المفضليات ٣٥١
والوحشيات ٢٤٢ ، والأعلام ٤١/٣ وموسوعة الشعر العربي ٣١/٤ .
(٣) ذيل الأمالي ٥١ .
(٤) انظر طائفة من أخبار الفرّارين في : حماسة البحتري ٤٠ وما بعدها .
(٥) من ذلك أن « عمرو بن حممة الدوسي » وقد بلغ ثلاثمائة وتسعين سنة ،
قال أبياتاً يتأسف فيها على اليوم الذي سيُطار فيه بخبر مصرعه « .
انظر معجم الشعراء ٢٠٩ .
(٦) ديوانه ١٠٢ . وانظر العقد الفريد ١٠٤/١ وذيل الأمالي ١٤٧ . وهزير: أي
كراهية وخوف . وانظر أبياتاً مماثلة للفرّار السلمي في حماسة عسيلان
١١٠/١ .

وبالرغم من أن الموت ارتبط في ذهن العربي الجاهلي بفناء الحياة والدخول في عالم مجهول مرعب إلا أننا نجد عند طائفة منهم استهانة واضحة بالموت إذا كان المقابل حياة الذل والخضوع يقول « الحصين بن الحمام المري » :

فلست بمبتاع الحياة بسببة ولا مرتقٍ في خشية الموت سلماً (١)
ويقول « أبي بن حمام العبسي » (٢) :

وسيان عندي أن أموت وإن أرى كبعض الرجال يوطنون المخازيا (٣)
وتظهر هذه النزعة جلية في مواطن القتال ، يصفهم « النابغة الذبياني » بقوله :

هم يردون الموت عند لقائه إذا كان ورد الموت لا بد أكرما (٤)
و « أم الصريح الكندية » (٥) إذ تقول :

فلو أنهم فروا لكانوا أعزّة ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما (٦)
ولأن الموت قدر بني الإنسان المقدر ، كما يقول « عمرو بن كلثوم » :
وإننا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا (٧)

فقد أخذ الجاهليون يفلسفون الموت والحياة ، كما في قول « عدي بن

(١) حماسة عسيلان ٢٢٣/١ ، وفي المفضليات ٦٩ « ولا مبتغٍ من رهبة الموت ».

(٢) شاعر جاهلي فارسي ، لم أجد ما أترجم له به ، انظر المؤتلف ٩١ .

(٣) حماسة عسيلان ٢٣٥/١ .

(٤) ديوانه ١٠٤ .

(٥) لم أعثر لها على ترجمة .

(٦) حماسة عسيلان ٤٥٩/١ .

(٧) جمهرة أشعار العرب ٣٩١/١ ومقدرينا : أي مقدرون له .

الرءلاء الغسانى « :

[لىس من مات فاستراح بمىت إنما المىت مىت الأءىاء
إنما المىت من يعىش كئىباً كاسفا باله قلىل الرءاء] (١) .
وىرى « الحصىن بن الحمام المرى » أن طلب الموت هو الحىاء ذاتها ،
إذ بقول :

تأخرت أستبقى الحىاء فلم أءء
لنفسى حىاء مئل أن أتقءما (٢)
ولا بخلو الشعر الجاهلى من ذكر الخوف مما بعء الموت لا من الموت
نفسه ، خاصة فى شعر المؤمنىن بالبعث بعء الموت والحساب والجزاء على
الأعمال ، بقول « طرفة بن العبء » :

لعمرى لموت لا عقوبة بعءه لءى البث أشفى من هوى لا بزايله (٣)

ء - الشباب والمشب :

وما بىن لءظتى الولاءة والموت مسافة حىاء البشر ، ركز العربى
الجاهلى على فترتى الشباب والشىخوخة ، فالشباب زمن الفتوة والقوة والعب
من ملءات الحىاء ، والشىخوخة والمشب إىذان بالرحىل ، وكما أن الشباب

(١) الأصمعىات ١٥٢ ومعجم الشعراء ٢٥٢ .

(٢) حماسة عسىلان ١١٤/١ وإلى هذا بىشىر قول « أبى بكر » رضى الله عنه :
« إحرص على الموت توهب لك الحىاء » . انظر نهایة الأرب ٥/٣ .

(٣) دبوانه ١٣٩ ومعجم الشعراء ٢٠٢ وبستشف من قوله « لا عقوبة بعءه »
الایمان بالبعث والجزاء وانظر له أيضاً فى التزوء للممات من الحىاء
أببائاً فى جمهرة أشعار العرب ٤٥٣/١ . ونفهم أيضاً من قوله :
أرى الموت لا یرعى على ذى جلاء وإن كان فى الدنبا عزىزا بمقعد
الجمهرة ٤٥٢/١ أن الدنبا بمعنى الحىاء ضء الموت ، معنى قءىم راسخ .

قيامٌ بالمهمات والاعتماد على النفس فالمشيب ضعف وخورٌ وعالة .

يقول « أبو عمرو بن العلاء » : [ما بكت العرب شيئاً ما بكت على الشباب ، وما بلغت به ما يستحقه] ^(١) وأول من بكى شبابه « عمرو بن قمئة » ^(٢) في قوله :

لا تغبط المرء أن يقال له أمسى فلان لعمره حكماً ^(٣)
في أبيات له .

ومن أجمل ما قيل في الشباب ووصفه ، قول « الشماخ بن ضرار » :

كأن الشباب كان روحه راكب

قضى أرباً من أهل سَقْفٍ لَغْضُوراً ^(٤)

وقول « الأحنس بن شريق التغلبي » :

[وقد عشتُ دهرًا والغواة صحابتي

أولئك خُلصاني الذين أصحابُ

رفيقاً لمن أعيا وقُلدَّ حبله

وحاذر جرّاه الصديقُ الأقاربُ

(١) العقد الفريد ٣٢٢/٢ .

(٢) شاعر جاهلي قديم ، أقدم من امرئ القيس من المعمرين أول من بكى الشباب ، خرج مع امرئ القيس إلى قيصر فمات في الطريق ، فسمّته العرب الضائع لموته في غربة . انظر ترجمته في ديوانه .

(٣) معجم الشعراء ٢٠٠ وحماسة عسيلان ٥٦٥/١ باختلاف يسير وانظر بيتاً شبيهاً له للمرقش الأكبر في الفضليات ٢٤١ .

(٤) ديوانه ١٣٠ ، وسَقْفٌ ، وغلُزور : موضعان في بلاد طيء . وروحة : أي مقدار روحه راكب .

فأديت عني ما استعرت من الصَّبِي

وللمال عندي اليوم راعٍ وكاسبٌ^(١).

والشباب مطنةُ الجهل^(٢) ، وهو أيضاً رمز لأطايب الحياة ولكنه قصير ،
لذلك نجد في قصائدهم اندفاعاً شديداً إلى اقتناص اللذائذ ، حتى إذا جاء
المشيبُ لم يترك في نفوسهم حسرة تُذكر ، يقول دريد بن الصمة :

صبا ماضيا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد^(٣).

وإذا ما أناخ المشيب بكلّله ، وذهب الشباب ورونقه وبهاؤه ، استطالت
الحسرة على الشباب ذاته ، يقول « سلامة بن جندل » :

أودى الشباب حميداً نو التعاجيب أودى وذلك شأؤ غير مطلوب
ولّى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض اليعاقيب
أودى الشباب الذي مجدّ عواقبه فيه نلذّ ولا لذات للشيب
وللشباب إذا دامت بشاشته ودّ القلوب من البيض الرعابيب^(٤).
والشيب زمن الهرم والعلل وامتناع اللذات وانصراف الحسان ، والبعد

(١) المفضليات ٢٠٤ .

(٢) انظر ديوان النابغة الذبياني ١٠٩ .

(٣) ديوانه ص ٥٠ .

(٤) ديوانه ٩١ - ٩٤ وهي فيه ناقصة غير مرتبة ، ولذلك اعتمدت على
المفضليات ١١٠ - ١٢٠ ، وأودى : ذهب ، والتعاجيب : كثير العجب ،
واليعاقيب : جمع يعقوب نكّر الحجل ، والرعابيب : جمع رعبوبة
ورعبوب : وهي الجارية الحسناء البيضاء الرطبة الحلوة .

عن المشاركة في الحياة والأحداث (١).

وممن وقف بكل مشاعره وحواسه في الحديث عن الشيب وأطال فيه «
الأسود بن يعفر» ومن ذلك قوله :

هل لشباب فات من مطلب أم ما بكاء البائس الأشيب
بدلت شيئاً قد علا لتي بعد شباب حسن معجب
صاحبته ثمت فارقته ليت شبابي ذاك لم يذهب (٢).

ويعتذر « المتقّب العبدى » لزوجته التي عيرته بالشيب ، فيقول :

فذاك عصر قد خلا والفتى تلوى ليااليه به والنهار
لا ينفع الهارب إغاله ولا ينجي ذا الحذار الحذار (٣).

والبكاء على الشباب ولذاته وعنقوانه يدل على فقدان الهدف والغاية من
الحياة في أذهان كثير من شعراء الجاهلية ، لكن بعض أهل الكتاب منهم ممن
لم يحرفوا أو يبدلوا قد استغلوا أيام الشباب فيما يفيد ، فلم يرعهم إقبال
المشيب ، يقول « سعية بن العريض » اليهودي :

فإن أودى الشباب فلم أضعه ولم أكل على أنني غديت (٤).

(١) انظر في ذكر الشباب والبكاء عليه وندبه ، والشيخوخة وما تتركه في

النفس والجسد ، أبياتاً « لسلمى بن غوية بن سلمى » في الأمالي ١٧٠/٢

للقالى . ولمالك بن حريم الهمداني في الأصمعيات ٦٢ ، ٦٣ ، وانظر قول

المتقّب العبدى في ديوانه ٢٦٧ :

وللموت خير للفتى من حياته إذا لم يثب للأمر إلا بقائد

(٢) ديوانه ٢١ وانظر أيضاً ٢٦ - ٢٨ .

(٣) ديوانه ٢٧٥ .

(٤) الأصمعيات ٨٣ .

د - المال :

والمال كان عمود الحياة عند العربي الجاهلي ، يحمي به عرضه ، ويتقي به من الذم ، ويحفظ حسبه وشرفه^(١) ، يقول « الحادرة » :

ونقى بآمن مالنا أحسابنا ونجرّ في الهيجاء الرماح وندّعي^(٢)
ويقول « عمرو بن الأهتم » :

وكلّ كريم يتقى الذمّ بالقرى وللخير بين الصالحين طريق^(٣)

وكان يبذله في ديات القتلى وفك الرقاب والأسرى ، وفي الإصلاح بين العشائر^(٤) .

ولأن المال في نظر العربي الجاهلي سبب للحياة الهنية ، والفقر سبب للمذلة ولو كان الانسان ذا حسب ، ولأن الأقارب الأغنياء لا يعينون الفقراء ، بل إن الأغنياء كثيراً ما يجبرون على الفقراء لذلك لا غرابة في أن يرحل العربي ويجوب الآفاق في طلب المال^(٥) . يقول « جابر بن ثعلبة

(١) انظر مثلاً: ديوان المثقب العبدى ٢٢٦ وديوان بشر بن أبي خازم ، وحماسة عسيلان ٢١٥/١ لموسى بن جابر الحنفي ، والمفضليات ٢٤٠ للمرقش الأكبر .

(٢) ديوانه ٥٢ تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م دار صادر ، بيروت .

(٣) المفضليات ١٢٧ .

(٤) وحول هذا تدور قصيدة « معود الحكماء » في المفضليات ٣٥٤ وكذلك أبيات لأعشى باهلة في الأصمعيات ٩٠ .

(٥) انظر في هذا مثلاً قصيدتين : الأولى « لسبيع بن الخطيم » في الأصمعيات ٢٢٢ والمفضليات ٣٧٢ والثانية لذي الخرق الطهوي في الأصمعيات ١٢٤ وأبيات لمالك بن حريم الهمداني في معجم الشعراء ٣٥٧ -

الطائي « (١) :

وقام إليّ العاذلاتُ يلمنني يقلن ألا تنفك ترحل مرحلاً
فإن الفتى ذا الحزم رام بنفسه جواشن هذا الليل كي يتموّلاً
ومن يفتقر في قومه يحمّد الغنى وإن كان فيهم واسط العمّ مخولاً
ويزري بعقل المرء قلة ماله وإن كان أسرى من رجال وأحولاً
كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى ولم يك صعلوكاً إذا ما تموّلاً
إذا جانب أعياك فاعمد لجانب فإنك لاقٍ في بلادٍ معولاً (٢).

وكثيراً ما كان العربيّ يعالج الجذب والقحط ، وعُسُر العيش وقلة ذات اليد ، فيعبر عن ذلك بحوار يجريه بينه وبين زوجته التي تعيره بقلة المال وتضجر من الحياة معه لفقره أو لتبذيره وسوء إنفاقه للمال ، وتدعوه للرحيل والجدّ في طلبه (٣) .

وقد بالغ بعضهم في طلب المال والسعي في جمعه إلى درجة من التهور، دفعت « لقيط بن يعمر » إلى وصف هذا الصنف من الناس بأنه :

يسعى ويحسب أن المال مخلده إذا استفاد طريفاً زاده طعماً (٤)
ويقول قولته الحكيمة :

والله ما انفكت الأموال مذ أبدٍ لأهلها إن أصيبوا مرة تبعا (٥).

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) حماسة عسيلان ١٧٧/١ ، ١٧٨ ، وجواشن الليل : صدره وأوائله .

(٣) انظر مثلاً : الأصمعيّات ١٢٤ و ١٦١ - ١٦٢ والمفضليات ٣٦٩ .

(٤) ديوانه ٥٣ .

(٥) ديوانه ٥٤ .

إلا أننا وسط هذا التدافع والتقاتل على الأموال نجد طائفة منهم
شهروا بأرقى وأسمى الصفات الإنسانية النبيلة : صفة الكرم والجود^(١) .

وتمخضت تجارب العرب مع الحياة والمال عن نظرات صائبة وأقوال
حكيمة ، منها : أن المال عارية مستردة^(٢) ، قد يأكله من لا يجمعه ويجمعه من
لا يأكله^(٣) ، وأن الفقر والغنى لا حيلة للمرء فيهما^(٤) ، فالرزق بيد الله تعالى
لا يزيد فيه حرص حريص ولا ينقص منه الاجمال في الطلب^(٥) ، والغنى ليس
بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس^(٦) ، والفقير حق على الغنى في ماله^(٧) ،
ينفقه على الفقراء وفي وجوه الرشاد^(٨) قدر الطاقة ، ليترك في الدنيا الذكرى
الطيبة الحميدة بعد موته^(٩) .

ولـ « علقمة بن عبدة » و « عبد قيس بن خفاف البرجمي » قصيدتان
أفصحا فيهما عن النظرة الجاهلية الحكيمة للحياة والمال والغنى والفقر
والنوائب^(١٠) .

-
- (١) وحاتم طيء أشهرهم وأجودهم وفي مقدمة ديوانه (القيمة) دراسة وإفية
لهذه الخصلة النبيلة لديه ولدى غيره .
- (٢) انظر مثلاً : ديوان قيس بن الخطيم ٧٤ ، وديوان لبيد ١٧٠ .
- (٣) انظر مثلاً الأمالي ١.٨/١ للأضبط بن قريع ، والمفضليات ٤٣. للحارث
بن حلزة .
- (٤) انظر مثلاً : حماسة عسيلان ٥٧٥/١ البيت رقم ٢ وعيون الأخبار ١٨٩/٣ .
- (٥) انظر مثلاً المفضليات : المفضلية ٥٩ للمرقش الأصغر البيت الأخير ص
٢٥١ وانظر جمهرة أشعار العرب ٥١٢/٢ .
- (٦) انظر مثلاً ديوان قيس بن الخطيم ١.١ .
- (٧) انظر مثلاً : ديوان سلامة بن جندل ١.٩ .
- (٨) معجم الشعراء ٤٩٥ ليزيد بن خذاق .
- (٩) المؤتلف والمختلف ١٧٧ للمرار الكلبى .
- (١٠) انظر لعلقمة الأبيات ٣١ - ٣٨ في المفضليات ٤.١ ولعبد قيس
المفضليات ٣٨٥ والأصمعيات ٢٣٠ .

وهناك طائفة من العرب كانت لهم فلسفتهم الخاصة في جمع الأموال ؛
تقوم على الغزو والإغارة للسلب والنهب ، وسدّ حاجة الفقراء من عشيرتهم ،
وإن كان في ذلك مفارقة الأهل وإهلاك النفس ؛ وهؤلاء هم « صعاليك
العرب » (١) .

وهناك شذاز من العرب نهجوا نهجهم واقتفوا أثرهم ، كما نجده عند
« سلامة بن جندل » مثلاً في قوله :

ستتلف نفسي أو سأجمع هجمة ترى ساقبيها يألمان التراقيا (٢)
ولكنهم -أي الصعاليك- تميزوا بهذه الفلسفة وهذا المنهج وشهروا به .
وقد أدّى بهم هذا إلى أن خلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم ، فاستعاضوا
عن ذلك بإبراز مظاهر قوتهم وكرهم وفرهم واكتفائهم واحتمائهم بسلاحهم ،
يقول أحد أعمدتهم « الشنفرى » :

وإني كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى ولا في قريبه متعلّ
ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع وأبيض إصليت وصفراء عيطل (٣) .
وأبرز ما يتميزون به النعمة على الأغنياء ، والإحساس بمرارة الفقر

(١) خير مرجع عنهم كتاب « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي »
للدكتور يوسف خليف ، مكتبة غريب ، د . ط ، د . ت ، وانظر في هذا
خاصة ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) ديوانه ٢٠١ والهجمة : الجماعة من الإبل بين الثلاثين والأربعين إلى
المائة ، ويألمان التراقيا : أي تألم تراقيهما من شدة التعب حين يسقيان
الهجمة .

(٣) أعجب العجب في شرح لامية العرب ٢٢ لمحمود بن عمر الزمخشري ،
مطبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ ، الطبعة الأولى .

وذلته ، وسأصطفي منهم الشاعر « عروة بن الورد » لأضرب ببعض شعره
المثل لنظرية الصعلكة ، ذلك انه كان زعيم الصعاليك ، وكان شعره نبراساً
يهتدون به ، أو يأتئون به ، على حدّ تعبير « الحطيئة » في حديث له مع عمر
بن الخطاب رضي الله عنه (١) .

فمن وصيته للصعاليك قوله :

[خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة إن القعود مع العيال قبيحُ
المال فيه مهابةٌ وتَجَلُّةٌ والفقر فيه مذلةٌ وفُضوحُ] (٢) .

ويفصح عن نظرية الصعلكة بقوله :

[ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتثور
مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم ، زجر المنيع المشهور
إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه تشرف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنيّة يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر] (٣) .

وهاتان المقطوعتان تفصحان أكثر وأكثر عن أن الدافع للصعلكة هو
الفقر ، يقول :

[إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثر
وصار على الأدنين كلاً ، وأوشكت صلات ذوي القربى له أن تنكرا
وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس إلا من أجدّ وشمرّا
فسرّ في بلاد الله والتمس الغنى تعشّ ذا يسارٍ أوتموت فتعذرا] (٤)

(١) انظر هذا الحديث في الأغاني (طبعة بولاق) ٧١/٣ .

(٢) ديوانه ٤٣ . (٣) ديوانه ٧٣ .

(٤) ديوانه ٨٩ . ونسبه الأمير أسامة بن منقذ في لباب الآداب ٢٧ للناخبة

الذبياني ، وانظر تعليق المحقق أحمد محمد شاكر في الهامش .

ويقول مخاطباً امرأته :

[دعيني للغنى أسعى فإني رأيتُ الناسَ شرهم الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسبٌ وخيرٌ
ويقصيه الندى وتزدرية حليته وينهره الصغيرُ
ويُلقي نو الغنى وله جلالٌ يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ
قليلُ ذنبه ، والذنبُ جمٌ ولكن للغنى ربٌّ غفورٌ] (١)

« ولكن للغنى ربٌّ غفور » عبارة جمعت كل ما تحتويه نفس الصعلوك من مشاعر الحرمان والمرارة والقهر والإحساس بذل الفقير وبونيته .

هـ - الشهوات والملذات :

وإذا كان الجاهليون لا يعرفون للدنيا من هدف ولا غاية إلا الحياة والموت فقالوا : (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) (٢)؛ فلا عجب إذاً إن فقدوا الهدف والمعنى للحياة ان يندفعوا بجنون يعبّون من ملذّات الدنيا وشهواتها عباً في سباق محموم مع الأجل ؛ ولذلك نجد الحديث عن اللذة والشهوة مقترناً دائماً بذكر الموت والمصير المحتوم (٣).
يقول « مشعث العامري » (٤):

(١) ديوانه ٩١ ، ٩٢ وهي في الأسمعيات ٤٣ والبيان والتبيين ٢٣٤/١ وعيون الأخبار ٢٤١/١ ، ٢٤٢ ، والعقد الفريد ٢٩/٣ ، وجمهرة أشعار العرب ٥٧٩/٢ وغيرها ؛ باختلاف يسير جداً في الرواية .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الجاثية ، وانظر ما سبق من الحديث عن حالة الجاهليين الدينية ص ٣٦٨ وما بعدها من هذا البحث .

(٣) انظر مثلاً قول امرئ القيس في ديوانه : ٨٨ ، ٣٤٥ :

تمتع في الدنيا فإنك فان من النساء الحسن
من البيض الأرام والأدم كالدمى حواضنها والمبرقات الدواني
وقول عبيد بن الأبرص في ديوانه : ٣٠ :

تزود من الدنيا متاعاً فإنه على كل حال خير زاد المزود

(٤) نكره المرزباني في معجم الشعراء ٤٧٥ وقال : « وأحسبه لقباً » ، ولم أقف له على ترجمة .

- تمتّع يا مشعّت إن شيئاً سبقت به الوفاة هو المتاع^(١)
ويقول « قيس بن الخطيم » :
متى يأت هذا الموت لا تبك حاجة لنفسي إلا قد قضيتُ قضاها^(٢)
ويقول « جثامة بن قيس الكناني »^(٣) :
وإن أمت والفتى رهن بمصرعه فقد قضيتُ من الأراب أرابا^(٤)
ويقول « حاجز بن عوف الأزدي »^(٥) :
فإن تأتني الدنيا بيومي فجأة تجدني وقد قضيت منها مآربي^(٦)
ويقول « عمرو بن قعاس المرادي »^(٧) :
متى ما يأتني أجلي يجديني شبعْتُ من اللذّاة واشتقيت^(٨)

-
- (١) معجم الشعراء ٤٧٥ .
(٢) ديوانه ١٠ وهذا البيت لقيس هو المعنيّ بقول « أبي العلاء المعري » في لزومياته :
إن كان لم يترك قيس له وطراً إلا قضاها فما قضيت من وطر
(٣) شاعر محسن ، جاهلي فارس ، انظر المؤتلف والمختلف ١٠٦ للآمدي .
(٤) المؤتلف والمختلف ١٠٦ .
(٥) وحاجز بن عوف بن مفرج من الأزدي ، شاعر جاهلي مقلّ ، من أغربة العرب وصعاليكها وعدائيتها له في ذلك أخبار وغرائب . خرج في بعض أسفاره ولم يعد ولا عُرف له خبر . انظر ترجمته في : النوادر لأبي مسحل ٢٢٤ ، والاشتقاق ٥١٤ ، والأغاني (ثقافة) ٢١١/١٣ والأعلام ١٥٣/٢ ومعجم الجاهليين والمخضرمين ٧٥ .
(٦) موسوعة الشعر العربي ٣٤٦/٤ .
(٧) « عمرو بن قعاس أو قنعاس » شاعر جاهلي ، لم أقف له على ترجمة ، انظر معجم الشعراء ٢٣٦ والطرائف الأدبية ٧٥ .
(٨) الطرائف الأدبية ٧٥ للميمني .

ولكن ... ما هي هذه اللذة ؟ وما تلك الشهوة ؟ وما ذلك الوطر الذي يريد أن يقضيه العربي من حياته قبل مماته ؟

إن قمة اللذة - عند أحد بني فقّس -^(١) هي الأخذ بالثأر ، يقول :

كأنك لم تسبق من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب^(٢)

نعم إن في الثأر شفاءً للنفس وذهاب للغيط ! ولكن ليست هذه هي اللذة التي نعينها ، إنها تلك التي تحدّث « امرؤ القيس بن حجر » حين قيل له : [ما أطيب عيش الدنيا ؟ قال : بيضاء رعبوبة ، بالطيب مشبوبة ، بالشحم مكروبة]^(٣) .

وسئل عنها « الأعشى » فقال : [صهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية]^(٤) .

وقيل مثل ذلك لـ « طرفة بن العبد » فقال : [مطعم شهّي ، وملبس دفي ، ومركب وطي]^(٥) .

ونستخلص من هذا أن منتهى لذة العربي الجاهليّ تنحصر - عادة - في : الخمر ، والنساء ، وركوب الخيل ، والإبل ، هذه الأربع ذكرها « امرؤ القيس » في قوله :

(١) يُنسب البيت لعمر بن أسد الفقعسي ، ومرة بن عداء الفقعسي ، ولم أقف لهما على ترجمة .

(٢) حماسة عسيلان ١٢٤/١ .

(٣) البيان والتبيين ١٧٧/٢ ورعبوبة : البيضاء الحسنة الرطبة الحلوة ، ومشبوبة : ظهر حسنها وأشرق لونها ، ومكروبة : أي مقتولة مشدودة .

(٤) ذاته ١٧٧/٢ والأعشى يذكر الخمر وصفاتها ، فصوب : أي المطر ، وغادية : السحابة .

(٥) ذاته ١٧٨/٢ .

[وأصبحت ودّعت الصبّا غير أنني أراقبُ خلّاتٍ من العيش أربعا
 فمنهنّ قولي للندامى ترفعوا يداجون نشاحاً من الخمر مترعا
 ومنهنّ ركض الخيل ترجم بالقنا يبادرن سرباً آمناً أن يُفزعاً
 ومنهنّ نصّ العيس والليل شامل تيمّم مجهولاً من الأرض بلقعا
 خوارج من برية نحو قرية يجددن وصلاً أو يقربن مطمعا
 ومنهنّ سوفى الخود قد بلّها الندى تراقبُ منظوم التمام مرضعا] (١)
 هذه الأربع هي الثلاث ذاتها التي ذكرها « طرفة بن العبد » في قوله
 معبراً تعبيراً واضحاً عن نظرية الدنيا :

[فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
 فمنهن سبقي العاذلات بشرية كمت متى ما تعلّ بالماء تزيّد
 وكرى إذا نادى المضاف محبّاً كسيد الغضا نبهته المتورد
 وتقصيريوم الدجن والدجن معجب بيهكة تحت الطراف المعمّد
 كأن البرين والدماليج علّقت على عشرٍ أو خرّوعٍ لم يخضد
 فذرني أروى هامتي في حياتها مخافة شرب في المماتٍ مصرّد
 كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متناصديّ أينا الصديّ] (٢)

(١) ديوانه ٢٤٠ ، ٢٤١ . ويداجون : يدارون ، يرفعون ويعالجون ، نشاحاً :
 هو الذي يجيد شرب الخمر ، ومترع : ملوّء ، وترجم : تعدوا عدواً شديداً
 ، والسرب : الحيّ ، والنصّ : إعمال وتسيير الإبل ، العيس : الإبل البيض ،
 وشامل : مظلم ، وتيمّم : تقصد ، ومجهولاً : من الأرض الذي لا علم فيه ،
 والبلقع : الخالي . وسوفى : شمّى ، والخود : المرأة المخفّرة الحيّة ،
 وتراقب : تحرس .

(٢) ديوانه ٥٠ - ٥٢ وفي شعره ٨٢ - ٨٣ باختلاف يسير في الرواية
 واللفظ . وجمهرة أشعار العرب ٤٣٩/١ ، ٤٤٠ ، وحاجة الفتى : =

[فالصورة التي تتمثلها من الشعر هي صورة رجل يغتصب متعته اغتصاباً من الحياة الفانية ، ويسبق الموت إلى لذاته . ويرى أن حياة الفرسان تقوم على ثلاثة أشياء : خمر ، و قتال ، ونساء]^(١) .

فالقتال والعراك حياة العربي وشغله الشاغل ، والنساء : متعته وشهوته ، والخمر سلوته وأنسه ، وإذا كان « امرؤ القيس » قد وجد متعته وغايته في النساء ، فإن « الأعشى » قد افتنّ [في شعر الخمر وأطال وفصل في وصفها ووصف بيوتها ، وتصوير أثرها في النفس]^(٢) وقد [جاء شعره في الخمر مغايراً لسائر الشعر الجاهلي ، تشيع فيه الحياة ، ويشفّ عن الصلة العاطفية التي تقوم بين الشاعر وبين موضوعه .

والواقع أن الأعشى كان مفتوناً بالخمر وبمجالسها ، لا يعدل بها شيئاً ولا يستطيع لها فراقاً ، حتى لقد يروون في قدومه على النبي صلى الله

= ما يعيش به ويلتذ ، ولم أحفل : لم أبال ، وعودي : جمع عائد ، كناية عن الموت ، وبشرية : يعني الخمر ، والكميت : التي تضرب إلى السواد ، وتعل : تمزج ، والطراف : البيت ، والدجن : المطر الخفيف ، والبهكتة : الحسنة الخلق ، والبحرين : جمع برة ، وهي الخلخال ، والدماليج : ما وضع في العضد من حلي ، والعشّر : شجر أملس مستو ضعيف العود ، شبه عظامها وذراعيها به ، والخروّع : نبت ناعم ، ولم يخضد : لم يكسّر . وكريّ : عطفى ، ومحنب : فرساً أقنى الذراع ، والسّيد : الذئب ، والمتورد : الذي يطلب ورود الماء . والمصرّد : المقلل ، والصدي : العطش .

- (١) هذا تعليق الدكتور م . محمد حسين في مقدمة ديوان الأعشى ص (س) على مطولة « طرفة » الدالية ومنها هذه الأبيات في حديثه عن حياة اللذة واللهو عند الخمريين الجاهليين ، في سياق الحديث عن خمريات الأعشى .
- (٢) مقدمة ديوانه ص (ع) وانظر مثلاً ديوانه الصفحات : ١٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٢٩ ، ١٦٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٤١ ، ٢٩٣ ، ٣١٩ ، ٣٥٩ .

عليه وسلم وعدوله عن الاسلام أنه لم يهتم لتحريم الإسلام للزنا والقمار والربا ، ولكنه جزع أشد الجزع حين علم أنه يحرم الخمر ، فعاد من مكة إلى اليمامة ليستنفذ ما بقي له منها قبل أن يحرمه منها الدخول في الدين الجديد [١] .

ولأن الخمر تحتاج إلى المال ، فقد رحل في طلبه وجاب الآفاق إلى عُمان وحمص والقدس والحبشة والنبط وأرض العجم وحضرموت وغيرها (٢) .

وقد بالغ « أوس بن حجر » وتطرف فجعل الحياة هي السكر ، والموت هو الصحة منه ، إذ يقول :

إن أشرب الخمر وأرزا لها ثمناً فلا محالة يوماً أنتني صاحي
ولا محالة من قبر بمحنةٍ وكفن كسرة الثور وضاح (٣) .
بل إن « سُحَيْم بن وَثِيل الرِّيَّاحي » يجعل الخمر هي الحياة ذاتها ، يقول لامراته التي عاتبته على معاقرة الخمر :

[ويحك لولا الخمر لم أحفل العيد ش ولا أن يضممني لحد
هي الحياة والحياء واللهو ، لا أنت ولا ثروة ولا ولد] (٤) .
وهكذا تبو الحياة لمن استهان بها ، وكثرت حروبه ، وتوقع الفجيعة في النفس والأحباب ، فليس أمامه إلا الانكباب على ملذات الحياة يعل منها وينهل ليستمتع بحياته القصيرة قبل أن يغيبه التراب ، وقد تقنن العربي

(١) مقدمة ديوانه ص (س) .

(٢) انظر في ديوانه الصفحات التالية مثلاً على رحيله في طلب المال لينفقه على لذاته في الخمر : ٤١ ، ٥٦ ، ٥٩ و ١٣٥ .

(٣) ديوانه ١٤ وسراة الثور : ظهره .

(٤) البيان والتبيين ٣/٣٤٣ ولحد : - حُرِّكَت الحاء لضرورة الشعر - : هو شق في جانب القبر يوضع فيه الميت .

الجاهلي وأبدع في الانغماس في الشهوات ، وأصبح خبيراً بأسبابها ومداخلها
وحق له أن يقول مثلاً :

[فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأئواء النساء طبيبٌ
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيبٌ
يرد ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيبٌ] (١).

وقد أدرك العربي أن النفس لا تشبع من الآمال والرغبات وأن العزيمة
القوية وكبح جماح النفس الدواء الناجع لهذه الحياة التي تقف دون طموح
النفس وأهوائها ، فقال :

ولم يسئل امرأً مثل أمر صريمةٍ

إذا حاجة في النفس طال اعتراضها (٢).

وليست صورة العرب كلهم بتلك القتامة ، فقد حرم بعضهم على نفسه
الخمير (٣) ، ومنهم من دعا إلى عدم الانسياق وراء طلبات النفس وشهواتها .
يقول « حاتم طي » :

وإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا (٤).

(١) الفضليات ٣٩٢ لعلقمة الفحل ، وانظر ديوانه ١٢ ، دار الفكر للجميع
١٩٦٨ م . د . ط .

(٢) الشماخ بن ضرار ، حياته وشعره ٢٥٨ لصالح الدين الهادي ، دار المعارف
بمصر ، د . ط . د . ت .

(٣) انظر مثلاً : المصبر ٢٣٧ وما بعدها والمنمق ٥٣١ وبلوغ الأرب ٢/٢٩٤
وما بعدها .

(٤) ديوانه ١٨٣ وانظر صفاته وأخلاقه النبيلة في دراسة ديوانه ٥٢-١١١ .

وفي قوله :

لحي الله صعلوكاً مناه وهمّه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً (١)
يعجب من الذين يقصرون الحياة على ما ينالونه فيها من مأكّل
وملبس ، ويرى أن ليس لهذه الأمور من القدر ما يجعلها جديرة بأن يحيا
المرء لأجلها ، ولعله أراد الإشارة إلى أن قيمة الحياة هي فيما يؤديه الانسان
من أعمال الخير والبرّ والكرم والبطولة .

وكانت العرب تتمدّح بقلة الأكل ، يقول « أعشى باهلة » :

تكفيه حُرّة فلذ إن ألم بها من الشواء ويروى شُرْبُه الغُمر (٢)
ويقول « النابغة الذبياني » يذمّ الأكلّة :

واليأس عمّا فات يعقبُ راحةً ولربّ مطعّمةٍ يعود ذباحا (٣)
وتمدّحوا أيضاً بإنفاق المال في وجوهه ، وقبضه عن الإنفاق في
الشهوات ، يقول « زهير بن أبي سلمى » :

أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله (٤)
ومنهم من رأى أن الغنى ليس بكثرة العرض والمال ولكنه غنى النفس،
يقول « قيس بن الخطيم » :

(١) ديوانه ٢٣٩ .

(٢) الأُصمعيّات ٩١ وجمهرة الأمثال ١٢٢/١ للعسكري وفي الأمالي ١٦/١ :
« حذّة » والحزّة : ما قُطع من اللحم طويلاً ، والفلذ : كبد البعير ، والغُمر :
أصغر الأقداح .

(٣) ديوانه ٢٠٠ .

(٤) ديوانه ١١٣ .

غني النفس ما استغنى غنيً وفقر النفس ما عمرت شقاءً (١)

إلى ذلك نجد بعض الأقوال الحكيمة والآراء الصائبة في الحياة والعيش وما يؤول إليه ، من ذلك قول « النابغة الجعدي » رضي الله عنه :

المرء يرغب في الحيا ة وطول عيش قد يضره
تقنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسوؤه الأيام حتى ما يرى شيئاً يسره
كم شامت بي إن هلك ت وقائل لله دره (٢).

وقول « الربيع بن أبي الحقيق » (٣) في أبيات حكيمة له :

ومن يك غافلاً لم يلق بؤساً ينخ يوماً بساحته القضاء
تعاوره بنات الدهر حتى تتلمه كما تلم الإناء
وكل شديدة نزلت بحي سيأتي بعد شدتها رخاء
وبعض خلأق الأقوام داءً كداء الشيخ ليس له دواء (٤).

(١) ديوانه ١٠١ .

(٢) ديوانه ١٩١ ووردت هذه الأبيات في مصادر كثيرة باختلاف يسير ، انظر

مثلاً : جمهرة أشعار العرب ١/١٩٧ وتروى أيضاً للنابغة الذبياني . انظر

ما نسب إليه في ديوانه ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٣) يهودي من بني النضير ، كان رئيس قومه في يوم بعث آخر الحروب

المشهورة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام . انظر ترجمته في طبقات ابن

سلام ١/٢٧٩ ، والبيان والتبيين ١/٢١٣ ولباب الآداب ٣٥٨ .

(٤) البيان والتبيين ٣/١٨٦ .

وقول « الحارث بن كلدة » (١) :

إن السعيد له في غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر (٢) .

إلى غير ذلك مما عبّروا به عن خلاصة تجاربهم وخبراتهم في الحياة ولكن ينقصها معرفة الهدف الحق من وجودهم في هذه الدنيا ، وذلك لا يتأتى إلا عن طريق المعرفة الصحيحة بالله تعالى من خلال رسله وكتبه ، وهذا ما نجده لدى بعض من تبقى لديهم أثارة من علم بالكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، كـ « السموعل » مثلاً ، إذ يقول في قصيدة رائعة يذكر فيها نشأة الإنسان منذ كان نطفة ومصيره إلى الموت ثم رجعته في الحياة الآخرة ، ويتحدث فيها عن الرزق الحلال من الكسب والأمانة والعفو والصفح ، ثم ذكر الحساب ويوم الدين ، ثم ضرب مثلاً للقناعة والرضا بذهاب ملك داود ، وذكر أن الأرزاق ليست بالقوة وإنما يصرفها الله كيف يشاء :

[نُطْفَةٌ مَا مُنِيتُ يَوْمَ مُنِيتُ	أُمِرْتُ أَمْرَهَا وَفِيهَا وَبِيتُ
كَتَبَهَا اللَّهُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ	وَخَفِيٍّ مَكَانُهَا لَوْ خَفِيَتْ
أَنَا مَيِّتٌ إِذْ ذَاكَ تُمِّتُ حَيٌّ	ثُمَّ بَعْدَ الْحَيَاةِ لِلْبَعْثِ مَيِّتُ
إِنْ حَلَمِي إِذَا تَغَيَّبَ عَنِّي	فَاعْلَمِي أَنَّنِي كَبِيرُ رَزِيَّتُ
فاجعلن رزقي الحلال من الـ	كسب وبراً سريرتي ما حييتُ
ضيق الصدر بالخيانة لا يذـ	قُصُ فُقرى أمانتي ما بقيتُ
رُبَّ شَتْمٍ سَمِعْتُهُ فَتَصَامَمْتُ	وَعَيَّ تَرْكُتُهُ فَكُفَيْتُ

(١) طبيب العرب المشهور ، وكان شاعراً ذا حكمة في شعره ، أدرك الإسلام وعاش إلى سنة ٥٠ هـ واختلف في إسلامه . انظر ترجمته في طبقات الأطباء ١٠٩/١ والمؤتلف ١٧٢ .

(٢) المؤتلف والمختلف للأمدي ١٧٢ .

لیت شعري وأشعرن إذا ما قيل اقرأ عنوانها وقريئت
 ألى الفضل أم علي إذ حو سبتُ إني على الحساب مُقيتُ
 مَيّتَ دهرٍ قد كنتُ ثم حييتُ وحياتي رهـنُ بأن سأموتُ
 وأتتني الأنبياء أني إذا ما متُ أو رم أعظمي مبعوتُ
 هل أقولن إذا تدارك حلمي وتداكا علي : إني دهييتُ
 أبفضل من المليك ونعمي أم بذنبِ قدّمته فجُزيتُ
 ينفع الطيب القليل من الرز ق ، ولا ينفع الكثير الخييتُ
 وأتتني الأنبياء عن ملك داو د فقرت عيني به ورضيتُ
 ليس يُعطى القويُّ فضلاً من الرز ق ولا يُحرم الضعيفُ الختيتُ
 بل لكل من رزقه ما قضى الل ه وإن حك أنفه المستميتُ ^(١)

وهكذا معظم شعره ، زاخر بمعاني الإيمان غير المحرف ، واختتم بقوله

في القضاء والقدر :

[ولسنا بأول من فاته على رفقه بعض ما يُطلبُ
 وقد يدرك الأمر غير الأري ب وقد يُصرع الحول القلبُ
 ولكن لها أمرٌ قادرُ إذا حاول الأمر لا يُغلبُ] ^(٢)

(١) ديوانه ٨١ ، ٨٢ مع تقديم وتأخير وزيادة واختلاف . عن الأصمعية ٢٣ ص

٨٥ ، ٨٦ وأثبت هنا ما في الأصمعيات . ومنيت : قدرت ، ووبيت : هيئتُ

، ورزيتُ : أصبتُ ، وقريت : قرأتُ ، ومقيتُ : بصير خبير ، ومبعوت :

مبعوث - قلب التاء ثاءً - ، وتدارك : تتابع ، وتداكا : دافع وزاحم ،

وفضلاً : زيادة ، والختيتُ : الخسيس من كل شيء .

(٢) ديوانه ٧٨ .

رابعاً - الْمُخْضَرَمُونَ :

المخضرمون جمع مخضرم ، مأخوذ من خضرم ، وسأبحث عن معنى المخضرم في اللغة والاصطلاح بشيء من الإيجاز :

١ - الهمنى اللغوي :

من خلال المراجع اللغوية التي توفرت لي توصلت إلى مايلي :

أ - أن للخضرمة معاني كثيرة ومتباينة منها :

١ - الكثرة :

فا[لخضرم : الكثير من كل شيء] ^(١) وهو أيضاً [الواسع الكثير من كل شيء] ^(٢) . ويقال : [ماء مخضرم - بفتح الراء - أي كثير] ^(٣) .

[والخضرم : الرجل الجواد الكثير العطية ، وكل كثير خضرم ، يقال : بحر خضرم ، وبئر خضرم : كثير الماء ، قال النعمان بن بشير :

وحسان ذو الشعبين مناً ويرعش

ونوزن تلك البحور الخضارم] ^(٤) .

(١) تاج العروس ٢٨٠/٨ مادة (خضرم) .

(٢) تاج العروس ٢٨٠/٨ .

(٣) تاج العروس ٢٨١/٨ ، وانظر كتاب الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ وكتاب البئر للأعرابي ٦٤ تحقيق الدكتور « رمضان عبد التواب » دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٣م د . ط . ، وجمهرة اللغة ٤٧٤/٣ وأساس البلاغة ١٦٦ .

(٤) شمس العلوم ٥١/٢ وانظر ديوان الأدب للفارابي ٥٣/٢ وكتاب الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ وأساس البلاغة ١٦٦ .

٢ - الخط :

و [خضرم : خلط]^(١) . [ويقال للدعي : مخضرم ، كأنه مختلط النسب]^(٢) [ويقال : طعام مخضرم : إذا كان مخلوطاً ليس بذاك]^(٣) ، والمخضرم هو : [أسود أبوه أبيض ، والناقص الحسب ، والدعي ، ومن لا يُعرف أبوه ، أو ولدته السراري ، ولحم لا يُدرى أمن ذكر أم أنثى ، والطعام التافه]^(٤) ، والماء بين الثقيل والخفيف^(٥) وقول الشاعر :

[فقلت أذاك السهم أهون وقعة

على الخضر أم كف الهجين المخضرم

إنما هو أحد هذه الأشياء التي ذكرت في الحسب والنسب]^(٦) .
والخضرمة هي [اللحن أيضاً]^(٧) .

-
- (١) تاج العروس ٢٨١/٨ وانظر الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ .
(٢) كتاب الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ وانظر كتاب النوادر لأبي مسجل الأعرابي ٢١/١ تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م ، د. ط . دن . وانظر شمس العلوم ٥٣/٢ ، وترتيب القاموس ٧١/٢ ، وتاج العروس ٢٨١/٨ ، وديوان الأدب ٤٨٥/٢ .
(٣) كتاب النوادر ٢١/١ لأبي مسجل الأعرابي .
(٤) أي ليس بحلول ولا مرّ ، انظر تاج العروس ٢٨١/٨ .
(٥) ترتيب القاموس ٧١/٢ وانظر تاج العروس ٢٨١/٨ ، والفائق ٣٥١/١ ، والصحاح ١٩١٤/٥ ، وأساس البلاغة ١٦٦ ، وديوان الأدب ٤٨٥/٢ ، وتهذيب الصحاح ٧٣٠/٢ ، والتكملة والذيل والصلة ١٤/٦ للصفاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب ١٩٧٩م ، د . ط .
(٦) تاج العروس ٢٨١/٨ .
(٧) الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ .

٣ - القطع :

[والخضرمة : القطع]^(١) ومنه [« أذن مخضرمة » : إذا كانت مقطوعة]^(٢) و [ناقة مخضرمة : قطع طرف أذنها]^(٣) أو [جدع نصف أذنها]^(٤) أو [شيء يسير من طرف أذنها]^(٥) وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خطب الناس [على ناقتة المخضرمة]^(٦) .

ومنه [امرأة مخضرمة : مخفوضة]^(٧) والخضرمة أيضاً : [الختان]^(٨) وقيل : [المخضرم - بفتح الراء - : من لم يختن]^(٩) .

ب - هذه في نظري المعاني الأصلية للخضرمة ، وهناك معانٍ فرعية منها :

-
- (١) الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ .
 - (٢) الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ وانظر كتاب النوادر ٢١/١ لأبي مسحل وفيه : « خضرمت الأذن : قطعها » .
 - (٣) ترتيب القاموس ٧١/٢ وانظر شمس العلوم ٥٣/٢ .
 - (٤) أساس البلاغة ١٦٦ وانظر تاج العروس ٢٨١/٨ .
 - (٥) الفائق ٣٥١/١ وانظر تاج العروس ٢٨١/٨ وانظر غريب الحديث ٢٨٤/١ لابن الجوزي .
 - (٦) غريب الحديث ٢٨٤/١ لابن الجوزي ، والفائق ٣٥١/١ وانظر الصحاح ١٩١٤/٥ وشمس العلوم ٥٣/٢ وانظر الحديث بتمامه في سنن ابن ماجه ١٠١٦/٢ حديث رقم ٣٠٥٧ .
 - (٧) الصحاح ١٩١٤/٥ والخفض للمرأة كالختان للغلام ، وشمس العلوم ٥٣/٢ ، وتاج العروس ٢٨١/٨ ، والفائق ٣٥١/١ ، وغريب الحديث ٢٨٤/١ لابن الجوزي .
 - (٨) الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ .
 - (٩) تاج العروس ٢٨١/٨ وانظر ترتيب القاموس ٧١/٢ .

[أن يُجعل الشيء بين بين (١) ، والماء غير العذب (٢) ، أو الماء الحلو ، أو بين الحلو والمر (٣) ، ومن [الزُّبْد: الذي يتفرَّق في شدة البرد فلا يجتمع] (٤) ، والخضارمة : قوم خرجوا في بدء الاسلام فسكنوا الشام (٥) ، أو تفرَّقوا في بلاد العرب (٦) ، إلى غير ذلك من المعاني .

٢ - المعنى الاصطلاحي :

وكما سبق ، فإن المعاني اللغوية الأصلية للخضرمة هي : الكثرة ، والخط ، والقطع ، ومنها تولد المعنى الاصطلاحي .

أ - الكثرة :

يقول ابن القطاع : [والخضرمُ : الماء الكثير ، وبه سمى الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام : مخضرمًا ، كأنه اشتقَّ في الأمرين] (٧) .
ويقول [أبو الحسن الأخفش : ماء خضرم : إذا تناهى في الكثرة والسعة ، فمنه سمى الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرمًا] (٨) .

(١) تاج العروس ٢٨١/٨ والفائق ٣٥١/١ .

(٢) تاج العروس ٢٨١/٨ .

(٣) تاج العروس ٢٨١/٨ وانظر التكملة والذيل والصلة ١٤/٦ .

(٤) التكملة والذيل والصلة ١٤/٦ وتاج العروس ٢٨١/٨ وترتيب القاموس

٧٢/٢ .

(٥) تاج العروس ٢٨١/٨ .

(٦) الصحاح ١٩١٤/٥ .

(٧) الأفعال لابن القطاع ٣٣٠/١ .

(٨) العمدة ٧٢/١ لابن رشيق ، وانظر المزهرة للسيوطي ٤٨٩/٢ .

ب - الخلط :

[قال « ابن خالويه » : خضرم : خلط ، ومنه المخضرم : الذي أدرك الجاهلية والإسلام]^(١) .

وفي الفائق في غريب الحديث للزمخشري [لحم مخضرم : لا يُدْرَى أمن ذكر أم أنثى ، ومنه المخضرم من الشعراء : الذي أدرك الجاهلية والإسلام]^(٢) .

ج - القطع :

قال ابن القطّاع : [ويقال : « أنن مخضمة » : إذا كانت مقطوعة ؛ فكأن هذا الرجل انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام]^(٣) .

وقال الزمخشري [وناقاة مخضمة : جدع نصف أذنها ، ومنه المخضرم : الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، كأنما قطع نصفه حيث كان في الجاهلية]^(٤) .

وقال إبراهيم الحربي : [خضرم أهل الجاهلية نعمهم أي قطعوا من أذانها شيئاً فلما جاء الإسلام أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخضرموا من غير الموضع الذي خضرم فيه أهل الجاهلية ؛ فقليل لكل من أدرك الجاهلية

(١) تاج العروس ٢٨١/٨ .

(٢) الفائق ٣٥١/١ وانظر شمس العلوم ٥٣/٢ وديوان الأدب ٤٨٥/٢

والصاحح ١٩١٤/٥ وتهذيب الصحاح ٧٣٠/٢ وتدريب الراوي ٢١٣

للمسيوطي وشرح ألفية العراقي ٥٥ ، ٥٦ للحافظ العراقي ، المطبعة

الجديدة ، فاس ١٣٥٥ هـ . ط .

(٣) الأفعال ٣٣٠/١ .

(٤) أساس البلاغة ١٦٦ .

والاسلام : مخضرم ؛ لأنه أدرك الخضرمتين [(١)] .

وينقل العراقي عن الحاكم قوله : [إن اشتقاق ذلك من أن أهل الجاهلية كانوا يخضرمون آذان الإبل - أي يقطعونها - لتكون علامة لاسلامهم إن أُغِيرَ عليها أو حُورِبوا] (٢) .

ونقل ابن قتيبة عن الأصمعي قوله : [أسلم قوم على إبلٍ فقطعوا آذانها ، فسمّى كل من أدرك الاسلام والجاهلية : مخضرمًا] (٣) .

أ - من هو المخضرم ؟ :

لكل من اللغويين والأدباء والمحدثين تعريف خاص للمخضرم :

١ - فأهل اللغة : ينظرون إلى معاني الخضرمة الرئيسة وهي الكثرة والخلط والقطع - في تعريفهم للمخضرم ؛ بيد أن لهم تعريفاً خاصاً شهروا به ، إذ قالوا : إن المخضرم هو [الماضي نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام] (٤) .

وهذا التعريف ذكره السيوطي في شرحه لتقريب النواوي (٥) ، إلا أن البغدادى في خزانة الأدب حين نقل هذا التعريف اللغوي عنه قال : [وفي تعريف اصطلاح اللغة نظر وتأمل] (٦) ، ولعلّه بهذا يشير إلى ما نقله الزبيدي في تاج العروس ، عن « ابن بري » من أن المخضرم مشتق من خضرمة آذان

(١) غريب الحديث ٢٨٥/١ لابن الجوزي وانظر تاج العروس ٢٨١/٨ .

(٢) شرح ألفية العراقي ٥٦ .

(٣) المعارف ٥٧٣ .

(٤) تاج العروس ٢٨١/٨ .

(٥) انظر تدريب الراوي ٢١٤ .

(٦) خزانة الأدب ٢٦٨/١ .

الإبل أو من القطع عن الكفر إلى الإسلام^(١) .

٢ - **وأما أهل الحديث** : فيقولون : [المخضرمون : واحد مخضرم - بفتح الراء - وهو الذي أدرك الجاهلية وزمن النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ولم يره]^(٢) .

وقد علّق السيوطي على مصطلح أهل الحديث ، فذكر أنه اشتق من الخط [لأنه متردد بين طبقتين لا يدري من أيتهما هو]^(٣) واستدل بالمعاني اللغوية التي وردت في الخضرمة بمعنى الخط ، وذكر الاحتمال بأنه من الخضرمة بمعنى القطع واستدل كذلك بالمعاني التي وردت في الخضرمة بمعنى القطع ، إلا أنه ابتدع معنىً جديداً في قوله [أو من قولهم رجل مخضرم : ناقص الحسب ، وقيل ليس بكريم النسب ، وقيل : دعي ، وقيل : لا يعرف أبوه ، وقيل : ولده السراري ، لكونه ناقص الرتبة عن الصحابة لعدم الرؤية مع إمكانه]^(٤) .

ومعلوم أن المعاني التي ساقها إنما هي للخضرمة بمعنى الخط ، لا بمعنى النقص ، لذلك قال الزبيدي في هذا المعنى : المخضرم [في نسبه

(١) انظر تاج العروس ٢٨١/٨ والمعارف لابن قتيبة ٥٧٣ وما سبق في معاني الخضرمة ، وما سألكره بعد عن ما ذهب إليه « ابن بري » في ضبط كلمة « مخضرم » .

(٢) هذا تعريف النووي في التقريب ٢١٣ وزاد السيوطي في الشرح : « ولا صحبة له » وهذه زيادة لا فائدة منها نظراً إلى تعريف الصحبة ، وهو ما اشتمل عليه تعريف المخضرم أيضاً ، إلا أن يكون المقصود بالزيادة استثناء الأعمى من قوله « ولم يره » !! .

(٣) تدريب الراوي ٢١٣ .

(٤) تدريب الراوي ٢١٣ ، ٢١٤ .

المختلط من أطرافه [١] .

وأما قول « ابن قتيبة » في المعارف : [وإنما يكون مخضرمًا إذا أدرك الاسلام وهو كبير فلم يسلم إلا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم] [٢] فزيادة الاسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ليست في شرط المحدثين ؛ فتعريف المحدثين للمخضرم يُقصد به التمييز بين طبقتي الصحابة والتابعين ، [وقد ذكر مسلم في المخضرمين « بشير بن عمرو ، وإنما ولد بعد الهجرة »] [٣] .

وعلى هذا ف [المخضرمون من التابعين - بفتح الراء - : هم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليست لهم صحبة] [٤] واشتراط عدم الصحبة يعني أنهم أسلموا إذ لا يصاحبُ النبي صلى الله عليه وسلم إلا مسلم وبهذا ينتقض شرط « ابن قتيبة » في تعريفه .

وقد ظنَّ « ابن رشيقي » أن « ابن قتيبة » في تعرّفه هذا يذكر اصطلاح أهل اللغة لا المحدثين ، لذلك اعترض عليه فقال : [وهذا عندي خطأ ، لأن النابغة الجعدي وليدًا وقع عليهما هذا الاسم] [٥] .

وحتى يتّضح الفرق بين اصطلاح أهل اللغة واصطلاح أهل الحديث أقول :

أ - إن الفريقين اتفقا على الأصل اللغوي في معنى الخضرمة واختلفا في مفهوم الاصطلاح .

(١) تاج العروس ٢٨١/٨ .

(٢) المعارف ٥٧٣ و « ابن قتيبة » محدّث ولهذا جاء تعريفه حديثيًا .

(٣) تدريب الراوي ٢١٤ .

(٤) شرح ألفية العراقي ٥٥ .

(٥) العمدة ٧٢/١ ، ٧٣ .

ب - إن أهل الحديث يشترطون في المخضرم مايلي :

١ - أن يدرك حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ - أن يسلم .

٣ - أن لا تكون له صحبة بينما لا يشترطون إدراك الجاهلية .

ج - وأهل اللغة لا يشترطون الإسلام في الخضرمة بمعنى الخلط ويشترطونها إذا كانت بمعنى القطع والكثرة ، ويشترطون إدراك الجاهلية .

د - وبالمثال يتضح المقال ، فـ « بشير بن عمرو » مثلاً مخضرم عند أهل الحديث وليس كذلك عند أهل اللغة ، والعكس صحيح بالنسبة لـ « حكيم بن حزام » رضي الله عنه^(١) .

٣ - وأما أهل الأدب : فالمخضرم عندهم هو [الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام]^(٢) ، فاقترضوا في المصطلح الأدبي على الشاعر دون الناثر.

ولم أجد عند القدماء من نصٍّ على اشتراط الإسلام أو قول الشعر في الاصطلاح الأدبي ، بدليل تمثيلهم لهذا المصطلح بلبيد رضي الله عنه^(٣) الذي يروى عنه إمساكه عن قول الشعر في الإسلام^(٤) . هذا عند القدماء من

(١) انظر في هذا بتوسع ، شرح ألفية العراقي ٥٤ وما بعدهما وتدريب الراوي ٢١٣ وما بعدها .

(٢) الصحاح ١٩١٤/٥ وانظر تهذيب الصحاح ٧٣٠/٢ وشمس العلوم ٥٣/٢ والعمدة ٧٢/١ وديوان الأدب ٤٨٥/٢ وترتيب القاموس ٧١/٢ وتاج العروس ٢٨١/٨ ، ونهاية الأرب ٧٠/٣ ، والفائق ٣٥١/١ .

(٣) انظر المراجع الواردة في الهامش السابق .

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل التالي بحول الله .

الأدباء . أما المُحدِّثون . منهم فلهم تعريفات كثيرة سأورد منها هذين المثالين :

يقول جواد علي : [المخضرم هو : الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، والشعراء المخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام ونظموا الشعر في العهدين : الجاهلية والإسلام ، والمخضرم من يدرك عهدين متناقضين] (١) .

ويقول الدكتور . ج . هيوارث دن : [هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه الشعر كحسان والحطيئة : إذ لا ينبغي أن يكون لبيد من المخضرمين لأنه وإن أدرك الإسلام لكنه لم يقل فيه شعراً إلا بيتاً أو بيتين ، ولعلهما قوله :

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي حتى اكتسيتُ من الإسلام سربالا
أو قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد؟] (٢)

ولا يعنينا من هذين التعريفين إلا أمران :

أحدهما : اشتراط الإسلام ضمناً لتحقيق الخضرمة الأدبية ، ف«جواد علي» حينما ذكر «هوزة بن علي الحنفي» في سياق حديثه عن المخضرمين قال : [وقد مات عام الفتح ، وهو شاعر يجب إدخاله في الجاهليين لأنه لم يعتنق الإسلام ، وقد تحدثت عنه هنا لأنه من المتأخرين ، وله خبر مع الرسول] (٣) صلى الله عليه وسلم .

(١) المفصل ٨٣٨/٩ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه ١٥١ للدكتور ج . هيوارث دن ، مكتبة الثقافة العربية ، د . ط ، د . ت .

(٣) المفصل ٨٦٨/٩ .

الثاني : اشتراط قول الشعر في الاسلام وهذا واضح من خلال التعريفين .

ويزيد بعض الباحثين ، فيشترط في الشاعر المخضرم أن يتأثر في شعره بالاسلام أما من لم يتأثر كالخنساء وليبد (هكذا زعم) وغيرهما فعنده أنهم غير مخضرمين^(١) . وفي المقابل نجد « فؤاد سزكين » يدرج « هبيرة بن أبي وهب المخزومي » الذي [توفي كافراً في نجران باليمن]^(٢) ضمن المخضرمين .

ب - المصطلح العام للمخضرم :

كما سبق القول فاللغويون والأدباء والمحدثون يتفقون جميعاً في اشتقاق معنى الخضرمة ؛ وبما أنه لا مشاحة في الاصطلاح ، فإنه يبدو لي والله أعلم- أن هذا اللفظ مرّ بمراحل متعددة حتى وصل إلى الاصطلاح الحالي ، واجتهد في بيانها كالتالي :

أولاً - مرحلة التميّز : وذلك بخضرمة آذان الإبل لتمييز المسلم عن غيره .

ثانياً - مرحلة الكثرة : بمعنى تكاثر الناس في الدخول إلى الإسلام خاصة بعد فتح مكة .

ثالثاً - مرحلة الانقطاع : وذلك بإعلان جزيرة العرب بلاد الاسلام، وانقطاعها عن الجاهلية .

رابعاً - مرحلة الاصطلاح : بمعنى وضع مصطلح محدّد ، وهذا خاضع بدوره لعدة اعتبارات منها :

(١) الأديب العربي وتاريخه ١٥١/١ .

(٢) تاريخ التراث العربي ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ٣٠١ .

١ - **الدين** : فمثلاً : لا يمكن من وجهة النظر الدينية أن يكون « أبو جهل » مخضرمًا عاش الجاهلية والإسلام ، بل إنه جاهليٌّ ولو رأى النبي صلى الله عليه وسلم وعاصره ، وقل مثله في « أمية ابن أبي الصلت » وغيرهما .

٢ - **اللغة** : فاصطلاح اللغويين يقتصر فقط على المعاني الأصلية للمفردة ، دون النظر إلى تطورها في الدلالة .

٣ - **الفن** : فأهل الحديث مثلاً يقوم مصطلحهم على قواعد معينة في الرؤية والسمع والرواية ، والسند ، وغيره ، وأهل الأدب يركزون على الشعراء والأدباء دون غيرهم ويبينون مصطلحهم على نتائجهم الأدبي من عدمه .

٤ - **الحد** : وأعني به الحد الفاصل الذي تبدأ وتنتهي عنده الخضرمة ؛ فأهل الحديث يرون أن حد الخضرمة هو البعثة ^(١) ، وقال آخرون منهم : بل هو [فتح مكة فإن العرب بعده بادروا إلى الإسلام وزال أمر الجاهلية] ^(٢) ، ولم يتفقوا على حد معين أما أهل الأدب فلم يدخلوا في تفصيلات حد الخضرمة واكتفوا بالقول بأن المخضرم هو [الذي أدرك الجاهلية والإسلام] ^(٣) ، وعليه فـ « زيد الخيل » رضي الله عنه الذي مات في طريق عودته من وفادته على النبي صلى الله عليه وسلم وقال أثناء عودته قصيدته الدالية اليتيمة في الإسلام ^(٤) : مخضرمٌ عند الأدباء ، وليبدُ الذي عاش إلى أوائل العصر الأموي ولم يقل سوى البيت أو البيتين - إن صح هذا الزعم - مخضرم عندهم أيضاً .

(١) انظر ما نقله السيوطي في تدريب الراوي ٢١٤ عن النووي في شرحه صحيح مسلم .

(٢) تدريب الراوي ٢١٤ .

(٣) تاج العروس ٢٨١/٨ وشمس العلوم ٥٣/٢ والأفعال ٣٣٠/١ لابن القطاع ، وديوان الأدب ٤٨٥/٢ وترتيب القاموس ٧١/٢ والصاحح ١٩١٤/٥ .

(٤) انظر ديوانه ٥٢ وقد أورد « ابن حجر » في الإصابة ٢٩٤١ بيتين بعثهما إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وانظر ديوانه ٧٢ وما قيل عن تأخر وفاته إلى عهد عمر رضي الله عنه مسألة فيها نظر ، وانظر مقدمة ديوانه .

ج - مرحلة التحديد :

وأعني به التحديد الدقيق للمصطلح، فقد [حكى العسكري في الأوائل، أن المخضرم من المعاني التي حدثت في الاسلام وسميت بأسماء كانت في الجاهلية لمعانٍ أخر، ثم ذكر أن أصله من خضرمت الغلام إذا اختتن^(١)، والأذن إذا قطعت طرفها ، فكأن زمان الجاهلية قطع عليه : أو من الإبل المخضومة : وهي التي تنجب من العرب اليمانية ، قال : وهذا أعجب القولين إليّ]^(٢) .

وبعد أن سرد البغدادي في خزانته أقوال أهل اللغة في المخضرم ، وأنه من أمضى نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام ، أو من أدركهما؛ قال [وهذان القولان يعلمان الشاعر وغيره ، وقيل : الشاعر الذي أدركهما ، وهذا هو المشهور ، وعليه اقتصر صاحب الصحاح ، ثم توسع حتى أطلق على من أدرك دولتين ، كرؤية بن العجاج وحماد عجرد ، فإنهما أدركا دولة بني أمية ودولة بني العباس]^(٣) .

وهكذا تبدو ملامح المصطلح تتضح شيئاً فشيئاً ، حتى تبلور في صورته الحديثة في التعريف التالي : [المخضرم : يُطلق هذا المصطلح على الشاعر العربي الذي أدرك الجاهلية والاسلام ، وهو من الخضومة بمعنى الاختلاط ، وذلك لأنه يخلط بين الجاهلية والاسلام]^(٤) وهذا ما تبقى من

(١) يبدو لي أن الخضومة إذا أطلقت على الختان من الأضداد ، فمثلاً يقول الفيروز ابادي : « والمخضرم - بفتح الراء - من لم يختتن » انظر ترتيب القاموس ٧١/٢ بينما يقول ابن القطاع : « والخضومة : القطع والخلط والختان » الأفعال ٣٣٠/١ .

(٢) تدريب الراوي ٢١٤ وأعجب القولين إليّ أيضاً ، إذ يقصد العسكري هنا معنى الخلط .

(٣) خزانة الأدب ٢٦٨/١ .

(٤) معجم المصطلحات في اللغة والأدب ٣٤٣ مجدي وهبة ، كامل المهندس ، المطبعة الثانية ١٩٨٤ م ، مكتبة لبنان ، بيروت .

المعاني اللغوية للخضرمه وهو الخط فقط .

وعليه فأستطيع القول : إن كل من عاصر عهدين سياسيين أو دينيين أو اجتماعيين أو غيرهما سواء كان سياسياً أو أدبياً أو عالماً أو عامياً أو غير ذلك ؛ يحق عليه مصطلح الخضرمه .

وفي موضوعنا بالذات فإن كل من بلغته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من أول ما نودي « اقرأ » سواء كان هذا الشخص في الشرق أم في الغرب أم في الشمال أم في الجنوب عربياً كان أم أعجمياً ، شاعراً كان أم ناثراً ، سيداً أم مسوداً ، آمن أم لم يؤمن ؛ مخضرم ، فبعثة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، هي الحد الفاصل بين النور والظلام والحق والباطل ، والضلالة والهدى هي الحق الذي لا يخضع لأهواء الناس وميولهم رضوا أم أبوا ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبتعبير أدق أخلص إلى تعريف موجز للمخضرم فأقول هو : [من أدرك الجاهلية وأدرك البعثة ^(١) من الخضرمه بمعنى الخط قولاً واحداً .

د - ضبط لفظ « مخضرم » :

[المخضرم - بالخاء والضاد المعجمتين - على صيغة اسم المفعول . ونقل السيوطي في شرح تقريب النووي عن بعض أهل اللغة كسر الراء أيضاً ^(٢) . ونقل الزبيدي عن « ابن بري » أن أكثر أهل اللغة ^(٣) يقولون

(١) إن كلمة « البعثة » هذه أدق من كلمة « الاسلام » وهذا ما ارتأيته والله أعلم .

(٢) خزانة الأدب ٢٦٨/١ وانظر تدريب الراوي ٢١٤ وشرح ألفية العراقي ٥٦ .

(٣) تاج العروس ٢٨١/٨ .

بكسر الراء « مخضرمون » [لأنهم خضرموا آذان الإبل]^(١) . وهذا قول لا يوافق « ابن بري » عليه ، فإن جميع المراجع اللغوية تنص على فتح الراء وتعلله بإدراك الخضرمتين لا الخضمة ذاتها^(٢) .

وذكر العراقي أن [أهل الحديث يفتحون الراء]^(٣) .

[وأما « علي بن الحسن كراع » فقد حكى : شاعر محضرم - بحاء غير معجمة^(٤) ، مأخوذ من الحضرمة وهي : الخلط ، لأنه خلط الجاهلية بالاسلام]^(٥) .

[وأغرب « ابن خلكان » فقال : قد سُمِعَ محضرم - بالحاء وكسر الراء -]^(٦) .

٣ - أقسام المخضرمين :

لم يكن المخضرمون على نسق واحد ووتيرة واحدة في قبول الإسلام والدين الجديد ، وكذلك لم تظهر آثار الإسلام واضحة في جميع شعورهم ، فممنهم من أمسك عن قول الشعر ، ومنهم من بقي شعره - بعد إسلامه - على نمط الجاهلية ؛ إلى غير ذلك ، وقد ارتأيت تقسيمهم إلى قسمين ينضوي تحتها جميع الأقسام الأخرى :

(١) شرح ألفية العراقي ٥٦ .

(٢) انظر مثلاً تاج العروس ٢٨١/٨ وغريب الحديث ٢٨٥/١ لابن الجوزي .

(٣) شرح ألفية العراقي ٥٦ .

(٤) وفتح الراء .

(٥) العمدة ٧٢/١ لابن رشيق .

(٦) شرح ألفية العراقي ٥٦ وانظر الخزانة ٢٦٨/١ .

القسم الأول : من حيث الدخول في الإسلام :

والمخضرمون ينقسمون من حيث الدخول في الاسلام إلى ثلاث فئات :

الفئة الأولى : السابقون إلى الإسلام :

ويمكن إدراج جميع الشعراء الذين أسلموا قبل فتح مكة ضمن هذه الفئة ، وجميع شعراء الأنصار والمهاجرين في المدينة بهذا الاعتبار هم من السابقين إلى الإسلام^(١) .

الفئة الثانية : المتأخرون في الإسلام :

وهم الشعراء الذين أسلموا بعد فتح مكة ، وهم الكثرة الكاثرة من الشعراء المخضرمين .

الفئة الثالثة : الذين أسلموا بعد وفاة الرسول ﷺ :

وهم قلة قليلة جداً ، نذكر منهم على سبيل المثال « حوط بن رثاب

(١) يذكر العسكري في الأوائل ٢٠٠/٢ بتحقيق محمد المصري ووليد قصاب

، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٩م د . ط . أن « أول شعر قيل في الاسلام

قول ضرار بن الخطاب الفهري :

تداركتُ سعداً عنوة فأسرته وكان شفاء لو تداركتُ منذراً

فلو نلتَه طَلَّتْ دماء جراحه وكانت حراماً أن تُطلَّ وتُهدرا .

وسعد هذا هو « سعد بن عبادَة » رضي الله عنه ، والمنذر هو « المنذر بن عمرو » وهذا الشعر في قصة بيعة العقبة الثانية لما خرجت قريش في

طلب الأنصار ، والبيتان في ديوان « حسان بن ثابت » رضي الله عنه

باختلاف يسير في اللفظ، من قصيدة يرد بها على « ضرار بن الخطاب

الفهري » . أقول : لعل العسكري بهذا قد جعل ما ذهبت إليه في هذا

التقسيم وجيهاً .

الأسدي»^(١) صاحب البيت الحكيم الذائع المشهور :

لا تحسب المجد ثمراً أنت أكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبّرا^(٢)

القسم الثاني - من حيث التأثير بالإسلام :

وهذا القسم أيضاً ينضوي تحته ثلاث فئات من المخضرمين :

الفئة الأولى : المتأثرون بالإسلام :

ويمكن إيجاز مظاهر تأثرهم بالإسلام فيما يلي :

١ - في الشعر :

وشعر المخضرمين - عموماً - مليء بالقيم الروحية الإسلامية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم وهو أكثر وضوحاً وظهوراً لدى شعراء المدينة الذين وقفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وصوروا هديه الكريم ، فكانوا أكثر معاشة لهذه القيم ، واستمداداً في شعرهم منها .

وينقض الدكتور « شوقي ضيف » ما ذهب إليه الباحثون من عرب ومستشرقين ، أن الإسلام ترك أثراً ضئيلاً في أشعار المخضرمين ، ورأى أن ذلك زعم غير صائب ، بل هم زعم يسرف في تجاوز الحق ، فقد أتم الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثير منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح خارجها^(٣) .

وأنا هنا لن أتعرض لمظاهر أثر الإسلام في شعر المخضرمين

(١) شاعر إسلامي قيل إنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره . انظر

حماسة عسيلان ٢٠٨/٢ .

(٢) حماسة عسيلان ٢٠٨/٢ .

(٣) انظر : العصر الإسلامي المقدمة ص ٥ .

المشهورين من أهل المدينة مثل : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وغيرهم ، رضي الله عنهم ، ولا عن الشعراء الكثيرين المشهورين من غير شعراء المدينة ، من أمثال : العباس بن مرداس ، وكعب بن زهير ، وعبد بن الطبيب ، ومزرد بن ضرار ، وغيرهم - رضي الله عنهم - فشعرهم من الكثرة والشهرة بمكان لا يحتاج إلى بيان ولا يتسع له المقام ، وسأكتفي بنماذج لشعراء لم يطاولوا هذه القمم شعراً ، وإن استووا في مدى تأثرهم بالاسلام وتغلغله في قلوبهم .

فمن ذلك قول « جريبة بن الأشيم الفقعسي » :

[بدلت ديني بعد دين قد قدم كنت من الدين كائني في حلم

يا قيم الدين أقمنا نستقيم فإن أصادف مائماً فلم ألم] (١).

ويظهر احتفال « قرادة بن نفاثة السلولي » (٢) بالاسلام ، وعدم ندمه

على الشباب الذي يبكيه العرب ، فقد عوضه بالاسلام ، في قوله :

[بان الشباب فلم أحقل به بالا وأقبل الشيب والاسلام إقبالا

وقد أروى نديمي من مشغفه ^{مشغفه} وقد أقلب أوراكا وأكفالا

والحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا] (٣).

(١) المؤتلف ٧٧ .

(٢) شاعر مخضرم ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم . فأمره على الوفد الذي أتى معه ليسلم . انظر ترجمته في الاصابة ٢٣١/٣ ومعجم الشعراء . ٣٣٨ .

(٣) معجم الشعراء ٣٣٩ وفيه : والبيت الأخير يروى للبيد بن ربيعة ، انظر المنسوب للبيد في ديوانه ٣٥٨ .

وهذه المشاعر الجديدة التي ملكت أحاسيس « الأجدع الهمداني »^(١) يعبر عنها في قوله :

إذا ما تنادوا للصلاة وجدتي يفزع من خوف الإله جنانيا^(٢) .

والصلاة هنا - وبهذا المعنى - من الألفاظ الجديدة في شعر المخضرمين ، مثل :المسلم ، الكافر ، البر ، الفاجر ، المؤمن ، الضلال ، الهدى ، الجنة ، النار ، ... الخ .

وقد مدح « قطن بن حارثة العليمي »^(٣) النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال في أبيات له :

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه

ورشت اليتامى في السغابة والجذب^(٤)

ومن الشعراء المخضرمين من كانت لهم صحبة للرسول صلى الله عليه وسلم ورواية عنه ، ومنهم :

(١) فارس همدان وشاعرها في الجاهلية أدرك الإسلام وبقي إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فسمّاه :عبدالرحمن وابنه التابعي « مسروق بن عبدالرحمن » انظر ترجمته في الإصابة ١٠٠/١ والأصمعيات ٦٨ والمؤتلف ٤٩ للآمدي والأعلام ٨٤/١ .

(٢) المؤتلف والمختلف ٤٩ .

(٣) شاعر مخضرم وقد على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده شعرا فردّ عليه خيراً وكتب له كتاباً. انظر ترجمته في الاستيعاب (حاشية الإصابة) ٢٧٠/٣ ، ٢٧١ ، ومعجم الشعراء ٣٣٠ ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ٢٧٩ .

(٤) معجم الشعراء ٣٣٠ وفيه : روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ردّ عليه خيراً وكتب له كتاباً .

حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعدي بن حاتم ، والعباس بن المرداس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وحמיד بن ثور الهلالي ، وأبو الطفيل عامر بن وائلة ، وأيمن بن خريم ، وأعشى بنى مازن ، والأسود بن سريع ، والحارث بن هشام ، رضي الله عنهم أجمعين ، وغيرهم كثير (١) .

ونذكر « حميد بن ثور الهلالي » فيمن روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الشعراء ، وقد سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفاه بهما داءً قائلاً ، فأخذه ، وقال :

أرى بصري قد راينني بعد صحة وحسبك داءً أن تصح وتسلما (٢) .

[ويروى أنه لما أسلم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : في أبيات له :

حتى أرانا ربنا محمداً يتلو من الله كتاباً مرشداً

فلم نكذب وخررتنا سجداً نعطي الزكاة ونقيم المسجدا] (٣) .

وهناك شعراء مخضرمون كثر مغمورون قالوا شعراً أبانوا فيه عن دخيلة أنفسهم التي شع في جنباتها نور الإيمان ، وتضوأت قلوبهم بهدي القرآن ، ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق (٤) .

أما الشعراء الذين أسلموا بعد فتح مكة - خاصة شعراء قريش - فقد تملكهم الندم وأكلتهم الحسرة على تأخرهم عن الدخول في الدين الحق ،

(١) انظر مثلاً : الاستيعاب ٥٦١/٣ ، والإصابة ٣٥٥/٨ ، والمفصل ٨٤٦/٩ .

(٢) مقدمة ديوانه ص (ز) والبيت في ديوانه ٧ والرواية فيه : « بعد حدة » .

(٣) ديوانه ٧٨ .

(٤) انظر مثلاً شعراً « للعلاء بن الحضرمي » أنشده النبي صلى الله عليه

وسلم ، الإصابة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ .

ومعاداة رسوله الكريم ، يقول « أبو سفيان بن الحارث » :

[لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدى
هداني هاد غير نفسي وقادني إلى الله من طردت كل مطرد^(١).
وأخذوا يعتذرون بأن الشيطان قد أغواهم ، وأنهم تابوا توبة نصوحاً ،
وآمنوا إيماناً صادقاً ، يقول « عبدالله بن الزبيري » :

[يا رسول الملك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الـ غي ومن مال ميله متبور
آمن اللحم والعظام بما قل نت فنفسى الفدى وأنت النذير^(٢).
ومثلهم بقية شعراء العرب الذين لم يسلموا إلا في أواخر حياته صلى
الله عليه وسلم^(٣) .

وهناك بعض الملاحظات التي أود الإشارة إليها وهي :

الملاحظة الأولى : أن هناك شعراء مخضرمين مغمورين حنفاء في

(١) معجم الشعراء ٣٦٨ .

(٢) طبقات الشعراء ٢٤٢/١ لابن سلام وانظر أبياتاً له أخرى له هناك على
هذا النمط من الاعتذار المتحرق .

(٣) انظر مثلاً قصيدة في معجم الشعراء ٣٦١ للمرزباني لـ « مالك بن عوف
بن سعد » رأس هوازن يوم « حنين » يمدح فيها النبي صلى الله عليه
وسلم بأنه لا مثيل له في العطاء ، والإخبار عما في الغيب ، والشجاعة .
وعموماً فقد اتجه الشعراء المخضرمون المتأخرون في الاسلام إلى التكفير
عما قدمت أيديهم وألسنتهم ، وحسن إسلام كثير منهم .

المدينة المنورة قلب الإسلام ، مثل « صرمة بن أبي أنس » .

الملاحظة الثانية : تأثر الشعراء الصعاليك بالإسلام وتوقفهم عن الغزو ، وهم الذين لم يوقف اندفاعهم عن الغارة والسلب والنهب والقتل في الجاهلية شيء ولعلّ مردّ ذلك إلى سببين :

الأول : أحكام الاسلام وتعاليمه التي نشرت العدل والإخاء والصفاء بين جميع الطبقات .

الثاني : العقوبات التي وضعها الاسلام لمن يخرج عن تعاليمه ، وخضوع جميع أهل الجزيرة لها .

وسياأتي مزيد بيان لذلك في الفصل القادم إن شاء الله .

الملاحظة الثالثة : بروز التأثير بالاسلام جلياً واضحاً في شعر من عدّه بعض الباحثين غير متأثر به ، كـ « الخنساء » مثلاً ، إذ أدرجها بعضهم في شعراء الجاهلية بدعوى أنها لم تتأثر في شعرها بالاسلام ^(١) ، وينظرة خاطفة على ديوانها يتضح تماماً تأثرها في شعرها بالاسلام لفظاً ^(٢) ومعنى ^(٣) ، في مثل قولها :

فخر الشوامخ من قتله وزلزلت الأرض زلزالها ^(٤)

وقولها :

[أبعد ابن عمرو من آل الشريد د حلت به الأرض أثقالها

(١) انظر مثلاً الأدب العربي وتاريخه ١٥١/١ ج . هيوارث دن ، مصطفى الحلي ، الطبعة الثانية ١٣٥٦هـ .

(٢) انظر في اللفظ مثلاً : ديوانها ٦٩ ، ٨٥ .

(٣) وانظر في المعنى مثلاً : ديوانها ٧٢ ، ١٠٠ .

(٤) ديوانها ٨٥ .

فأليت آسى على مالك وأسأل باكية : مالها [(١)]
وقولها :

هممت بنفسى كل الهمو م فأولى لنفسى أولى لها (٢)
فهذه الأبيات تظهر مدى تأثرها بألفاظ ومعاني القرآن الكريم في
سورة الزلزلة ، والآية ٣٤ من سورة القيامة .

الملاحظة الرابعة : المعاني الإسلامية التي طرقها « المخضرمون »
في أشعارهم ، تدلّ على مدى إلمام العرب بتعاليم الإسلام ؛ بل وألفاظ القرآن
الكريم ؛ ولنضرب لذلك مثلاً بقصيدة « الأعشى » حينما خرج إلى النبي صلى
الله عليه وسلم يريد الاسلام ، وقد أعدّ هذه القصيدة ليمدحه بها (٣) ؛ ففي هذه
القصيدة جملة من المعاني الإسلامية والألفاظ القرآنية ، لا يلمُّ بها إلا من تعمّق
في دين الاسلام ، انظر مثلاً قوله :

[إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنت لم ترصد كما كان أرصدا] (٤).

فهذان البيتان متأثران بقول الله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد
التقوى) (٥) ويقول الله تعالى : (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب
الله وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين) (٦)

(١) ديوانها ٨٣ وأثقالها : الأموات .

(٢) ديوانها ٨٣ .

(٣) انظر القصيدة والقصة في ديوانه ١٣٤ وما بعدها .

(٤) ديوانه ١٣٧ .

(٥) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٦) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الزمر .

وغير ذلك من الآيات التي في هذا المعنى .

وفي القصيدة أبيات أخر تأثر فيها بآيات القرآن الكريم وتعاليم الإسلام الحنيف (١) .

وهذا التأثر البالغ يثير العجب والتساؤل ، ويجعلنا نقف أمام رأيين :

الرأي الأول : أن هذا يدين جميع المخضرمين وأن تعاليم الإسلام انتشرت وعمت جميع أرجاء الجزيرة ، ولا نعجب إذا عرفنا أن القصيدة قيلت في وقت متأخر نسبياً ، إذ كانت بين صلح الحديبية سنة ست من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان من الهجرة (٢) ، وعليه فلا غرابة إن جاءت القصيدة محملة بكل هذه المعاني والقيم الإسلامية .

الرأي الثاني : أن الجزء الأول من القصيدة في وصف الرحلة ، متماسك قوي تظهر فيه شخصية الأعشى ، أما الجزء الثاني في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد بلغ الضعف في أبياته حد الركافة والتفاهة ، مما يلقي عليها ظلالاً من الشكوك في نحلها ، يؤيد ذلك ما روي أن الأعشى عاد من رحلته إلى الإسلام بعد أن علم بتحريمه للخمر ، فكيف يمكن أن يلم كل هذا الإلمام بتعاليمه ، ثم لا يعلم تحريمه للخمر ؟ !

لذلك فأننا أميل إلى الرأي الثاني وهو أن القصيدة قد أُدخِلَ فيها ما ليس منها .

(١) في الأبيات ١٩ - ٢٤ تأثر بالآيات ٣ من سورة المائدة و ٤١ من سورة آل عمران و ١٩ من سورة الذاريات و ١١ من سورة الحجرات و ٣٢ من سورة الإسراء و ٣٣ من سورة النور .

(٢) انظر ديوانه ١٣٤ .

٢ - في التوقف عن قول الشعر :

وهناك طائفة من الشعراء المخضرمين انصرفوا بكليتهم إلى دين الله ، وأخذوا يتلون كتاب الله تعالى ويتدبرون آياته فملك القرآن عليهم وجدانهم وأحاسيسهم ولم يدع لقول الشعر مجالاً ، يقول «الأعرج الطائي» (١) :

[تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي صلاة الصبح قاما

كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والمداما] (٢).

وممن ترك الشعر بعد إسلامه : « بشار بن عدي بن عمرو بن سويد الطائي » ، و « مالك بن عمير السلمي » الذي ترك الشعر بعد أن دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بذلك (٣) .

وأشهر هؤلاء جميعاً « لبيد بن ربيعة » رضي الله عنه ، إذ لم يقل شعراً منذ أسلم إلا قوله :

الحمد لله الذي لم يأتيني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً (٤)

(١) هو عدي بن عمرو بن سويد بن ريان ، وقيل اسمه سويد بن عدي ، الأعرج الطائي المعني ، شاعر مخضرم ، أسلم فحسن إسلامه ، انظر ترجمته في الإصابة ترجمة رقم ٣٧١٣ و ٦٤٠٩ ومعجم الشعراء ٢٥١ للمرزباني والبيان والتبيين ٢٤٦/١ ومعجم ألقاب الشعراء ٢٣ .

(٢) معجم الشعراء ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) انظر المفصل ٨٤١/٩ والإصابة ٣٥١/٣ .

(٤) ديوانه ٣٥٨ من المنسوب إليه ويروى هذا البيت لـ « قردة بن نفاعة السلولي » ، انظر ص هامش من هذا البحث ، يقول القرطبي في الجامع ١٥٣/١ في نسبته لقرادة : وهو الأصح عندي ، وكذلك رجحه صاحب الاستيعاب ٢٧٤/٣ وأقول : لعل لبيداً رضي الله عنه كان يتمثل بهذا البيت . وانظر في توقف لبيد رضي الله عن الشعر بعد إسلامه ص ٨٥٥ من هذا البحث .

وقيل : بل قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح^(١)
ولليد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصة مشهورة ، حينما كتب
عمر رضي الله عنه إلى عامله أن يسأل ليبدأ والأغلب ما أحدثا من الشعر في
الاسلام ، فقال لييد : [قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد
عمر في عطائه فبلغ به ألفين]^(٢) .

٣ - في العمل :

إذا كان بعض الشعراء المخضرمين قد توقفوا عن قول الشعر ،
وتفرغوا لعبادة الله تعالى والجهاد في سبيله لتثبيت دعائم أركان الاسلام ،
فإن كثرة كثرة من المخضرمين الذين لم يتوقفوا عن قول الشعر قد شاركوهم
في العبادة والجهاد .

ومضت جموع الشعراء المخضرمين تحمل رايات الجهاد أو : «تتدافع
إلى شرف الاشتراك فيه ، وتحولت حياتهم الجاهلية من اللهو والعبث وفقدان
الهدف والغاية إلى التسابق في طلب الشهادة وبذل النفس في سبيل مرضاة
الله عز وجل ونشر دينه .

والتمثيل لهذا كثير جداً ، ويستغرق حيزاً واسعاً من البحث ،
وسأضرب مثلاً واحداً بالشاعر المخضرم « عبدالله بن سلمة الأزدي » الذي
هب للجهاد في سبيل الله واجتاز أطراف الجزيرة إلى بلاد فارس لينال
الشهادة في سبيل الله في معركة « نخيلة » - بؤيب - ضد الفرس ، سنة
١٤هـ / ٦٣٥م^(٣) .

(١) ديوانه ٣٤٩ .

(٢) طبقات الشعراء ١/ ١٣٥ ، ١٣٦ وانظر الشعر والشعراء ١/ ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) انظر فتوح البلدان ٣١١ للبلاذري .

٤ - في العمل والشعر :

لقد رافق الجهاد في سبيل الله تعالى ، أشعار إسلامية بليغة في الحث عليه وشد أزr المجاهدين وحث الحماسة في نفوسهم ، وهو ما يسمى بـ « شعر الفتوح » وسيأتي الحديث عنه في حينه ومحلّه .

وهناك طائفة من الشعراء قعد بهم عجزهم وسنهم عن القتال ومقارعة الأبطال فأخذوا يجاهدون بألسنتهم وبأشعارهم ، فنالوا شرف الجهاد بنيتهم ، والذود عن الاسلام بألسنتهم .

٥ - في الثبات أيام الردة :

حدثت ملابسات واجتهادات خاطئة في شأن الزكاة ، بل في شأن الاسلام نفسه ، لا داعي لسردها هنا ، وإنما الذي يعنينا هو تلك الفترة الحرجة في تاريخ الاسلام التي مرّ بها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ، وهو ما يعرف بـ « حركة الردة » إذ تمردت معظم قبائل العرب وأعلنت عصيانها لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا الظرف الصعب والأجواء المشحونة برز عدد من الشعراء المخضرمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وثبتوا على إسلامهم ، وأخذوا يناصحون أقوامهم ويدعونهم إلى ترك التمرد والعصيان .

وحقاً لقد كانت الردة محك اختبارٍ لتأثر الشعراء المخضرمين بالاسلام وهم طائفة كبيرة ، أنكر منهم « خفاف بن ندبة » رضي الله عنه [قال الأصمعي : لما ارتدّ الناس أتى رجل ^(١) من بني « سليم » أبا بكر رضي الله عنه ، فقال : أعطني سلاحاً أقاتل به ، فأعطاه فقاتل به المسلمون ، فقال «خفاف» رضي الله تعالى عنه :

(١) هو : إياس بن عبدالله بن عدياليل.

[لم تأخذون سلاحه لقتاله ولذاكم عند الإله إثم]

لا دينكم ديني ولا أنا كافر حتى يزول إلى الطرأة شمام^(١)

وهذا « امرؤ القيس بن عابس بن المنذر الكندي » [وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرتد في أيام أبي بكر - رضي الله عنه - وأقام على الإسلام وكان له عناء في الردة]^(٢).

وهو القائل في أيام الردة ، معلناً ثباته على الإسلام ودعوة قومه إليه :

[ألا أبلغ أبا بكر رسولاً وخُصَّ بها جميع المسلمين]

فلست مجاوراً أبداً قبيلاً بما قال الرسول مكذبينا

دعوتُ عشيرتي للسلم حتى رأيتهم أغاروا مفسدين

فلست مبدلاً بالله رباً ولا متبدلاً بالسلم ديناً]^(٣).

وحتى نتبين مدى تأثير الإسلام في الشعراء المخضرمين ، أختتم بنكر «

سارية بن زعيم الكناني » الذي كان في الجاهلية لصاً ، فلما جاء الإسلام

أسلم وكان في فتح « فارس » أحد أمراء الجيش الإسلامي ، وشتان ما بين

لص وقائد جيش إسلامي^(٤) !!!!

(١) ديوانه ٤٦ والأصمعيات ٣١ باختلاف يسير ، والطرأة : جبل بنجد ،

وشمام : جبل لباهلة ، وانظر القصة في الطبري ٢٣٤/٣ - ٢٣٥ ، وابن

الأثير ١٤٦/٢ ، وابن كثير ٣١٩/٦ .

(٢) المؤتلف والمختلف ٩ .

(٣) ذاته ٩ .

(٤) انظر : تاريخ التراث العربي ، المجلد الثاني ٢/٢٩٠ .

القسم الثالث : الذين أظهروا الإسلام ولم يتأثروا به :

[وهناك شعراء أسلموا لكن قلوبهم بقيت على ما كانت عليه قبل الإسلام ، من عدم الاهتمام بأمور الدين ، فلم يحفلوا بالإسلام ، ولم يذكروا الرسول]^(١) صلى الله عليه وسلم .

ومنهم « أبو الطمحان القيني » [وقد ذكرته المصادر بفساد دينه وجودة شعره]^(٢) .

ومنهم « شبيل بن ورقاء » الذي أسلم إسلام سوء^(٣) .

[وكان « ضابي بن الحارث » رجلاً بذياً كثير الشر]^(٤) وقد حاول اغتيال عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأشهر من يذكر في هذا المجال ، شاعران هما : « الحطيئة » ، وسيأتي ذكره فيما يأتي من بحث ، و « ابن مقبل » وكان [جافيا في الدين ، وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، فقليل له : أتبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ؟ فقال :

ومالي لا أبكي الديار وأهلها وقد زارها زوار عك وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب فوقَّع في أعطاننا ثم طيرا]^(٥) .

(١) المفصل ٨٤٤/٩ جواد علي .

(٢) سزكين ٢٩٩/٢/٢ .

(٣) الشعر والشعراء ٤٥٢/٨ ، والاشتقاق ١٤٢ .

(٤) طبقات ابن سلام ١٧٢/٨ ، ١٧٣ وقد ذكر ابن سلام قصصاً له مشينة ، على عهد عثمان رضي الله عنه ، فسجنه ومات في السجن .

(٥) طبقات ابن سلام ١٥٠/٨ وديوانه ١٣٢ بزيادة بيت بينهما وهو :

وكائن نرى من منهل يباد أهله وعيَّد على معروفه فتنكراً

وباد أهله : يقصد أهل الجاهلية . وتنكراً : درس وانمحي ، وقطا =

فهو يذكر أهل الجاهلية ويكني عن الإسلام وما أحدثه ، ويمثل المسلمين وعمالهم وجيوشهم التي تجوب البلاد بقطا الأجباب كما تري (١) .

ومن قصيدته هذه قوله :

[ألهي على عز عزيز وظهرة

وظل شباب كنت فيه فأدبرا

ولهي على حيي حنيف كليهما

إذا الغيث أمسى كابى اللون أغبرا] (٢) .

ف « ابن مقبل » كان يعيش بروحه وفكره في الجاهلية ، ولم يتحول عنها تحولاً حقيقياً (٣) ، وهؤلاء الجفاة في الدين ، قد نجد لهم خيوطاً إسلامية في شعرهم ، في مثل قول « الحطيئة » :

[ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد نخرا وعند الله للأتقى مزيد] (٤) .

وقول « ابن مقبل » في قصته مع ابنتي « عصر العقيلي » وجفائها له وتعبيره بهرمه وعوره :

= الأجباب : يقصد بهم المسلمين ، والأجباب جمع جب وهي البئر الكثيرة الماء . وأعطانا : مبارك الابل حول المنهل .

(١) انظر أبياتاً من قصيدته هذه في طبقات ابن سلام ١٥٠/١ ، والعمدة ٢٧٤/١ مع اختلاف يسير عن ديوانه .

(٢) ديوانه ١٤٠ .

(٣) سزكين ٢٤٢/٢/٢ .

(٤) ديوانه ٣٩٣ بتحقيق نعمان طه ، مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى

١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م .

لولا الحياء ولولا الدين عبتكما . ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري^(١)
 و« سحيم عبد بني الحسحاس »^(٢) الذي قتله سيده لخبثته وتشبيبه
 بابنته ، أشعار فيها معانٍ إسلامية ، ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم
 تمثل بشيءٍ من شعره وهو قوله :

[كفى بالشيب والاسلام ناهيا

فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : إنما هو :

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

فأعادها النبي صلى الله عليه وسلم كالأول ، فقال أبو بكر - رضي الله
 عنه - أشهد إنك لرسول الله (وما علمناه الشعر وما ينبغي له)^(٣) [^(٤)] .

وممن لم يؤثر الإسلام في أشعارهم طائفة أوقفوا شعرهم وحياتهم
 على غايات وأهداف شخصية مثل العشق والخلاعة ، ولم يكن للإسلام
 وتعاليمه أثر زو بال في أشعارهم ، مثل « صخر الغي » شاعر الخلاعة
 الهذلي^(٥) ، و« عروة بن حزام » أحد شعراء عذرة الذين قتلهم العشق^(٦) .

(١) ديوانه ٧٦ .

(٢) شاعر هجاء مشبب مخضرم ، انظر ترجمته في ديوانه .

(٣) الآية ٦٩ من سورة يس .

(٤) انظر مقدمة ديوانه ص ١ والبيت بتمامه في ديوانه ١٦ هكذا :

عميرة ودّع إن تجهّزت غازيا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

وانظر معاني اسلامية أخرى في ديوانه ٤٠ ، ٤١ ، ومنحول ديوانه ٦٨ .

وانظر قصصاً أخرى له مع عمر رضي الله عنه في الأغاني ٢/٢٠ (ساسى)

وطبقات ابن سلام والشعر والشعراء ١١١/١ وغيرها . وانظر في تمثّل

النبي صلى الله عليه وسلم بالشعر وجواز ذلك منه ص ٧ من هذا البحث

(٥) انظر المفصل ٨٧٤/٩ . (٦) انظر سزكين ٢٦٩/٢/٢ .

وممن بقي على عقيدته ودينه « عامر بن الطفيل » و [كان من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم]^(١) وكان « هبيرة بن أبي وهب » شاعراً من رجال قريش المحدثين ، وكان شديد العداوة لله ولرسوله ، فأخمله الله ودحه [^(٢)] و [توفي كافراً في نجران باليمن]^(٣) .

وكذلك « هوزة بن علي الحنفي » الذي هلك عام الفتح ، وكان بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله بعض الأمر لمكانته ومهابته بين العرب^(٤) .

و « أزيق اليمامة » « موسى بن جابر الحنفي »^(٥) بقي على نصرانيته ولم يسلم^(٦) .

وكان « البرج بن مسهر الطائي »^(٧) [أحد الشعراء المعمرين في الجاهلية وصدر الإسلام ، صادق « الحصين بن الحمام » زمناً ، وقيل : إنه تنصر في الشام ، وأفرط في الشراب فمات ، وكان ابنه حسان خارجياً]^(٨) والولد سر أبيه .

(١) سزكين ٢٣٦/٢/٢ .

(٢) طبقات ابن سلام ٢٥٧/١ ودحه : أبعدده وطرده حتى صار الناس لا يبالون به .

(٣) سزكين ٣٠١/٢/٢ .

(٤) انظر المفصل ٨٦٨/٩ لجواد علي .

(٥) ختم الله على قلبه وعاش إلى سنة ٤١ هـ ولم يسلم . مضت ترجمته ص ٥٤ من هذا البحث .

(٦) سزكين ١٧٠/٢/٢ وانظر طائفة منهم في كتاب : « شعراء النصرانية في الاسلام » للويس شيخو .

(٧) تقدمت ترجمته ص ١٨٤ من هذا البحث .

(٨) سزكين ٢٠٤/٢/٢ .

وأبرز شعراء الطائفة المعادين للرسول صلى الله عليه وسلم والمناوئين للإسلام : « أمية بن أبي الصلت » (١) و « كنانة بن عبدياليل » (٢) الذي هاجر إلى الشام وهجا المسلمين من هناك .

وهؤلاء وغيرهم ممن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، كانوا يعرفون أن الاسلام هو الدين الحق وهو دين الله ، فهذا أبو « عزّة الجمحي » الذي أحسن إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أسره يوم بدر كافراً - وكان ذا عيال - فأطلقه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

[ألا أبلغا عني النبي محمداً بآنك حق والمليك حميداً
وأنت امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى عليك من الله الكريم شهيداً
وأنت امرؤ بوئت فينا مكانة لها درجات سهلة وصعود
وإنك من حاربتك لمحارب شقي ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا نكرتُ بدراً وأهلها تأوب ما بي حسرة وتعود] (٣).

فلما كان يوم « أحد » حرّض قومه على حرب المسلمين وقال :

[أيا بني عبد مناف الرّزام أنتم حماة وأبوكم حام
لا تعملوني نصركم بعد العام لا تسلموني لا يحلّ إسلام] (٤).

(١) انظر ما فصلته عنه ص من هذا البحث .

(٢) هو كنانة بن عبدياليل بن عمرو بن عمير الثقفي ، وهو غير كنانة بن عبدياليل بن سالم بن مالك الثقفي . انظر ترجمته في طبقات ابن سلام ٢٥٣/١ ، ومعجم الشعراء ٣٥٢ ، ٣٥٣ للمرزباني .

(٣) طبقات ابن سلام ٢٥٣/١ - ٢٥٤ .

(٤) جمهرة الأمثال ٣٨٧/٢ ، ٣٨٨ .

فأُسره النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : [يا رسول الله مَنْ عليّ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يُسَعُّ المؤمن من حجرٍ مرتين ، لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمداً مرتين » وقتله] (١) .

٤ - كثرة الشعراء المخضرمين :

ضمّ كتاب « معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين » (٢) [ترجمة لما يقرب من ستمائة وثمانين شاعراً أو يزيد قليلاً] (٣) .

وهذا يعني أن الشعراء المخضرمين وهم غالبية شعراء الجاهلية ، من الكثرة بمكان (٤) . بل إن منهم من عاش في الجاهلية وعصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين وشطراً كبيراً من عصر بني أمية ، فاستغرق العصور الأدبية - محل الدراسة - بل وتجاوزها .

فمثلاً : « سويد بن كراع العكلي » (٥) عاش حتى بداية العصر الأموي (٦) ، ويقال إن « الربيع بن ضبّع الفزاري » (٧) الذي ارتبط اسمه بحرب

(١) انظر جمهرة الأمثال ١٥٧/٢ للعسكري وطبقات ابن سلام ٢٥٣/١ - ٢٥٤ .

(٢) للدكتور « عفيف عبد الرحمن » ، دار العلوم ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، د . ط .

(٣) المقدمة ص ٦ .

(٤) انظر في كثرتهم مثلاً : العصر الاسلامي ٤٢ وما بعدها ، للدكتور شوقي ضيف .

(٥) ذكره « سزكين » في المخضرمين ، وذكر أنه عاش حتى بداية العصر الأموي ، بينما ذكر الزركلي أنه توفي سنة ١٠٥هـ !!! انظر الأعلام ١٤٦/٣ .

(٦) سزكين ٢٠١/٢/٢ .

(٧) كان فارساً وشاعراً ، من المعمرين ، أحكم العرب في زمانه ومن أشعرهم وأخطبهم ، انظر ترجمته في سمط اللآلي ٨٠٢ والأعلام ١٥/٣ .

«داحس» و « الغبراء » وبقصة « امريء القيس » : أدرك العصر الأموي (١) ،
وأدرك كل من « أنس بن زنيم » (٢) و « حريث بن محفظ المازني » (٣) « الحجاج
ابن يوسف الثقفي » و لـ « حريث » قصة مع الحجاج (٤) .

وكان « النابغة الجعدي » رضي الله عنه [طويل البقاء في الجاهلية
والاسلام ، وكان أكبر من « النابغة الذبياني »] (٥) وله أخبار مع « معاوية بن
أبي سفيان » وقيل : إنه أدرك « يزيد بن معاوية » (٦) وقيل : إن « مسافر بن
أبي عمرو بن أمية » (٧) عاش حتى أوائل القرن الثاني الهجري ، وقيل : إنه كان
على صلة بـ « النعمان بن المنذر » (٨) ؟!؟ .

ومن المعمرين في الجاهلية والإسلام « لبيد بن ربيعة » رضي
الله عنه ، و « عرّام بن المنذر الطائي » (٩) ، و « أمية بن حرثان بن

(١) سزكين ٢٢٦/٢/٢ والطبري ١٢٥٤/١ والأعلام ٣٩/٣ .

(٢) هو « أنس بن زنيم بن عمرو بن عبد الله الكناني الدثلي ، شاعر
مخضرم ، أسلم يوم الفتح ، وعاش إلى أيام عبيد الله بن زياد نحو سنة
٦٠ هـ . انظر مراجع ترجمته في « سزكين » ٢٩٠/٢/٢ والأعلام ٢٤/١
وخزانة الأدب ٤٧١/٦ .

(٣) شاعر مخضرم له في الجاهلية أشعار ، انظر سمط اللآلي ٣٥ والأعلام
١٧٤/٢ .

(٤) انظر هذه القصة في طبقات ابن سلام ١٩٣/١ .

(٥) طبقات ابن سلام ١٢٣/١ . (٦) سزكين ٢٣٨/٢/٢ .

(٧) شاعر مقل من سادات بني أمية وأجوادهم في الجاهلية ، انظر ترجمته
في نسب قريش ١٣٥ - ١٣٧ وسزكين ٢٨٤/٢/٢ .

(٨) سزكين ٢٨٤/٢/٢ والنعمان توفي سنة ٦٠٢ م ويذكر الزركلي في الأعلام

٢١٣/٧ أن وفاته كانت قبل الهجرة بنحو عشر سنوات !!!

(٩) انظر شعر طيء ٦٤٨/٢ وفيه أنه أدرك الجاهلية وزمن عمر بن عبد
العزیز .

الأسكر»^(١) وغيرهما .

ومن المخضرمين من كان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام مثل :
«عمرو بن شأس»^(٢) .

ولعلي قد أطلت في هذا الفصل مع أني تحرّيت - بشدّة - أن يكون
البحث مضغوطاً موجزاً ، ولكن طبيعة الدراسة تقتضي أن يُبرز الجانب المظلم
من حياة العرب في الجاهلية ليظهر في المقابل مدى التحوّل العميق في
حياتهم في نور الإسلام ، وكما يقولون : والصدّ يُبرز حسنة الضدّ ، وبضدّها
تتبيّن الأشياء .

وحقيقة فإنّ العصر الجدير بدراسة شعر « المخضرمين » هو العصر
الذي يبدأ من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى موته ، وهو « عهد
النبوة » ففي هذا العهد كانت بدايات التحوّل في حياتهم وتعمّق جذور هذا
التحوّل ، بعد أن منّ الله عليهم بأعظم وأجل منّة ، ألا وهي معاصرتهم للرسول
صلى الله عليه وسلم ؛ فداه أبي وأميّ ، فواغبطاه !!

وهناك كثير من المخضرمين تألّق نجمهم في عصر الخلافة الراشدة ،
وعصر « بني أمية » وسأدرس كلاً بما يناسبه من عصر ، وأختم هذا الفصل
بما ورد عن « مالك بن عامر الأشعري » أحد المعمرين من المخضرمين .

فقد نكروا أنّ له قصيدة منها قوله :

(١) عمّر في الجاهلية عمراً طويلاً ، وألقاه الإسلام هرماً ، وله شعر في
الجاهلية وشعر في الإسلام ، انظر ترجمته في طبقات ابن سلام ١٣٥/١ ،
١٣٦ و ١٩٠ ، ١٩٢ ، والبيان والتبيين ٧٣/٣ والأعلام ٢٢/٢ .

(٢) شاعر مخضرم ، كان ذا قدر وشرف في قومه ، شهد القاسية وله فيها
أشعار ومات بعدها بقليل ، انظر ترجمته في ديوانه .